المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى بمكة المكرمة
قسم الدعوة وأصول الدين
الدراسات العليا



منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في تقرير مسائل الاعتقاد

رسالة مقدمة للحصول على درجة الدكتوراه بقسم الدعوة وأصول الدين

إعداد الطالبة
ابتسام ناجح عبدالله آل محفوظ
٤٣٥٧٠١٣٧

إشراف الأستاذ الدكتور سالم محمد القرني
الأستاذ بقسم العقيدة
جامعة أم القرى مكة المكرمة

١٤٣٩/١٤٤٠هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقـدير

الحمد لله على إحسانه والشكر له على توفيقه وامتنانه، أحمده سبحانه حمداً يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، له الفضل كله وله الحمد كله وله الشكر كله على ما أنعم به وتفضل

أنا لم أنل ما نلت إلا بالذي فطر السماء وسخر الأسباب

لولا فتوح منه كلَت خطوتي ولأغلقت من دوني الأبواب

يطيب لي بعد أن من الله عليَ بإنجاز هذا البحث أن أزجي جزيل شكري وعظيم امتناني لأستاذي وشيخي الفاضل.. سعادة الأستاذ الدكتور / سالم بن محمد القرني لما قدمه لي من يد العون و جهد ونصح ومعرفة طيلة انجاز هذا البحث.. جعلها الله في موازين حسناته.

كما لا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى كلاً من سعادة الأستاذ الدكتور/ سعود بن عبدالعزيز العريفي ، وسعادة الأستاذ الدكتور/ عبدالعزيز بن أحمد البداح على تفضلهما بقبول مناقشة الرسالة وإثرائها وإخراجها في صورتها النهائية، والشكر موصول لكافة الأساتذة الذين درست على أيديهم وكان لي الشرف أن نهلت من علمهم.

كما لا أنسى أن أتقدم بأرقى وأثمن عبارات الشكر و العرفان إلى الصرح العلمي الفتي والجبار... جامعة أم القـرى.

والشكر موصول أيضاً لقسم الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى متمثلة بجميع أعضائها هيئة التدريس...

الباحثة /

إبتسام ناجح آل محفوظ

إهـــــــداء

أحمد الله عز وجل على منه وعونه لإتمام هذا البحث..

إلى الذي وهبني كل ما يملك حتى أحقق آمالي، إلى من كان يدفعني قدما نحو الأمام لنيل المبتغى، إلى مدرستي الأولى في الحياة، ومن كان سندي في الشدائد... زوجي الغالي أبو عبدالله ، أسأل الله لك التوفيق والسداد في حياتك العلمية والعملية وأنت في أتم الصحة والعافية.

إلى من أحمل اسمك بكل فخر

إلى من أفتقدك منذ زمــن

إلى من يرتعش قلبي لذكـرك

إلى من أودعتني لله ..أهديك هذا البحث ..... أبـي الغالي ،،، رحمك الله

إلى رمز الحب وبلسم الشفاء ، إلى من كان دعائها سر نجاحي.. والدتي الحبيبة.

إلى من هم قطعة من فؤادي ..إلى من هم سر سعادتي.. إلى من تحملوا بعدي عنهم طيلة فترة البحث أبنائي وبناتي .. أسأل الله أن ينفع بكم الإسلام والمسلمين.

إلى إخوتي وأخواتي الذين تقاسموا معي عبء الحياة...جعل الله أعماركم عامرة بطاعته.

إلى كنز الأمة وثروتها .. إلى أبناء المسلمين والمسلمات ..أسأل الله أن يجعلكم سبباً في رقي أمتكم ...

الباحثة /

إبتسام ناجح آل محفوظ

ملخص البحث:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أما بعد:

فقد كان شيخ الإسلام أحمد بن تيمية من أبرز علماء الأمة الذين حقق الله على أيديهم أصول التوحيد وإيضاحها، وقاد الشيخ منهجاً متفرداً في الدعوة إلى طريقة السلف علماً وعملاً، فهو يرى أن الخير كل الخير في الاقتداء بالنبي ﷺ واتباع سنته، والتمسك بها، والسير على هديها، وكان من الذين نشروا معتقد السلف ودافعوا عنه، وهو يعد من أكبر شُرّاح اعتقاد السلف، المستدلين لمسائله وجزئياته وتفصيلاته. فجعل رحمه الله طريقته هي طريقة السلف الصالح ،وهي: "اتباع آثار رسول الله ﷺ باطناً وظاهراً، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.. وكان منهجه -رحمه الله- في تقرير مسائل الاعتقاد هو دعم النصوص الشرعية، وتأييدها بأقوال سلف الأمة، وعلمائها المعتبرين، ويظهر هذا الأمر من إكثار ابن تيمية رحمه الله من النقل عنهم، وجعل أقوالهم حجة يستند إليها في توضيح النص وبيانه. فقد أخذ شيخ الإسلام ابن تيمية على نفسه أن لا يقول بقول إلا وهو مسبوق إليه، فلا ينفرد بقول لم يقل به أحد قبله، فضلاً عن مخالفة إجماع المسلمين في أي مسألة من المسائل. وكان شيخ الإسلام ينتهج هذا المنهج؛ ويثني على أهله، لأنه يرى أن الحق دائماً مع السنة والآثار الصحيحة، وحيث كان منهجه هو اتباع السلف في تقرير مسائل الاعتقاد، لذا تناولت في هذا البحث:" **منهج شيخ الإسلام ابن تيمة في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في تقرير مسائل الاعتقاد**" وكان من أهم الأسباب التي دفعتني للكتابة عن منهج شيخ ابن تيمية في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في تقرير مسائل الاعتقاد ما يلي:

١. لا شك أن حاجة كل إنسان إلى معرفة مسائل الاعتقاد فوق كل حاجة، وضرورة فوق كل ضرورة.
٢. إيضاح منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في تقرير مسائل الاعتقاد و الرد على ما أتهم به شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - من المخالفة لمنهج السلف الصالح، وخروجه عن إجماعهم.
٣. إن المنهج الصحيح في فهم العقيدة الإسلامية هو منهج أهل السنة والجماعة الذي سار عليه السلف الصالح وأوصوا به من بعدهم والذي تميز بالوضوح، والبعد عن صور التأويل، والتشبيه، والتعطيل، والتشويه.

سار هذا البحث على بيان كيف اتفق شيخ الإسلام وأئمة السلف على إثبات مسائل العقيدة بما جاء به الدليل من الكتاب والسنة. ففي بداية الباب الأول تكلمت عن منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في مسائل الإيمان، وفيه ثلاثة فصول. الفصل الأول (زيادة الإيمان ونقصانه ، دخول العمل في مسمى الإيمان، الاستثناء في الإيمان) وكان من أهم نتائجه: اتفاق شيخ الإسلام — رحمه الله - مع منهج السلف في أن الإيمان يشمل جانبين أحدهما اعتقادي ويشمل الإيمان بالله وملائكته وكتبه وسله... وجانب عملي ويشمل تنفيذ أوامر الله تعالى، وأنهما متلازمان يشملان عمل القلب والجوارح. وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية وارتكاب المحرمات. كما بين رحمه الله مذهب السلف في دخول العمل في مسمى الإيمان، واختار شيخ الإسلام منهج السلف الصالح مؤكدا وسطيته في مسألة الاستثناء في

الإيمان وبين قيودها التي تحدها من النصوص الشرعية الثابتة في الكتاب والسنة. اتفق شيخ الإسلام مع أئمة السلف في تعريف مرتكب الكبيرة، وأنه مؤمن ناقص الإيمان بقدر ما ارتكب من معصية، وبين غلط الخوارج والمعتزلة الذين نفوا عنه الإيمان أو المرجئة القائلين بأنه مؤمن كامل الإيمان. ثم في الفصل الثاني تكلمت عن منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في توحيد الربوبية والألوهية وكان من أهم نتائجه: لم ينكر شيخ الإسلام- رحمه الله تعالى- دور العقل في إثبات وجود الخالق، وقد اتفق مع منهج السلف وبين وسطيته في اعتماد النظر في آيات الله الكونية وحذر من جعل العقل المعيار الأساسي في إثبات وجود الله. اتفق –رحمه الله مع منهج السلف في أن الإخلاص يعني الانقياد والتصديق والخضوع الخالص لله تعالى في امتثال أوامره وتصديق خبره. وأوضح أن توحيد العبودية هو الغاية من إرسال الرسل جميعا، وبين آثار السلف في الاعتماد الأدلة الشرعية في توحيد العبادة لله، ووجوب شمول القلب على جميع أنواع العبادة. ثم التحذير من أنواع شرك العبادة وأن الله تعالى وحده هو المستحق للدعاء والاستغاثة والتوسل، وأن دعاء غيره والتوسل به في الأمور التي لا يقدر عليها المخلوقون من الشرك الأكبر. واتفق أيضا مع السلف في زيارة القبور، وما يقع بها من مخالفات شركية من توسل وتبرك ودعاء لأصحابها وبين الأدلة الشرعية في هذه المسألة وما يتعلق بها، كما أوضح طريقة السلف في زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم وأوضح المشروع فيها. كما أوضح أن السلف يصفون الله بصفات الكمال، مع نفي ما يماثلها من صفات المخلوقين، وبين أن صفات الله تعالى وأسماءه مبنية على التوقيف، ومنها صفة الكلام وأنه لا يوجد نزاع بين السلف في أن الله تعالى متكلم بحرف وصوت إذا شاء، كما يليق بجلاله. وفي الفصل الثالث تكلمت عن منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في توحيد الأسماء والصفات. وكان من أهم نتائجه: بين أن الله تعالى موصوف بصفات الكمال، مع نفي ما يماثلها من صفات المخلوقين، وأن صفاته تعالى محمولة على الحقيقة لا على المجاز، وأن صفات الله تعالى وأسمائه مبنية على التوقيف، ومنها صفة الكلام وأنه لا يوجد نزاع بين السلف في أن الله تعالى متكلم بحرف وصوت إذا شاء، كما يليق بجلاله.

وفي الباب الثاني تناولت الحديث عن منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في أركان الإيمان، وفيه ثلاثة فصول: الفصل الأول: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في أركان الإيمان الستة وكان من أهم نتائجه: واتفق مع السلف في أركان الإيمان، وبين اتفاقهم على وجوب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وأن الإيمان بكل هذه الأركان توقيفي على ما ورد من النصوص الشرعية لأنها من أمور الغيب التي لا يعلمها إلا الله تعالى. واختار شيخ الإسلام- رحمه الله تعالى- طريقة السلف في وجوب الإيمان بالقدر وأن الله تعالى خالق كل شيء وهو الذي قدر المقادير ولا شيء يحدث في ملكه بغير مراده. الفصل الثاني: ويرى ابن تيمية- رحمه الله- أن الشفاعة من الأمور التي الثابتة في الكتاب والسنة، وأنها الإيمان بها مرتبط بقاعدة السلف في توحيد الله تعالى بتصديق خبره في الأمور الغيبية. ويتفق أيضا مع لسلف في وجوب الإيمان بأهوال القيامة وأنه لا سبيل إلى العلم بها إلا بما ورد في الكتاب والسنة. الفصل الثالث: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الصحابة والخلافة والإمامة والرد على المخالفين والتمسك بالكتاب والسنة. وكان من أهم نتائجه: يصنف ابن تيمية أيضا أمور

الخلافة والإمامة وتوقير الصحابة في باب العقيدة، وهو ما استقر عليه السلف أيضا، ويعتقد شيخ الإسلام- رحمه الله- أن أمور الخلافة والإمامة من المسائل الكبرى التي تحفظ شعائر الدين، وتنظم حياة العباد، وأن الصحابة هم الذين نقلوا الدين إلى العباد وأن الوقيعة فيهم أو التنقص منهم والطعن في عدالتهم طعن في الدين وتكذيب لله ورسوله. وينقل شيخ الإسلام- رحمه الله- إجماع السلف على وجوب التمسك بكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن حاجة العباد لنور الرسالة في الدنيا أعظم من حاجتهم لنور الشمس لما فيها من هدايتهم ونجاتهم من ظلمات الآخرة.

هذا وأحمد الله – عز وجل – على ما وفقني، ويسر لي من معايشة هذا البحث طيلة زمن البحث، وأسأله بكرمه وعفوه وغفرانه أن يعفو عني إن زل بي قلم عن الحق أو شطحت بي فكرة عن الصواب إنه سميع مجيب الدعاء. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

Abstract

Ibn Taymiyyah was one of the most prominent scholars of the Ummah, who achieved the foundations of monotheism and clarified them. Her guidance, it was those who spread the predecessor belief and And defended him, which is one of the largest explanation of the belief of the predecessor, guided by his questions and its particulars and details. God's mercy made his way is the way of the righteous ancestors, namely: "follow the traces of the Messenger of Allah ρ underground and apparent, and follow the path of the first two former immigrants and supporters …
Since his approach was to follow the Salaf in the determination of matters of belief, so I dealt with in this research: "The approach of Sheikh Islam Ibn Tayma in relying on the effects of the predecessor in the report of belief issues" One of the most important reasons that led me to write about the method of Sheikh Ibn Taymiyah in relying on Implications for advances in the report of belief issues include.

There is no doubt that the need for every human being to know the issues of belief above all need, and need above all necessity.
To clarify the approach of Shaykh al-Islam Ibn Taymiyah in relying on the effects of the predecessor in determining matters of belief and responding to the accusation of Ibn Taymiyyah - may Allah have mercy on him - of violating the approach of the righteous predecessor, and his departure from their consensus.
The correct approach to understanding the Islamic faith is the approach of the Sunnis and the community, which was followed by the righteous predecessors and recommended after them, which was characterized by clarity, and away from the images of interpretation, analogy, disruption, and distortion
His method - God's mercy - in the determination of matters of belief is to support the legal texts, and supported by the words of the nation's predecessor, and scholars considered, and this shows the multiplication of Ibn Taymiyah, may God have mercy on him from transporting them, and make their words an argument based on the clarification of the text and his statement. Ibn Taymiyyah has taken on himself not to say a word, but it is preceded by him, it is not unique to say no one before him, as well as violating the consensus of Muslims in any matter.

At the beginning the main chapter spoke about The Method Ibn Taymiyah 's in dependence on effects received from the predecessor in matters of faith,
It has three sub-chapters.

The first chapter explained three things (Increase of faith and decrease of it, entering work in named of faith, Exception in faith).

In the second chapter, spoke about The Method Ibn Taymiyah 's in dependence on effects received from the predecessor in the unification of the Lord and Deity.

In the third chapter, spoke about The Method Ibn Taymiyah 's in dependence on effects received from the predecessor in Standardization of names and attributes.
Then in the second main chapter I spoke about The Method Ibn Taymiyah 's in dependence on effects received from the predecessor in the pillars of faith, it has three sub-chapters.

The first sub-chapter: The Method Ibn Taymiyah 's in dependence on effects received from the predecessor in the corners of the six faith. The second sub-chapter: The Method Ibn Taymiyah 's in dependence on effects received from the predecessor in the door of faith in the tomb and resurrection and what related to it. The third sub-chapter: The Method Ibn Taymiyah 's in dependence on effects received from the predecessor in companions and succession and Imamah and respond to violators and adherence to the Book and Sunnah.
Thanks and praise to Almighty Allah for what I have done and facilitate foe me fallowing-up this research all along its period and I pray for his generosity and mercy to forgive me for any registry err on the right or unintentional wrong idea, as he listens and responds to our pray. And our last speech is thanks and praise to Allah.

المقدمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبفضله ورحمته تغفر الذنوب والزلات، وبمنه وكرمه ترفع الدرجات. وأصلي وأسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وزوجاته الطاهرات، والتابعين ومن تبعهم واقتفى أثرهم إلى يوم تبعث البريات. أما بعد:

فإن البحث في أمور العقيدة عند السلف الصالح من أشرف العلوم وأجلها، فبها يعرف طالب العلم ربه، كما عرفه الصحابة والتابعون، فعبدوه حق عبادته وكانت حياقم وأعمالهم نورا يهتدي به الساري في جنح الظلام.

وأهل السنة والجماعة يتلقون العقيدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وإجماع السلف الصالح ويتبعون آثار السلف؛ لما للاعتماد على آثار السلف من أهمية، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾١ وورد في حديث ابن مسعود: "خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"٢، لذلك كانت معرفة أقوالهم في العلم والدين وأعمالهم خيراً وأنفع من معرفة أقوال غيرهم وأعمالهم في جميع علوم الدين وأعماله، فإنهم أفضل ممن بعدهم كما دل عليه الكتاب والسنة ، فالاقتداء بهم خير من الاقتداء بمن بعدهم، ومعرفة إجماعهم، ونزاعهم في العلم والدين خير وأنفع من معرفة ما يذكر من إجماع غيرهم ونزاعهم.٣

يقول شيخ الإسلام: "فيأخذ المسلمون جميع دينهم من الاعتقادات والعبادات، وغير ذلك من كتاب الله وسنة رسوله وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها".٤

وقد نشأت ناشئة بعد القرون الأولى الفاضلة ابتعدوا عن منهاج النبوة، ومشكاة الرسالة، وزاد ابتعادهم رويدا رويدا حتى بات المتمسكون بدينهم غرباء في بلاد الإسلام، وصار القابض على دينه كالقابض على الجمر، ولكن شاء الله تعالى أن يجعل في كل زمن من يحملون منهج النبوة، ويرفعون علم الرسالة ،يبلغونها كما نزلت على نبينا صلى الله عليه وسلم، ينفون عنها تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، تحت راية أهل السنة والجماعة في كل زمان. وكان منهم شيخ الإسلام ابن تيمية.

١) سورة النساء، آية: ٥٩.

٢) أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب لا يشهد جور إذا أشهد، (٢٥٠٨)، واللفظ له، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، (٢٥٣٥).

٣) أنظر: مجموع الفتاوى، ٢٤/١٣.

٤) المرجع السابق ، ٤٩٠/١١.

فقد كان شيخ الإسلام - رحمه الله - من أبرز علماء الأمة الذين حقق الله على أيديهم أصول التوحيد وإيضاحها، وشرح ما أبهم من علومها، ورد على من خالف الحق وتجنب طريق الصواب، وقاد الشيخ منهجاً متفرداً في الدعوة إلى طريقة السلف الصالح علماً وعملاً. و أن الخير كل الخير في الاقتداء بالنبي ﷺ واتباع سنته، والتمسك بها، والسير على هديها، فقد نال السادة الأولون "بالإتباع"؛ المكانة العالية والخيرية المطلقة، فأصبح التأسي بهم دليل السعادة والفلاح، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: "إنا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع، ولن نضل ما تمسكنا بالأثر"[١]

وقد عاش شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- زمنا تكالبت فيه الأمم على أمة الإسلام، وابتعد الناس عن دينهم، وانتشرت البدع التي اتخذها بعض ولاة الأمر مذهباً رسمياً يقف وراءه جنوده، فوقف الشيخ صابراً محتسباً على جميع حالات الابتلاء التي واجهها، ومنها السجن. مدافعاً عن عقيدة أهل السنة والجماعة، وكان أمينا صادقا مع نفسه، فترك تراثا زكيا، ومنهجاً علمياً، جعل من أتى من بعده عيالا عليه.

غير أن أهل الزيغ والضلال ما لبثوا إلا وأثاروا الشبهات حول شيخ الإسلام- رحمه الله- وأنه اخترع مذهبا جديدا من عنده، وابتعد عن منهج السلف الصالح.

والحقيقة، فإن البحث الذي بين أيدينا الآن، بذلت فيه من الجهد والعناء الكثير، أقلب بين كتب وآثار السلف، أتلمس فيها الطريق الذي اتبعه شيخ الإسلام، ليصل إلى ما وصل إليه من مكانة عالية ومنزلة رفيعة، فلم أجد منه إلا السير على طريق السلف ومنهجهم، متتبعًا آثار النبوة ونور الرسالة.

ولقد حرص شيخ الإسلام- رحمه الله- ألا يبتدع شيئا يخالف فيه كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فكان يأتي على ما نُسي من السنة، ليعيد إليه الحياة، ويميط الشوائب عما حرفه المحرفون وأوله المبطلون ونسبوه إلى السلف، شارحا وموضحا، ومعلما لمن أتى بعده كي يسيروا على خطى الأولين.

وكان منهج شيخ الإسلام في تقرير مسائل الاعتقاد هو دعم النصوص الشرعية، وتأييدها بأقوال سلف الأمة، وعلمائها المعتبرين، ويظهر هذا الأمر من إكثار ابن تيمية رحمه الله من النقل عنهم، وجعل أقوالهم حجة يستند إليها في توضيح النص وبيانه، فقد أخذ شيخ الإسلام ابن تيمية على نفسه أن لا يقول بقول إلا وهو مسبوق إليه، فلا ينفرد بقول لم يقل به أحد قبله، فضلاً عن مخالفة إجماع المسلمين في أي مسألة من المسائل، فقال: إن المجيب - ولله الحمد - لم يقل قط في مسألة إلا بقول سبقه إليه العلماء، فإن كان قد يخطر له ويتوجه له فلا يقوله وينصره إلا إذا عرف أنه قد قاله بعض

١) شرح أصول الاعتقاد اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (ص: ١٠٥، ١٠٦).

العلماء.. فمن كان يسلك هذا المسلك كيف يقول قولاً يخرق به إجماع المسلمين، وهو لا يقول إلا ما سبقه إليه علماء المسلمين".١

وأثنى شيخ الإسلام على كلام السلف، وموافقته النصوص، فقال: "ومن تدبر كلام أئمة السنة المشاهير في هذا الباب علم أنهم كانوا أدق الناس نظراً، وأعلم الناس في هذا الباب بصحيح المنقول، وصريح المعقول، وأن أقوالهم هي الموافقة للمنصوص والمعقول، ولهذا تأتلف ولا تختلف، وتتوافق ولا تتناقض، والذين خالفوهم لم يفهموا حقيقة أقوال السلف والأئمة، فلم يعرفوا حقيقة المنصوص والمعقول، فتشعبت بهم الطرق، وصاروا مختلفين في الكتاب، مخالفين للكتاب".٢

وحيث كان منهجه هو اتباع السلف في تقرير مسائل الاعتقاد، لذا عزمت البحث في:

" منهج شيخ الإسلام ابن تيمة هو الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في تقرير مسائل الاعتقاد"

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

١. لا شك أن حاجة كل إنسان إلى معرفة مسائل الاعتقاد فوق كل حاجة، وضرورة فوق كل ضرورة، لأن في ذلك سعادة الدنيا والآخرة، فللعقيدة أهمية كبيرة في الدين، فالإسلام عقيدةٌ وعملٌ، ولا يَصِح عملٌ بلا اعتقادٍ، ولا ينفع عمل بلا عقيدة صحيحة، فعندما بعَث النبي ﷺ معاذًا إلى أهل اليمن، قال له: ((فليَكن أوَّل ما تدعوهم إليه أن يُوحدوا الله تعالى، فإذا عرَفوا ذلك، فأخْبِرهم أن الله فرَض عليهم خمس صلوات)).٣

٢. منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في تقرير مسائل الاعتقاد يخط النهج الصحيح لمناهج البحث الإسلامي في باب المنقول والمعقول، لأنه يعتمد أول ما يعتمد على الكتاب والسنة والفطرة وأقوال السلف الصالح، ثم المعقول النابع منهما والمعتمد عليهما.

٣. إن المنهج الصحيح في فهم العقيدة الإسلامية هو منهج أهل السنة والجماعة الذي سار عليه السلف الصالح وأوصوا به من بعدهم والذي تميز بالوضوح، والبعد عن صور التأويل، والتشبيه،

١) ابن تيمية، الرد على الأخنائي قاضي المالكية لابن تيمية، تحقيق: الداني بن منير، بيروت: المكتبة العصرية، ص٢٠٦، ١٤٢٣هـ.

٢) درء تعارض العقل والنقل، ٣٠١/٢.

٣) أخرجه البخاري في صحيحه، رقم (٧٣٧٢)، والترمذي في سننه، رقم (٢٩٠١).

والتعطيل، والتشويه، وهذا المنهج هو الذي يجب السير عليه والعمل بمقتضاه في كل زمان ومكان، لمن أراد أن يسلك سبيل النجاة والفلاح.

٤. رغبتي في إبراز هذا الجانب لمنهج شيخ الإسلام، لأن إبرازه إبراز لعقيدة السلف الصالح.

٥. إن هذا العمل إيضاح لمنهج السلف الصالح في أبواب الاعتقاد، وتقرير لطريقتهم في عرض المسائل العقدية والاستدلال لها وجمع لأقوالهم.

٦. هذا العمل فيه الردُ على ما أُتهم به شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – من المخالفة لمنهج السلف الصالح، وخروجه عن إجماعهم.

وهذه هي الأسباب التي دفعتني للكتابة عن منهج شيخ ابن تيمية في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في تقرير مسائل الاعتقاد.

الدراسات السابقة:

لم تعثر الباحثة على دراسات مباشرة لموضوع "منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في تقرير مسائل الاعتقاد"، إلا أنني حصلت على بعض تلك الكتب والدراسات تناولت بعضاً من مواضيع هذا البحث ومن ذلك:

١. د. أحمد بن عبد الله الغنيمان، وهي رسالة دكتوراه بعنوان: جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح توحيد العبادة، وفيه تناول كاتبه توحيد العبادة، وبيان الشرك المنافي لتوحيد العبادة، وحماية التوحيد من وسائل الشرك، وتناول بيان أن توحيد العبادة: هو مدار الخصومة بين الرسل وبين أقوامهم، وبيان امتداد حاجة العباد إلى توحيد العبادة، والخطأ عند المتكلمين وغيرهم في فهم التوحيد. وتناول في الباب الأول: توحيد العبادة وقسمه إلى ثلاثة فصول، التوحيد (الألوهية والربوبية)، وفي الفصل الثاني تناول تحقيق التوحيد وتحقيق العبادة وتخليصها من البدع، ودواعي وأسباب تحقيق التوحيد، وبيان لقوادح تحقيق التوحيد، وبيانه لفضل تحقيق التوحيد والآثار المترتبة عليه، وتناول توحيد العبادة، وفي الباب الثاني تناول بيانه للشرك المنافي لتوحيد العبادة وذلك من خلال فصلين الفصل الأول في الشرك، والفصل الثاني: بيانه لأقسام الشرك المنافية للتوحيد، ثم تناول حماية التوحيد من وسائل الشرك.

وتتفق هذه الدراسة مع الدراسة الحالية في بيان جهود شيخ الإسلام في العقيدة، وتختلف الدراسة الحالية عنها في تناولها لجانب اعتماد شيخ الإسلام على الآثار الواردة عن السلف في تقرير مسائل الاعتقاد.

٢. دراسة جمال بن أحمد بن بشير بادي، وهي رسالة دكتوراه، (١٤١٤هـ) في الآثار الواردة عن أئمة السنة في أبواب الاعتقاد من كتاب سير أعلام النبلاء للإمام الذهبي، وقد تناول الباحث فيها الآثار الواردة عن أئمة السنة في التمسك بالكتاب والسنة، والآثار الواردة عن أئمة السنة في توحيد الألوهية، و الآثار الواردة عن أئمة السنة في توحيد الأسماء والصفات، والآثار الواردة عن أئمة السنة في أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق، والآثار الواردة عن أئمة السنة في الإيمان، والآثار الواردة عن أئمة السنة في القدر، والآثار الواردة عن أئمة السنة في فضائل الصحابة رضوان الله

عليهم أجمعين، والآثار الواردة عن أئمة السنة في ذم علم الكلام والجدل، و الآثار الواردة عن أئمة السنة في ذم البدع وأهلها.

وتتفق هذه الدراسة مع الدراسة الحالية في تناولها للآثار الواردة عن أئمة السلف في أبواب الاعتقاد، وتختلف الدراسة الحالية عنها في عدم ذكر اعتماد شيخ الإسلام على الآثار الواردة عن السلف في تقرير مسائل الاعتقاد.

٣. دراسة أسعد بن فتحي الزعتري (١٤٣٠هـــ)، وهي رسالة ماجستير، بعنوان الآثار الواردة عن السلف في العقيدة من خلال كتب المسائل المروية عن الإمام أحمد جمعاً ودراسة، فالباب الأول: الآثار الواردة عن السلف في التوحيد، والقدر، ومباحث الإيمان، والباب الثاني: الآثار الواردة عن السلف في الصحابة، والخلافة والإمامة، وفي الاتباع، وفيه خمسة فصول، ثم تناول الآثار الواردة عن السلف في الأمور المتعلقة باليوم الآخر، وفيه سبعة مباحث، ثم تناول الآثار الواردة عن السلف في مسائل أخرى متنوعة وفيه ستة مباحث. وتختلف الدراسة الحالية عنها في عدم ذكر اعتماد شيخ الإسلام على الآثار الواردة عن السلف في تقرير مسائل الاعتقاد.

٤. دراسة توفيق طاس (١٤٢١هـــ) بعنوان: الآثار المروية عن أئمة السلف في العقيدة في كتاب "تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر" ـــ جمعاً وتحقيقاً ودراسة، اشتمل البحث على مقدمة وباب تمهيدي وثلاث أبواب رئيسة تضمنت المقدمة أسباب اختيار الموضوع وأهميته ومنهجه في البحث، وفي التمهيد التعريف بابن عساكر وكتابه تاريخ دمشق، واستعرض فيه جوانب من حياة ابن عساكر الشخصية والعلمية كما عرّف بكتابه وبين موضوعه ومنهجه ومصادره وقيمته العلمية. والباب الأول: في الآثار الواردة عن السلف في مسائل الإيمان، وفيه حقيقة الإيمان وآثار السلف في مسائل التوحيد بأقسامه الثلاثة، وآثار السلف في القدر، والباب الثاني: في الآثار الواردة عن السلف في الصحابة والخلافة والإمامة، والباب الثالث: في الآثار الواردة عن السلف في الاتباع.

٥. دراسة ناصر علي خليفة محمد (١٤٢١هـــ) بعنوان الآثار المروية عن الصحابة في التمسّك بالسنة والتحذير من البدع وأهلها ـــ جمعاً وتوثيقاً ودراسة ـــ قسم البحث إلى مقدمة وتمهيد ومدخل وثلاثة فصول وخلاصة، وتكلم في المدخل عن التمسك بالسنة، وتحريم مخالفتها، وفضل الصحابة والحث على متابعتهم، وتناول الفصل الأول: الآثار المعروفة عن الصحابة في التمسك بالسنة والنهي

عن مخالفتها، والفصل الثاني: الآثار المروية عن الصحابة في التحذير من البدع وأهلها، والفصل الثالث: الآثار المروية عن الصحابة في ذم فرق المبتدعة التي ظهرت في عهدهم.

٦. دراسة أبو بكر محمد ثاني (١٤٢١هـ) بعنوان: الآثار الواردة عن أئمة السلف في توحيد الأسماء والصفات في تفسير ابن جرير الطبري ـــ جمعاً ودراسة، واشتمل البحث على مقدمة وباب تمهيدي وبابين رئيسين تضمنت المقدمة أهمية الموضوع وسبب اختياره ومنهج البحث، أما الباب التمهيدي فيشتمل على التعريف ببعض المصطلحات وهي: السلف، والتوحيد وأقسامه وبيان منهج السلف في توحيد الأسماء والصفات وجوب الأخذ بمذهب السلف في ذلك، ثم دراسة عن الطبري وتفسيره ومنهجه فيه. أما الباب الثاني: فيشتمل على الآثار الواردة عن السلف في أسماء الله الحسنى وما يتعلق بها مع دراستها والتعليق عليها. والباب الثالث: فيه الآثار الواردة عن السلف في صفات الله عز وجل وتمهيد عن المراد بالصفات الذاتية والفعلية. وتختلف الدراسة الحالية عنها في عدم ذكر اعتماد شيخ الإسلام على الآثار الواردة عن السلف في تقرير مسائل الاعتقاد.

خطة البحث:

أما عن الخطة التي أسير عليها – بإذن الله تعالى – في كتابة هذا البحث، فهي كالآتي:

مقدمة، وباب تمهيدي، وبابان رئيسيان، ثم الخاتمة وأهم النتائج والتوصيات.

أما المقدمـــــــة فتشتمل على " منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في تقرير مسائل الاعتقاد"، مضمّنة ذلك أهمية الموضوع، ثم الأسباب التي دفعتني لاختياره، ومنهجي الذي سرت عليه في كتابة البحث، وخطة البحث.

أما التمهيـــــــد، أتناول فيه:

التمهيد

التعريف بالمصطلحات، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المراد بالسلف الصالح وفضلهم، واتباع منهجهم في اثبات العقائد.

المبحث الثاني: تعريف الأثر – تعريف العقيدة.

المبحث الثالث: ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية وبيان موقفه من الآثار الواردة عن السلف.

أما أبوابه الرئيسية فكانت على النحو التالي:

الباب الأول

منهج شيخ الإسلام في مسائل الإيمان والتوحيد، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في مسائل الإيمان. وفيه أربعه مباحث:

المبحث الأول: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في زيادة الإيمان ونقصانه، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الايمان عند شيخ الإسلام لغة واصطلاح.

المطلب الثاني: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في زيادة الإيمان ونقصانه.

المطلب الثالث: أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية في زيادة الإيمان ونقصانه.

المبحث الثاني: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في دخول العمل في مسمى الإيمان، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: شرح دخول العمل في مسمى الإيمان.

المطلب الثاني: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في دخول العمل في مسمى الإيمان.

المطلب الثالث: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في دخول العمل في مسمى الإيمان.

المبحث الثالث: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الاستثناء في الإيمان، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الاستثناء في الإيمان.

المطلب الثاني: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الاستثناء في الإيمان.

المطلب الثالث: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الاستثناء في الإيمان.

المبحث الرابع: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في حكم مرتكب الكبيرة، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم ارتكاب الكبيرة.

المطلب الثاني: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في حكم مرتكب الكبيرة.

المطلب الثالث: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في حكم مرتكب الكبيرة.

الفصل الثاني

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في توحيد الربوبية والألوهية وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بوجود الله تعالى، وفيه مطلب:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بوجود الله تعالى.

المبحث الثاني: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في كلمة الإخلاص وشروطها، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في كلمة الإخلاص وشروطها.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في كلمة الإخلاص وشروطها.

المبحث الثالث: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في أنواع العبادة، وفيه عدة مطالب:

المطلب الأول: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الخوف من الله تعالى.

المطلب الثاني: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في حسن الظن بالله تعالى.

المطلب الثالث: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في التوكل على الله تعالى.

المطلب الرابع: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في المحبة لله تعالى.

المطلب الخامس: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الرجاء في الله تعالى.

المطلب السادس: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الدعاء لغير الله تعالى.

المطلب السابع: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في التوسل لله تعالى.

المطلب الثامن: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في النذر لغير الله.

المطلب التاسع: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الرياء.

المبحث الرابع: محاكاة شيخ الإسلام ابن تيمية للأئمة السلف فيما ينافي كمال التوحيد في الأقوال والأفعال، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في مباحث العقيدة المتعلقة بشد الرحال لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، والأنبياء، والصحابة.

المطلب الثاني: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في تقرير مسائل الاعتقاد المتعلقة بزيارة الرجال والنساء للقبور.

المطلب الثالث: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في تقرير مسائل الاعتقاد المتعلقة بتعظيم القبور والتوسل بأصحابها والتبرك بهم.

الفصل الثالث

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في توحيد الأسماء والصفات، وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الصفات الذاتية لله تعالى، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الصفات الذاتية لله تعالى.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الصفات الذاتية لله تعالى.

المبحث الثاني: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في صفة العلو والاستواء وما يتعلق بهما، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في صفة العلو والاستواء.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في صفة العلو والاستواء.

المبحث الثالث: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في صفة الكلام لله تعالى، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في صفة الكلام لله تعالى.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في صفة الكلام لله تعالى.

المبحث الرابع: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في رؤية ربنا تبارك وتعالى، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في رؤية ربنا تبارك وتعالى.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في رؤية ربنا تبارك وتعالى.

المبحث الخامس: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الصفات الاختيارية، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الصفات الاختيارية لله تعالى.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الصفات الاختيارية لله تعالى.

الباب الثاني

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في مسائل الإيمان، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في أركان الإيمان الستة، وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بالملائكة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بالملائكة.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بالملائكة.

المبحث الثاني: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بالكتب المترلة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بالكتب المترلة.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بالكتب المترلة.

المبحث الثالث: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بالأنبياء، وفيه مطلبان:

المبحث الثالث: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بأهوال يوم القيامة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بأهوال يوم القيامة.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بأهوال يوم القيامة.

الفصل الثالث: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الصحابة والخلافة والإمامة والرد على المخالفين والتمسك بالكتاب والسنة، وفيه مبحثان:

المبحث الأول: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الصحابة والخلافة والإمامة والرد على المخالفين، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الصحابة والخلافة والإمامة والرد على المخالفين.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الصحابة والخلافة والإمامة والرد على المخالفين.

المبحث الثاني: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في التمسك بالكتاب والسنة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في التمسك بالكتاب والسنة.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في التمسك بالكتاب والسنة.

منهج البحث: ألتزمت بالقواعد المتبعة في البحث العلمي.

- جمعت المادة العلمية من مصادرها الأصلية من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية ومن كتب السلف.
- حرصت على النقل الحرفي لأقوال شيخ الإسلام وكذلك أراء المخالف وعدم التصرف فيه إلا بالاختصار نادراً، وذلك لتوثيق المادة العلمية، وتوضيح للمسائل التي يذكرها شيخ الإسلام.
- سلكت المنهج الاستقرائي في تتبع أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من كتبه.
- في كل فصل بدأت بذكر أقوال السلف في المسألة وأثني بكلام شيخ الإسلام ابن تيمية في

المسألة نفسها وأثبت موافقة كلامه لكلامهم.

- حرصت على عدم تكرار النص ما أمكن، إلا في مواضع قليلة، وذلك لكون النص يخدم أكثر من فكرة وعنصر في البحث.

- ذيلت الرسالة بفهارس تفصيلية، مرتبة على حروف المعجم، وهي :

  - فهرس الآيات القرآنية.
  - فهرس الأحاديث النبوية.
  - فهرس الأعلام المترجم لهم.
  - فهرس الأماكن والبلدان.
  - فهرس مراجع البحث.
  - فهرس محتويات الرسالة.
  - الخاتمة وأهم النتائج والتوصيات.

فهرس الموضوعات

التمهيد:

التعريف بالمصطلحات:

المبحث الأول: المراد بالسلف الصالح واتباع منهجهم في اثبات العقائد.

المبحث الثاني: تعريف الأثر- تعريف العقيدة.

المبحث الثالث: ترجمة موجزة لشيخ الإسلام ابن تيمية وبيان موقفه من الآثار الواردة عن السلف.

المبحث الأول:

المراد بالسلف الصالح واتباع منهجهم في اثبات العقائد. وفيه مطالبان :

المطلب الأول: تعريف السلف لغةً واصطلاحاً.

المطلب الثاني: فضل السلف ووجوب اتباعهم.

المطلب الثالث: حقيقة فهم السلف ومنهج شيخ الإسلام في الاعتماد على آثارهم.

المطلب الأول

تعريف السلف الصالح لغةً واصطلاحاً.

أولا: معنى السلف في اللغة:

يدل معنى السلف في اللغة على السبق والتقدم، وأن السلف من الجماعة، هم القوم الذين مضوا وتقدموا في الزمن وفي الفضل والعلم .

قال الجوهري: القومُ السُلَّفُ: المتقدّمون. وسَلَفُ الرجل: آباؤه المتقدّمون، والجمع أَسْلافٌ وسُلَّفٌ.١

وفي لسان العرب: والسَّالِفُ: المتقدمُ. والسَّلَفُ والسَّلِيفُ والسُّلْفَةُ: الجماعَةُ الْمتَقَدِّمُونَ. وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْآخِرِينَ﴾[الزخرف :٥٦] ، قال البغوي في تفسير هذه الآية: "والسلف من تقدم من الآباء، فجعلناهم متقدمين ليتعظ بهم الآخرون"٢

و قال ابن كثير: أي: قوما سابقين من جاء بعدهم، وقيل: عظة وعبرة لمن يأتي بعدهم.٣

وللسلف معنيان آخران **أحدهما:** أن كل شيء قدمه العبد من عمل صالح أو ولد فرط يقدمه، فهو له سلف، وقد سلف له عمل صالح.

والثاني: من تقدمك من آبائك وذوي قرابتك الذين هم فوقك في السن والفضل، ومنه قول طفيل الغنوي يرثي قومه:

مضوا سلفا قصد السبيل عليهم   وصرف المنايا بالرجال تقلب٤ .

قال ابن فارس في المعنى اللغوي: (سلف) السين واللام والفاء أصل يدل على تقدم وسبق، من ذلك السلف الذين مضوا، والقوم السلاف: المتقدمون"٥

قال القاضي عياض :"والسلف: كل عمل صالح تقدم للعبد، ومنه قوله في الدعاء للطفل: "اجعله لنا فرطا وسلفا "٦ أي خيرا متقدما نجده في الآخرة، والسلف أيضا: من تقدمك من آبائك وقرابتك"٧

وقال ابن الأثير: " وقيل سلف الإنسان من تقدمه بالموت من آبائه وذوى قرابته، ولهذا سمي الصدر الأول من التابعين السلف الصالح "٨

---

١) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، مادة سلف، ص ١٣٧٦.

٢) معالم التنزيل، البغوي، ١٤٢/٤.

٣) انظر: تفسير ابن كثير، ١٣١/٤، وانظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي، ٦٥٤/٦.

٤) لسان العرب لابن منظور ١٥٨/٩.

٥) ديوان طفيل ١٧/١ ، معجم مقاييس اللغة، لابن فارس،١٣/ ٩٥

٦) أخرجه البغوي في شرح السنة، البغوي (٣٥٧/٥)، وعبدالرزاق برقم (٦٥٨٨)، وعلقه صحيح البخاري، في كتاب الجنائز، باب قراءة فاتحة الكتاب على الجنازة، برقم: (٦٥) (١١٣/٢).

٧) مشارق الأنوار، القاضي عياض ٢١٩/٢.

٨) النهاية في غريب الحديث والأثر، ٢/ ٣٩٠.

ومن خلال التعاريف السابقة يتضح أن المعنى اللغوي لكلمة السلف يدل على التقدم والسبق سواء في الزمن أو الفضل والعلم بالحق . كما ورد أيضا في بعض آيات القرآن الكريم حول السبق في العذاب وغير ذلك.

وقد استعملت كلمة السلف" في القرآن للدلالة على نفس المعنى، قال تعالى:﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ {البقرة:٢٧٥} أي: من بلغه نهي الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع إليه، فله ما سلف من المعاملة وله العفو والتجاوز: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ﴾ {المائدة:٩٥} قال ابن كثير في تفسير الآية " قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة : " وكل ربا في الجاهلية موضوع تحت قدمي هاتين ، وأول ربا أضع ربا العباس ١ " و لم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة في حال الجاهلية ، بل عفا عما سلف٢، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ {النساء:٢٢} ، أي فإنكم إن فعلتم تعاقبون وتؤاخذون إلا ما قد سلف٣.وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴾ {الزخرف:٥٥، ٥٦}، أي: جعلناهم (سلفا) متقدمين لمن عمل بعملهم، وذلك ليعتبر بهم من بعدهم، وليتعظ بهم الآخرون، والسلف المتقدم، يقال: سلف يسلف سلفا؛ مثل طلب طلبا، أي: تقدم ومضى. وسلف له عمل صالح أي: تقدم. والقوم السلاف المتقدمون. وسلف الرجل: آباؤه المتقدمون، والجمع أسلاف وسلاف ٤.

كما استعملت كلمة "سلف" في السنة للدلالة على نفس المعنى السابق.

ومن ذلك: قول النبي ﷺ لابنته فاطمة: (وإني لا أرى الأجل إلا قد اقترب فاتقي الله واصبري فإنه نعم "السلف" أنا لك) ٥ ، وقوله ﷺ لحكيم بن حزام ﷺ: (أسلمت على ما سلف من خير) ٦ أي: على ما قدمت من خير. ٧

---

١) أخرجه الإمام أحمد بنحوه في المسند ٥/ ٧٢، وقال شعيب الأرناؤط : " صحيح لغيرة"، وابن خزيمة في صحيحة بلفظ آخر ٢٥١/٤، وابن حبان في صحيحة ٢٥٣/٩، وقال شعيب الأرناؤط : إسنادة صحيح على شرط مسلم ،وروى الحديث صحيح مسلم، عن أبي بكر ابن أبي شيبة في كتاب الحج ، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، برقم: (١٢١٨).

٢) انظر: تفسير ابن كثير ٥٣/٤٢.

٣) تفسير القرطبي١٠٢/١٦.

٤) المرجع السابق، ١٠٢/١٦.

٥) أخرجه مسلم، في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل فاطمة بنت النبي ﷺ ، برقم (٢٤٥٠) ، وبنحوه البخاري، في كتاب الاستئذان ، باب من ناجى بين يرى الناس ومن لم يخبر بسر صاحبه فإذا مات أخبر به، برقم (٥٩٢٨).

٦) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان حكم عمل الكافر إذا أسلم بعده ، برقم (١٢٣)، وأخرجه البخاري، في "كتاب الزكاة"، باب من تصدق في الشرك ثم أسلم، حديث (١٤٣٦).

٧) شرح مسلم للنووي ٢/ ٣٢٠.

ومنه الدعاء لأهل القبور: (أنتم سلفنا ونحن بالأثر) [1] سلفنا: أي المتقدمون.

وخلاصة التعريف اللغوي أن لفظ السلف له معنيان: الأول: السبق والتقدم الزماني ويشترك فيه كل من تقدم من المؤمنين والكافرين. والثاني: السبق والتقدم في الفضل والمكانة والخير، ومثله: (سبقك بها عكاشة..)[2].

ثانيا: السلف في الاصطلاح:

يمكن تحديد مصطلح السلف بعاملين أساسيين، هما العامل الاعتقادي أو المنهجي، والعامل الزمني.

العامل الاعتقادي أو المنهجي:

هو أساس قيام مصطلح السلف، فهو وصف لازم لما كان عليه الصحابة والتابعون ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وهو انتساب إلى مذهب سديد، وليس إلى ابتداع جديد، فهو يطلق جملة على من حافظ على سلامة العقيدة، وتنفيذ أوامر الله واجتناب نواهيه. فهو ما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته رضوان الله عليهم والتابعون وتابعوهم قبل افتراق الأمة واختلافها، ويدور اصطلاح السلف قديما وحديثا حول هذه المعاني.

ففي اصطلاح علماء العقيدة يطلق مصطلح السلف على الصحابة ﷺ والتابعين لهم بإحسان وتابعيهم، وأئمة الإسلام العدول، ممن اتفقت الأمة على إمامتهم وعظم شأنهم في الدين، وتلقى المسلمون كلامهم خلفا عن سلف بالقبول، دون من رمي ببدعة، أو لقب غير مرضي؛ كالخوارج، والرافضة، والناصبة، والقدرية، والمرجئة، والأشعرية، والمعتزلة، والجهمية، ونحوهم.. ومذهب السلف هو طريقهم في الاعتقاد المنسوب إليهم [3]، ولهذا سمي الصدر الأول بالسلف الصالح.

قال الإمام الآجري رحمه الله: "واسلكوا طريق من سلف من أئمتكم يستقم لكم الأمر الرشيد، وتكونوا على المحجة الواضحة إن شاء الله تعالى"[4].

وعلى ذلك يتضح أن المراد بالسلف الصالح، ما كان عليه الصحابة والتابعون وتابعوهم بإحسان إلى يوم الدين من القرون المفضلة؛ من الأئمة الأعلام المشهود لهم بالإمامة والفضل واتباع السنة والإمامة فيها، واجتناب البدعة والحذر منها، وممن اتفقت الأمة على إمامتهم وعظيم شأنهم في الدين، ولهذا سمي الصدر الأول بالسلف الصالح الذين يكون اعتقادهم مبنيا على تصديق خبر الله عز وجل وتنفيذ أمره ونهيه، وهذا أكمل الطرق وأتمها، لأنهم لا يرون الحق إلا فيما أنزل الله، ومن ثم فإن من تحقق فيه هذا العامل فهو سلفي بالمعنى الاصطلاحي حتى وإن لم يدرك القرون الأولى. وبالتالي فيمكن اعتبار أن السلف هم الصحابة والتابعون وتابعوهم ومن كانوا في القرون الثلاثة الفاضلة، أما السلفي فهو الذي يتبع منهجهم وإن كان متأخرا عنهم، ويمكن توضيح ذلك في عاملين هما:

---

١) رواه الترمذي في سننه ، كتاب الجنائز، باب ما يقول الرجل إذا دخل المقابر، برقم (١٠٥٣) ،وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير ١٢/ ١٠٧.

٢) أخرجه البخاري في صحيحة ، كتاب الرقاق ، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب ٤١٤/١، برقم (٩٧٧١)، وبنحوه لمسلم، في كتاب الإيمان، باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب ولا عذاب ٤٤٦/٣، برقم (٢١٦).

٣) انظر: لوامع الأنوار للسفاريني ٢٠/١، والأسئلة والأجوبة الأصولية لعبدالعزيز محمد السلمان ص١١و١٢.

٤) الشريعة، للآجري ، تحقيق د. الدميجي ٢/ ٤٨٨.

العامل الزماني:

تعددت أقوال أهل العلم في تحديد المدى الزمني لمصطلح السلف الصالح ، فمنهم من قصره فقط على زمن الصحابة وحدهم، ومنهم من جعله في الصحابة والتابعين، ومنهم من أضاف إليهم تابعي التابعين، ومنهم من قال إنهم أصحاب القرون الأربعة والخمسة الأولى، ومنهم من توسع في ذلك وهو المشهور فألحق بالسلف كل من سلك سبيلهم وسار على منهجهم إلى يوم الدين، ومن هذه الأقوال:

القول الأول: هم الذين قصروا مدلول السلف على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، وجوزوا تقليدهم واتباعهم دون غيرهم، وفي ذلك قال الإمام الشافعي- رحمه الله: "وجوز آخرون منهم تقليد الصحابة دون التابعين. وجوز آخرون منهم تقليد الخلفاء الأربعة من الصحابة دون غيرهم لقول النبي – صلى الله عليه وسلم: " عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي "[1]. وجوز آخرون تقليد أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – خاصة لقول النبي – صلى الله عليه وسلم – " اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر [2]"[3].

القول الثاني: من العلماء من قال إنهم: الصحابة والتابعون ، قال الغزالي: "اعلم أن الحق الصريح الذي لا مراء فيه عند أهل البصائر هو مذهب السلف. أعني الصحابة والتابعين ".

القول الثالث : ومن العلماء [4]، من قال أن السلف الصالح هم الصحابة والتابعون وتابعو التابعين وفي هذا يقول الإمام السفاريني:" والمراد بمذهب السلف ما كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم، وأعيان التابعين لهم بإحسان، وأتباعهم، وأئمة الدين ممن شهد له بالإمامة، وعرف عظم شأنه في الدين، وتلقى الناس كلامهم خلفا عن سلف"[5]. وهذا قول ابن تيمية، والسفاريني، والشوكاني، وابن رجب، ومقصدهم في ذلك القرون الثلاثة المفضلة التي ورد فيها الحديث (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، فلا أدري أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة) [6].

وفي الحديث السابق أن النبي ﷺ، قال: (خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم يجيء قوم تسبق شهادة احدهم يمينه ويمينه شهادته) ، وقال ﷺ (خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم....). [7]

ويقصد بالسلف القرون الثلاثة مع تفاوتهم في الفضل: "ويُعلم أن القرن الأول من الصحابة ﷺ هو أفضل من القرن الثاني بالنسبة إلى الجملة والآحاد، بينما أفضلية القرن الثاني على الثالث بالنسبة للجملة لا للآحاد،

---

١) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري ، ٢٨٨/١. وقال عنه: " صحيح ليس له علة" ووافقه الذهبي.

٢) رواه الترمذي في سننه مناقب أبي بكر وعمر..، برقم (٣٣٦٢) وقال: هذا حديث حسن. وقال الأناؤوط : حديث حسن .

٣) الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، ٥٣/٦.

٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١٣٤/٧، ط١٩٩١/١م. لوامع الأنوار البهية للسفاريني ٢٠/١. التحف في مذاهب السلف ص٧، للشيخ محمد بن علي الشوكاني، مطبعة المدني بجدة، فضل علم السلف على علم الخلف لابن رجب، ٦٠.

٥) لوامع الأنوار البهية، للسفاريني، ٢٠/١

٦) رواه البخاري، في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ،برقم (٣٥٤١) ، وصحيح مسلم في كتاب فضائل الصحابة باب فضل الصحابة ثم اللذين يلونهم ، برقم (٢٥٣٣) .

٧) رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ،برقم (٣٥٤١) ، وصحيح مسلم، في كتاب فضائل الصحابة باب فضل الصحابة ثم اللذين يلونهم ، برقم (٢٥٣٣) .

بمعنى جملة القرن الثاني أفضل وأكثر خيراً وبركة من جملة القرن الثالث، وقد يكون بعض آحاد الثالث أفضل من آحاد الثاني بل ذلك كثير..... وهذا قول الجمهور لأن مزية الصحبة لا يوازى بعمل" ١.

ويقول الإمام السفاريني:" والمراد بمذهب السلف ما كان عليه الصحابة -رضوان الله عليهم-، وأعيان التابعين لهم بإحسان، وأتباعهم، وأئمة الدين ممن شُهد له بالإمامة، وعُرف عظم شأنه في الدين، وتلقى الناس كلامهم خلفًا عن سلف، دون من رمي ببدعة، أو شهر بلقب غير مرض، مثل : الخوارج، والروافض والقدرية، والمرجئة، والجبرية، والجهمية، والمعتزلة، والكرامية، ونحو هؤلاء" ٢

ولعل تحديد مفهوم السلف بالصحابة والتابعين، وتابعي التابعين هو الأقرب للصواب ...والتحديد بالقرون الثلاثة المراد به الصحابة ومن تبعهم على منهجهم دون من رمي ببدعة حتى وإن كان في ذلك العصر كالخوارج والرافضة والقدرية ونحوهم. ٣

القول الرابع: من العلماء من يقول: السلف هم من كان في القرون الأربعة والخمسة الأولى، أما القول بأنهم القرون الأربعة فاستدلوا بعدة أحاديث منها:

حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: " يأتي على الناس زمان يبعث منهم البعث، فيقولون انظروا هل تجدون فيكم أحدا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ؟ فيوجد الرجل فيفتح لهم به، ثم يبعث البعث الثاني فيقولون: هل فيكم من رأى أصحاب النبي ؟ فيفتح لهم، ثم يبعث البعث الثالث فيقال: انظروا هل ترون فيهم من رأى من رأى أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم؟ ثم يكون البعث الرابع، فيقال: هل ترون أحدا رأى من رأى أحدا رأى أصحاب النبي محمد صلي الله عليه وسلم؟ فيوجد فيفتح لهم به". ٤

وحديث النعمان بن بشير – رضي الله عنهما – قال: إن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: " خير هذه الأمة القرن الذين بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلون الذين يلونهم ".٥

والقول بأن السلف هم أصحاب القرون الأربعة أو الخمسة الأولى ضعيف لقوله تعالى:

﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ { التوبة: ١٠٠}

وقد ضعفه ابن حجر فقال: " وقع الشك في القرن الرابع في حديث ابن مسعود وأبي هريرة عند مسلم وفي حديث بريدة عند أحمد وجاء في أكثر الطرق بغير شك ٦ ، وحكم على رواية حديث البعث الرابع عند مسلم

١) حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، ١ / ٣٤٣.
٢) لوامع الأنوار البهية، للسفاريني، ١/ ٢٠.
٣) انظر: العقيدة الإسلامية بين السلفية والمعتزلة محمود خفاجي، ص ٢١.
٤) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة ، باب فضائل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ٥/ ١٩٩، برقم (٢٥٣٣) .وأخرجه مسلم، في كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ، برقم (٢٥٣٣).
٥) أخرجه أحمد في مسنده ٤/ ٢٦٤، وقال: حديث حسن .
٦) انظر: فتح الباري، ٧/٧

بأنها شاذة فقال: "وهذه الرواية شاذة وأكثر الروايات مقتصرة على الثلاثة [1]، قال العدوي: " القرون المفضلة هي ثلاثة، والقرن الرابع مشكوك فيه لتردد الراوي "[2].

وبناء على ما سبق يترجح –والله أعلم– أن القول الصحيح المشهور الذي عليه جمهور أهل السنة هو أن المقصود بالسلف الصالح هم القرون الثلاثة المفضلة الذين شهد لهم النبي ﷺبالخيرية، في الحديث السابق ، فالسلف الصالح هم الصحابة والتابعون وتابعو التابعين، وكل من سلك سبيلهم وسار على نهجهم فهو سلفي نسبة إليهم ، قال ابن عثيمين– رحمه الله–: "اعلم أن كلمة السلف تعني السلف زمناً ، والسلف معتقداً، فإن أريد بالسلف معتقداً صح أن نقول لمن هم موجودون الآن على مذهب السلف؛ نقول إن هؤلاء سلف، وإذا قلنا إن السلف هم السابقون زمنا فإنه يختص بالقرون الثلاثة المفضلة ، الصحابة والتابعون وتابعو التابعين ، وكل الأمرين قد استعمله أهل العلم، فتارة يريدون بالسلف من كان على طريقة السلف وإن كان متأخراً زمناً، وتارة يقولون – أي يريدون بالسلف– القرون الثلاثة المفضلة ، ولهذا تجدهم يقولون مثلاً : هذا ما ذهب إليه سلف الأمة وأئمتها ، ويريدون بالسلف هنا القرون الثلاثة المفضلة"[3].

ألقاب السلف الصالح :

أطلق العلماء على السلف الصالح ألقابا عديدة تدل على حالهم وتطابق معتقدهم، وأغلبها مأخوذ مما ورد على لسان النبي صلى الله عليه وسلم، تشريفًا لطريقتهم وتعظيما لمكانتهم ومنهجهم، فهم السلف الصالح، وهم أهل السنة والجماعة، وهم أهل الحديث، وهم أهل الأثر، وهم الفرقة الناجية المنصورة، وهم الطائفة المنصورة ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله– : "أما بعد: فهذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة"[4]

وقال أيضا: " أهل الحديث وهم العالمون بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المتبعون لرسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرا وباطنا علما وعملا"[5] قال شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله– : "مذهب السلف أهل الحديث والسنة والجماعة"[6]

١) انظر: فتح الباري ٧/٥

٢) حاشية العدوي ص ٥٨

٣) الدرة العثيمينية بشرح فتح رب البرية بتلخيص الحموية ، طبعة مكتبة الإمام الذهبي ، الكويت ، عام١٤٢٧هـــ (ص١٥٠)

٤) شرح العقيدة الواسطية، خليل هراس، ص ١٥

٥) انظر: مجموع الفتاوى، ٥٩/٤

٦) درء تعارض العقل والنقل، ٢٠٣/١

ومن ألقاب السلف أيضا:" أهل الأثر" ومعناه كما قال الإمام السفاريني :" يعني الذين يأخذون عقيدتهم من المأثور عن الله جل شأنه في كتابه، أو في سنه النبي ﷺ، أو ما ثبت وصح عن السلف الصالح من الصاحبة الكرام، والتابعين الفخام، دون نخالات أصحاب الآراء، وزبالات أهل الأهواء والبدع".[١]

ومما سبق يتبين أن كل تلك الألفاظ تدل على السلف، فالسلف الصالح هم أهل السنة لاتباعهم سنة رسول اللهﷺ، وهم الجماعة لاجتماعهم على الحق، وهم أهل الحديث والأثر لاتباعهم حديث رسول اللهﷺ، وما أثر عنه، وهم الفرقة الناجية والطائفة المنصورة الذين استثناهم رسول اللهﷺ من فرق أهل الأهواء .

فمدلول منهج السلف ليس ابتداعاً بل " أصبح اصطلاحاً معروفاً يطلق على طريقة الرعيل الأول ومن يقتدون بهم في تلقي العلم، وطريقة فهمه وبطبيعة الدعوة إليه، فلم يعد إذا محصوراً في دور تاريخي معين، بل يجب أن يفهم على أنه مدلول مستمر استمرار الحياة، وأن انحصار الفرقة الناجية يكون في علماء الحديث والسنة وهم أصحاب هذا المنهج وهي لا تزال باقية إلى يوم القيامة من قوله ﷺ: (لاتزال طائفة من أمتي منصورين على الحق لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم)[٢]"[٣].

وبناءً على ما سبق يتبين أن السلف الصالح هم المتبعون لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم و الصحابة رضوان الله عليهم و التابعين وأتباعهم الذين أخذوا الكتاب والسنة منهجًا لهم ، وعملوا بذلك إلى قيام الساعة

الذين أشار إليهم النبي صلى الله عليه وسلم في الأحاديث السابقة، وفي قوله عن الفرقة الناجية: " ... هم الذين على مثل ما أنا عليه وأصحابي" [٤].

---

١) لوامع الأنوار البهية، ١/٦٤.

٢) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب قوله صلى الله عليه وسلم لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم، حديث رقم: ١٩٢٠.

٣) الصفات الإلهية، محمد أمان الجامي، ص ٦٤ .

٤) أخرجه الترمذي في كتاب الإيمان، باب افتراق الأمة برقم (٢٦٤١) ، وحسنه الألباني.

المطلب الثاني

فضل السلف الصالح وصحة منهجهم في إثبات العقائد

السلف الصالح ليسوا معصومين ، وكل أحد يؤخذ من كلامه ويُرد إلا أبا القاسم صلى الله عليه وسلم والعصمة للرسل ولا فضل لأحد بغير فضل اتباع كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

قال الإمام الآجري – رحمه الله- : علامة من أراد الله به خيرا: سلوك هذا الطريق: كتاب الله وسنن رسول الله صلي الله عليه وسلم، وسنن أصحابه- رضي الله عنهم- ومن تبعهم بإحسان، وما كان عليه أئمة المسلمين في كل بلد إلى آخر ما كان من العلماء"١.

ولما تقدم فإن للسلف الصالح فضلا عظيما على الأمة ، فأفضل السلف بعد رسول الله ﷺ الصحابة ﷺ الذين أخذوا دينهم عنه بصدق وإخلاص، كما وصفهم الله تعالى في كتابه العزيز، بقوله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ {الأحزاب:٢٣}، ثم الذين يلونهم من القرون المفضلة الأولى؛ الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم) ٢ ، ولذا فإن الصحابة والتابعين أحق بالاتباع من غيرهم، وذلك لصدقهم في إيمانهم، وإخلاصهم في عبادتهم، وهم حراس العقيدة، وحماة الشريعة العاملون بها قولا وعملا، ولذلك اختارهم الله – تعالى – لنشر دينه؛ وتبليغ سنة نبيه ﷺ. وهو ما دل عليه قوله سبحانه : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران:١١٠] ويؤخذ تحديد مفهوم السلف، من قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:١٠٠] ، فالسلف اسم يجمع الصحابة فمن بعدهم ممن اتبع الكتاب والسنة بإحسان إلى يوم الدين. وهذه الخيرية لإتباعهم الكتاب والسنة : إيماناً وإجمالاً ، ولقد دل القرآن والسنة المطهرة دلالة قطعية على أن الخير كل الخير في اتباعهما. وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨] وقال سبحانه: ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة : ٨] ، وقال تعالى: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب:٢٣] ،والآيات كثيرة في ذكر فضلهم وتزكيتهم.

---

١) الشريعة، للآجري، تحقيق د. الدميجي، ٢/ ٣٠١.

٢) سبق تخريجه ، ٦.

المطلب الثالث

حقيقة فهم السلف ومنهج شيخ الإسلام في الاعتماد على آثارهم

قال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم ﴾ [الأنعام:١١٥] ، أي صدقا في الأخبار، وعدلا في التكليفات الشرعية، فلم تعد في حاجة لمن يتممها أو يزيد عليها، وقال أيضا: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ....﴾ [المائدة:٣]، أي أكمل الله لعباده الرسالة التي شملت كل شيء و لم تترك كبيرة ولا صغيرة إلا ولها فيه أصل تحت حكم عام، أو ذكر مخصوص، وهو ما فهمه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم على منهجهم، من التابعين وتابعي التابعين ومن جاء سار على منهجهم إلى يوم الدين.

وقد أثنى النبي صلى الله عليه وسلم على صحابته الكرام، لما هم عليه من فهم نقي لرسالته، وتبليغ أمين لما جاء فيها من تكاليف شرعية، وأمور اعتقادية وحكايات عن الأولين والآخرين، وأخبار يوم الدين؛ بل أثنى عليهم ربهم من فوق سبع سموات وقال في كتابه: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيم﴾ (التوبة: ١٠٠). وقد حرص السلف من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ومن تبعهم، كل الحرص على عدم الابتداع في الدين، أو الزيادة فيه بأمر ليس له مستند من نص، أو ذكر من شاهد، تظهر فيه آثار الرسالة وعلامات النبوة، فكان منهجهم ترجمة عملية للكتاب والسنة، تمسكوا بالأدلة وداروا حولها في الفروع والأحكام الفقهية والتشريعية واستنبطوا منها ما لم يرد به نص صريح؛ فكان استنباطهم وقياسهم وإجماعهم أصلا من أصول الفقه والتشريع.

أما في باب الأصول والاعتقاد، والأمور الغيبية التي لا مجال فيها لرأي؛ فقد وقفوا فيها عند حدود النقل، لما فهموه وفطنوا إليه من قصور مدارك العباد، وافتقار عقولهم إلى ما يدركون به ما تصل إليه حواسهم، فكانت قاعدتهم الأولى فيه التوقيف، وتصديق خبر الله كما أنزله على عبده ونبيه صلى الله عليه وسلم.

فلم يكن من المعقول، أن يقع من تكون هذه طريقتهم في الاختلاف، والفرقة في أصول الدين لتكون لهم مذاهب متفرقة وقد علموا أن كيف حذر النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك.

فهم السلف لنصوص الوحي:

يدور السلف في باب الاعتقاد حول النص الشرعي، حتى في حال التراع فلا يكون هناك محل للخروج عن هذه الدائرة، التي تحترم افتقار العقول البشرية، لإدراك الغيبيات خاصة في البحث في مسائل الوجود وذات الله، وأحوال الغيب التي لا مجال للوصول إليها إلا عن طريق خبر الله تعالى، ويمكن التوصل لطريقة فهمهم من خلال منهج ابن تيمية في الاعتماد على آثار السلف وأقوالهم في مسائل العقيدة.

وقد اختار شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى- منهج السلف في مسائل العقيدة، لأنه الأسلم والأحكم والأقرب لفهم الرسالة.

ويعتبر ابن تيمية السلف هم الصحابة والتابعون وتابعوهم حتى وإن تباعدت بينهم القرون، فمن لازم طريقتهم كان سلفيا متبعا.

قال رحمه الله: "ولا تجد إماماً في العلم والدين، كمالك، والأوزاعي، والثوري، وأبي حنيفة، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، ومثل: الفضيل وأبي سليمان، ومعروف الكرخي، وأمثالهم، إلا وهم مصرحون بأن أفضل علمهم ما كانوا فيه مقتدين بعلم الصحابة، وأفضل عملهم ما كانوا فيه مقتدين بعمل الصحابة، وهم يرون الصحابة فوقهم في جميع أبواب الفضائل والمناقب"١.

وبالتالي فمزية الصحابة لديه هي أهم كانوا ملازمين لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل من يقتدي بعملهم من التابعين كانوا متشبهين بطريقتهم، ويتواصل هذا الفضل إلى تابعي التابعين ومن سار على طريقتهم إلى يوم الدين، لما في ذلك من تحصيل علوم الشريعة.

قال شيخ الإسلام: " ثم إن التابعين وتابعيهم قد حصل لهم من العلم بمراد الله ورسوله ما هو أقرب إلى مترلة الصحابة ممن هم دونهم؛ وذلك لملازمتهم لهم، واشتغالهم بالقرآن حفظا وتفسيراً، وبالحديث رواية ودراية، ورحلاتهم في طلب الصحابة وطلب حديثهم وعلومهم مشهورة معروفة، (ومن المعلوم أن كل من كان بكلام

١) شرح الأصفهانية، ابن تيمية، ١٦٥.

المتبوع وأحواله وبواطن أموره وظواهرها أعلم، وهو بذلك أقوم كان أحق بالاختصاص به، ولا ريب أن أهل الحديث أعلم الأمة وأخصها بعلم الرسول صلى الله عليه وسلم"١.

وقال": مذهب أهل الحديث: وهم السلف من القرون الثلاثة، ومن سلك سبيلهم من الخلف"٢.

وتبين لنا من خلال البحث في مؤلفات شيخ الإسلام- رحمه الله- مدى حرصه على ألا يأتي بقول إلا ويكون مسبوقا إليه من أقوال السلف، وقد تنوعت مصادر ابن تيمية المعرفية من خلال اطلاعه الواسع على آثار السابقين ومؤلفاقم، حتى ضمت مؤلفاته كنوزا متفردة صارت مراجع لمن جاء بعده من الراغبين في الاطلاع على علم السابقين وما ورثوه من نور الرسالة.

القواعد المنهجية عند ابن تيمية واعتماده على السلف:

نشأ شيخ الإسلام- رحمه الله- في بيئة مليئة بالفتن، والفرق التي ابتعدت عن منهاج النبوة، وانتشرت فيها مسائل وأقوال لم تكن موجودة عند السابقين ولا في عصر الصحابة ولا في القرون الثلاثة الأولى، خاصة المسائل الكلامية والفلسفية التي باتت مهيمنة على أمور العقيدة في عصره، ومن ثم فقد أخذ شيخ الإسلام هذه المسائل، مسألة مسألة ، وجمع أقوال الفرق المتشاهة فيها، ثم أظهر تمافتها أولا أمام العقل بعد أن يضرب الآراء والمسائل الكلامية بعضها ببعض ويظهر تناقضها.

ثم يأتي بعد ذلك إلى المرحلة الأهم وهي عرض المسائل العقدية على الكتاب والسنة وما ورد من آثار الصحابة والتابعين وترجيح القول السديد فيها بناء على اتفاقه مع النقل.

وخلاصة القواعد المنهجية عند شيخ الإسلام ما يلي:

اعتماده على القرآن الكريم.

اعتماده على السنة.

عنايته بأقوال الصحابة والتابعين والأئمة الأربعة.

---

١) مجموع الفتاوى، ٩١/٤

٢) مجموع الفتاوى (٣٥٥/٦)

جمع كل الآراء الواردة في المسألة التي يتعامل معها منذ بداية نشأها، مع الاعتناء بالمصطلحات وشرها.

ومعلوم حرص السلف على عدم مخالفة الكتاب والسنة ولا معارضة شيء منهما، وحينما يجد شيخ الإسلام خلافا بين السلف، ويكون لدى كل فريق ما يؤيد مذهبه يحاول الجمع بين الخيرين فيقول:

"فهذا الحديثُ ونحوُه ممَّا يُنهى فيه عن معارضة حقٍ بحق، والواجبُ التصديقُ بهذا الحق وهذا الحق"١

السكوت عما سكت عنه السلف:

يعتبر شيخ الإسلام أن سكوت السلف حجة شرعية ، وأن من يقع في مخالفتها على خطأ كبير.

يقول- رحمه الله-: " ومعلوم أن هذا لم يفعله أحد من السلف، ولا شرع الله ذلك، ولا رسوله ولا أحد من الأئمة، ولا مع من يفعل ذلك حجة شرعية أصلا؛ بل من فعل ذلك كان شارعا من الدين ما لم يأذن به الله، فإن هذا الفعل منه ما هو كفر صريح، ومنه ما هو منكر ظاهر "٢.

ومن أمثلة ذلك الصلاة في البقاع التي صلى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقول:

"فأما قصد الصلاة في تلك البقاع التي صلى فيها اتفاقا، فهذا لم ينقل عن غير ابن عمر من الصحابة، بل كان أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وسائر السابقين الأولين، من المهاجرين والأنصار يذهبون من المدينة إلى مكة حجاجا وعمارا ومسافرين، ولم ينقل عن أحد منهم أنه تحرى الصلاة في مصليات النبي صلى الله عليه وسلم"٣.

خلاصة منهج ابن تيمية في الاعتماد على آثار السلف:

الإجماع وحجية قول الصحابة:

يعظم شيخ الإسلام ابن تيمية كغيره من السلف النصوص الشرعية، ويعتبرها الركيزة الأساسية التي يدور حولها كل حديث سواء من الصحابة أو التابعين أو تابعيهم، أو علماء اهل السنة والجماعة، وله تفاصيل في ذلك ومنها مسألة الإجماع، فيرى شيخ الإسلام أن الإجماع يأتي مع ثبوت النص، وإذا أجمع طائفة من المجتهدين على مسألة ووجد النص عند غيرهم فلا يؤخذ بقولهم.

---

١) درء التعارض، ٤٠٤/٨.

٢) السابق. الاستغاثة والرد علي البكري، لابن تيمية، ٩٣/١-٩٤.

٣) اقتضاء الصراط المستقيم، ابن تيمية، ٧٥٥/٢- ٦٥٦

قال- رحمه الله- :"المسائل المجمع عليها قد تكون طائفة من المجتهدين لم يعرفوا فيها نصا فقالوا فيها باجتهاد الرأي الموافق للنص لكن كان النص عند غيرهم . وابن جرير وطائفة يقولون : لا ينعقد الإجماع إلا عن نص نقلوه عن الرسول مع قولهم بصحة القياس .

ونحن لا نشترط أن يكونوا كلهم علموا النص فنقلوه بالمعنى كما تنقل الأخبار لكن استقرأنا موارد الإجماع فوجدناها كلها منصوصة وكثير من العلماء لم يعلم النص وقد وافق الجماعة كما أنه قد يحتج بقياس وفيها إجماع لم يعلمه فيوافق الإجماع وكما يكون في المسألة نص خاص وقد استدل فيها بعضهم بعموم كاستدلال ابن مسعود وغيره بقوله : ﴿ وَأُوْلَاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ (الطلاق:٤) وقال ابن مسعود : سورة النساء القصرى نزلت بعد الطولى أي : بعد البقرة ؛ وقوله : ﴿ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ يقتضي انحصار الأجل في ذلك فلو أوجب عليها أن تعد بأبعد الأجلين لم يكن أجلها أن تضع حملها وعلي وابن عباس وغيرهما أدخلوها في عموم الآيتين وجاء النص الخاص في قصة سبيعة الأسلمية بما يوافق قول ابن مسعود ١.

أما إذا اختلف الصحابة على قولين فيرى شيخ الإسلام أنه لا يجوز إحداث قول ثالث وأن هذا المحدث يكون خروجا على الإجماع.

قال- رحمه الله-: والمقصود أن ما اختلف فيه العلماء هل هو حرام أو مباح كان من جعله قربة مخالفا لإجماعهم كما إذا اختلف الصحابة على قولين فمن أحدث قولا ثالثا فقد خالف إجماعهم"٢.

واضاف: "وهذا الإجماع المحكي عن السلف والأئمة لا يقدح فيه خلاف بعض المتأخرين إن وجد ؛ ولكن إن وجد أن أحدا من الصلحاء المعروفين من السلف قال : إنه يستحب السفر لمجرد زيارة القبور أو لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين كان هذا قادحا في هذا الإجماع ويكون في المسألة ثلاثة أقوال ؛ ولكن الذي يحكي الإجماع لم يطلع على هذا القول كما يوجد ذلك كثيرا لكثير من العلماء ومع هذا فهذا القول يرد إلى الكتاب والسنة لا يجوز إلزام الناس به بلا حجة ؛ فإن هذا خلاف إجماع المسلمين٣.

---

١) مجموع الفتاوي، ١٩٧/١٩

٢) المرجع السابق، ٢٣٢/٢٧.

٣) انظر فهم السلف الصالح للنصوص الشرعية ورد الشبهات حوله، د. عبدالله الدميجي

المبحث الثاني

تعريف الأثر والعقيدة

وفيه مطلبان :

المطلب الأول: تعريف الأثر لغة واصطلاح .

المطلب الثاني: تعريف العقيدة لغة واصطلاح .

المطلب الأول

تعريف الأثر ، تعريف العقيدة

أولاً: تعريف الأثر في اللغة:

الأثر مفرد، والجمع آثار، وأثور، وفي لسان العرب: " الأثر: بقية الشيء، والجمع منه آثار وأثور. وخرجت في إثره أي بعده. واتثرته وتأثرته: تتبعت أثره ويطلق على معان متعددة منها: بقية الشيء، وتقديم الشيء، وذكر الشيء، والخبر" ١.

و قال ابن فارس: " أثر " الهمزة، والثاء، والراء، له ثلاثة أصول: تقديم الشيء، وذكر الشيء، ورسم الشيء الباقي"٢ .

كما يطلق الأثر على الخبر، ومن هذا المعنى جاء إطلاق الآثار على السنن المروية عن النبي ﷺ ٣.

قال الراغب ٤: "أثرت العلم: رويته، وآثره أثرا وأثارة وأثرة، وأصله: تتبعت أثره" ٥.

"والأثارة: البقية من الشيء، والجمع: أثارات" ٦ "وأثرت فيه تأثيرا جعلت فيه أثرا وعلامة" ٧.

أثر الشيء: حصول ما يدل على وجوده، يقال: أثر وأثر، والجمع: الآثار. ومن هذا يقال للطريق المستدل به على من تقدم: آثار، نحو قوله تعالى: ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ {الصافات: ٧٠} ، وقوله تعالى: ﴿قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ {طه:٨٤} . كما ورد مصطلح الأثر في القرآن الكريم للدلالة على ما خلفه السابقون.قال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعَيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ (المائدة: ٤٦) . أي ": أتبعنا (على آثارهم) يعني : أنبياء بني إسرائيل٨. وقال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ

---

١) لسان العرب، مادة أثر ١/٢٥

٢) معجم مقاييس اللغة، كتاب الهمزة، باب الهمزة والثاء وما يثلثهما، ١/٥٣.

٣) المرجع السابق، ١/٥٣.

٤) هو الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني، أديب، لغوي، حكيم، مفسر. من أهل " أصفهان " سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي. من تصانيفه: " الذريعة إلى مكارم الشريعة "، و " حل متشابهات القرآن " وجامع التفاسير والمفردات في غريب القرآن." انظر ترجمته في: الأعلام ٢ / ٢٧٩، ومعجم المؤلفين ٤ / ٥٩، وفي مقدمة " المفردات.

٥) المفردات، ص٩.

٦) معجم مقاييس اللغة، ١/٥٥.

٧) المصباح المنير، ص٤.

٨) تفسير ابن كثير، ٣/٧٥

ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴾ {الزخرف:٢٢} ، أي: ليس لهم مستند فيما هم فيه من الشرك سوى تقليد الآباء والأجداد"١.

كما ورد الأثر في السنة النبوية المطهرة فعن أنس قال: حدثني أبو بكر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار فرأيت آثار المشركين قلت يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا قال ما ظنك باثنين الله ثالثهما"٢. والخلاصة أن الآثار في اللغة جمع كلمة أثر وهو ما خلفه السابقون، والأثر من الأشياء القديمة المأثورة، والمأثور هو ما ورث الخلف عن السلف ٣.

وخلاصة ما يعنيه الأثر في اللغة أنه العلامة، أو بقية الشيء، أو الخبر.

ثانياً: تعريف الأثر اصطلاحاً:

لا يخرج استعمال لفظ (أثر) عن المعاني اللغوية السابقة ، وأكثر ما يستعمله الفقهاء للدلالة على بقية الشيء، أو ما يترتب على الشيء. ومن العلماء مَن يطلقه على الحديث الموقوف تارة، ومنهم من يطلقه على المرفوع تارة، ومنهم من يطلقه على المروي بشكل مطلق.

فالأثر عند الفقهاء الخراسانيين هو ما يروى عن الصحابة رضي الله عنهم٤. وعند غيرهم أنه لا فرق بين الحديث والأثر، وذهب بعض المتأخرين إلى الفرق بينهما، وقالوا: الأثر: "هو ما ورد عن الصحابة والتابعين من أقوالهم وأفعالهم٥

فالأثر: "هو ما ورد عن الصحابة والتابعين من أقوالهم وأفعالهم" ٦.

ويقصد بالآثار في هذه الدراسة الآثار العقدية المروية عن الصحابة والتابعين وأتباع التابعين ﷺ وأقوالهم، لأن السلف الصالح هم أئمة الهدى الذين مضوا على ما كان عليه رسول اللهﷺ وصحابته ﷺمن بعده ، وساروا على نهجهم وطريقتهم ، وعن الأهواء والبدع المضلة معرضون ، ويقتدي خلفهم بسلفهم. وكما بينا فإن السلف هم الصحابة والتابعون وتابعو التابعين، ومن تبع منهج هؤلاء و لم يلحقوا بهم زمنا هم السلفيون.

---

١) تفسير ابن كثير، ١٤٤/٧

٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب تفسير سورة براءة، برقم (٤٣٨٦) ، صحيح مسلم، في كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبي بكر ، برقم (٢٣٨١).

٣) المعجم الوسيط، ٥/١.

٤) النكت على ابن الصلاح، ابن حجر العسقلاني، ٥١٣/١.

٥) التقييد والإيضاح لما أطلق وأغلق من مقدمة ابن الصلاح، العراقي، ٦٧ ، الباعث الحثيث، ابن كثير، ٤٣، فتح المغيث، السخاوي ١٢٤/١.

٦) انظر: التقييد والإيضاح لما أطلق وأغلق من مقدمة ابن الصلاح، للعراقي، دار الفكر، ص٦٧. والباعث الحثي، لابن كثير، ص٤٣، وفتح المغيث شرح ألفية الحديث، السخاوي، ١٤٠٣هـــ، ١٢٤/١.

المطلب الثاني

تعريف العقيدة في اللغة والاصطلاح

أولاً: تعريف العقيدة في اللغة.

وفي لسان العرب: "العقد: نقيض الحل"١، "وعقد قلبه على الشيء: لزمه"٢.

واعتقد فلان الأمر: صدقه وعقد عليه ضميره.

والعقيدة والمعتقد: الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده ٣.

وقال الخليل بن أحمد: "وعقد اليمين: أن يحلف يمينا، لا لغو فيها، ولا استثناء، فيجب عليه الوفاء بها. وعقدة كل شيء: إبرامه. وعقدة النكاح: وجوبه. وعقدة البيع: وجوبه...واعتقدت مالا: جمعته. وعقد قلبه على شيء: لم يترع عنه...واعتقد الشيء: صلب، واعتقد الإخاء والمودة بينهما: أيثبت"٤.

وفي القرآن الكريم ورد المصطلح للدلالة على الإلزام في مواضع كثيرة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾ {البقرة:٢٣٥} ، "يعني : ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضي العدة"٥.

وقال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ {المائدة:٨٩} ، "أي بما صممتم عليها منها وقصدتموه"٦.

وفي الأثر ، قال ابن عباس رضي الله عنه: "العقود العهود ما أحل وحرم"٧.

وعلى ذلك فإن لفظ العقيدة لغة يدور حول الالتزام، واللزوم ، والثبات على العهود، وهو الربط، والإبرام، والإحكام، والتوثق، والشد بقوة، والتماسك، والمراصة، والإثبات؛ ومنه اليقين والجزم. والعقد نقيض الحل.

وهي أيضا: الحكم القاطع الذي لا يتطرق إليه شكٌّ، وهي ما يؤمن به الإنسانُ ويعقد عليه قلبَه وضميرَه، ويتخذه مذهبًا ودينًا يدين به.

---

١) لسان العرب، ابن منظور،، ٣/ ٢٩٦، مادة عقد.

٢) المصدر السابق، ٢٩٨/٣.

٣) المعجم الوسيط ،٢/ ٦١٤.

٤) كتاب العين: ١/ ١٤٠، مادة (عقد).

٥) تفسير ابن كثير، ٢٣٥/١.

٦) المرجع السابق، ١٠٣/٣.

٧)أخرجه البخاري، في كتاب الذبائح والصيد، باب التسمية على الصيد في تفسير آية الصيد ، رقم: (٥٤٧٥) .

ثانياً: تعريف العقيدة في الاصطلاح.

العقيدة اصطلاحا:

هناك استخدامات متباينة لمفهوم العقيدة، سواء على المستوى الديني العام، أو المستويات الاجتماعية والسياسية، خاصة تلك التي تهدف إلى تنحية الدين عن حياة الإنسان، فكل طريقة، وكل مذهب لديه عقيدة يؤمن بها، ويسير عليها بغض النظر عن مدى قربها أو بعدها عن صراط الله المستقيم، ومن ثم تعددت تعريفات العقيدة بحسب ما تمثله للجماعة التي تؤمن بها، وبحسب ما تم الاتفاق عليه فيما بين أعضائها.[١]

و" هي تستعمل عند الإطلاق مع كل ما يعقد عليه الإنسان قلبه من حق أو باطل"[٢].

وما يهم الباحثة هنا هو العقيدة الإسلامية، وعقيدة أهل السنة والجماعة على وجه الخصوص، ونوجز هنا بعض تعريفات علماء المسلمين لمصطلح العقيدة ومن هذه التعريفات:

وهي: " الأمور التي يجب أن يصدق بها القلب، وتطمئن إليها النفس؛ حتى تكون يقيناً ثابتاً لا يمازجها ريب، ولا يخالطها شك ... والعقيدة الإسلامية: هي الإيمان الجازم بربوبية الله تعالى وألوهيته وأسمائه وصفاته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وسائر ما ثبت من أمور الغيب، وأصول الدين"[٣].

وقال ناصر العقل: هي "الإيمان الجازم بالله، وما يجب له في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته. والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، وبكل ما جاءت به النصوص الصحيحة من أصول الدين وأمور الغيب وأخباره"[٤].

وعلى ذلك فإن مفهوم مصطلح العقيدة الإسلامية عموم معناها في الكتاب والسنة. وهو يرادف معنى الإيمان الذي ورد في حديث جبريل الذي تضمن أركان الإيمان الستة وهي الإيمان بالله ، وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره.

فالعقيدة ليست مذهبا اجتهادياً، بل هي الميزان الثابت الذي لا يضطرب، ولا يطيش، والعقيدة هي معرفة مراد الله تعالى من الدين، ومن بعث الرسل، وإنزال الكتب، وخلق الجن، والناس، ثم الاستقامة على ذلك والعمل بمقتضاه، والرسول ﷺهو القدوة في العلم بمراد الله وفي العمل بمقتضاه، ولقد اقتدى الصحابة، ثم سائر

---

١) فمثلا أصحاب الاتجاهات الحديثة يطلقون عليها مصطلح (الأيديولوجيا) ويعرفولها بأنها: مجموعة من الأفكار والمعتقدات المشتركة، التي تعمل على تبرير مصالح الجماعات المهيمنة. وتوجد الأيديولوجيات في كافة المجتمعات، التي توجد بها نظم راسخة لعدم المساواة بين الجماعات. ويرتبط مفهوم الأيديولوجيا ارتباطاً وثيقاً بمفهوم القوة؛ لأن النظم الأيديولوجية تعمل على إضفاء المشروعية على تباين القوة، التي تحوزها الجماعات الاجتماعية، انظر: أنتوني جيدنز، "مقدمة نقدية في علم الاجتماع"، ترجمة أحمد زايد وآخرون"، مطبوعات مركز البحوث والدراسات الاجتماعية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ٢٠٠٢.

٢) الآثار الواردة عن أئمة السلف في أبواب الاعتقاد من كتاب سير أعلام النبلاء، جمال ابن أحمد ابن بشير بادي، ص٢٧

٣) انظر: الوجيز في عقيدة السلف الصالح ص ٣٠

٤) بحوث في عقيدة أهل السنة والجماعة، ناصر عبدالكريم العقل، ص ١١- ١٢

القرون المشهود لها بالخيرية، - كما سبق - بالرسولﷺفي الاعتقاد الحق، ويتبعهم الأئمة في كل عصر على الاعتقاد الصحيح، الذي هو العقيدة التوقيفية الجامعة.

ومما سبق يتبين أن لفظ العقيدة لم يرد صريحاً في الكتاب والسنة، إلا أن عموم معناه موجود فيهما. واستعمل العلماء لفظ العقيدة باعتبار المعنى لأن الإيمان عقد في القلب، فالعقيدة اسم لما اعتقد في القلب من الدين وما عقد عليه قلب العبد، وهي الإيمان، و السنة ، وأصول السنة ، والاعتقاد ، والشريعة. وعليه فالعقيدة هي مسائل الإيمان التي وردت في القرآن وصح بها الخبر عن رسولهﷺ، والتي يجب أن ينعقد عليها قلب العبد إيماناً وتصديقاً وعملاً .

المبحث الثالث

ترجمة لشيخ الإسلام ابن تيمية وبيان موقفه من الآثار الواردة عن السلف

أولا: ترجمة شيخ الإسلام:

اسم ونسب شيخ الإسلام ابن تيمية.

هو شيخ الإسلام، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن أبي محمد عبد الله بن أبي القاسم الخضر ابن محمد ابن الخضر بن علي بن عبد الله بن تيمية النميري، الحراني. ١

فهو ينتسب إلى قبيلة عربية قيسية، من بني نمير بن عامر بن صعصعة من قيس عيلان بن مضر. ٢

ولد شيخ الإسلام يوم الاثنين العاشر من ربيع الأول، وقيل: ثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة إحدى وستين وست مئة (٦٦١هــ) في حران ٣- وهي بلدة في الجزيرة بين العراق والشام ٤ ، وهي جنوب شرق تركيا الآن.

وقد اشتهرت عائلته بالعلم والمكانة، فجده أبو البركات مجد الدين عبد السلام، كان فقيها محدثا أصوليا نحويا من العلماء الأعلام ٥ ، قال عنه الذهبي: " كان إماما كاملا، معدوم النظير في زمانه، رأسا في الفقه وأصوله بارعا في الحديث ومعانيه، وله اليد الطولى في معرفة القراءات والتفسير " ٦.

ووالده: شهاب الدين عبد الحليم بن عبد السلام من العلماء الأفاضل، كان مفتيا، وله كرسي بجامع دمشق، وولي مشيخة دار الحديث السكرية. ٧ قال عنه الذهبي: " ذو الفنون.... صار شيخ حران وحاكمها وخطيبها

---

١) انظر ترجمة شيخ الإسلام في: تذكرة الحفاظ، ١٤٩٦/٤، والبداية والنهاية، ١٣/ ٢٤١، والكواكب الدرية، ص:٥١، والأعلام العلية للبزار، ص: ١٦ وما بعدها، وفوات الوفيات، ٧٤/١، والدليل الشافي، ٥٦/١، وذيول العبر، ص: ٨٤، والنجوم الزاهرة، ٩/ ٢٧١، وتتمة المختصر لابن الوردي، ٤٠٦/٢، وشذرات الذهب، ٦/ ٨٠، والوافي للصفدي، ١٥/٧، وطبقات الحفاظ للسيوطي، ص: ٥١٦، ودرة الحجال، ١/ ٣٠، وأعيان العصر عن شيخ الإسلام ابن تيمية سيرته وأخباره عند المؤرخين للمنجد، ص: ٤٩، والسلوك، ٤/٢ ٣٠، والدرر الكامنة، ١٥٤/١، وفهرس الفهارس، ٢٧٤/١، وتذكرة النبيه، ١٨٥/٢، والشهادة الزكية والرد الوافر، وطبقات المفسرين للداودي، ٤٥/١، وذيل طبقات الحنابلة، ٣٨٧/٢، والمنهل الصافي ط الثانية، ٣٥٨/١، والبدر الطالع، ٦٣/١.

٢) جمهرة أنساب العرب، ابن حزم، ص ٢٧٥؛ وانظر: التبيان شرح بديعة البيان لابن ناصر، وكتاب الزيادات للربعي، والمدخل لبكر أبو زيد ٥٣٢/١.

٣) ابن عبد الهادي: العقود الدرية ص٢، ٣، ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة ٣٨٧/٤. و"حران" بتشديد الراء، بلدة في الجزيرة- بين الشام والعراق، وحران مدينة قديمة بين الرها والرقة وهذه هي التي ينسب إليها ابن تيمية، وهناك حران من قرى حلب، وحران قرية بغوطة دمشق- وأخطأ من نسبه إليها، انظر : معجم البلدان ٢٣٥/٢، ومراصد ٣٨٩/١، ومعم ما استعجم ٤٣٥/١، وأحسن التقاسيم (ص: ١٤١، والروض المعطار ص: ١٩١.

٤)معجم البلدان، ياقوت: ص٢٣٥.

٥)السير، الذهبي: ٢٩١/٢٣، ابن رجب: ذيل طبقات الحنابلة ٢٤٩/٤.

٦) معرفة القراء الكبار (٦٥٤/٢).

٧) ابن كثير: البداية والنهاية: ٣٢٠/١٣.

بعد موت والده"[1] ، وقال ابن كثير: "مفتي الفرق، الفارق بين الفرق، كان له فضيلة حسنة، ولديه فضائل كثيرة "[2] .

شيوخ شيخ الإسلام.

تلقى ابن تيمية رحمه الله العلم عن أعلام من علماء عصره، ساعده على ذلك اشتغاله بالعلم صغيرا، وحبه وشغفه فيه، ونهمه المتواصل على الاستفادة منهم؛ حتى قيل: إنه سمع من أكثر من مئتي شيخ. [3] كما سمع من أربع شيخات[4] ، وكان من شيوخه ست الدار بنت عبد السلام ابن تيمية، عمة شيخ الإسلام، روى عنها، توفيت سنة ٦٨٦ هـــ [5].

مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية:

كان لدى شيخ الإسلام بن تيمية مثابرة عظيمة لتأليف الكتب في مختلف العلوم والفنون، وجعل الله في مؤلفاته الخير والبركة، فتلقاها الناس بالقبول، وتحقيقاته في مسائل الفقه والحديث والتفسير والسلوك أشهر من أن نذكر نماذج لها، فكتبه ومؤلفاته شاهدة عليها، وليس هو – رحمه الله – بحاجة لمن يزكيه من أمثالنا، بل علمه وفقهه حاضر شاهد لا ينكره إلا جاهل أو جاحد.

وقد أوصل بعض من ترجم له مؤلفاته إلى أكثر من خمس مئة مجلد.

قال الذهبي: وما أبعد أن تصانيفه إلى الآن تبلغ خمس مئة مجلد.[6]

وقال: وسارت بتصانيفه الركبان، ولعلها ثلاث مئة مجلد. [7]

ومن هذه المؤلفات النفيسة: درء تعارض العقل والنقل، واقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أهل الجحيم، والصارم المسلول على شاتم الرسول، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ومنهاج السنة النبوية في نقد كلام الشيعة والقدرية، والاستقامة، وغيرها من الكتب النافعة المباركة.

---

١) العبر (٣/٣٤٩-٣٥٠).

٢) البداية والنهاية (١٣ / ٣٠٣).

٣) انظر: العقود، ص: ٣، والكواكب، ص: ٥٢، وانظر في شيوخ ابن تيمية: ذيل ابن رجب، ٣٨٧/٢، والبداية والنهاية، ١٣٦/١٤ــ ١٣٧، والوافي، ١٦/٧، وتذكرة الحفاظ للذهبي، ١٤٩٦/٤، والدرر الكامنة، ١/ ١٥٤ وغيرها.

٤) انظر: الإمام ابن تيمية، الأربعون التيمية، شرح وتصحيح وتخريج صلاح أحمد السامرائي، ص: ٥٥، ٥٧، ٥٨، ٥٩، انظر: الإمام ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ٧٦/١٨ – ١٢١.

٥) انظر: أعلام النساء، ١٥٤/٢.

٦) ابن عبد الهادي: العقود ص٢٥.

٧) الذهبي: تذكرة الحفاظ ١٤٩٧/٤.

معالم اهتمام ابن تيمية بالمنهج السلفي:

كل من يطالع مصنفات شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله- إلا أن يجد أنه قد سخر كل كتاباته وحياته لنصرة المنهج السلفي، والدفاع عنه، والرد على المخالفين، ويمكن تتبع ذلك من خلال بعض أقواله المتناثرة في كل صفحات كتبه.

وفاة شيخ الإسلام ابن تيمية:

بعد حياة حافلة بالتعلم والتعليم والتأليف وجهاد بالقلب واللسان واليد لنصرة الدين وإعلاء كلمة الله توفي رحمه الله في العشرين من ذي القعدة في بكرة ذلك اليوم، وذلك سنة ثمان وعشرين وسبع مئة١، وكان مسجونا في قلعة دمشق رحمه الله تعالى رحمة واسعة٢.

يقول البزار: " ثم إن الشيخ- رحمه الله- بقي إلى ليلة الاثنين العشرين من ذي القعدة الحرام وتوفي إلى رحمه الله تعالى ورضوانه في بكرة ذلك اليوم وذلك من سنة ثمان وعشرين وسبع مئة وهو على حاله، مجاهدا في ذات الله تعالى، صابرا، محتسبا لم يجبن ولم يهلع، ولم يضعف، ولم يتتعتع، بل كان إلى حين وفاته مشتغلا بالله عن جميع ما سواه.[٣]

---

١) البزار: الأعلام العلية: ص٨٤.

٢) ابن عبد الهادي: العقود ص٣٦١.

٣) الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، ٨٣-٨٤.

الباب الأول

منهج شيخ الإسلام في مسائل الإيمان والتوحيد، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول:

منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في

الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في مسائل الإيمان

وفيه مباحث:

المبحث الأول: منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في زيادة الإيمان ونقصانه ، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الإيمان عند شيخ الإسلام ابن تيمية لغة واصطلاحا.

المطلب الثاني: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في زيادة الإيمان ونقصانه.

المطلب الثالث : قول شيخ الإسلام ابن تيمية في زيادة الإيمان ونقصانه.

المطلب الأول

مفهوم الإيمان عند شيخ الإسلام ابن تيمية لغة واصطلاحا

أولا: الإيمان لغة عند شيخ الإسلام

الإيمانُ في الاشتقاق اللغويّ: مصدرُ آمن يؤمن إيمانًا فهو مؤمنٌ ، وأصل آمن: أأمن بهمزتين لُيِّنَت الثانية، وهو من الأمن ضدّ الخوف ، وقال الراغب: أصل الأمن طمأنينة النفس وزوال الخوف ١.

وذهب كثير من أهل اللغة- خاصة المتأخرين منهم- إلى تعريف الإيمان بالتصديق، ومنهم ابن منظور في لسان العرب، الذي قال: والإيمان : ضد الكفر . والإيمان : بمعنى التصديق ، ضده التكذيب.

قول ابن تيمية:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: "الإيمان أصله الإيمان الذي في القلب، ولا بد فيه من شيئين: تصديق القلب، وإقراره ومعرفته، ويقال لهذا قول القلب.

ولابد فيه من عمل القلب، مثل حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم. وغير ذلك من أعمال القلوب، التي أوجبها الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وجعلها من الإيمان"٢.

وقال أيضاً: "الإيمان وإن كان يتضمن التصديق، فليس هو مجرد التصديق، وإنما هو الإقرار والطمأنينة، وذلك لأن التصديق إنما يعرض للخبر فقط، فأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر، وكلام الله خبر وأمر، فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمر يستوجب الانقياد له والاستلام، وهو عمل في القلب جماعة الخضوع والانقياد للأمر فإذا قوبل الخبر بالتصديق، والأمر بالانقياد، فقد حصل أصل الإيمان في القلب، وهو الطمأنينة والإقرار، وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد"٣.

وبناءً على ذلك فإن ابن تيمية يرى أن تعريف الإيمان من الناحية اللغوية لا يكون بانتزاع اللفظ المجرد من سياقه العام، وأن التعريف اللغوي المجرد له من الممكن ألا يكون جامعا مانعا، وأن العصمة في ذلك تكون للكتاب والسنة لأن صاحب الشرع أعلم بمراده.

---

١) تهذيب اللغة ١٥/ ٥١٣ ،و الصحاح ٥/ ٢٠٧١، والقاموس المحيط» ١٥/ ١٨.

٢) كتاب الإيمان، ١٧٦.

٣) كتاب الإيمان ، ١٢٠.

وبين ابن تيمية بأن الإيمان هو الإقرار والالتزام والتصديق والانقياد والاستسلام، لأن التصديق وحده يشمل ما يعرض للخبر فقط، وكلام الله خبر وأمر يستوجب الانقياد والتسليم والخضوع.

تعريف الإيمان اصطلاحا عند ابن تيمية:

اعتمد شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– على منهج الصحابة والتابعين في تعريف مفهوم الإيمان حيث أكد الكثير من العلماء إجماع السلف على أنه قول وعمل وعقيدة ، وورد في ذلك أيضا الكثير من النصوص الشرعية والآثار المروية عن الصحابة والتابعين، ومن ذلك:

ما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم: " ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلّي ، ولكن ما وقر في القلب وصدَّقهُ الفعلُ ، العلمُ عِلْمان : علمٌ باللسان ، وعلمٌ بالقلب ، فعلمُ القلب العلم النافع ، وعلمُ اللسان حُجَّةُ الله على ابن آدم "[١].

وقد نقل ابن تيمية رحمه الله ما ذكره علماء السلف عن اتفاق الصحابة والتابعين على ذلك فقال:

قال الإمام البغوي: "اتفقت الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنة على أن الأعمال من الإيمان.. وقالوا: إن الإيمان قول وعمل وعقيدة "[٢].

وقال الحافظ ابن عبد البر: "أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل ولا عمل إلا بنية... إلا ما ذكر عن أبي حنيفة وأصحابه فإنهم ذهبوا إلى أن الطاعات لا تسمى إيماناً...".[٣]

قال الإمام الشافعي" وكان الإجماع من الصحابة، والتابعين من بعدهم ممن أدركنا: أن الإيمان قول وعمل ونية لا يجزئ واحد من الثلاثة عن الآخر" [٤]

يفرق شيخ الإسلام ابن تيمية في تعريف معنى الإيمان اصطلاحا، بين الإيمان في باب تصديق الخبر، وبين الإيمان في تنفيذ الأمر والطلب، بقوله: "الإيمان وإن كان يتضمن التصديق، فليس هو مجرد التصديق، وإنما هو الإقرار والطمأنينة، وذلك لأن التصديق إنما يعرض للخبر فقط، فأما الأمر فليس فيه تصديق من حيث هو أمر، وكلام الله خبر وأمر، فالخبر يستوجب تصديق المخبر، والأمر يستوجب الانقياد له والاستلام، وهو عمل في

١) أخرجه البيهقي، في شعب الإيمان، حديث رقم ٦٥.
٢) كتاب الإيمان ، ص١٢٠.
٣) المرجع السابق.
٤) الأم للشافعي ، ص٥٠.

القلب جماعة الخضوع والانقياد للأمر فإذا قوبل الخبر بالتصديق، والأمر بالانقياد، فقد حصل أصل الإيمان في القلب، وهو الطمأنينة والإقرار، وذلك إنما يحصل إذا استقر في القلب التصديق والانقياد"[1].

وقال أيضا في تفسير سورة البقرة: ثم قالوا : ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ {البقرة:٢٨٥}، فهذا إقرار منهم بركني الإيمان الذي لا يقوم إلا بهما وهما السمع المتضمن للقبول ؛ لا مجرد سمع الإدراك المشترك بين المؤمنين والكفار ؛ بل سمع الفهم والقبول و" الثاني " الطاعة المتضمنة لكمال الانقياد وامتثال الأمر وهذا عكس قول الأمة الغضبية سمعنا وعصينا" ٢.

وخلاصة القول:

فإن لمصطلح الإيمان عند شيخ الإسلام جانبين، وهما تصديق خبر الله ويتضمن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وجانبان عمليان هما تنفيذ الأمر والطلب، وفيه يتلازم عمل القلب وعمل الجوارح. وهو ما يتفق مع منهج السلف في ذلك.

وقد اعتمد منهج ابن تيمية رحمه الله في تعريف الإيمان على استقراء معنى لفظ الإيمان من النصوص الشرعية الواردة في الكتاب والسنة، واتفاق الصحابة والتابعين ومن تبعهم من علماء أهل السنة الذين سبقوه، على تحديد المعنى الذي لا يناقض المنقول.

---

١) كتاب الإيمان، ١٢٠

٢) دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية ، ١ /٢٥١.

المطلب الثاني

الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في زيادة الإيمان ونقصانه

أكد شيخ الإسلام ابن تيمية في أكثر من موضع، إجماع أهل السنة والجماعة على أن الإيمان يزيد وينقص، وأورد أن منهم من قال إن الإيمان يزيد ولا ينقص باعتمادهم على ما ثبت لديهم من النصوص، فالإجماع عند السلف كما أكد شيخ الإسلام معتمده موافقة النص فقال:" استقرأنا موارد الإجماع فوجدناها كلها منصوصة"[١].

ويرى شيخ الإسلام أن المشهور هو زيادة الإيمان، لوجود الدليل على ذلك صراحة في النصوص الشرعية، أما الإمساك عن القول بنقصان الإيمان فهو مذهب من التزم النصوص التي لم تتحدث عن النقص، ورغم ذلك فقد رجح شيخ الإسلام القول الأول وهو زيادة الإيمان ونقصانه، فلم يأت ابن تيمية بقول ثالث، لأنه يرى- كما أوضحنا- أن الإجماع على القول الأول، وأن الثاني هو أحد قولي بعض تابعي التابعين، وأن القولين لهما ما يؤيدهما من الشرع، وبالتالي فإن إحداث قول ثالث يعد خروجا على هذا الإجماع بغير دليل.

وقال: "ولهذا كان أهل السنة والحديث على أنه يتفاضل، وجمهورهم يقولون: يزيد وينقص، ومنهم من يقول: يزيد، ولا يقول: ينقص، كما روي عن مالك ، ومنهم من يقول: يتفاضل، كعبد اللّه بن المبارك[٢]، وقد ثبت لفظ الزيادة والنقصان منه عن الصحابة، و لم يعرف فيه مخالف من الصحابة، فروى الناس من وجوه كثيرة مشهورة، عن حماد بن سلمة[٣]، عن أبي جعفر، عن جده عُمَيْر بن حَبِيب الخَطْمِيّ[٤] وهو من أصحاب رسول

---

١) مجموع الفتاوى، ١٩/١٩٧

٢) عبدالله بن المبارك بن واضح الحنظلي، المروزي،أحد الفقهاء الأعلام، وُلد عبدالله بن المبارك بمروَ، سنة ثمان عشرة ومائة؛ (تاريخ دمشق لابن عساكر جـ ٣٢ صـ: ٤٠٢)، (وفيات الأعيان لابن خلكان ــ جـ ٣ صـ ٣٢)، طلب عبدالله بن المبارك العلم وهو ابن عشرين سنةً، فخرج إلى الحرمين، والشام، ومصر، والعراق، والجزيرة، وخراسان؛ (سير أعلام النبلاء للذهبي جـ ٨ صـ ٣٨١)، توفي عبدالله بن المبارك (رحمه الله) لعَشْرٍ مضَتْ من شهر رمضان، سنة إحدى وثمانين ومائة، منصرفًا من الغزو في سبيل الله، ودفن بهيت (قرية على نهر الفرات)، وله ثلاث وستون سنةً؛ (الطبقات الكبرى لابن سعد جـ ٧ صـ ٣٤٢)، (تاريخ بغداد للخطيب البغدادي جـ ١١ صـ ٤٠٠).

٣) حماد بن سلمة ، ابن دينار ، الإمام القدوة ، شيخ الإسلام أبو سلمة البصري ، النحوي ، البزاز ، الخرقي ، البطائني ، مولى آل ربيعة بن مالك ، وابن أخت حميد الطويل . قال أحمد بن حنبل : هو أعلم من غيره بحديث علي بن زيد بن جدعان . قال علي بن المديني : كان عند يحيى بن ضريس الرازي ، عن حماد بن سلمة ، عشرة آلاف حديث . قلت : يعني بالمقاطيع والآثار، انظر:سير أعلام النبلاء، ٧/٤٤٧.

٤) أبو جعفر الخطمي فهو عمير بن يزيد بن عمير بن حبيب الأنصاري المدني ثم البصري وهو ثقة من رجال الأربعة، روى عن أبيه وعمارة بن خزيمة وآخرين، وعنه هشام الدستوائي وشعبة وروح بن القاسم وحماد بن سلمة ويحيى القطان وآخرون، وقال الحافظ في تهذيب التهذيب: وثقه ابن معين والنسائي، وابن نمير والعجلي والطبراني، وذكره ابن حبان في الثقات وأثنى عليه ابن مهدي، انظر: التهذيب، ١٢/٥٨.

اللّه صلى الله عليه وسلم قال: الإيمان يزيد وينقص، قيل له: وما زيادته وما نقصانه؟ قال: إذا ذكرنا اللّه وحمدناه وسبحناه فتلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا فتلك نقصانه، وروى إسماعيل بن عَيَّاش عن جَرير بن عثمان، عن الحارث بن محمد عن أبي الدرداء1 ، قال: الإيمان يزيد وينقص"[2].

ويشرح ابن تيمية موقف من قال من السلف بزيادة الإيمان فقط دون نقصانه، بأنهم ملتزمون بالنص الذي تحدث عن الزيادة، و لم يتحدث عن النقص.

فقال رحمه الله: "وكان بعض الفقهاء من أتباع التابعين لم يوافقوا في إطلاق النقصان عليه. لأنهم وجدوا ذكر الزيادة في القرآن، و لم يجدوا ذكر النقص، وهذه إحدى الروايتين عن مالك".3

ثم يذكر ابن تيمية ما روي عن السلف في زيادة الإيمان ونقصانه وأدلتهم على ذلك من الشرع الشريف فيقول: وقال أحمد بن حنبل: حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن طلحة، عن زُبَيْدٍ، عن ذَرٍّ قال: كان عمر بن الخطاب يقول لأصحابه: هلموا نَزْدَدْ إيماناً، فيذكرون اللّه عز وجل4، وقال أبو عبيده في الغريب في حديث على: إن الإيمان يبدو لُمَظَةً في القلب، كلما ازداد الإيمان ازدادت اللُّمظَة،يروي ذلك عن عثمان بن عبد الله عن عمرو ابن هند الجملي عن علي قال الأصمعي: اللُّمْظَة: مثل النكتة أو نحوها6.7 وقال أحمد بن حنبل: حدثنا وَكِيعٌ8،

١) الإمام القدوة . قاضي دمشق ، وصاحب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أبو الدرداء عويمر بن زيد بن قيس ويقال : عويمر بن عامر ، ويقال : ابن عبد الله . وقيل : ابن ثعلبة بن عبد الله ، الأنصاري الخزرجي، روى عن النبي – صلى الله عليه وسلم- عدة أحاديث، وهو معدود فيمن تلا على النبي – صلى الله عليه وسلم- و لم يبلغنا أبدا أنه قرأ على غيره، وهو معدود فيمن جمع القرآن في حياة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وتصدر للإقراء بدمشق في خلافة عثمان وقبل ذلك، انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي ، ٢/٣٣٧.

٢) شعب الإيمان، البيهقي، حديث رقم: ٥٤.

٣) مجموع الفتاوى، ٧/٥٠٦

٤) شرح اعتقاد أهل السنة، اللالكائي (١٧٠٠) والبيهقي في شعب الإيمان، وانظر مسائل الإمام أحمد برواية حرب الكرماني ص ٣٧٠.

٥) الإمام الحافظ المجتهد ذو الفنون أبو عبيد ، القاسم بن سلام بن عبد الله ، مولد أبي عبيد سنة سبع وخمسين ومائة، وكتاب " الغريب " مروي أيضا ، وكتاب " فضائل القرآن " وقع لنا ، وكتاب " الطهور " ، وكتاب " الناسخ والمنسوخ " وكتاب " المواعظ " ، وكتاب " الغريب المصنف في علم اللسان " ،مات سنة أربع وعشرين ومائتين بمكة، انظر: سير أعلام النبلاء: ١٠/٤٩٢ ومعجم الأدباء ٤/٥٦٢، طبقات ابن سعد ٧/٣٥٥تاريخ بغداد ١٢/٤٠٣.

٦) غريب الحديث، لأبي عبيدة، ٣/٤٦٠

٧ مجموع الفتاوى، ٧/٢٢٤

٨) وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي بن فرس بن جمجمة بن سفيان بن الحارث بن عمرو بن عبيد بن رؤاس الإمام الحافظ محدث العراق أبو سفيان الرؤاسي الكوفي أحد الأعلام ولد سنة تسع وعشرين ومئة قاله أحمد بن حنبل وقال خليفة وهارون بن حاتم ولد سنة ثمان وعشرين واشتغل في الصغر.

عن شَرِيك،عن هلال، عن عبد اللّه بن عُكَيْم قال: سمعت ابن مسعود يقول في دعائه: "اللهم زدنا إيماناً ويقيناً وفقهاً"١.٢

وروي سفيان الثوري٣، عن جامع بن شداد، عن الأسود بن هلال قال: كان معاذ بن جبل يقول لرجل: "اجلس بنا نؤمن نذكر اللّه تعالى"٤.٥

وروى أبو اليَمَان: أن عبد اللّه بن رواحة٦ ،كان يأخذ بيد الرجل من أصحابه فيقول: قم بنا نؤمن ساعة، فنحن في مجلس ذكر وهذه الزيادة أثبتها الصحابة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن كله٧.

وقال جُنْدُب بن عبد اللّه٨ ، وابن عمر وغيرهما: تعلمنا الإيمان، ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً٩.

قال مالك بن دينار: "الإيمان يبدو في القلب ضعيفاً ضئيلاً كالبَقْلَة، فإن صاحبه تعاهده فسقاه بالعلوم النافعة والأعمال الصالحة، وأماط عنه الدَّغَل وما يضعفه ويُوهِنه، أوشك أن ينمو أو يزداد، ويصير له أصل

ورؤاس بطن من قيس عيلان، قال أحمد بن حنبل: كان وَكِيع مطبوع الحفظ،كان حافظًا حافظًا، توفي وَكِيع بن الجرَّاح (رحمه الله) بعد أداء مناسك الحج، يوم عاشوراء، في المحرم سنة سبعٍ وتسعين ومائة في خلافة محمد بن هارون،مات وَكِيع وهو ابن ست وستين سنة، تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ١٥/ ٦٤٧، الطبقات الكبرى لابن سعد ٦/ ٣٩٤.

١) الإبانة، لابن بطة ، حديث رقم ١١٣٢.

٢) مجموع الفتاوى، ٧/٢٢٥

٣) هو سُفْيان بن سعيد بن مسروقٍ الثَّوري،إمام الحفاظ في زمانه، ولد سُفْيان الثَّوري سنة سبعٍ وتسعين في خلافة سليمان بن عبدالملك، كان من أصحاب الشعبي، وخيثمة بن عبدالرحمن، ومن ثقات الكوفيين، وعداده في صغار التابعين،روى له الجماعة الستة في دواوينهم. وحدث عنه: أولاده: سُفْيان الإمام، وعمر، ومبارك، وشعبة بن الحجاج، وزائدة، وأبو الأحوص، وأبو عوانة، وعمر بن عبيدٍ الطنافسي، وآخرون،ومات سنة ست وعشرين ومائة، انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي ٧/ ٢٣٠، الطبقات الكبرى لابن سعد ٦/ ٣٧١.

٤) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب الإيمان، ١/١١.

٥) مجموع الفتاوى، ٧/٢٢٥.

٦) هو الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة بن ثعلبة بن امرئ القيس الأنصاري الخزرجي أبو محمد، ويقال أبو رواحة، ويقال أبو عمرو، المدني، شهد بدرا وبيعة العقبة، وهو أحد النقباء، وأحد الأمراء في غزوة مؤتة واستشهد بها، انظر: سير أعلام النبلاء" (٢/ ٩٠) .

٧)رواه ابن أبي شيبة في مصنفه ٦/١٧٠، حديث رقم ٣٠٤٢٦،إسناده حسن.

٨) جندب بن عبد الله ، ويقال : جندب بن كعب ، أبو عبد الله الأزدي صاحب النبي صلى الله عليه وسلم ، روى عن النبي ، وعن علي ، وسلمان الفارسي ، حدث عنه : أبو عثمان النهدي ، والحسن البصري ، وتميم بن الحارث ، وحارثة بن وهب، قدم دمشق ، ويقال له : جندب الخير ، وهو الذي قتل المشعوذ، روى خالد الحذاء انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، ٣/١٧٧.

٩) أخرجه ابن ماجة في المقدمة، باب الإيمان، ١/٢٣، حديث رقم ٦١، إسناده صحيح، السنن الكبرى، البيهقي في ٣/١٢٠، حديث رقم ٥٠٧٥، وشرح اعتقاد أهل السنة، اللالكائي في الاعتقاد، ٢/٤٨، حديث رقم ١٧١٥.

وفروع، وثمرة وظل إلى ما لا يتناهى حتى يصير أمثال الجبال، وإن صاحبه أهمله و لم يتعاهده جاءه عَنْزٌ فنتفتها، أو صبي فذهب بها، وأكثر عليها الدَّغَل فأضعفها أو أهلكها أو أيبسها، كذلك الإيمان"[1].

وفي حديث حذيفة[2] ، الصحيح"حتى يقال للرجل: ما أجلده، ما أظرفه، ما أعقله، وما في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان"[3]، وفي حديثه الآخر الصحيح "تعرض الفتن على القلوب كالحَصِير عوداً عوداً، فأي قلب أشْرِبها، نُكِتَتْ فيه نُكْتَة سوداء، وأي قلب أنْكَرَها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود: مُرْبَادّا، كالْكُوز مُجَخِّياً، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب هواه"[4].[5]

وفي حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنة بغير حساب[6] كفاية، فإنه من أعظم الأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه؛ لأنه وصفهم بقوة الإيمان وزيادته في تلك الخصال التي تدل على قوة إيمانهم، وتوكلهم على الله في أمورهم كلها[7].

حدثنا أحمد قال: ثنا وكيع عن شريك ،عن هلال بن حميد، عن عبدالله بن عكيم قال:سمعت ابن مسعود يقول في دعائه:اللهم زدنا إيمانا ويقينا وفقها، وروى عن الإمام أحمد في باب زيادة الإيمان ونقصانه الكثير من أئمة السلف منهم الإمام الآجري و ابن بطة العكبري، واللالكائي، والخلال. [8]

---

١) مجموع الفتاوى، ٢٢٥/٧.

٢) هو الصحابي الجليل حذيفة بن حِسْل – ويقال حُسيل – بن جابر بن عمرو بن ربيعة بن جروة بن الحارث بن مازن بن قطيعة بن عبس، العبسي القطيعي ، حليف لبني عبد الأشهل من الأنصار، وروى حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم الكثير ، وضبط عنه الفتن الكائنة في الأمة ، هو الذي ندبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب ليجس له خبر العدو ، وعلى يده فتح الدينور عنوة . "سير أعلام النبلاء" (٢ / ٣٦٢-٣٦٤).

٣) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب إذا بقي في حثالة من الناس ، حديث رقم:٦٦٧٥، ومسلم، كتاب الإيمان، ٢٠٦/١، حديث رقم:١٤٣، وسنن الترمذي، كتاب الفتن، ٢١٢/٤، حديث رقم:٢١٧٩.

٤) مسلم في الإيمان؛ باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، وأنه يأرز بين المسجدين ، رقم: (١٤٤).

٥) مجموع الفتاوى، ٢٢٦/٧.

٦) انظر: صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب يدخل الجنة سبعون ألفا بغير حساب، حديث رقم: ٦١٧٥..

٧) مجموع الفتاوى، ٢٢٦/٧.

٨) السنة ، عبدالله بن أحمد ٣٦٩/١، مسائل الإمام أحمد برواية حرب الكرماني ٣٧٠.

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – ، أن رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – ، قال : " إن المؤمن إذا أذنب ذنبا كانت نكتة سوداء في قلبه ، فإن تاب ونزع واستغفر سقل منها قلبه ، وإن زاد زادت حتى يعلق بها قلبه فذلك الران الذي ذكر الله في كتابه : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤][١].

عن عبد الله بن عمر بن العاص عن الرسول الله صلى الله عليه وسلم انه قال : ليأتينَ على الناس زمان يجتمعون في المساجد وليس فيهم مؤمن"[٢].

وقال: "عن أبي أمامة قال : من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان"[٣].

قال ابن بطة – رحمه الله – " ثم جعل المؤمنين في الإيمان متفاضلين، أي: أن أهل الإيمان بينهم تفاضل، فهو عند فلان كثير وعند آخر قليل، فأهل الإيمان في إيمانهم يتفاضلون، ورفع بعضهم فوق بعض درجات، ثم جعله فيهم يزيد ويقوى بالمعرفة والطاعة، وينقص ويضعف بالغفلة والمعصية. وبهذا نزل الكتاب، وبه مضت السنة، وعليه أجمع العقلاء من أئمة الأمة، ولا ينكر ذلك ولا يخالفه إلا مرجئ خبيث قد مرض قلبه، وزاغ بصره، وتلاعبت به إخوانه من الشياطين، فهو من الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠٢]

وأما ذكر الحجة في ذلك مما دل عليه القرآن، وجاءت به السنة من رسول الله صلي الله عليه وسلم، وقاله علماء المسلمين، وما سمعه المؤمن العاقل الذي قد أحب الله خيره انشرح صدره لقبوله والله ولي التوفيق"[٤].

خلاصة القول:

هذه الآثار التي أوردها ابن تيمية عن السلف في باب زيادة الإيمان ونقصانه، شملت أقوال النبي صلى الله عليه وسلم، وأقوال الصحابة والتابعين لإثبات سلامة اعتقاده بما يوافق الشرع الشريف.

وهي كافية شافية في عرض منهج السلف في أن الإيمان يزيد وينقص يزيد بفعل الطاعات وينقص بارتكاب المحرمات.

---

١) المستدرك على الصحيحين، تفسير سورة المطففين، حديث رقم: ٣٩٦٦.

٢) مشكل الآثار، الطحاوي (٥٩٠)، والحاكم في "المستدرك" (٨٣٦٥/٤٨٩/٤) وانظر: الشريعة للآجري ٥٨١.

٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ، ١٣٠/٧، حديث رقم: ٣٤٧٣٠.

٤) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة ، لابن بطة، الجزء السابع، ٣٩١/٢

وكما رأينا فإن الواضح من الآثار التي نقلها شيخ الإسلام عن السلف في هذه المسألة، قد اعتمدت على نصوص من الكتاب والسنة، وهو الثابت في منهجه رحمه الله، حتى عندما أورد الخلاف في المسألة فيما ورد عن السلف، احتج بأن عُمدة من قال بالزيادة فقط هو ما جاء في النصوص الشرعية، وبين أن من قال بالزيادة والنقصان، إنما كان لعدم وجود ما يمنع ذلك.

المطلب الثالث

قول شيخ الإسلام ابن تيمية في زيادة الإيمان ونقصانه

يتميز منهج شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- بالانضباط والفهم السليم، لقضية زيادة الإيمان ونقصانه، لاعتماده مذهب السلف في شموليته واعتداله، فهو يرى أن كل ركن من أركان الإيمان قد يزيد إلى أن يصل إلى مرتبة الكمال ، وقد ينقص إلى أن يصل إلى التلاشي والزوال، ، وقد يكون في مترلة وسط يتردد بين الطاعة والمعصية وبين الكفر والإيمان وبين الإخلاص والنفاق، فإذا زاد أحدهما قل الآخر، وإذا قل أحدهما، زاد الآخر.

قال ابن تيمية: " وتمام هذا أن الإنسان قد يكون فيه شعبة من شعب الإيمان وشعبة من شعب النفاق وقد يكون مسلما وفيه كفر دون الكفر الذي ينقل عن الإسلام بالكلية كما قال الصحابة ابن عباس وغيره كفر دون كفر وهذا قول عامة السلف".١.

الزيادة والنقصان في جميع أركان الإيمان

يؤكد شيخ الإسلام ابن تيمية أن التفاوت في الإيمان يشمل جميع أركانه، فهو يتفاوت في المعرفة والتصديق والعمل:

قال رحمه الله- : "إن التصديق نفسه يتفاضل كنهه، فليس ما أثنى عليه البرهان بل تشهد له الأعيان، وأميط عنه كل أذى وحسبان، حتى بلغ أعلى درجات الإيقان، كتصديق زعزعته الشبهات، وصدقته الشهوات، ولعب به التقليد، ويضعف لشبه المعاند العنيد، وهذا أمر يجده من نفسه كل منصف رشيد"٢.

وقال: "ولا ريب أن المؤمنين يعرفون رهم في الدنيا ويتفاوتون في درجات العرفان والنبي صلى الله عليه وسلم أعلمنا بالله . وقد قال : "لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك".٣

ويؤكد أن: "هذا يتعلق بمعرفة زيادة المعرفة ونقصها المتعلقة بمسألة زيادة الإيمان ونقصه وهي مسألة كبيرة . والذي مضى عليه سلف الأمة وأئمتها : أن نفس الإيمان الذي في القلوب يتفاضل كما قال النبي صلى الله عليه وسلم " أخرجوا من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان " ٤ وأما زيادة العمل الصالح الذي على الجوارح

---

١) كتاب الإيمان لابن تيمية ص٣٠٠

٢) الفتاوى، ٦/٤٨٠

٣) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة ، باب ما يقال في الركوع والسجود برقم (٤٨٢).

٤) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم برقم:(٧٥٠٩) .

ونقصانه فمتفق عليه وإن كان في دخوله في مطلق الإيمان نزاع وبعضه لفظي مع أن الذي عليه أئمة أهل السنة والحديث – وهو مذهب مالك والشافعي وغيرهم – أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص" ١.

الإيمان المطلق ومطلق الايمان:

يقرر شيخ الإسلام ابن تيمية أن هناك نوعين من الإيمان في باب الكمال والنقصان، أحدهما يقرب صاحبه بالطاعات إلى منازل الانبياء والصالحين وهو الإيمان الكامل بكل ما أنزل الله ويطلق عليه الإيمان المطلق، والنوع الآخر هو مطلق الإيمان أو الإيمان الناقص، أو المقيد.

قال –رحمه الله-: " ويقولون: هو مؤمنٌ ناقصُ الإيمان، أو مؤمنٌ بإيمانه فاسقٌ بكبيرته؛ فلا يُعْطَى الاسْمَ المُطْلَقَ ولا يُسْلَبُ مُطْلَقَ الاسْمِ"٢.

تقرير عقيدة أهل السنة في زيادة الإيمان ونقصانه:

يؤكد ابن تيمية أن عقيدة أهل السنة تمثل الفهم الصحيح، وتترجم النقل الشريف وتحترم العقل السليم، في قضية زيادة الإيمان ونقصانه، ويقرر بأن هذه الطريقة الوسطى المؤدية إلى النجاة من الإفراط في إخراج من لم يخرجه الشرع من الملة، أو الإفراط في مساواة كل من نطق الشهادة بإيمان النبي وصحابته الكرام، كما يفعل أهل البدع.

وأثنى شيخ الإسلام على منهج أهل السنة في زيادة الإيمان ونقصانه فقال–رحمه الله-:

"وهُم مع ذلك لا يُكَفِّرون أهل القِبْلة بمُطلق الْمَعاصي والكبائر، كما يفعله الخوارج، بل الأُخُوَّة الإيمانيَّة ثابتةٌ مع المعاصي، كما قال- سبحانه وتعالى – في آية القصاص: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ {البقرة:١٧٨} وقال:﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ {الحجرات :٩-١٠} ولا يَسْلُبون الفاسق الْمِلِّيَّ اسم الإيمان بالكلِّية، ولا يُخلِّدونه في النار كما تقوله المعتزلة، بل الفاسق يَدْخل في اسم الإيمان، في مثْلِ قوله تعالى: ﴿ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ﴾ {النساء:٩٢} وقد لا يَدْخل في اسم الإيمان الْمُطْلَق، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُون ﴾ {الأنفال:٢}

وقول النبيِّ- صلَّى الله عليه وسلَّم: "لا يَزْنِي الزَّاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السَّارقُ حينَ يَسْرق وهو مؤمن، ولا يَشرب الْخَمر حين يشربُها وهو مؤمن، ولا يَنْتهب نُهْبةً ذاتَ شرَفٍ يرفع الناسُ إليه فيها أبصارَهم

١) مجموع الفتاوى ٦/ ٤٧٩

٢) العقيدة الواسطية، لابن تيمية ،١١٤.

حين ينتهِبُها وهو مؤمن".[1] ويقولون: هو مؤمنٌ ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه، فاسقٌ بِكَبيرته، فلا يُعطَى الاسم الْمُطْلق، ولا يُسْلب مطْلَق الاسم"[2].

خلاصة أقوال شيخ الإسلام في زيادة الإيمان ونقصانه

يوافق شيخ الإسلام- رحمه الله- منهج السلف في تقرير زيادة الإيمان ونقصانه، ويعتبر ذلك من أصول أهل السنة والجماعة لموافقته المنقول في الكتاب والسنة، وتأييد المعقول لدى أصحاب الفهم السليم.

---

١) أخرجه البخاري في كتاب الحدود، باب الزنا وشرب الخمر برقم (٦٧٧٢).

٢) العقيدة الواسطية لابن تيمية، ٢٧٠-٢٧٣

المبحث الثاني

منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الاعتماد علي الآثار الواردة عن السلف في دخول العمل في مسمى الإيمان، وفيه ثلاثة مطالب.

المطلب الأول: **شرح دخول العمل في مسمى الإيمان.**

المطلب الثاني: **الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في دخول العمل في مسمى الإيمان.**

المطلب الثالث: **قول شيخ الإسلام ابن تيمية في دخول العمل في مسمى الإيمان.**

المطلب الأول

شرح دخول العمل في مسمى الإيمان.

قرر أهل السنة والجماعة أن الإيمان هو تصديق بالجنان وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان، كما جاء بذلك القرآن الكريم والسنة النبوية، فمنهم من قال: إنه تصديق بالقلب، وقول باللسان وعمل بالجوارح ونية واتباع السنة[1]. وقد أجمع السلف على أن العمل ركن من أركان الإيمان، لا يمكن أن يكون هناك إيمان بغير عمل، ويشمل العمل لدى أهل السنة عمل القلب والجوارح.

وقال الإمام أبو ثور لما سئل عن الإيمان ما هو؟: (فاعلم يرحمنا الله وإياك أن الإيمان تصديق بالقلب والقول باللسان وعمل بالجوارح، وذلك أنه ليس بين أهل العلم خلاف في رجل لو قال: أشهد أن الله عز وجل واحد، وأن ما جاءت به الرسل حق، وأقر بجميع الشرائع، ثم قال: ما عقد قلبي على شيء من هذا ولا أصدق به أنه ليس بمسلم ولو قال: المسيح هو الله، وجحد أمر الإسلام، قال لم يعتقد قلبي على شيء من ذلك أنه كافر بإظهار ذلك وليس بمؤمن، فلما لم يكن بالإقرار إذا لم يكن معه التصديق مؤمناً ولا بالتصديق إذا لم يكن معه الإقرار مؤمناً، حتى يكون مصدقاً بقلبه مقراً بلسانه فإذا كان تصديق بالقلب وإقرار باللسان كان عندهم مؤمناً وعند بعضهم لا يكون حتى يكون مع التصديق عمل، فيكون بهذه الأشياء إذا اجتمعت مؤمناً..."[2].

عمل القلب:

تنقسم أعمال العبد إلى نوعين أحدهما ظاهر في أعمال البدن والجوارح من حركات وسكنات ونحوها، وأعمال باطنة وهي ما يدور في القلوب وتسري عليها الأحكام الشرعية من محبة وإخلاص وتوكل وخوف ورجاء وما يتبعها من لوازم العبودية ومنها ما هو محرم كالحسد والتباغض ونحوها كما ترتبط أركان الإيمان كلها بأعمال القلوب ويؤيد ذلك الثابت من الكتاب والسنة.

---

١) انظر المبحث الأول، المطلب الأول، مفهوم الإيمان عند شيخ الإسلام ابن تيمية لغة واصطلاحا

٢) شرح اعتقاد أهل السنة، اللالكائي، ٤/٨٤٩- ٨٥٠

قال أبو هريرة رضي الله عنه : "القلب ملك والأعضاء جنوده فإذا طاب الملك طابت جنوده وإذا خبث الملك خبثت جنوده"١، وعن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب"٢.

وقال ابن تيمية – رحمه الله - : " وقول أبي هريرة تقريب. وقول النبي صلى الله عليه وسلم أحسن بيانا؛ فإن الملك وإن كان صالحا فالجند لهم اختيار قد يعصون به ملكهم وبالعكس، فيكون فيهم صلاح مع فساده أو فساد مع صلاحه، بخلاف القلب فإن الجسد تابع له لا يخرج عن إرادته قط، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا صلحت صلح لها سائر الجسد وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد، فإذا كان القلب صالحا بما فيه من الإيمان علما وعملا قلبيا، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق، كما قال أئمة أهل الحديث: قول وعمل: قول باطن وظاهر، وعمل باطن وظاهر. والظاهر تابع للباطن لازم له، متى صلح الباطن صلح الظاهر، وإذا فسد فسد، ولهذا قال من قال من الصحابة عن المصلي العابث: لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه"٣. وقال عثمان رضي الله عنه: "ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه"٤.

أعمال الجوارح:

هي الأصل الثالث من أصول وأركان الإيمان التي تظهر الإيمان الباطن المكنون في قلوب العباد على أعمال البدن الظاهرة، وتبدأ بأعمال اللسان من تلاوة وتسبيح ونطق بالشهادة والتهليل والتكبير والتحميد والذكر وأعمال الصلاة التي هي عماد الإسلام وغيرها من العبادات التي تستلزم الألفاظ المنطوقة باللسان كالتلبية في الحج، ثم تأتي بعد ذلك أعمال الجوارح الأخرى التي تليق للجهاد في سبيل الله عز وجل وغيره من سائر الطاعات. وهو الثابت في الكتاب والسنة وإجماع السلف، كما سنرى.

---

١) رواه عبد الرزاق في "المصنف"،١١/ ٢٢١، وشعب الإيمان، البيهقي ١/ ١٣٢.

٢) رواه البخاري كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ١/ ٢٨ (٥٢)، ومسلم في كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات ٣/ ١٢١٩ (١٥٩٩).

٣) مجموع الفتاوى، ٧/ ١٨٧.

٤) الآداب الشرعية، لابن مفلح، ١/ ١٦١.

المطلب الثاني

الآثار التي حكاها ابن تيمية عن السلف في دخول العمل في مسمى الإيمان

بينا في المطلب السابق، منهج شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله– من دخول العمل في مسمى الإيمان، وفي هذا المطلب نتابع بيان منهجه من خلال الآثار التي اعتمد عليها في هذه المسألة،

ذكر شيخ الإسلام– رحمه الله– أن السلف أجمعوا على دخول العمل في مسمى الإيمان وذكر منهم الكثير من التابعين وتابعي التابعين وتابعيهم، ويعتبر ابن تيمية الإجماع حجة شرعية من أدلة الأحكام الواجب اتباعها في قوله:

"الطريق الرابع– أي من الطرق التي ثبت بها الأحكام– الإجماع، وهو متفق عليه بين عامة المسلمين"[١]

قال رحمه الله: " وقد حكى غير واحد إجماع أهل السنة والحديث على أن الايمان قول وعمل قال ابو عمر بن عبدالبر[٢] ، في التمهيد أجمع أهل الفقه والحديث على ان الايمان قول وعمل ولا عمل الا بنية.

وأما سائر الفقهاء من أهل الرأي والآثار بالحجاز والعراق والشام ومصر منهم مالك بن أنس والليث بن سعد وسفيان الثوري والأوزاعي والشافعي وأحمد بن حنبل واسحاق بن راهويه وأبو عبيد القاسم بن سلام وداود بن على والطبري ومن سلك سبيلهم فقالوا الإيمان قول وعمل قول باللسان وهو الإقرار واعتقاد بالقلب وعمل بالجوارح مع الإخلاص بالنية الصادقة قالوا وكل ما يطاع الله عز وجل به من فريضة ونافلة فهو من الايمان"[٣].

كما نقل ابن تيمية أيضا عن أبي عمرو الطلمنكي، قال ابن تيمية: " وكذلك ذكر ابو عمرو الطلمنكى[٤] اجماع أهل السنة على أن الايمان قول وعمل ونية واصابة السنة وقال أبو طالب المكي مباني الاسلام الخمسة

---

١) مجموع الفتاوى، ٣٤١/١١.

٢) هو أبو عمر، يوسف بن عبد الله بن محمّد بن عبد البرّ بن عاصم النمريُّ الأندلسي. ولد ابن عبد البرّ بقُرطبة سنة (٣٦٨هـ)، وتلقّى العلمَ من كبار علماء عصره في مختلف مُدُن الأندلس، حدّث عنه: أبو محمّد ابن حزم، وأبو العباس بن دِلْهاث الدّلاني، والحافظ أبو علي الغساني وغيرهم، وعند عودة أبي الوليد الباجي من المشرق روى كل واحد منهما عن الآخر. ولابن عبد البر آثار علمية نافعة منها: «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد»، و«جامع بيان العلم وفضله»(، و«الاستيعاب في معرفة الأصحاب» و" التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد"، انظر: «الصلة» لابن بشكوال (٢/ ٦٧٧)، «وفيات الأعيان» لابن خلكان (٧/ ٦٦)، «سير أعلام النبلاء» للذهبي (١٨/ ١٥٧).

٣) مجموع الفتاوى، ٣٣٠/٧.

٤) الإمام المقرئ المحقق المحدث الحافظ الأثري ، أبو عمر ؛ أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي عيسى لب بن يحيى ، المعافري الأندلسي الطلمنكي . وطلمنك بفتحات ونون ساكنة : مدينة استولى عليها العدو قديما .كان من بحور العلم ، وأول سماعه في سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، سير أعلام النبلاء، ٥٦٨/١٧.

يعني الشهادتين والصلوات الخمس والزكاة وصيام شهر رمضان والحج قال وأركان الايمان سبعة يعني الخمسة المذكورة في حديث جبرائيل والايمان بالقدر والايمان بالجنة والنار وكلاهما قد رويت في حديث جبريل"[1].

ونقل شيخ الإسلام- رحمه الله أقوال الإمام أحمد في دخول العمل في مسمى الإيمان بقوله:

قال إسماعيل بن سعيد: "سألت أحمد في الإسلام والإيمان فقال : " الإيمان " قول وعمل والإسلام الإقرار. وقال: وسألت أحمد عمن قال في الذي قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم إذ سأله عن الإسلام فإذا فعلت ذلك فأنا مسلم ؟ فقال : نعم . فقال قائل : وإن لم يفعل الذي قال جبريل للنبي صلى الله عليه وسلم فهو مسلم أيضا ؟ فقال : هذا معاند للحديث"[2].

ونقل ابن تيمية عن حنبل ما رواه الحميدي قال: "وقال حنبل حدثنا الحميدي، قال: "وأخبرت أن قوما يقولون: إن من أقر بالصلاة والزكاة والصوم والحج و لم يفعل من ذلك شيئا حتى يموت، أو يصلي مسند ظهره مستدبر القبلة حتى يموت، فهو مؤمن ما لم يكن جاحدا، إذا علم أن تركه ذلك في إيمانه، إذا كان يقر الفروض واستقبال القبلة. فقلت: هذا الكفر بالله الصراح، وخلاف كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفعل المسلمين، قال الله عز وجل: ﴿ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥] قال حنبل: قال أبو عبدالله أو سمعته يقول: من قال هذا فقد كفر بالله ورد على الله أمره وعلى الرسول ما جاء به"[3].

ما رواه في المسند، قال: "فإن الإيمان في القلب والإسلام ظاهر كما في " المسند " عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : الإسلام علانية والإيمان في القلب والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره"[4].

---

١) مجموع الفتاوى، ٣٠٨/٧.

٢) المرجع السابق، ٣٧١/٧

٣) مجموع الفتاوى، ٢٠٩/٧.

٤) المرجع السابق، ٥٥٣/٧

ونقل شيخ الإسلام رحمه الله أيضا عن نصر المروزي، قال رحمه الله:

"قال محمد بن نصر : وقال الله تعالى : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [البينة:٥]، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾[آل عمران:١٩] ، فسمى إقام الصلاة وإيتاء الزكاة دينا قيما وسمى الدين إسلاما فمن لم يؤد الزكاة فقد ترك من الدين القيم – الذي أخبر الله أنه عنده الدين وهو الإسلام – بعضا "١.

ونقل عنه أيضا:" قال محمد بن نصر واستدلوا على ان الايمان هو ما ذكره بالآيات التي تلوناها عند ذكر تسمية الله الصلاة وسائر الطاعات ايمانا واستدلوا أيضا بما قص الله من اباء ابليس حين عصى ربه في سجدة واحدة أمر أن يسجدها لآدم فأباها فهل جحد ابليس ربه وهو يقول رب بما أغويتني ويقول رب فأنظرني الى يوم يبعثون ايمانا منه بالبعث وايمانا بنفاذ قدرته في انظاره إياه الى يوم يبعثون وهل جحد أحدا من أنبيائه أو أنكر شيئا من سلطانه وهو يحلف بعزته وهل كان كفره الا بترك سجدة واحدة أمر بها فاباها قال واستدلوا ايضا بما قص الله علينا من نبأ ابني آدم إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما و لم يتقبل من الآخر الى قوله فأصبح من الخاسرين قالوا وهل جحد ربه وكيف يجحده وهو يقرب القربان قالوا قال الله تعالى إنما يؤمن بآياتنا الذين اذا ذكروا بها خروا سجدا وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون و لم يقل اذا ذكروا بها اقروا بها فقط وقال الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به يعني يتبعونه حق اتباعه"٢.

وقال: "حدثنا أحمد قال: كان مالك يقول: الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص"٣.

وقال: "ثنا أَحمد، قال: ثنا إِبْرَاهِيمُ بن شَمَّاس، قَال: سَمِعْت جرير بن عبد الحمِيد، يقول: "الإيمان قوْل وعمل، يَزِيد وَيَنقص"٤.

١) مجموع الفتاوى ، ٣٧٧/٧

٢) مجموع الفتاوى، ٢١٧/٧.

٣) مسائل الإمام أحمد رواية أبي داود السجستاني، ٣٦٤/١، حديث رقم: ١٧٦٤

٤) المرجع السابق، ٣٦٤/١، حديث رقم ١٧٦٥.

الخلاصة:

يتبين مما سبق أن شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- اعتمد على آثار السلف التي توافق النصوص الشرعية، وليس لأنها مجرد أقوال لهم، وبالتالي فإن نظرة ابن تيمية إلى هذه الأقوال خاصة إذا كانت من الصحابة والتابعين وتابعيهم يعتبرها في حكم المرفوع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم باعتبار اعتمادها على النص.

المطلب الثالث

قول شيخ الإسلام ابن تيمية في دخول العمل في مسمى الإيمان

لشيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- أقوال مفصلة تعتمد على البراهين النقلية والعقلية في تقرير دخول العمل في مسمى الإيمان.

قال – رحمه الله: "وأما إذا قرن الإيمان بالإسلام فإن الإيمان في القلب والإسلام ظاهر كما في المسند، عن النبي أنه قال: "الإسلام علانية والإيمان في القلب"[١]، والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت وتؤمن بالقدر خيره وشره " ومتى حصل له هذا الإيمان وجب ضرورة أن يحصل له الإسلام الذي هو الشهادتان والصلاة والزكاة والصيام والحج لأن إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله يقتضي الاستسلام لله والانقياد له والا فمن الممتنع أن يكون قد حصل له الإقرار والحب والإنقياد باطنا ولا يحصل ذلك فى الظاهر مع القدرة عليه كما يمتنع وجود الإرادة الجازمة مع القدرة بدون وجود المراد. وبهذا تعرف أن من آمن قلبه إيمانا جازما امتنع أن لا يتكلم بالشهادتين مع القدرة فعدم الشهادتين مع القدرة مستلزم انتفاء الإيمان القلبي التام وبهذا يظهر خطأ جهم ومن اتبعه فى زعمهم أن مجرد إيمان بدون الإيمان الظاهر ينفع في الآخرة فإن هذا ممتنع إذ لا يحصل الإيمان التام فى القلب إلا ويحصل فى الظاهر موجبه بحسب القدرة فان من الممتنع أن يحب الإنسان غيره حبا جازما وهو قادر على مواصلته ولا يحصل منه حركة ظاهرة إلى ذلك"[٢].

ونقل ابن تيمية إجماع السلف على أن العمل ركن من أركان الإيمان وأنه يشمل عمل القلب وعمل الجوارح معا، قال – رحمه الله-: "أجمع السلف أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ومعنى ذلك: أنه قول القلب وعمل القلب، ثم قول اللسان وعمل الجوارح"[٣].

ويقر ابن تيمية بأن أعمال العباد تنقسم إلى نوعين، باطنة وظاهرة، فأما الباطنة فهي أعمال القلوب، وأما الظاهرة فهي ما يدور في سائر أعمال البدن والجوارح وتطابق ما في القلب من قول وعمل.

---

١) رواه أحمد في مسنده: ٣/١٣٤، حديث رقم:١٢٤٠٤، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة برقم: ٦٩٠٦ وقال: منكر.

٢) مجموع الفتاوى، ٧/ ٥٥٣.

٣) المرجع السابق، ٧/٦٧٢.

قال- رحمه الله-:" فأما قول القلب: فهو التصديق الجازم بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ويدخل فيه الإيمان بكل ما جاء به الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال: وهذا التصديق يتبعه عمل القلب، وهو حب الله ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وتعظيم الله ورسوله وتعزير الله ورسوله وتوقيره، وخشية الله والإنابة إليه والإخلاص له والتوكل عليه، إلى غير ذلك من الأحوال.

فهذه الأعمال القلبية كلها من الإيمان، وهي مما يوجبها التصديق والاعتقاد إيجاب العلة المعلول.ويتبع الاعتقاد قول اللسان، ويتبع عمل القلب عمل الجوارح من الصلاة والزكاة والصوم والحج ونحو ذلك "[١].

وقال أيضا: " ما يقوم بالقلب من تصديق وحب لله ورسوله وتعظيم ، لابد أن يظهر على الجوارح وكذلك بالعكس ولهذا يستدل بانتفاء اللازم الظاهر على انتفاء الملزوم الباطن ، كما في الحديث الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :"ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت ، صلح لها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد لها سائر الجسد ألا وهي القلب"[٢] وكما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمن رآه يعبث في الصلاة : "لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه"[٣] ، فإن الإرادة التي في القلب مع القدرة توجب فعل المراد"[٤].

العمل عند ابن تيمية يشمل جميع أركان الإيمان

يقرر شيخ الإسلام رحمه الله أن العمل يدخل في جميع أركان الإيمان بقوله: "فإذا قالوا: قول وعمل، فإنه يدخل في القول قول القلب واللسان جميعاً"[٥] ، وقال: "إن من قال من السلف: الإيمان قول وعمل، أراد قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح"[٦].

وقال- رحمه الله-: "وإذا قام بالقلب التصديق به والمحبة له لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة والأعمال الظاهرة فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما فى القلب ولازمه

---

١) مجموع الفتاوى، ٦٧٢/٧.

٢) سبق تخريجه ص ٤٠.

٣) سنده ضعيف، ضعفه عدد من العلماء، وقال الألباني في الضعيفة، ١ / ٢٢٧: موضوع.

٤) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ٤٨٧/٦.

٥) المرجع السابق ، ١٧٠/٧.

٦) مجموع الفتاوى، ١٧١/٧

ودليله ومعلوله كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضا تأثير فيما فى القلب فكل منهما يؤثر فى الآخر لكن القلب هو الأصل والبدن فرع له والفرع يستمد من أصله والأصل يثبت ويقوى بفرعه"١.

ورد شيخ الإسلام على من قال بأن دخول الأعمال الظاهرة في الإيمان مجاز بأن ذلك نزاع لفظي.

قال- رحمه الله-: "وقيل لمن قال : دخول الأعمال الظاهرة في اسم الإيمان مجاز نزاعك لفظي ؛ فإنك إذا سلمت أن هذه لوازم الإيمان الواجب الذي في القلب وموجباته كان عدم اللازم موجبا لعدم الملزوم فيلزم من عدم هذا الظاهر عدم الباطن فإذا اعترفت بهذا كان التراع لفظيا.

وإن قلت : ما هو حقيقة قول جهم وأتباعه من أنه يستقر الإيمان التام الواجب في القلب مع إظهار ما هو كفر وترك جميع الواجبات الظاهرة قيل لك : فهذا يناقض قولك إن الظاهر لازم له وموجب له بل قيل : حقيقة قولك إن الظاهر يقارن الباطن تارة ويفارقه أخرى فليس بلازم له ولا موجب ومعلول له ولكنه دليل إذا وجد دل على وجود الباطن وإذ عدم لم يدل عدمه على العدم وهذا حقيقة قولك"٢.

ويؤكد ابن تيمية انتفاء الإيمان إذا انتفت أعمال الجوارح ، قال- رحمه الله-: وللجهمية هنا سؤال ذكره أبو الحسن في كتاب " الموجز " ؛ وهو أن القرآن نفى الإيمان عن غير هؤلاء كقوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ {الأنفال:٢} ، و لم يقل : إن هذه الأعمال من الإيمان "٣.

١) مجموع الفتاوى، ٧ / ٥٤١

٢) المرجع السابق ، ٥٧٧/٧

٣) مجموع الفتاوى ٥٥٦/٧

المبحث الثالث

منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف

في الاستثناء من الإيمان، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الاستثناء في الإيمان

المطلب الثاني: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الاستثناء في الإيمان.

المطلب الثالث: أقوال شيخ الإسلام بن تيمية في الاستثناء في الإيمان.

المطلب الأول

مفهوم الاستثناء في الإيمان

من المعلوم أن كل بدعة تجر إلى ما بعدها، فلما اختلف أهل البدع في تعريف، مفهوم الإيمان، جرهم ذلك إلى بدعة القول بعدم زيادة الإيمان ونقصانه، فانقسموا على ذلك إلى فريقين:

أحدهما: لا يرى الإيمان في العبد إذا ارتكب أدنى معصية، فأخرجوا العباد من الدين بغلوهم وتطرفهم مثل الخوارج.

والآخر: على النقيض، رأوا أن الإيمان مجرد تصديق قلبي ، فتساوى لديهم إيمان الرسل والملائكة بإيمان العصاة مثل المرجئة.

ثم جرهم ذلك إلى الاختلاف حول دخول العمل في مسمى الإيمان، على النحو الذي بيناه في المطلب السابق، ففريق منهم جعل الأعمال خارجة عن مسمى الإيمان بالكلية، مثل: الجهمية وغيرهم، وفريق منهم جعلها، شرط كمال كالأشاعرة.

وعلى هذا النحو سار أهل البدع أيضا في باب الاستثناء في الإيمان، وهو مدار حديثنا في هذا المطلب؛ إن شاء الله تعالى.

والاستثناء في الإيمان معناه: "أن يقول العبد: أنا مؤمن إن شاء الله"[١].

نقل إسحاق بن إبراهيم بن هانئ عن الأمام أحمد، قال: سمعته يقول: أذهب إلى حديث ابن مسعود في الاستثناء في الإيمان لأن الإيمان قول والعمل الفعل فقد جئنا بالقول ونخشى أن نكون قد فرطنا في العمل، فيعجبني أن نستثني في الإيمان نقول : أنا مؤمن إن شاء الله تعالى"[٢].

قال الآجري:"هذه طريق الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين لهم بإحسان. عندهم أن الاستثناء في الأعمال لا يكون في القول والتصديق بالقلب وإنما الاستثناء في الأعمال الموجبة لحقيقة الإيمان"[٣].

---

١) مجموع فتاوى ابن عثيمين، ٣/٨٥.

٢) مسائل أبن هانئ، ٢/١٦٢.

٣) الشريعة، الآجري، ١٣٦.

الأدلة من الكتاب والسنة:

والأدلة على ذلك من السنة كثيرة، منها: ما رواه البخاري في صحيحه في "باب في المشيئة والإرادة"، قال: ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [التكوير:٢٩]، وقول الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾

{آل عمران:٢٦}

عن أنس رضي الله عنه قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إذا دعوتم الله فاعزموا في الدعاء، ولا يقولن أحدكم إن شئت فأعطني فإن الله لا مستكره له) [1]... قال الراغب: المشيئة عند الأكثر كالإرادة سواء وعند بعضهم أن المشيئة في الأصل إيجاد الشيء وإصابته فمن الله الإيجاد ومن الناس الإصابة، وفي العرف تستعمل موضع الإرادة . [2]

---

١) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب في المشيئة والإرادة ، برقم(٧٤٦٤).

٢) تفسير الطبري ، تفسير سورة آل عمران، ١٧/ ٤٧٤.

المطلب الثاني

الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الاستثناء في الإيمان

يرتبط الاستثناء في الإيمان في منهج السلف بتعريف الإيمان، وبيان أركانه، وقد التزم شيخ الإسلام رحمه الله بهذا المنهج وبين كيف التزموا فيه بما ثبت من الكتاب والسنة.

من ذلك ما نقله- رحمه الله- من روايات السلف عن الإمام أحمد ابن حنبل:

قال رحمه الله: " فعلم أن أحمد[1] ، وغيره من السلف كانوا يجزمون ولا يشكون في وجود ما في القلب من الإيمان في هذه الحال ويجعلون الاستثناء عائدا إلى الايمان المطلق المتضمن فعل المأمور ويحتجون أيضا بجواز الاستثناء فيما لا يشك فيه وهذا مأخذ ثان وإن كنا لا نشك فيما في قلوبنا من الإيمان فالاستثناء فيما يعلم وجوده قد جاءت به السنة لما فيه من الحكمة"[2].

وقال ابن تيمية رحمه الله: " قال الخلال في [كتاب السنة]:حدثنا سليمان بن الأشعث يعني:أبا داود السجستاني[3] قال: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل، قال له رجل: قيل لي: أمؤمن أنت؟ قلت: نعم، هل على في ذلك شيء؟ هل الناس إلا مؤمن وكافر؟ فغضب أحمد، وقال: هذا كلام الإرجاء قال الله تعالى: ﴿ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ {التوبة:١٠٦}، مَنْ هؤلاء، ثم قال أحمد: أليس الإيمان قولاً وعملاً؟ قال له الرجل: بلى. قال: فجئنا بالقول؟ قال: نعم. قال: فجئنا بالعمل؟ قال: لا. قال: فكيف تعيب أن يقول: إن شاء الله ويستثني؟ قال أبو داود: أخبرني أحمد بن أبي شُرَيْح: أن أحمد بن حنبل، كتب إليه في هذه المسألة، أن الإيمان قول وعمل، فجئنا بالقول و لم نجئ بالعمل، فنحن نستثني في العمل. وذكر الخلال هذا الجواب من رواية الفضل بن زياد، وقال: زاد الفضل: سمعت أبا عبد الله يقول: كان سليمان بن حرب، يحمل هذا علي التقبل، يقول: نحن نعمل ولا ندري يتقبل منا أم لا ؟ قلت: والقبول متعلق بفعله كما أمر. فكل من اتقى الله في عمله،

---

١) يقصد الإمام أحمد بن حنبل.

٢) مجموع الفتاوي، ٧/٤٤٥٠.

٣) سليمان بن الأشعث بن شداد بن عمرو بن عامر . كذا أسماه عبد الرحمن بن أبي حاتم . وقال محمد بن عبد العزيز الهاشمي : سليمان بن الأشعث بن بشر بن شداد . وقال ابن داسة وأبو عبيد الآجري : سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد . وكذلك قال أبو بكر الخطيب في " تاريخه " . وزاد : ابن عمرو بن عمران . الإمام ، شيخ السنة ، مقدم الحفاظ أبو داود ، الأزدي السجستاني ، محدث البصرة ، ولد سنة اثنتين ومائتين ورحل ، وجمع ، وصنف ، وبرع في هذا الشأن، انظر: سير أعلام النبلاء، ١٣/٢٠٤.

ففعله كما أمر، فقد تقبل منه، لكن هو لا يجزم بالقبول، لعدم جزمه بكمال الفعل،" [1] ،كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُون ﴾ {المؤمنون:٦٠} ، قالت عائشة رضي الله عنها (يا رسول الله أهو الرجل يزني ويسرق ويشرب الخمر ويخاف فقال : لا يا بنت الصديق ، بل هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يتقبل منه) [2].

وروى الخلال عن أبي طالب قال: " سمعت أبا عبد الله يقول : لا نجد بدا من الاستثناء لأنهم إذا قالوا :مؤمن فقد جاء بالقول فإنما الاستثناء بالعمل لا بالقول .

وعن إسحاق بن إبراهيم قال: سمعت أبا عبد الله يقول: أذهب إلى حديث ابن مسعود في الاستثناء في الإيمان؛ لأن الإيمان قول وعمل، والعمل الفعل، فقد جئنا بالقول، ونخشى أن نكون فرطنا في العمل، فيعجبني أن يستثني في الإيمان بقول: أنا مؤمن إن شاء الله، قال: وسمعت أبا عبد الله وسئل عن قول النبي صلى الله عليه وسلم "وإنا إن شاء الله بكم لاحقون" الاستثناء هاهنا على أي شيء يقع ؟ قال: على البقاع، لا يدري أيدفن في الموضع الذي سلم عليه أم في غيره. وعن الميموني أنه سأل أبا عبد الله عن قوله ورأيه في: مؤمن إن شاء الله. قال: أقول: مؤمن إن شاء الله، ومؤمن أرجو، لأنه لا يدري، كيف البراءة للأعمال على ما افترض عليه أم لا..." [3]

وقال المروزي: قيل لأبي عبد الله: نقول: نحن المؤمنون؟ فقال: نقول: نحن المسلمون، وقال أيضاً قلت لأبي عبد الله: نقول: إنا مؤمنون ؟ قال:ولكن نقول: إنا مسلمون، ومع هذا فلم ينكر على من ترك الاستثناء إذا لم يكن قصده قصد المرجئة أن الإيمان مجرد القول، بل يكره تركه لما يعلم أن في قلبه إيماناً، وإن كان لا يجزم بكمال إيمانه .

قال الخلال: أخبرني أحمد بن أصرم المزني، أن أبا عبد الله قيل له: إذا سألني الرجل فقال: أمؤمن أنت؟ قال: سؤالك إياي بدعة، لا يشك في إيمانه، أو قال: لا نشك في إيماننا. قال المزني: وحفظي أن أبا عبد الله قال: أقول كما قال طاوس: آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله. وقال الخلال: أخبرني حرب بن إسماعيل وأبو داود، قال: سمعت أحمد: قال: سمعت سفيان يعني: ابن عيينة يقول: إذا سئل: أمؤمن أنت؟ لم يجبه، ويقول سؤالك إياي بدعة، ولا أشك في إيماني، وقال: إن قال: إن شاء الله، فليس يكره، ولا يداخل الشك، فقد أخبر

---

١) الموسوعة الشاملة ، السنة للخلال، ٣ / ٧٥.

٢) شرح حديث جبريل لابن تيمية (كتاب الإيمان)، ص ٣٤٩.

٣) مجموع الفتاوى ٧/٤٤٥٠.

عن أحمد أنه قال: لا نشك في إيماننا، وأن السائل لا يشك في إيمان المسئول، وهذا أبلغ، وهو إنما يجزم، بأنه مقر مصدق بما جاء به الرسول، لا يجزم بأنه قائم بالواجبات" ١

" وعن محمد بن الحسن بن هارون قال سألت أبا عبد الله عن الاستثناء في الإيمان فقال نعم الاستثناء على غير معنى شك مخافة واحتياطا للعمل وقد استثنى ابن مسعود وغيره وهو مذهب الثوري قال الله تعالى لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله وقال النبي لأصحابه اني لأرجو أن أكون أتقاكم لله وقال في الميت وعليه تبعث ان شاء الله فقد بين احمد أنه يستثني مخافة واحتياطا للعمل فإنه يخاف أن لا يكون قد كمل المأمور به فيحتاط بالاستثناء وقال على غير معنى شك يعني من غير شك مما يعلمه الإنسان من نفسه وإلا فهو يشك في تكميل العمل الذي خاف أن لا يكون كمله فيخاف من نقصه ولا يشك في أصله .

أيضا ذكر الخلال: وأخبرني محمد بن أبي هارون: أن حُبَيْش بن سِنْدي، حدثهم في هذه المسألة، قال أبو عبد الله: قول النبي صلى الله عليه وسلم حين وقف على المقابر فقال" وإنا إن شاء الله بكم لاحقون"،، وقد نعيت إليه نفسه، وعلم أنه صائر إلى الموت، وفي قصة صاحب القبر "وعليه حييت، وعليه مت، وعليه تبعث إن شاء الله"،وفي قول النبي صلى الله عليه وسلم "إني اختبأت دعوتي، وهي نائلة إن شاء الله من لا يشرك بالله شيئاً" وفي مسألة الرجل النبي صلى الله عليه وسلم " أحدنا يصبح جنباً، يصوم ؟ فقال:إني أفعل ذلك ثم أصوم، فقال: إنك لست مثلنا، أنت قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: والله أني لأرجو أن أكون أخشاكم لله" وهذا كثير، وأشباهه على اليقين.

قال: ودخل عليه شيخ فسأله عن الإيمان، فقال له: قول وعمل، يزيد وينقص، فقال له: أقول: مؤمن إن شاء الله، قال: نعم. فقال له: إنهم يقولون لي: إنك شاك، قال: بئس ما قالوا، ثم خرج، فقال: ردوه، فقال: أليس يقولون: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص؟ قال: نعم، قال: هؤلاء يستثنون. قال له: كيف يا أبا عبد الله؟ قال: قل لهم: زعمتم أن الإيمان قول وعمل، فالقول قد أتيتم به، والعمل لم تأتوا به، فهذا الاستثناء لهذا العمل، قيل له: يستثنى في الإيمان؟ قال: نعم، أقول: أنا مؤمن إن شاء الله، أستثنى على اليقين لا على الشك، ثم قال: قال الله: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ﴾ {الفتح:٢٧} ، فقد أخبر الله تعالى أنهم داخلون المسجد الحرام"٢.

١) مجموع الفتاوى، ٧/٤٤٧- ٤٥١.

٢) المرجع السابق، ٧/٤٤٧- ٤٥١.

خلاصة القول:

نقل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الكثير من الآثار الواردة عن الإمام أحمد وغيره من أئمة السلف مثل أبي بكر الخلال ومحمد بن الحسن بن هارون، وإسحاق ابن إبراهيم والمروزي؛ لإثبات موقفه من الاستثناء في الإيمان، وقد بين بذلك – رحمه الله- أن السلف وسط في هذه المسألة، فهي ليست مطلقة عندهم في كل حال، كما ذهب أهل البدع، ولكن لها قيودا تحدها نصوص الشرع الثابتة في الكتاب والسنة.

المطلب الثالث

منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الاستثناء في الإيمان

في هذا المطلب نتعرض لمنهج شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة، وبيان التزامه منهج أهل السنة والجماعة فيها

قال -رحمه الله- عن تعريف الاستثناء في الإيمان واختلاف الناس فيه: "وأما الاستثناء في الايمان بقول الرجل أنا مؤمن إن شاء الله، فالناس فيه على ثلاثة أقوال: منهم من يوجبه، ومنهم من يحرمه، ومنهم من يجوز الأمرين باعتبارين، وهذا أصح الأقوال؛ فالذين يحرمونه هم المرجئة والجهمية ونحوهم ممن يجعل الإيمان شيئا واحدا يعلمه الإنسان من نفسه كالتصديق بالرب ونحو ذلك مما في قلبه"١.

أحكام الاستثناء عند شيخ الإسلام:

ينطلق منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في اعتماده على آثار السلف في الاستثناء في الإيمان مما نقوله من نصوص الشرع، فهو يرى أن الحكم بالإيمان لا يكون إلا بدليل وعلى ذلك فقد استخلص أن هناك ثلاثة أحوال للاستثناء في الإيمان .

قال – رحمه الله-: "الاستثناء في الإيمان سُنة عند أصحابنا وأكثر اهل السنة، وقالت المرجئة والمعتزلة لا يجوز الاستثناء فيه؛ بل هو شك، والاستثناء أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله أو مؤمن أرجو أو آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله أو إن كنت تريد الايمان الذي يعصم دمي فنعم وان كنت تريد إنما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم فالله أعلم.

ثم هنا ثلاثة أقوال: إما أن يقال الاستثناء واجب فلا يجوز القطع وهذا قول القاضي فى عيون المسائل وغيره، وإما أن يقال هو مستحب ويجوز القطع باعتبار آخر وإما أن يقال كلاهما جائز باعتبار وانما ذكر أن الاستثناء سنة بمعنى أنه جائز ردا على من نهى عنه"٢.

---

١) مجموع الفتاوى، ٧/٤٢٩.

٢) المرجع السابق ، ٧/٦٦٦.

ويبين رحمه الله تفصيل ذلك، بقوله: "فإذا قلنا هو واجب فمأخذ القاضي أنه لو جاز القطع على أنا مؤمنون لكان ذلك قطعا على أنا في الجنة لأن الله وعد المؤمنين الجنة ولا يجوز القطع على الوعد بالجنة لأن من شرط ذلك الموافاة بالإيمان ولا يعلم ذلك إلا الله وكذلك الإيمان إنما يحصل بالموافاة ولا يعلم ذلك"[1].

يقول رحمه الله إنه لا يجوز الجزم بالإيمان لأن في ذلك قطع بدخول الجنة، وهذا الأمر، لا يعلمه أحد، ولابد أن يكون عليه دليل من الكتاب والسنة، وبالتالي فإنه يجب الاستثناء في هذا الموضع الذي لا يستطيع أحد التسليم بوقوعه، إذ أنه في علم الله وحده. ويسوق الأدلة التي اعتمد عليها السلف في ذلك فيقول:

"ولهذا قال ابن مسعود: هلا وكل الأولى كما وكل الآخرة.

يريد بذلك ما استدل به من أن رجلا قال عنده: إني مؤمن فقيل لابن مسعود هذا يزعم أنه مؤمن قال: فسلوه أفي الجنة هو أو في النار ؟ فسألوه فقال: الله أعلم فقال عبد الله: فهلا وكلت الأولى كما وكلت الثانية؟"[2].

وينقل شيخ الإسلام قول ابن مسعود، لإثبات أن العبد طالما لا يعلم موضعه من الجنة أو النار في الآخر، فالأولى به، ألا يعلم الأولى، وهي الجزم اليقيني بالإيمان الموجب لدخول الجنة في الآخرة.

ويعتبر شيخ الإسلام قول الصحابي الجليل عبدالله ابن مسعود رضي الله عنه دليلا على عدم جواز ذلك في هذا الموضع، لاتفاقه قوله مع أقوال غيره من الصحابة رضوان الله عليهم ومنها ما نقله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فيقول: "ويستدل أيضا على وجوب الاستثناء بقول عمر: من قال إنه مؤمن فهو كافر ومن زعم أنه في الجنة فهو في النار ومن زعم أنه عالم فهو جاهل[3]، ولما استدل المنازع بأن الاستثناء إنما يحتاج إليه لمستقبل يشك في وقوعه قال: الجواب إن هنا مستقبلا يشك في وقوعه وهو الموافاة بالإيمان؛ والإيمان مرتبط بعضه ببعض فهو كالعبادة الواحدة.

فحقيقة هذا القول أن الإيمان اسم للعبادة من أول الدخول فيه إلى أن يموت عليه فإذا انتقض تبين بطلان أولها كالحدث في آخر الصلاة والوطء في آخر الحج والأكل في آخر النهار؛ وقول مؤمن عند الإطلاق يقتضي فعل الإيمان كله كقول مصل وصائم وحاج؛ فهذا مأخذ القاضي.

---

١) مجموع الفتاوى، ٧/٦٦٦.

٢) المرجع السابق، ٧/٦٦٧.

٣) وانظر أيضا: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، حديث رقم: ١٧٧٧

وقد ذكر بعدها في المعتمد مسألة الموافاة وهي متصلة بها وهو أن المؤمن الذي علم الله أنه يموت كافرا؛ وبالعكس؛ هل يتعلق رضا الله وسخطه ومحبته وبغضه بما هو عليه أو بما يوافي به.

والمسألة متعلقة بالرضا والسخط: هل هو قديم أو محدث؟"[١].

وهو بذلك يوضح أن الوجوب في هذا الموضع إنما نشأ من الجزم بإتيان الإيمان المطلق أو الكامل، وهذا ممتنع لأن، الإيمان مرتبط بأعمال العبد، فالإيمان اسم للعبادة من أول الدخول فيه إلى أن يموت.

ثم يقول شيخ الإسلام:

"**والمأخذ الثاني**: أن الاسم عند الإطلاق يقتضي الكمال؛ وهذا غير معلوم للمتكلم كما قال أبو العالية[٢]: أدركت ثلاثين من أصحاب محمد كلهم يخاف النفاق على نفسه لا يقول إن إيماني كإيمان جبريل فإخبار الرجل عن نفسه أنه كامل الإيمان خبر بما لا يعلمه وهذا معنى قول ابن المنزل: أن المرجئة تقول إن حسناتها مقبولة وأنا لا أشهد بذلك وهذا مأخذ يصلح لوجوب الاستثناء وهذا المأخذ الثاني للقاضي فإن المنازع احتج بأنه لما لم يجز الاستثناء في الإسلام فكذلك في الإيمان.

قال: والجواب أن الإسلام مجرد الشهادتين وقد أتى بهما والإيمان أقوال وأعمال لقوله "الإيمان بضع وسبعون بابا" وهو لا يتحقق كل ذلك منه." [٣]

المأخذ الثالث: " أن ذلك تزكية للنفس وقد قال الله: ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ﴾ [النجم:٣٢] وهذا يصلح للاستحباب وإلا فإخبار الرجل بصفته التي هو عليها جائز وإن كانت مدحا وقد يصلح للإيجاب قال الأثرم في السنة: حدثنا أحمد بن حنبل سمعت يحيى بن سعيد يقول: ما أدركت أحدا من أصحابنا ولا بلغني إلا على الاستثناء، قال الأثرم: سمعت أبا عبد الله يسأل عن الاستثناء في الإيمان ما تقول فيه ؟ قال: أما أنا فلا أعيبه فأستثني مخافة واحتياطا ليس كما يقولون على الشك إنما يستثنى للعمل. قال أبو عبد الله: قال الله: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ

---

١) المرجع السابق ، ٦٦٧/٧.

٢) رفيع بن مهران الرياحي البصري، وكنيته أبو العالية، مولى امرأة من بني رياح بن يربوع، أعتقته سائبة. تابعي وراوي حديث نبوي من الثقات، روى له الجماعة، أدرك الجاهلية، وأسلم بعد موت النّبيِّ بسنتين، ودخل على أبي بكر الصديق، وصلى خلف عمر بن الخطاب. مات في ولاية الحجاج بن يوسف الثقفي، سنة ٩٣ هـ وقال المدائني سنة ١٠٦ هـ.كان ينتقد الحرورية، فيقول: «ما أدري أي النعمتين علي أفضل أن هداني للإسلام أو لم يجعلني حروريًا»، كان عالمًا بالقرآن، قال أبو بكر بن أبي داود: «ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقرآن من أبي العالية، وبعده سعيد بن جبير، وبعده السدي، وبعده سفيان الثوري.»، انظر: تهذيب الكمال، المزي، ٢١٥/٩.

٣) مجموع الفتاوى ، ٦٥٨/٧

﴿الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ﴾ [الفتح:٢٧] أي إن هذا الاستثناء لغير شك، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم "وإنا إن شاء الله بكم لاحقون" أي لم يكن يشك في هذا وقد استثنى وذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم "نبعث إن شاء الله من القبر" وذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم "إني والله لأرجو أن أكون أخشاكم لله" قال هذا كله تقوية للاستثناء في الإيمان. قلت لأبي عبد الله: فكأنك لا ترى بأسا أن لا يستثني فقال إذا كان ممن يقول: الإيمان قول وعمل يزيد وينقص فهو أسهل عندي، ثم قال أبو عبد الله إن قوما تضعف قلوبهم عن الاستثناء فتعجب منهم وذكر كلاما طويلا تركته.

فكلام أحمد يدل على أن الاستثناء لأجل العمل وهذا المأخذ الثاني وأنه لغير شك في الأصل وهو يشبه الثالث ويقتضي أن يجوز ترك الاستثناء وأما جواز إطلاق القول بأني مؤمن فيصح إذا عنى أصل الإيمان دون كماله والدخول فيه دون تمامه كما يقول: أنا حاج وصائم لمن شرع في ذلك وكما يطلقه في قوله آمنت بالله ورسله وفي قوله: إن كنت تعني كذا وكذا أن جواز إخباره بالفعل يقتضي جواز إخباره بالاسم مع القرينة وعلى هذا يخرج ما روي عن صاحب معاذ بن جبل وما روي في حديث الحارث الذي قال: أنا مؤمن حقا وفي حديث الوفد الذين قالوا: نحن المؤمنون وإن كان في الإسنادين نظر"١.

ومن هنا يتبين أن ابن تيمية- رحمه الله- لم يقل فقط بوجوب الاستثناء؛ بل قال أيضا بجوازه ومنعه أيضا، فأما الوجوب فقد جاء لثلاثة مآخذ: الأول: انعدام العلم، الثاني: انعدام كمال الإيمان لارتباطه بالعمل، الثالث: النهي عن ذلك من باب تزكية النفس لقوله تعالى: ﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النجم:٣٢].

كما قال بالجواز إذا امتنعت المآخذ الثلاثة السابقة، وقال بمنع الاستثناء في موضع الشك. وذكر أن ذلك هو مذهب عامة السلف.

وقد اعتمد منهج شيخ الإسلام- رحمه الله- على اتفاق الصحابة كما في اعتماده على الأثر المروي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه واتفاقه مع الأثر المروي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، كما اعتمد أيضا على أدلة السلف التي تتوافق مع نصوص الشرع وما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم

---

١) مجموع الفتاوى، ٧/٦٦٩.

المبحث الرابع

منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في حكم مرتكب الكبيرة، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم ارتكاب الكبيرة.

المطلب الثاني: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في حكم مرتكب الكبيرة.

المطلب الثالث: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في حكم مرتكب الكبيرة.

المطلب الأول

مفهوم ارتكاب الكبيرة

يرتبط تحديد مفهوم مرتكب الكبيرة بباب الإيمان، وقد اختلف العلماء في تحديده، طبقا لما ذهبوا إليه في تعريف الإيمان وزيادته ونقصانه والاستثناء فيه، ونحو ذلك. فقد حاول بعضهم تحديده بشكل جزئي من خلال الاستدلال ببعض النصوص دون غيرها، وحاول البعض الآخر أن يأتي بتعريف شامل جامع اعتمادا على جميع النصوص الواردة في ذلك، فكانوا وسطا في هذه المسألة، وهو ما سوف نتناول تفصيله في هذا المطلب إن شاء الله تعالى.

تعريف الكبيرة لغة:

الكبيرة في لسان العرب قال ابن منظور: "هي الفعلة القبيحة من الذنوب المنهي عنها شرعا ، العظيم أمرها كالقتل والزنا والفرار من الزحف وغير ذلك"[1]، وقال ابن فارس: " الكاف والباء والراء أصل صحيح يدل على خلاف الصغيرة"[2]. وهي مشتقة من الكُبر وهو لا يخرج عن معنيين: أحدهما: العظمة، وثانيهما: الإثم الكبير"[3]

تعريف الكبيرة اصطلاحا:

اختلف العلماء حول تحديد مفهوم الكبيرة اصطلاحا من جانبين:

الأول: حدها.

الثاني: عددها.

أولا: حد الكبيرة:

اختلف السلف في تحديد الكبيرة .

١) لسان العرب، حرف الكاف، ١٣/١٣.

٢) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، ٩١٥.

٣) انظر: تهذيب اللغة، ٣٠٩٠/٤، الصحاح، ٨٠١/٢، القاموس المحيط ٦٠١.

وفي الصحيحين من حديث الشعبي عن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الكبائر الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقتل النفس ، واليمين الغموس"[1] .

وفيهما عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم" "ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ - ثلاثا - قالوا : بلى ، يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين - وجلس وكان متكئا - فقال : ألا وقول الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت"[2].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ما نهى الله عنه في سورة النساء من أولها إلى قوله :
﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾{النساء:٣١}، فهو كبيرة ، وقال علي بن أبي طلحة[3] : هي كل ذنب ختمه الله بنار ، أو غضب ، أو لعنة ، أو عذاب .

ثانيا: عدد الكبائر:

كما اختلف أهل السنة في تحديد عدد الكبائر، فمنهم من اختصرها فيما يوصل إلى الشرك، ومنهم من أطلقها بغير تحديد لعلم الله وحده، وقد نقل ابن القيم رحمه الله الاختلاف بين أهل العلم في ذلك فقال:

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات"[4].

---

١) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب اليمين الغموس ، برقم: (٦٢٩٨) .

٢) أخرجه البخاري في كتاب الشهادات ، باب ما قيل في شهادة الزور ، برقم: (٢٥١١) .

٣) علي بن أبي طلحة سالم بن المخارق أبو الحسن أصله من الجزيرة وانتقل إلى حمص توفي سنة ١٣٤هـ، تاريخ بغداد(٣٧٤/١١)، وقال الذهبي في السير(٤٠٥/١٠):قد شرحت حاله في الميزان وليناه، وبكل حال فكان صدوقا في نفسه من أوعية العلم أصابه داء شيخه ابن لهيعة وتهاون بنفسه حتى ضعف حديثه و لم يترك بحمد الله ، والأحاديث التي نقموها عليه معدودة في سعة ما روى.

٤) أخرجه البخاري في كتاب الحدود ، باب رمي المحصنات برقم (٦٤٦٥)، وصحيح مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان الكبائر وأكبرها برقم(٨٩).

وروى شعبة عن سعد بن إبراهيم سمعت حميد بن عبد الرحمن[1] يحدث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والديه، قالوا: وكيف يسب الرجل والديه ؟ قال : يسب الرجل أبا الرجل ، فيسب أباه ، ويسب أمه، فيسب أمه) ٢ .

وخلاصة القول:

أن أهل السنة والجماعة قد اتفقوا على أن الكبيرة هي: ما يترتب عليها حد في الدنيا ، أو وعيد عليها بالنار في الآخرة أو اللعنة أو غضب الله، وأقروا بأن مرتكب الكبيرة، مؤمن ناقص الإيمان، وقد نقص إيمانه بقدر ما ارتكب من المعصية، فهم لا ينفون عنه الإيمان كما فعلت الخوارج والمعتزلة ولا يقولون بأن إيمانه كامل كالمرجئة.

---

١) حميد بن عبد الرحمن الحميري ، شيخ بصري ثقة ، عالم .يروي عن أبي هريرة ، وأبي بكرة الثقفي ، وابن عمر –موته قريب من موت سميه حميد بن عبد الرحمن الزهري . ويروي –أيضا– عن سعد بن هشام ، وأولاد سعد بن أبي وقاص، قال العجلي : تابعي ثقة ، ثم قال : كان ابن سيرين يقول : هو أفقه أهل البصرة ، رواه منصور بن زاذان عن محمد . انظر: سير اعلام النبلاء، ٢٩٨/٤.

٢) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه برقم ٥٦٢٨.

المطلب الثاني

الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في حكم مرتكب الكبيرة

اتفق السلف على تقسيم الذنوب والمعاصي إلى كبائر وصغائر، وأن الكبائر لا تنقض الإيمان، فمرتكب الكبيرة مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، وإن مات عليها فأمره إلى مشيئة الله.

ويعتمد منهج شيخ الإسلام في الحكم على مرتكب الكبيرة، على تتريل آيات كتاب الله وسنة نبيه صلى الله على وسلم في مواضعها، مصداقا لقوله تعالى: { إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاء وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا } [النساء: ٤٨].

وقد وردت إشارات في مؤلفات شيخ الإسلام إلى بعض من آثار السلف حول حكم مرتكب الكبيرة سواء كانوا من الصحابة أو التابعين أو تابعيهم وكذلك أقوال علماء السلف ممن كانوا قبله سواء بذكر أقوالهم أو أسمائهم في هذه المسألة.

ومن المعلوم أن أهل السنة قد وقفوا موقفا وسطا في حكم مرتكب الكبيرة كما ذكرنا، فلا هم أخرجوه من الملة، ولا هم تهاونوا معه وجعلوه من أهل الإيمان المطلق.

يقول الإمام أحمد بن حنبل- رحمة الله- : "ومن مات من أهل القبلة موحداً يصلى عليه، ويستغفر له، ولا يحجب عنه الاستغفار، ولا تترك الصلاة عليه لذنب أذنبه صغيراً كان أو كبيراً، وأمره إلى الله تعالى"[١].

وقد وافق قول الإمام أحمد، ومن بعده شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمهما الله تعالى- مع أقوال الصحابة رضوان الله عليهم، وما نقلوه عن النبي صلى الله عليه وسلم.

عن عبادة ابن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال ، وحوله عصابة من أصحابه: " بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا

١) أصول السنة لأحمد بن حنبل، ٦٠

فعوقب في الدنيا ، فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه " . فبايعناه على ذلك"[١] .

وعلى هذا فإن حكم مرتكب الكبيرة عند السلف، هو أنه من أهل القبلة، يُصلى عليه ويُستغفر له، وأمره إلى الله تعالى في الآخرة.

وعن أنواع الكبائر وأعدادها فقد اختلف السلف في ذلك، وكل رأي لا يقطع بعدد معين إلا على سبيل التمثيل بما وصله من نصوص الشرع.

فعن عبد الله بن عمرو ، رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه قيل : يا رسول الله ، وكيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : يسب الرجل أبا الرجل ، فيسب أباه ، ويسب أمه"[٢].

وقال سعيد ابن جبير: قال رجل لابن عباس: "الكبائر سبع؟ قال: هي إلى السبعمائة أقرب منها إلى السبع، غير أنه لا كبيرة مع استغفار ولا صغيرة مع إصرار"[٣].

---

١) صحيح البخاري، كِتَاب الْمَنَاقِبِ، بَاب وُفُودِ الْأَنْصَارِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى الله عليه وسلم، حديث رقم: ٣٦٢٨.

٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب لا يسب الرجل والديه، حديث رقم: ٥٦٢٨.

٣) مسند الشهاب، القضاعي، ٢/٣٦٤.

المطلب الثالث

قول شيخ الإسلام ابن تيمية في حكم مرتكب الكبيرة

بينا في المطلب السابق كيف اختلف مفهوم الكبيرة عند السلف والخلف، ولأن الحكم على الشيء فرع من تصوره، سنتابع في هذا المطلب منهج شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في حكم مرتكب الكبيرة وكيف اتبع منهج السلف في ذلك.

أصل التزاع في مرتكب الكبيرة:

أرجع شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- أصل الخلاف في حكم مرتكب الكبيرة، إلى الخلاف حول صفة الإيمان، وظهور فئة الخوارج، وتكفيرهم للصحابة والحكام، وانسحاب ذلك إلى تكفير أصحاب الذنوب، وهو ما أدى فيما بعد إلى ظهور المعتزلة وقولهم بأن مرتكب الكبيرة في مترلة بين المترلتين، وما أحدثوه بعد ذلك من بدع كثيرة، ثم ظهور المرجئة للرد على الفئتين، وكل بأدلة بعيدة عن منهاج النبوة، ومشكاة الرسالة.

وأكد ابن تيمية أن الخلاف حول مرتكب الكبيرة هو أول خلاف ظهر عند المسلمين في مسائل أصول الدين ، وينطلق شيخ الإسلام في تحديد مرتكب الكبيرة من النصوص الشرعية.

قال – رحمه الله-: "ويعلم أن في المسلمين قسمًا ليس هو منافقًا محضًا في الدرك الأسفل من النار، وليس هو من المؤمنين الذين قيل فيهم: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُون ﴾ [الحجرات: ١٥] ولامن الذين قيل فيهم ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال: ٧٤] فلاهم منافقون، ولا هم من هؤلاء الصادقين المؤمنين حقًا، ولا من الذين يدخلون الجنة بلا عقاب. بل له طاعات ومعاص وحسنات وسيئات. ومعه من الإيمان ما لا يخلد معه في النار، وله من الكبائر ما يستوجب دخول النار. وهذا القسم قد يسميه بعض الناس: الفاسق الملّي، وهذا مما تنازع الناس في اسمه وحكمه. والخلاف فيه أول خلاف ظهر في الإسلام في مسائل أصول الدين"[١].

---

١) مجموع الفتاوى، ٧/٤٧٩.

مفهوم الكبيرة عند ابن تيمية:

أمثل الأقوال في هذه المسألة القول المأثور عن ابن عباس، وذكره أبو عبيد، وأحمد بن حنبل، وغيرهما وهو: أن الصغيرة ما دون الحدين: حد الدنيا، وحد الآخرة. وهو معنى قول من قال: ما ليس فيها حد في الدنيا. وهو معنى قول القائل: كل ذنب ختم بلعنة، أو غضب، أو نار، فهو من الكبائر"[١].

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية الآيات الدالة على انقسام الذنوب ومنها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ (الشورى: ٣٧) وقوله عز وجل: ﴿وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٩) وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ (القمر: ٥٣)"[٢].

وقال : "أمثل الأقوال في هذه المسألة القول المأثور عن ابن عباس وذكره أبو عبيد وأحمد بن حنبل وغيرهما وهو : أن الصغيرة ما دون الحدين : حد الدنيا وحد الآخرة . وهو معنى قول من قال : ما ليس فيها حد في الدنيا . وهو معنى قول القائل : كل ذنب ختم بلعنة أو غضب أو نار فهو من الكبائر .

ومعنى قول القائل : وليس فيها حد في الدنيا ولا وعيد في الآخرة أي " وعيد خاص " كالوعيد بالنار والغضب واللعنة . وذلك لأن الوعيد الخاص في الآخرة"[٣] .

وعلى ذلك فالكبيرة هي ما يوجب الحدين: حد الدنيا، وحد الآخرة، وشرح الفرق بين الحدين؛ لسلامته من القوادح الواردة في غيره؛ ولاتفاقه مع الثابت من الكتاب والسنة وما كان عليه سلف الأمة، وخلوه من المفاسد، وقد اعتمد في الوصول لهذا التعريف على ما ورد من نصوص الشرع، وما وافقها من أقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم وعلماء السلف الذين اتبعوهم ممن سبقه.

---

١) مجموع الفتاوى، ١١/٦٥٠.

٢) المرجع السابق ١١/٥٦٩.

٣) مجموع الفتاوى ، ابن تيمية، ١١/ ٦٥١.

حكم مرتكب الكبيرة عند شيخ الإسلام:

استدل شيخ الإسلام رحمه الله بالكتاب والسنة؛ للرد على الخوارج والمعتزلة، الذين خالفوا أهل السنة في حكم مرتكب الكبيرة فقالوا: إنه مخلد في النار، أو هو في منزلة بين المنزلتين، وبين رحمه الله أن إيمان العبد يزيد وينقص، وأن الله عز وجل قد شرع التوبة من كل الذنوب والآثام التي يرتكبها العباد.

قال- رحمه الله- عن مرتكب الكبيرة: "فلو كانت حسنات هذا كلها محبطة وهو مخلد في النار، لاستحق المعاداة المحضة بالقتل والاسترقاق، كما يستحقها المرتد، فإن هذا قد أظهر دينه بخلاف المنافق. وقد قال تعالى في كتابه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ {النساء:٤٨}، فجعل ما دون ذلك الشرك معلقًا بمشيئته.

ولا يجوز أن يحمل هذا على التائب فإن التائب لا فرق في حقه بين الشرك وغيره، كما قال سبحانه في الآية الأخرى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ {الزمر:٥٣}، فهنا عمم وأطلق؛ لأن المراد به التائب، وهناك خص وعلق"[١].

ويفهم من كلام شيخ الإسلام- رحمه الله- أن مرتكب الكبيرة، مازال على الإيمان المطلق، وإن كبرت ذنوبه التي تستحق حد الدنيا والآخرة، وأنه مازال يظهر دينه، وأنه مازال في فسحة من دينه بالتوبة ونحوها، بعكس المرتد أو المنافق الذي يبطن الشرك، ويظهر الإيمان، ودلل على ذلك بالآيتين السابقتين، وما فيهما من تقييد وإطلاق.

وأيضا، فقد تواترت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في أنه يخرج أقوام من النار بعد ما دخلوها، وأن النبي صلى الله عليه وسلم يشفع في أقوام دخلوا النار..."[٢].

وعلى ذلك فيرى شيخ الإسلام أن أصحاب الكبائر في الآخرة يعاقبون على ما اقترفوه من ذنوب ولا يخلدون في النار، وأن لهم توبة في الدنيا، وشفاعة في الآخرة. وذكر أن عقوبة الذنوب، ومنها الكبائر، تزول عن العبد .

١) مجموع الفتاوى، ٧/ ٤٨٤- ٤٨٥.

٢) المرجع السابق ، ٧/٤٨٦

الفصل الثاني

منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف

في توحيد الربوبية والألوهية، وفيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بوجود الله تعالى.

المبحث الثاني: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في كلمة الإخلاص.

المبحث الثالث: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في أنواع العبادة.

المبحث الرابع: موافقة شيخ الإسلام ابن تيمية لأئمة السلف فيما ينافي كمال التوحيد في الأقوال والأفعال.

المبحث الأول:

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بوجود الله تعالى، وفيه مطلب:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بوجود الله.

مدخل

لم يكن البحث في وجود الله من المسائل المشهورة في عهد الصحابة وأهل القرون الفاضلة، إلا بعد ظهور المتكلمين وبدعهم المستمدة من الفلسفات اليونانية وغيرها، التي لا تستند للكتاب والسنة، وتخالف الفطرة التي فطر الله الناس عليها، في اعتمادها على الاستدلال على وجود الصانع على أدلة تخالف العقل والنقل، وبرز علماء السلف للرد على هذه البدع، ومعتمدهم في ذلك على ما ورد في الكتاب والسنة الصحيحة التي لا تخالف العلم ولا تناقض الفطرة السليمة.

ولما اشتدت شوكة المتكلمين في عهد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وضع لذلك الكثير من المؤلفات للرد عليهم وبطلان حججهم.

قال- رحمه الله- عن هذه الأصول إن : " ما يوجبونه من النظر والاستدلال ويجعلونه أصل الدين والإيمان هو هذه الطريقة المبتدعة في الشرع المخالفة للعقل الذي اتفق سلف الأمة وأئمتها على ذمها وذم أهلها"[١].

ووصف هذه الطريقة بأنها تخالف منهج السلف فقال:

" هذا الدليل - أي النظر- لم يستدل به أحد من الصحابة والتابعين ولا من أئمة المسلمين، فلو كانت معرفة الرب عز وجل والإيمان به موقوفة عليه للزم أنهم كانوا غير عارفين بالله ولا مؤمنين به، وهذا من أعظم الكفر باتفاق المسلمين؛ بل إن الأنبياء والمرسلين لم يأمروا واحداً بسلوك هذا السبيل، فلو كانت المعرفة موقوفة عليه وهي واجبة لكان واجباً، وإن كانت مستحبة كان مستحباً، ولو كان واجباً أو مستحباً لشرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو كان مشروعاً لنقلته الصحابة "[٢].

ومن هنا يتبين أن منهج ابن تيمية يستند في الاستدلال على وجود الله على ما ورد من أدلة في الكتاب والسنة، ثم ينتقل إلى سكوت الصحابة عن الخوض فيما خاض فيه المتكلمون ويعتبر أن سكوتهم عنه دليلا على عدم مشروعية الأدلة الفلسفية التي خاضوا فيها، ومنها وجوب النظر، ودليل التمانع في الاستدلال على وجود الله، وأن الطرق لذلك مرهون بما أخبر الله به عن نفسه، وأن الفطرة السليمة والعقل الصحيح في غنى عن ذلك.

---

١) النبوات، ابن تيمية، ٨٥.

٢) نقض التأسيس، ابن تيمية، ٦١٩/١.

مفهوم توحيد الربوبية

معنى الرب:

قال الجوهري في الصحاح: "رب كل شيء، مالكه، والرب اسم من أسماء الله عز وجل، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة، وقد قيل في الجاهلية للملك"١.

وجمع الرب أرباب، قال تعالى:﴿ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾{يوسف:٣٩}، و لم يكن من حق الرب أن يجمع، إذ كان إطلاقه لا يتناول إلا الله- تعالى-، لكن أتى بلفظ فيه على حسب اعتقاداتهم، لا على ما عليه ذات الشيء في نفسه"٢.

وفي لسان العرب: "الرب : هو الله – عز وجل – هو رب كل شيء أي : مالكه ، وله الربوبية على جميع الخلق ، لا شريك له ، وهو رب الأرباب ، ومالك الملوك والأملاك"٣.

ولا يقال الرب في غير الله ، " إلا بالإضافة ، قال : ويقال الرب ، بالألف واللام ، لغير الله ، وقد قالوه في الجاهلية للملك ، قال الحارث بن حلزة : وهو الرب والشهيد على يوم الحيارين والبلاء بلاء"٤.

وعلى هذه المعاني فإن لفظ الرب يطلق لغة على الخالق والمالك والمدبر والسيد المتصرف في ملكه.

توحيد الربوبية اصطلاحا:

يدور معنى توحيد الربوبة عند السلف حول تتريه الله- تعالى- عن مشابهة المخلوقين، وفي ذلك قال ابن أبي العز الحنفي هو: " توحيد الربوبية، كالإقرار بأنه خالق كل شيء، وإنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والأفعال، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام ، وطائفة من الصوفية. وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم ، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات"٥.

---

١) تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري، ١/١٣٠، مادة ريب.
٢) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ١٨٤- ١٨٥، مادة رب.
٣) لسان العرب، لابن منظور، ٦/٧٠، باب ربب.
٤) المرجع السابق، ٦/٧٠، باب ربب.
٥) شرح الطحاوية، ٢٥- ٢٦.

وعرف شيخ الإسلام ابن تيمية توحيد الربوبية بأنه: " الإقرار بأن الله خالق كل شيء وربه "[١]

وعلى ذلك فإن مفهوم توحيد الربوبية في التعريفات السابقة يدور حول الإقرار بأن الله هو الخالق المدبر الذي له الأمر المطاع، المتره عن مشابهة المخلوقين، وأن الكل مقر بذلك بما فيهم المشركين.

توحيد الألوهية:

معنى الألوهية لغة:

يدور مصطلح توحيد الألوهية حول إفراد الله تعالى بالعبادة، قال ابن فارس: "أله الهمزة واللام والهاء أصل واحد وهو التعبد فالإله "الله" تعالى وسمي بذلك لأنه معبود ويقال تأله الرجل إذا تعبد[٢]، وقال الزنجاني[٣]:" أله بالفتح إلاهة أي عبد عبادة، وقولنا الله أصل هذا الاسم "إله" على فعال بمعنى مفعول لأنه مألوه أي معبود فلما أدخل عليه الألف واللام حذفت الهمزة تخفيفاً لكثرته في الكلام"، والتأله التعبد"[٤].

وقال أبو الهيثم[٥]:" فالله أصله إلاه قال الله عز وجل: ﴿ اتَّخَذَ اللهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلاَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ {المؤمنون:٩١} ، قال ولا يكون إلهاً؛ حتى يكون معبوداً، وحتى يكون لعابده خالقاً ورازقاً ومدبراً وعليه مقتدراً، فمن لم يكن كذلك فليس بإله وإن عبد ظلما بل هو مخلوق ومتعبد...، وكانت العرب في جاهليتها يدعون معبوداتهم من الأصنام والأوثان آلهة قال الله عز وجل: ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾ {الأعراف:١٢٧} ، وهي أصنام عبدها قوم فرعون معه" ، وهي أصنام عبدها قوم فرعون معه" [٦].

---

١) مجموع الفتوى، ٣/ ١٧٦.

٢) مقاييس اللغة، لابن فارس، ١/١٢٧،

٣) محمود بن أحمد بن محمود بن بختيار، أبو المناقب شهاب الدين الزَّنجاني: لغويّ، من فقهاء الشافعية. من أهل زنجان (بقرب أذربيجان) استوطن بغداد، وولي فيها نيابة قضاء القضاة، وعزل، ودرّس بالنظاميّة ثم بالمستنصرية. وصنف كتابا في (تفسير القرآن) واختصر الصحاح للجوهري في اللغة، وسمى مختصره (ترويح الأرواح في تهذيب الصحاح) ثم أوجزه في نحو عشر الأصل، وسماه (تنقيح الصحاح - ط) في ثلاثة أجزاء، باسم (تهذيب الصحاح) و (تخريج الفروع على الأصول - ط) واستشهد ببغداد أيام نكبتها بالمغول ودخول هولاكو، توفي عام ٦٥٦هـ . انظر: الأعلام للزركلي.

٤) تهذيب الصحاح، مادة أله، ٣/٨٩٧

٥) أبو الهيثم، سليمان بن عمرو بن عبد أو عبيد الليثي العتواري، ابو الهيثم المصري، صاحب أبي سعيد الخدري، وكان في حجره أوصى إليه أبوه، روى عنه وعن أبي بصرة الغفاري وعن أبي هريرة، وروى عنه دراج أبو السمع وعبير الله بن زجر، وروى له البخاري في الأددب المفرد، انظر: طبقات ابن سعد، ٧/٥١٣.

٦) تفسير العدل والإعتدال ٦/ ٢٣٠.

فالإله عند العرب هو المعبود فإن كان معبوداً بحق فهو الله، ولا تصح العبادة إلا لله وحده؛ لأنه لا يستحق العبادة إلا هو؛ لأنه الخالق الرازق المدبر المقتدر كما قال أبو الهيثم.

والتأله التعبد كما قال الليث، وليس اعتقاد أنه الخالق الرازق وإن كانت الخالقية والرازقية من صفاته، لكن تفسير "الإله" بالخالق الرازق المدبر باطل يوقع في الضلال وينسي الناس المعنى الحقيقي لكلمة التوحيد لا إله إلا الله"[١].

الألوهية اصطلاحا:

إفراد الله جل وعلا بالتعبد في جميع أنواع العبادات وهذا هو تحقيق كلمة لا إله إلا الله ولا تصح إلا بالمتابعة، وهي شهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم. والذي عليه أهل السنة والجماعة أن أول واجب هو الشهادتان، قال شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله - "إن السلف والأئمة متفقون على أن أول ما يؤمر به العباد الشهادتان، ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقب البلوغ"[٢].

وأولى ما ينبغي على المسلم العلم به، هو معرفة الله تعالى، والعلم به أول ما يجب عليه، فتحصيل العلم بالله تتحقق به ساعدة الدارين، " فلا ريب أن أشرف العلوم على الإطلاق هو العلم المعرف بالله تعالى، لأن شرف العلم بشرف المعلوم، لذلك احتل علم توحيد الأسماء والصفات مكان الصدارة بين سائر العلوم الشرعية فضلا عن غيرها.

ومعلوم أن الغاية من الوجود الإنساني على هذه البسيطة، هي عبادة الله تعالي وحده دون سواه، قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]. والعلم به تعالى هو الخطوة الأولى لتحقيق الغاية"[٣].

---

١) تهذيب اللغة، ٦/٤٢١-٤٢٤.

٢) درء تعارض العقل والنقل، ٨/١١، وشرح العقيدة الطحاوية، ٧٥.

٣) اسم الله الأعظم، الدميجي، ٥.

المطلب الأول

الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بوجود الله

من المعروف أن السلف اعتمدوا منهج الرسل في الإيمان بوجود الله عز وجل، فلم يخترعوا شيئا من عند أنفسهم، لأن طريقتهم الاتباع وليس الابتداع، كما فعل غيرهم، فما أثبته الشرع أثبتوه وما نفاه الشرع نفوه عن طريق الانقياد والاستسلام التام لخبر الله وتنفيذ تكاليفه وأوامره. ويمكن تتبع آثار السلف وما ذكره العلماء لمعرفة المنهج الذي ساروا عليه في الحديث عن وجود الله تعالى، وكيف اعتمد منهج شيخ الإسلام ابن تيمية على هذه الطريقة.

وأول ما يلفت النظر في الآثار التي وردت عن السلف في إثبات وجود الله هو اعتمادها على الفطرة السليمة والعقل الصحيح والأدلة من الكتاب والسنة التي لا تعارضها الفطرة ولا العقل، إضافة إلى الأدلة الكونية، كما أن علماء السلف، ومنهم ابن تيمية رحمه الله في معرض ردودهم على المتكلمين، لم يعترفوا بأدلتهم الفلسفية.

والحديث عن أدلة وجود الله تعالى عند السلف جاءت في معرض ردودهم على المتكلمين، فقد تميز منهج شيخ الإسلام في هذه المسألة بالجمع بين علم السلف، والاستعانة بالحجج العقلية على المخالفين مستعينا . ويتلخص منهجه- رحمه الله تعالى- هنا في وجهين، وهما:

الأول: سكوت السلف عن الأدلة الفلسفية التي اعتمد عليها المتكلمون في إثبات وجود الله تعالى.

الثاني: الاعتماد على ما ثبت لدى السلف من آثار توافق نصوص الشرع.

ويوضح شيخ الإسلام أنه لابد من الاعتماد على اللغة العربية في هذه المسألة حتى يُتجنب الوقوع في الالتباس.

قال- رحمه الله-: ونحن إنما نخاطب الأمم بلغتنا العربية، فإذا نقلوا عن أسلافهم لفظ " الهيولي، والصور، والنفس والصفات الذاتية، والعرضية والمجرد، والتركيب والتأليف، والجسم والجوهر والعرض، والماهية والجزء " ونحو ذلك بينما تحتمل هذه الألفاظ، من المعاني كما إذا قائل قائلهم النوع مركب من الجنس والفصل كتركيب الإنسان من الحيوان والناطق، أو من الحيوانية والناطقية، وأن هذا أجزاء الإنسان، وأجزاء الحد، والواجب سبحانه إذا كان له صفات لزم أن يكون مركبا، والكرب مفتقر إلى أجزائه، والمفتقر إلى أجزائه لا

يكون واجبا" واستفسروا عن لفظ التركيب والجزء والافتقار والغير، فإن جميع هذه الألفاظ فيها اشتراك والتباس وإجمال"١.

ويبين شيخ الإسلام أنه يعتمد في الأساس على موافقة آثار السلف على نصوص الشرع في هذا الباب. مؤكدا أن كتاب الله تعالى لم يترك كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها، فيقول:

"ولهذا كانوا يجعلون القرآن يحيط بكل ما يطلب من علم الدين، كما قال مسروق: ما نسأل أصحاب محمد عن شيء إلا وعلمه في القرآن، ولكن علمنا قصر عنه"٢.

ويرى أن ما أحدثه المتكلمون من حجج وبراهين لإثبات وجود الصانع ليست من طريقة السلف، ويعتمد في ذلك سكوت الصحابة والتابعين عن استخدام هذه الأدلة الفلسفية.

قال- رحمه الله-: "إيمان السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان لم يكن مبنيا على هذه الحجج المبنية على الجسم ولا أمر النبي صلى الله عليه وسلم أحدا أن يستدل بذلك على إثبات الصانع، ولا ذكر الله تعالى في كتابه وفي آياته الدالة عليه وعلى وحدانيته شيئا من هذه الحجج المبنية على الجسم والعرض، وتركيب الجسم وحدوثه وما يتبع ذلك، فمن قال إن الإيمان بالله ورسوله لا يحصل إلا بهذه الطريق كان قوله معلوم الفساد بالاضطرار من دين الإسلام، ومن قال إن سلوك هذه الطريق واجب في معرفة الصانع تعالى كان قوله من البدع الباطلة المخالفة لما علم بالاضطرار من دين الإسلام، ولهذا كان عامة أهل العلم، يعترفون بهذا وبأن سلوك هذه الطريق ليس بواجب"٣.

الإجماع على بطلان طريقة المتكلمين:

ويرى أن هناك إجماعا من السلف على نبذ طريقة المتكلمين، فيقول:

"والشبهات القادحة في تلك العلوم لا يمكن الجواب عنها بالبرهان؛ لأن غاية البرهان أن ينتهي إليها؛ فإذا وقع الشك فيها انقطع طريق النظر والبحث، ولهذا كان من أنكر العلوم الحسية والضرورية لم يناظر، بل إذا كان جاحدا معاندا عوقب حتى يعترف بالحق، وإن كان غالطا إما لفساد عرض لحسه أو عقله لعجزه عن فهم تلك

١) درء التعارض، ١/٢٧١- ٢٧٢.

٢) المرجع السابق، ١/٢٠٨

٣) درء التعارض، ١/١٧٧- ١٧٨.

العلوم وإما لنحو ذلك؛ فإنه يعالج بما يوجب حصول شروط العلم له وانتفاء موانعه؛ فإن عجز عن ذلك لفساد في طبيعته عولج بالأدوية الطبيعية أو بالدعاء والرقي والتوجه ونحو ذلك، وإلا ترك.

ولهذا اتفق العقلاء على أن كل شبهة تعرض لا يمكن إزالتها بالبرهان والنظر والاستدلال،- وإنما يخاطب بالبرهان والنظر والاستدلال من كانت عنده مقدمات علمية وكان ممن يمكنه أن ينظر فيها نظرا يفيده العلم بغيرها-؛ فمن لم يكن عنده مقدمات علمية أو لم يكن قادرا على النظر لم تمكن مخاطبتة بالنظر والاستدلال، وإذا تبين هذا فالوسوسة والشبهة القادحة في العلوم الضرورية لا تُزال بالبرهان بل متى فكر العبد ونظر ازداد ورودها على قلبه وقد يغلبه الوسواس حتى يعجز عن دفعه عن نفسه كما يعجز عن حل الشبهة السوفسطائية"١.

ثم يجيب على ما ذهب إليه بما ورد من أثار السلف المعتمدة على الكتاب والسنة، فيقول:

" وهذا يزول بالاستعاذة بالله، فإن الله هو الذي يعيذ العبد ويجيره، من الشبهات المضلة، والشهوات المغوية ولهذا أمر العبد أن يستهدي ربه في كل صلاة فيقول: (اهدنا الصراط المستقيم.....).

وفي الحديث الإلهي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى: يا عبادي كلم ضال إلا من هديت فاستهدوني اهدكم".

وقال تعالى: (فاذا قرأت القرآن فاستعذ........)

وفي الصحيحين عن سليمان بن صرد قال: استب رجلان عند النبي صلى الله عليه وسلم فغضب أحدهما فاشتد غضبه حتى انتفخ وجهه وتغير فقال النبي صلى الله عليه وسلم إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه الذي يجد فانطلق إليه الرجل فأخبره بقول النبي صلى الله عليه وسلم وقال تعوذ بالله من الشيطان فقال أترى بي بأس أمجنون أنا اذهب"٢"٣

وردا على سؤال أين كان ربنا، قال:

---

١) درء التعارض، ٣/١٤٤.

٢) صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، ٥٧٠١.

٣) درء التعارض، ٣/١٤٤- ١٤٥.

" في حديث أبي رزين لم يكن هذا السؤال فاسدا عنده صلى الله عليه وسلم كسؤال السائل من خلق الله فإنه لم ينه السائل عن ذلك ولا أمره بالاستعاذة بل النبي صلى الله عليه وسلم سأل بذلك غير واحد فقال له أين الله؟ وهو متره أن يسأل سؤالا فاسدا وسمع الجواب عن ذلك وهو متره أن يقر على جواب فاسد، ولما سأل عن ذلك به تارة ومجيبا عنه أخرى، ولو كان المقصود مجرد التمييز بين الرب والصنم مع علم الرسول أن السؤال والجواب فاسدان لكان في الأسولة الصحيحة ما يغني غير الرسول عن الأسولة الفاسدة، فكيف يكون الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه كان يمكن أن يقول من ربك؟ ومن تعبدين؟، كما قال لحصين الخزاعي: يا حصين كم تعبد اليوم؟ قال: أعبد سبعة آلهة؛ ستة في الأرض، وواحدا في السماء، قال فمن الذي تعد رغبتك ورهبتك؟ قال: الذي في السماء، فقال: أسلم حتى أعلمك كلمة نفعك الله بها، فلما أسلم سأله عن الدعوة، قال: قل اللهم ألهمني رشدي، وقني شر نفسي[1]"[2]

وقد سلك شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى مسلكا متميزا في الاعتماد على آثار السلف والنصوص الشرعية في الاستدلال على وجود الله تعالى عن طريق استقراء وفهم السلف للعموميات وتطبقها على ما جد لديه من مسائل لم تكون مشهورة على عهدهم، ومن ذلك قاعدة الاستدلال بالعام على الخاص، ومن شواهد ذلك ما نقله الصحابة في الاستدلال بظهور الشعائر لإثبات أن ظهورها دليل على إسلام أهل الديار التي ظهرت فيها كالأذان والجمع والأعياد.

قال- رحمه الله-: ومن الدلائل: الشعائر؛ مثل شعائر الإسلام الظاهرة، التي تدل على أن الدار دار الإسلام؛ كالأذان والجمع والأعياد.

وفي الصحيحين، عن أنس – رضي الله عنه- قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غزا قوما لم يغز حتى يصبح، فإن سمع أذانا أمسك، وإن لم يسمع أذانا أغار بعدما يصبح"[3]... ومن هذا النوع: دلائل الجهات، ومنه دلائل القبلة، يستدل عليها بالنجوم والشمس والقمر والرياح والطرق وغير ذلك من الدلائل، كما قد ذكر الناس ما ذكروه من دلائل القبلة"[4].

كما أن شيخ الإسلام- رحمه الله- قد انتهج سبيل من سبقوه من أئمة السلف في السكوت عما سكت الصحابة، و لم يكن له ذكر في الكتاب والسنة، من الأدلة التي استدل بها المتكلمون على وجود الله تعالى.

---

١) سنن الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما جاء في جامع الدعوات عن النبي صلى الله عليه وسلم ،حديث رقم:٣٤٨٣

٢) درء التعارض، ١٤٧/٣.

٣) أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب الأذان، ياب ما يحقن بالأذان من الدماء، حديث رقم:٥٨٥.

٤) النبوات، ابن تيمية، ٧٦٠- ٧٦١.

قال ابن عبدالبر: "وقد علمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدعهم في هذه الأمور إلى الاستدلال بالأعراض والجواهر وذكر ماهيتهما، ولا يمكن لأحد من الناس أن يروي في ذلك عنه ولا عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم من هذا النمط حرفاً واحداً فما فوقه، لا في طريق تواتر ولا آحاد، فعلمنا أنهم ذهبوا خلاف مذهب هؤلاء وسلكوا غير طريقهم، وأن هذا طريق محدث مخترع لم يكن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أصحابه رضي الله عنهم، وسلوكه يعود عليهم بالطعن والقدح ونسبتهم إلى الجهل وقلة العلم في الدين واشتباه الطريق عليهم"[١].

ووينبغي التنبيه قبل عرض الآثار التي اعتمد عليها ابن تيمية- رحمه الله- في إثبات وجود الله تعالى إلى أنها لم تأت مرتبة، أو ورد بها نص شامل ، إلا أن يمكن استنباطها بسهولة من خلال ما ذكروه أو جعلوه مرجعا لهم، وهذا الاستباط جعل العلماء يذكرون هذه الأدلة، كما يلي:

أولا: دليل الفطرة

وأول تلك الأدلة ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء" ثم يقول أبو هريرة واقرءوا إن شئتم فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله الآية)[٢].

لقد عبر ابو هريرة رضي الله تعالى عنه، عن فهم عميق لكيفية التعامل مع ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في شرحه لما أنزله الله تعالى في كتابه، خاصة في الأمور الغيبية المتعلقة بذات الله وموافقة ذلك للفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، وهي قاعدة أساسية في فهم السلف للنصوص الشرعية.

فكان أول الأدلة على وجود الله ميل الفطرة البشرية لوجود خالق لها يهديها سواء السبيل، وتنحرف الفطرة عن الطريق المستقيم بعد ذلك بفعل البعد عن الله، وهذا الدليل نفسه هو أحد الأدلة التي اعتمد عليها شيخ الإسلام ابن تيمية في إثبات وجود الله، كما سنرى.

كما اعتمد شيخ الإسلام أيضا على حديث الجارية

كما استدل شيخ الإسلام على أن الفطرة السليمة، توافق الشرع الصحيح في إثبات وجود الله تعالى، ومن ذلك ما رواه أبو معاوية السلمي رضي الله عنه من حديث الجارية الطويل:

"وكانت لي جارية ترعى غنما لي قبل أحد والجوانية فاطلعت ذات يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون لكني صككتها صكة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعظم

١) الانتصار لاهل الحديث، للسمعاني،٦٩-٧١
٢) أخرجه صحيح مسلم، في كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، برقم: (٢٦٥٨)

ذلك علي قلت يا رسول الله أفلا أعتقها ؟ قال : ائتني بها فأتيته بها فقال: لها أين الله قالت في السماء قال من أنا قالت أنت رسول الله قال أعتقها فإنها مؤمنة[1]".

فقد علمت الجارية بفطرتها أين الله، وليس مجرد وجوده فقط، وهو من الآثار التي صححه شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله في باب علو الله تعالى[2].

ثانيا: الدليل العقلي

العقل البشري يميل إلى أن كل مخلوق لابد له من خالق، فليس من الطبيعي أن يخلق من غير شيء.

ويوضح شيخ الإسلام- رحمه الله تعالى- أن العقل الصحيح لا ينقاض النقل الصريح في إثبات وجود الله تعالى، وهي القاعدة التي صار عليها السلف في تفسير قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٢].

قال ابن تيمية: " يقول سبحانه أحدثوا من غير محدث أم هم أحدثوا أنفسهم ومعلوم أن الشيء لا يوجد نفسه، فالممكن الذي ليس له من نفسه وجود ولا عدم لا يكون موجودا بنفسه بل إن حصل ما يوجده وإلا كان معدوما وكل ما أمكن وجوده بدل عن عدمه وعدمه بدل عن وجوده فليس له من نفسه وجود ولا عدم وهذا بين"[3].

من الآثار الواردة عن الصحابة ما رواه البخاري في صحيحه، عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه رضي الله عنه قال: "سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ* أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ * أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧]، قال كاد قلبي أن يطير... قال: قوله : (كاد قلبي يطير).

قال الخطابي[4]: "كأنه انزعج عند سماع هذه الآية لفهمه معناها ومعرفته بما تضمنته ، ففهم الحجة فاستدركها بلطيف طبعه، وذلك من قوله تعالى أم خلقوا من غير شيء قيل معناه ليسوا أشد خلقا من خلق السموات

---

١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب امساجد ومواضع الصلاة ، باب تحريم الكلام في الصلاة حديث رقم ٨٧٧ .

٢) انظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ٢٥٨/٥.

٣) شرح الأصبهانية ، ص ٥٣-٥٤.

٤) الإمام العلامة ، الحافظ اللغوي ، أبو سليمان ، حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي ، صاحب التصانيف . ولد سنة بضع عشرة وثلاثمائة .وسمع من : أبي سعيد بن الأعرابي بمكة ، ومن إسماعيل بن محمد الصفار وطبقته ببغداد ، ومن أبي بكر بن داسة وغيره بالبصرة ، ومن أبي العباس الأصم ، وعدة بنيسابور . وعني بهذا الشأن متنا وإسنادا .وروى أيضا عن أبي عمرو بن السماك ، ومكرم القاضي ، وأبي عمر غلام ثعلب وحمزة بن محمد العقبي وأبي بكر النجاد ، وجعفر بن محمد الخلدي . وأخذ الفقه على مذهب الشافعي عن أبي بكر القفال الشاشي ، وأبي علي بن أبي هريرة ، ونظرائهما.

والأرض لأنهما خلقتا من غير شيء ، أي هل خلقوا باطلا لا يؤمرون ولا ينهون ؟ وقيل المعنى أم خلقوا من غير خالق ؟ وذلك لا يجوز فلا بد لهم من خالق ، وإذا أنكروا الخالق فهم الخالقون لأنفسهم ، وذلك في الفساد والبطلان أشد ، لأن ما لا وجود له كيف يخلق ، وإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقا . ثم قال : أم خلقوا السماوات والأرض أي إن جاز لهم أن يدعوا خلق أنفسهم فليدعوا خلق السماوات والأرض ، وذلك لا يمكنهم ، فقامت الحجة . ثم قال: بل لا يوقنون فذكر العلة التي عاقتهم عن الإيمان وهو عدم اليقين الذي هو موهبة من الله ولا يحصل إلا بتوفيقه ، فلهذا انزعج جبير حتى كاد قلبه يطير ، ومال إلى الإسلام"[١].

الوجه الثالث: دليل الحس.

يعتبر شيخ الإسلام- رحمه الله تعالى المشاهدات الحسية من أبرز الأدلة على وجود الله فهي لا تخطئها عين صحيحة ولا عقل سليم، ويعتمد ابن تيمية في ذلك على التوفيق بين الأدلة الشرعية، والعقل الصحيح.

قال- رحمه الله تعالى: "فالاستدلال على الخالق بخلق الإنسان في غاية الحُسْن والاستقامة، وهي طريقة عقلية صحيحة، وهي شرعية، دلَّ عليها القرآن وهدى الناس إليها؛ فإن نفس كون الإنسان حادثاً بعد أن لم يكن، ومخلوقاً من نطفة ثم من علقة... فإن هذا يعلمه الناس كلُّهم بعقولهم، فهو إذنْ عقليٌّ؛ لأنه بالعقل تُعلَم صحته، وهو شرعيٌّ أيضاً"[٢]

ومن الأدلة الحسية التي تحدث عنها السلف تقدير الأقوات في الأرض، ومشاهدة تحول المخلوقات من حال إلى حال، وقد روى القرطبي- رحمه الله- بعض الآثار الواردة عن السلف حول ذلك في تفسير قوله: "قوله تعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِين ﴾ [الذاريات:٢٠]، لما ذكر أمر الفريقين بين أن في الأرض علامات تدل على قدرته على البعث والنشور ؛ فمنها عود النبات بعد أن صار هشيما ، ومنها أنه قدر الأقوات فيها قواما للحيوانات ، ومنها سيرهم في البلدان التي يشاهدون فيها آثار الهلاك النازل بالأمم المكذبة . والموقنون هم العارفون المحققون وحدانية ربهم ، وصدق نبوة نبيهم ، خصهم بالذكر لأنهم المنتفعون بتلك الآيات وتدبرها."[٣]

قوله تعالى : ﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُون ﴾[الذاريات:٢١]، " قيل : التقدير وفي الأرض وفي أنفسكم آيات للموقنين . وقال قتادة : المعنى من سار في الأرض رأى آيات وعبرا ، ومن تفكر في نفسه علم أنه خلق ليعبد الله . ابن الزبير ومجاهد : المراد سبيل الخلاء والبول . وقال السائب بن شريك : يأكل ويشرب من مكان واحد ويخرج من مكانين ؛ ولو شرب لبنا محضا لخرج منه الماء ومنه الغائط ؛ فتلك الآية في النفس .

---

١) أخرجه صحيح البخاري، في كتاب تفسير القرآن، سورة والطور، برقم (٤٥٧٣).

٢) النبوات، ابن تيمية، ٨٤.

٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٧/٣٨-٤٠.

وقال ابن زيد : المعنى أنه خلقكم من تراب ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ثم إذا أنتم بشر تنتشرون . السدي: وفي أنفسكم أي في حياتكم وموتكم ، وفيما يدخل ويخرج من طعامكم . الحسن : وفي الهرم بعد الشباب ، والضعف بعد القوة ، والشيب بعد السواد . وقيل : المعنى وفي خلق أنفسكم من نطفة وعلقة ومضغة ولحم وعظم إلى نفخ الروح ، وفي اختلاف الألسنة والألوان والصور ، إلى غير ذلك من الآيات الباطنة والظاهرة ، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول ، وما خصت به من أنواع المعاني والفنون ، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف والأبصار والأطراف وسائر الجوارح ، وتأتيها لما خلقت له ، وما سوى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني ، وأنه إذا جسا شيء منها جاء العجز ، وإذا استرخى أناخ الذل فتبارك الله أحسن الخالقين"[١]

ولا شك أن دليل الحس من أهم الأدلة التي أقرها السلف على وجود الله تعالى، لوجوده في كل ما يحيط بالإنسان وفي جوارحه ، وأعضاء جسده من تلك المشاهدات التي يعيشها كل لحظة.

الوجه الرابع: دليل الشرع:

وهو الوجه الجامع لكل الأدلة لدى السلف، إذ يعتمد منهجهم على تصديق خبر الله، وتنفيذ أمره، ولزوم الطاعة والانقياد التام والتسليم لكل ما ورد عن الله تعالى.

والأدلة من الكتاب والسنة أكثر من أن تحصى في إثبات الإيمان بالله تعالى عند السلف، ومنها قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُون * وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِين * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِين {البقرة:٢١ -٢٤ } ، قال الإمام البغوي- رحمه الله-: "قوله تعالى (يا أيها الناس) قال ابن عباس رضي الله عنهما: " يا أيها الناس خطاب أهل مكة ويا أيها الذين آمنوا خطاب أهل المدينة وهو هاهنا عام إلا من حيث إنه لا يدخله الصغار والمجانين ، (اعبدوا) وحدوا قال ابن عباس رضي الله عنهما كل ما ورد في القرآن من العبادة فمعناها التوحيد (ربكم الذي خلقكم) والخلق اختراع الشيء على غير مثال سبق (والذين من قبلكم) أي وخلق الذين من قبلكم"[٢].

والأدلة الشرعية على وجود الله تعالى أكثر من أن تحصى، وهي المهيمنة على جميع الأدلة، لقوتها وصدورها عن الخالق عز وجل، وليس هناك أقوى ولا أظهر مما يخبر الله به عن نفسه، من صفات وأسماء.

---

١) الجامع لأحكام القرآن ١٧/٣٨-٤٠

٢) تفسير البغوي، سورة البقرة، ١/٦٣.

المبحث الثاني:

منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في كلمة الإخلاص، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في كلمة الإخلاص وشروطها.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في كلمة الإخلاص وشروطها.

مدخل

الإخلاص لغة: قال ابن فارس :"الخاء واللام والصاد أصل واحد مطَّرِد، وهو تنقية الشيء وتهذيبه، يقولون: خَلّصتُه من كذا وخَلَص هو"١، ويقال: خَلَص الشيء بالفتح يَخْلُص خُلُوصًا وخَلاصًا إذا كان قد نَشبَ ثم نَجا وسَلِم، وأَخْلَصه وخَلَّصه ، وأَخْلَص لله دينَه أَمْحَضَه، والإخْلاصُ في الطاعة تَرْكُ الرِّياء. والتخليص التَّنْجيَة من كل مَنْشَبٍ، تقول: خَلَّصْته من كذا تَخْلِيصًا، أي: نَجيَّته تَنْجيَة فتخلّص، كما يُتَخلّصُ الغَزْلُ إذا الْتَبَس"٢.

ومدار الإخلاص في كتاب اللغة على الصفاء والتميز عن الأشواب التي تخالط الشيء يقال: هذا الشيء خالص لك: أي لا يشاركك فيه غيرك والخالص من الألوان عندهم ما صفا ونصع. ويقولون خالصة في العشرة: صافاه٣.

والإخلاص اصطلاحا:

قال الكفوي٤ في الكليات:" الإخلاص هو القصد بالعبادة إلى أن يعبد المعبود بها وحده، وقيل تصفية السر والقول".

وقال المناوي٥:"الإخلاص: تخليص القلب من كل شوب يكدر صفاءه، فكل ما يتصور أن يشوبه غيره فإذا صفا عن شوبه وخلص منه يسمى خالصا"٦.

---

١) مقاييس اللغة، ٢/٢٠٨، مادة خلص.

٢) انظر: الصحاح، ٣/١٠٧٣، لسان العرب، ٢/٢٩٤، مادة خلص.

٣) انظر: مقاصد المكلفين ص ٣٥٩.

٤) أبو البقاء (١٠٩٤ هـ/ ١٦٨٣ م) أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء: صاحب (الكليات) كان من قضاة الاحناف، عاش وولي القضاء في (كفه) بتركيا، وبالقدس، وببغداد، وعاد إلى استانبول فتوفي بها، ودفن بها. وله كتب أخرى بالتركية انظر: الأعلام للزركلي، العبر ٥/ ٣١، خطط المقريزي ٢/ ٢٣٦، وابن إياس ١/ ٨٣، والسلوك للمقريزي ١/ ٢٩٦ – ٣٤٢، وتاريخ الاسحاقي ١٨٩

٥) هو عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن نورالدين علي بن زين العابدين الحدادي المناوي القاهري الشافعي (زين الدين) ولد سنة: ٩٥٢هـ وتوفي سنة: ١٠٣١ هـ، من كبار العلماء بالدين والفنون، له أكثر من مائة مصنف، منها الكبير والصغير والتام والناقص، من كتبه: فيض القدير، كنوز الحقائق، شرح الشمائل للترمذي، شرح التحرير في الفقه، إعلام الحاضر والبادي، انظر: خلاصة الأثر، ٢/١٩٣، البدر الطالع، ١/٣٥٧.

٦) التوقيف علي مهمات التعاريف، ص ٤٣.

المطلب الأول

كلمة الإخلاص (التوحيد) هي أول واجب على المكلفين، وهي مفتاح باب الجنة، وهي أول دعوة الرسل، والعلم بها أشرف العلوم.

ويلتزم السلف وعلم أهل السنة والجماعة في تحديد مفهوم كلمة الإخلاص على الأدلة النقلية من الكتاب والسنة وهي الأدلة التي اعتمد عليها شيخ الإسلام ابن تيمية وجعلها ضابطا له في اعتماده على الآثار المروية عن الصحابة والتابعين أو ما نقله عن علماء السلف الذين سبقوه.

قال الحسن البصري للفرزدق[١] وهو يدفن امرأته: "ماذا أعددت لهذا اليوم؟ فقال الفرزدق: شهادة أن لا إله إلا الله منذ سبعين سنة، فقال الحسن: نعم العدة؛ فإن للا إله إلا الله شروطا؛ فإياك وقذف المحصنة"[٢].

وقيل لوهب بن منبه: أليس مفتاح الجنة لا إله إلا الله؟ قال: "بلى، ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان، فإن جئت بمفتاح له أسنان فُتح لك، وإلا لم يفتح لك"[٣].

وليس هناك أبلغ من هذا التشبيه البليغ لوهب ابن منبه، الذي أكد فيه أن قول لا إله إلا الله يحتاج لوازم ومتطلبات لا يتحقق معناه إلا بها.

وقد اجتهد السلف في تحديد كلمة الإخلاص وبيان لوازمها لأن بها يدخل العبد الإيمان وبغيرها يخرج منه وهي أول دعوة الرسل وأول واجب على المسلم، فلا تتحقق العبادة إلا بالإخلاص لله تعالى وأن يتوجه القلب بكليته إليه حبا ورجاء وخوفا وتوسلا، ولا يكون من ذلك شيء إلا لله تعالى.

---

١) الفرزدق، شاعر عصره ، أبو فراس ، همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية التميمي البصري .أرسل عن علي ، ويروي عن أبي هريرة ، والحسين ، وابن عمر ، وأبي سعيد ، وطائفة .وعنه : الكميت ، ومروان الأصفر ، وخالد الحذاء ، وأشعث الحمراني ، والصعق بن ثابت ، وابنه لبطة ، وحفيده أعين بن لبطة . وفد على الوليد ، وعلى سليمان ، ومدحهما . ونظمه في الذروة .كان وجهه كالفرزدق وهي الطلمة الكبيرة . فقيل : إنه سمع من علي ، فكان أشعر أهل زمانه مع جرير والأخطل النصراني ، ومات معه في سنة عشر ومائة من الأعيان مع الحسن البصري : أبو بكر محمد بن سيرين ، وأبو الطفيل عامر بن واثلة – في قول – وجرير بن الخطفى التميمي الشاعر ، ونعيم بن أبي هند الأشجعي الكوفي ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة بن عبيد الله التميمي، انظر: سير أعلام النبلاء، ٤/٥٠١.

٢) كلمة الإخلاص، لابن رجب، ١٤.

٣) المرجع السابق، ١٤

شروط كلمة الإخلاص (التوحيد):

أما عن شروط تحقيق كلمة الإخلاص (التوحيد) فهي أكثر من أن تحصى فيما روي عن السلف، فهم يقولون أن كلمة التوحيد لا تتحقق بالقول وحده وإنما بلوازمها وشروطها، وهذه الشروط مأخوذة بالتتبع والاستقراء للأدلة من الكتاب والسنة. فالعلماء المحققون استقرؤوا نصوص الكتاب والسنة، فوجدوا أن كلمة التوحيد "لا إله إلا الله" قيدت في الكتاب والسنة بقيود لا تعرف الإفراط أو التفريط.

ومن خلال استقراء ما استقر عليه السلف ومنهم ابن تيمية في شروط كلمة الإخلاص، فقد تبين أن منهجهم ثابت في الاعتماد على الأدلة النقلية الواردة في الكتاب والسنة، وأن هذه الشروط لم ترد صريحة عن أحد من الصحابة؛ بل تعتمد جميعها على استقراء ما جاء في الكتاب والسنة، لتسهيل فهمها.

١- العلم المنافي للجهل:

وهذا الشرط من الأمور المسلم بها إذ لا يمكن قبول، كلمة الإخلاص، والتيقن منها، والانقياد لها، إلا بعد العلم بها، والجاهل بذلك لا ينفعه ما ترتب عليها.

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أهمية العلم في توحيد الله تعالى واعتبر ذلك من فروض الأعيان، قال- رحمه الله-:

"وطلب العلم الشرعي فرض على الكفاية إلا فيما يتعين، مثل طلب كل واحد علم ما أمره به وما نهاه عنه، فإن هذا فرض على الأعيان"١.

وقد ذكر ذلك الكثير من علماء السلف، ومنهم الإمام الشافعي- رحمه الله- حيث قال " فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بلغه جهده ، حتى يشهد به أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، ويتلو به كتاب الله ، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير ، وأمر به من التسبيح والتشهد وغير ذلك"٢.

١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ٣/٣٢٨.

٢) الرسالة، للشافعي، ١/٤٢-٥٣

٢- اليقين المنافي للشك والريب:

اليقين ضد الريب والشك، فهو يتضمن سكون الفهم مع ثبات الحكم[١] ، بحيث لا يحصل لصاحبه ترددٌ وتشككٌ وريبة وقلقٌ في داخله، وإنما يكون ساكناً إلى هذا الاعتقاد، أو إلى مبدئه، أو إلى عقيدته ودينه، والأمور التي تيقنها، ولهذا قال من قال كالجُنيد: 'اليقين هو استقرار العلم الذي لا يحولُ ولا ينقلب ولا يتغير في القلب[٢] ، فهو شيء ثابت راسخٌ فيه، وهو بهذا الاعتبار يكون بمعنى طمأنينة القلب وثبات واستقرار العلم فيه[٣].

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة قال:" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لقيت يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه بشره بالجنة"[٤].

إذن فالشهادة وحدها لا تكفي فلابد لها من وجود اطمئنان القلب، وثباتها على ذلك.

والشهادة تكون بإتيان اللفظ وإعلام الغير بها بشرط اليقين، قال الإمام ابن حبان رحمه الله تعالى: "ذكر البيان بأن الجنة إنما تجب لمن شهد لله جل وعلا بالوحدانية، وكان ذلك عن يقين من قلبه، لا أن الإقرار بالشهادة يوجب الجنة للمقر بها دون أن يقر بها بالإخلاص"[٥].

وعلى ذلك فإن من شروط كلمة الإخلاص استقرار العلم في القلب وطمأنينته التي لا يخالجها شك ولا ريب.

٣- الصدق المنافي للكذب المانع من النفاق:

يعتبر ابن تيمية أن شهادة أن لا إله إلا الله تعني التصديق والإقرار، وأن من لوازم ذلك الإخبار والدعوة إلى الله تعالى ومعتمده في ذلك على الكتاب والسنة، فحول قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ (آل عمران:١٨).

قال- رحمه الله- : "فإذا شهد الله أنه لا إله إلا هو فقد حكم وقضى بأن لا يعبد إلا إياه . و"أيضا " فلفظ الحكم والقضاء يستعمل في الجمل الخبرية فيقال : للجمل الخبرية قضية ويقال : قد حكم فيها بثبوت هذا

١) انظر مجموع الفتاوى ٥/٥٧٠، المفردات للراغب، مادة: يقن،٥٥٢.

٢) بصائر ذوى التمييز ٥/٣٩٧.

٣) مجموع الفتاوى ٣/٣٢٩.

٤) أخرجة مسلم في كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا، برقم (٣١٤٦) .

٥) صحيح ابن حبان، كتاب الإيمان، باب: ذكر البيان بأن الجنة إنما تجب لمن شهد لله بالوحدانية ولنبيه بالرسالة وكان ذلك عن يقين منه.

المعنى وانتفاء هذا المعنى وكل شاهد ومخبر هو حاكم بهذا الاعتبار قد حكم بثبوت ما أثبته ونفي ما نفاه حكما خبريا قد يتضمن حكما طلبيا"١.

قال محمد بن نصر المروزي :"والشاهد بلا إله إلا الله هو المصدق المقر بقلبه يشهد بها لله بقلبه ولسانه يبتدأ بشهادة قلبه والإقرار بها، ثم يثني بالشهادة بلسانه والإقرار به بنية صادقة يرجع بها إلى قلب مخلص، فذلك المؤمن المسلم ليس كما شهد به المنافقون إذ قالوا: " نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ" ، قال الله: ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُون ﴾ [المنافقون:١] فلم يكذّب قولهم ولكن كذبهم من قلوبهم فقال:﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ﴾ كما قالوا، ثم قال: ﴿ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُون ﴾ فكذبهم لأنهم قالوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم "٢.

وعن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه إلا حرمه على النار" ٣.

٤- الإخلاص المنافي للشرك:

يعتبر ابن تيمية- رحمه الله أن الإخلاص في كل شيء هو الفرق بين قبول الإيمان والشرك، فالله تعالى يتقبل عمل المخلصين لما في ذلك من إظهار توحيده وعبادته وحده لا شريك له.

ويستند رحمه الله إلى الآثار المرفوعة للنبي صلى الله عليه وسلم، منها حديث بغي بني إسرائيل، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم : " بينما كلب يطيف بركية كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل فنزعت موقها فسقته فغفر لها به "٤.

قال – رحمه الله- :" فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغُفِرَ لها، و إلا ليس كل بغي سقت كلباً يُغفر لها، وكذلك هذا الذي نحّى غصن الشوك عن الطريق فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه فغفر له بذلك، فإن الإيمان يتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص"٥.

---

١) مجموع الفتاوى، ١٦٨/١٤.

٢) تعظيم قدر الصلاة، ٧٠٧/٢-٧٠٨

٣) أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا، برقم (١٢٨).

٤) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، حديث رقم: ٣٢٣٢.

٥) منهاج السنة، ٢٢١/٦.

وقال ابن كثير رحمه الله : "فاعبد الله وحده لا شريك له وادع الخلق إلى ذلك وأعلمهم أنه لا تصلح العبادة إلا له وحده وأنه ليس له شريك ولا عديل ولا نديد ولهذا قال تعالى ﴿ ألا لله الدين الخالص﴾ أي لا يقبل من العمل إلا ما أخلص فيه العامل لله وحده لا شريك له"[١].

وفي صحيح البخاري "عن أبي هريرة أنه قال : قلت: يا رسول الله : من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لقد ظننت – يا أبا هريرة – أن لا يسألني عن هذا الحديث أول منك ، لما رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصاً من قلبه"[٢].

وقال ابن أبي الدنيا: حدثنا محمد بن علي بن شقيق[٣] ، حدثنا إبراهيم بن الأشعث : ﴿ ليبلوكم أيكم أحسن عملا﴾ {الملك:٢} ، قال : أخلصه وأصوبه، قال: " إن العمل إذا كان خالصا و لم يكن صوابا لم يقبل ، وإذا كان صوابا و لم يكن خالصا لم يقبل حتى يكون خالصا صوابا ، والخالص إذا كان لله ، والصواب : إذا كان على السنة " [٤].

إذن فالإخلاص هو أيضا أحد شروط لا إله إلا الله لأنه من أعمال القلوب التي تفرق بين توحيد العبادة لله، وعدم توجيهها إلى ما سواه، فمهما كثرت الأعمال وفقدت هذا الشرط كان الإيمان ناقصا، وقد يدخل في دائرة الشرك المنهي عنها.

---

١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٩.

٢) أخرجه البخاري كتاب العلم ١/٢٣٣ برقم ٩٩ وفي الرقاق باب صفة الجنة والنار برقم ٦٥٧٠.

٣) محمد" بن علي بن الحسن بن شقيق بن دينار وقيل شقيق بن محمد بن دينار بن مشعب العبدي مولاهم أبو عبد الله بن أبي عبد الرحمن المروزي المطوعي روى عن أبيه وأبي أسامة وأسباط بن محمد والنضر بن شميل والنضر بن عبد الله وعلي بن حفص المدائني وعبدان وحبان بن موسى وغيرهم روى عنه الترمذي والنسائي وروى النسائي أيضا عن محمد بن حاتم عنه ومسلم والبخاري في غير الجامع وبقي بن مخلد وإبراهيم بن أبي طالب والهيثم بن خلف وأبو زرعة وأبو حاتم وأبو بكر بن أبي الدنيا وابن خراش وابن خزيمة وابن جرير والحسن بن سفيان وأبو عروبة وابن صاعد والمحاملي وغيرهم، انظر: تهذيب التهذيب، ٣٤٩/٩.

٤) الإخلاص والنية لابن أبي الدنيا، ٥٠

٥- المحبة المنافية للكره:

والحب نقيض البغض، والبغض نفور النفس عن الشيء الذي يُرغَب عنه، فإنّ الحب انجذاب النفس إلى الشيء الذي ترغب فيه"١.

قال شيخ الإسلام: "من ذاق العسل، ووجد طعمه وحلاوته، ومعلوم أن هذا أعلى مما قبله؛ ولهذا يشير أهل المعرفة إلى ما عندهم من الذوق والوجد، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح "ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان اللّه ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن كان يحب المرء لا يحبه إلا للّه، ومن كان يكره أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه اللّه منه كما يكره أن يلقي في النار"٢، وقال صلى الله عليه وسلم "ذاق طعم الإيمان: من رضى باللّه ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا"٣"٤.

وفي بعض الكتب السالفة: من أَحَبَّ الله لم يكن في شيء عنده آثر من رضاه، ومن أحبَّ الدُّنْيا لم يكن شيء عنده آثر من هوى نفسه وروى ابن أبي الدُّنْيا بإسناده عن الحسن قال: ما نظرت ببصري، ولا نطقت بلساني، ولا بَطَشْتُ بيدي، ولا نَهَضْتُ عَلَى قدمي، حتى أنظر عَلَى طاعة أو معصية، فإن كانت طاعة تقدمت، وإن كانت معصية تأخرت.

هذا حال خَوَاصّ المحبين الصادقين، فافهموا -رحمكم الله- هذا، فإنّه من دقائق أسرار التوحيد الغامضة. وإلى هذا أشار - صلى الله عليه وسلم - في خطبته لما قدم المدينة حيث قال: "أحبوا الله من كل قلوبكم" وقد ذكرها ابن إسحاق وغيره٥ ".

وعن أنس -رضيَ اللهُ عنهُ- قال: قال رسول الله -صلَّى الله عليهِ وسلَّم-: " ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه؛ وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرء لا يُحبُّه إلا لله، وأن يكرهَ أن يعودَ في الكفر بعد إذْ أنقذهُ الله منه كما يَكرهُ أن يُقذفَ في النار"٦.

---

١) لسان العرب، ١ /٢٨٩) مادة: (حبب)، والتوقيف على مهمات التعاريف، ١ /١٣٨.

٢) أخرجه البخاري، في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، حديث رقم:١٦

٣) أخرجه مسلم في صحيحه، في كتاب الإيمان ، باب من ذاق طعم الإيمان ، حديث رقم ٧٨

٤) مجموع الفتاوى، ١٠/٦٤٦.

٥) الدلائل، البيهقي، (٢/ ٥٢٤ - ٥٢٥).

٦) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان ، برقم (١٦) ، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان ، برقم (٨٩) .

يؤكد السلف أن تحقيق حلاوة الإيمان في القلب لا تتحقق إلا بإخلاص المحبة لله تعالى والتي لا يشعر بحلاواتها إلا من استلذ بطاعة الله وتحمل المشاق من أجل رضا محبوبه، ولا تكون المحبة لشيء لذاته إلا لله تعالى، وبمقدار سكون المحبة في قلب العبد بمقدار ما يكون كره ما يكرهه المحبوب تعالى.

٦- القبول المنافي للرد:

يعتبر السلف أن من شروط التوحيد القبول التام بكل ما أخبر الله، والرضا بكل ما قسم وقدر،

فعن أبي سعيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "من قال : رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً وجبت له الجنة "[١].

وعنه أيضا، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : " من رضي بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا وجبت له الجنة " قال أبو سعيد : فحمدت الله وكبرت وسررت به . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : " وأخرى يرفع الله بها أهلها في الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين ، كما بين السماء والأرض ، أو أبعد ما بين السماء والأرض " قال : قلت وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : الجهاد في سبيل الله ، الجهاد في سبيل الله"[٢].

وقد ذكر شيخ الإسلام أن من علامات ذلك القبول بما أمر الله تعالى به، والصبر على ابتلائه، قال-رحمه الله-: " فالمأمور به يجب الرضا به ، كما في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُون ﴾ [سورة التوبة : ٥٩]"[٣].

وقال ابن عبد البر :"عند شرحه حديث: «خمس صلوات في اليوم والليلة» قال: «وفيه دليلٌ على أنّ من لم يصلّ من المسلمين في مشيئة الله إذا كان موحّداً مؤمناً بما جاء به محمد -صلى الله عليه وسلم- مصدقاً مقرّاً وإنْ لم يعمل، وهذا يردّ قول المعتزلة والخوارج بأسرها؛ ألا ترى أن المقرّ بالإسلام في حين دخوله فيه يكون

١) سنن أبي داوود، حديث رقم: ١٥٢٩.
٢) المستدرك على الصحيحين، حديث رقم:٢٤٠٦.
٣) منهاج السنة، ابن تيمية، ٢٠٤/٣.

مسلماً قبل الدخول في عمل الصلاة وصوم رمضان بإقراره وعقده نيته، فمن جهة النظر لا يجب أن يكون كافراً إلا برفع ما كان به مسلماً وهو: الجحود لما كان أقرّ به واعتقده، والله أعلم"١.

وعلى ذلك فقد اتفق السلف أنه لا ينفع معرفة القلب وقول اللسان وحدهما إلا إذا صدقهما عمل الجوارح وهو ما وقع فيه الكثير من الفرق المنحرفة كالخوارج والمعتزلة والمرجئة وغيرها، فالأصل هو القبول التام لأحكام الله وأخباره دون رد شيء منها بالامتناع عن قبولها أو تنفيذها.

٧- الانقياد المنافي للترك:

ومعناه أن يعبد الله وحده، وينقاد لشريعته، ويؤمن بها، ويعتقد أنها الحق، فإن قالها و لم يعبد الله وحده، و لم ينقد لشريعته بل استكبر عن ذلك فإنه لا يكون مسلما كإبليس وأمثاله٢.

قال الإمام المروزي - رحمه الله -: "أصل الإيمان التصديق بالله، وبما جاء من عنده، وعنه يكون الخضوع لله لأنه إذا صدق بالله خضع له، وإذا خضع أطاع.. ومعنى التصديق هو المعرفة بالله، والاعتراف له بالربوبية، بوعده، ووعيده، وواجب حقه، وتحقيق ما صدق به من القول والعمل.. ومن التصديق بالله يكون الخضوع لله، وعن الخضوع تكون الطاعات، فأول ما يكون عن خضوع القلب لله الذي أوجبه التصديق من عمل الجوارح والإقرار باللسان"٣.

وقال:"أصل الإيمان هو التصديق، وعنه يكون الخضوع، فلا يكون مصدقاً إلا خاضعاً، ولا خاضعاً إلا مصدقاً، وعنهما تكون الأعمال" ٤.

وذكر الحميدي٥ أنه كان عند الشافعي، قال: فأتاه رجل فسأله عن مسألة، فقال الشافعي: قضى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم كذا وكذا، فقال رجل للشافعي: وما تقول أنت؟ فقال الشافعي: سبحان الله!،

---

١) التمهيد، ٢٣ /٢٩٠.

٢) مجموع فتاوى الشيخ ابن باز، ٢٣٢/١.

٣) تعظيم قدر الصلاة ٦٩٥/٢-٦٩٦.

٤) المرجع السابق، ٧١٥/٢- ٧١٦ .

٥) عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله بن أسامة بن عبد الله بن حميد بن زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزى .وقيل : جده هو عيسى بن عبد الله بن الزبير بن عبيد الله بن حميد ، الإمام الحافظ الفقيه ، شيخ الحرم أبو بكر القرشي الأسدي الحميدي المكي ، صاحب " المسند " . حدث عن : إبراهيم بن سعد ، وفضيل بن عياض ، وسفيان بن عيينة، انظر سير أعلام النبلاء، ٦١٧/١٠.

تراني في كنيسة، تراني في بيعة –أي دار عبادة اليهود–، ترى على وسطي زناراً –وهو شعار أهل الذمة–، أقول لك قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت تقول: ما تقول أنت"[١]

والخلاصة نجد أن منهج السلف مبني على أن الانقياد والتصديق والخضوع الخالص لا يكون إلا لله تعالى، فلا تكون عبادة إلا بما شرع الله ولا يكون لمؤمن ولا مؤمنة اختيار أمام تنفيذ أمر الله تعالى فلا يقدمون شيئا من عقل ونحوه على ما كلفهم الله به.

---

١) ذم الكلام وأهله ١٣/٣.

المطلب الثاني

قول شيخ الإسلام ابن تيمية في كلمة الإخلاص وشروطها

كلمة الإخلاص عند ابن تيمية[1]:

من خلال استقراء أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية يتبين أن منهجه ثابت في جعل الكتاب والسنة مرتكزه في الأمور العقدية التي تحدث فيها السلف والتي نقلها عنهم واستشهد بها في شرحها.

وقد أوضح شيخ الإسلام- رحمه الله- أن مدار الدين هو إخلاص العبادة لله وحده لتحقيق معنى توحيد الألوهية.

قال- رحمه الله-: "بل إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل وأنزل به جميع الكتب واتفق عليه أئمة أهل الإيمان وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه . قال تعالى : ﴿ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّيناًلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ {الزمر: ١-٣} والسورة كلها عامتها في هذا المعنى . ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾{الزمر:١١}وقوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾{الزمر:١٤}قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾ {النحل:١٠٠}، فبين أن سلطان الشيطان وإغواءه إنما هو لغير المخلصين ؛ ولهذا قال في قصة يوسف : ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾{يوسف:٢٤}، وأتباع الشيطان هم أصحاب النار كما قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ {ص:٨٥} ، وقد قال سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾{النساء:١١٦}، وهذه الآية في حق من لم يتب ولهذا خصص الشرك وقيد ما سواه بالمشيئة فأخبر أنه لا يغفر الشرك لمن لم يتب منه وما دونه يغفره لمن يشاء . وأما قوله:

﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ {الزمر:٥٣}، فتلك في حق التائبين ؛ ولهذا عم وأطلق وسياق الآية يبين ذلك مع سبب نزولها .

وقد أخبر سبحانه أن الأولين والآخرين إنما أمروا بذلك في غير موضع كالسورة التي قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على أبي لما أمره الله تعالى أن يقرأ عليه قراءة إبلاغ وإسماع بخصوصه فقال : ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَةُ ﴾ [البينة:٤]، ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥]، الآية. وهذا حقيقة قول لا إله إلا الله .

وعلى ذلك فقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية، بالأدلة النقلية من القرآن الكريم أن كلمة الإخلاص تدل بالمطابقة على توحيد الله عز وجل وتعني أنه لا معبود بحق إلا الله، وهي بذلك تحقق معنى (لا إله إلا الله).

ويوضح شيخ الإسلام أن ذلك هو دعوة الرسل أجمعين.

قال- رحمه الله-: "وبذلك بعث جميع الرسل قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ {الأنبياء:٢٥}، وقال: ﴿ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ {الزخرف:٤٥} ، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾ {النحل:٣٦}، وجميع الرسل افتتحوا دعوتهم بهذا الأصل كما قال نوح عليه السلام : ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ {الأعراف:٥٩}، وكذلك هود وصالح وشعيب عليهم السلام وغيرهم كل يقول ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ {هود:٥٠} ، لا سيما أفضل الرسل الذين اتخذ الله كلاهما خليلا إبراهيم ومحمدا عليهما السلام فإن هذا الأصل بينه الله بهما وأيدهما فيه ونشره بهما فإبراهيم هو الإمام الذي قال الله فيه ﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ {البقرة:١٢٤}، وفي ذريته جعل النبوة والكتاب والرسل فأهل هذه النبوة والرسالة هم من آله الذين بارك الله عليهم قال سبحانه ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ] [إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ {الزخرف:٢٦-٢٧}، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ {الزخرف:٢٨}، فهذه الكلمة هي كلمة الإخلاص لله وهي البراءة من كل معبود إلا من الخالق الذي فطرنا"١.

١) مجموع الفتاوي، التحفة العراقية، ١٠/ ٤٩-٥٣

ومما سبق فقد تبين أن شيخ الإسلام ابن تيمية، قد أتى بالأدلة من القرآن الكريم لإثبات أن كلمة الإخلاص تعني بالمطابقة توحيد الألوهية، وهو بذلك يسير على منهج السلف، فهي تعني الإخلاص في جميع أركان الإيمان الظاهرة والباطنة، وأهل السنة يقرون أن العمل ركن من أركان الإيمان، وقد بينا في الفصل السابق أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح والأركان واتباع السنة، فلو دخل الإخلاص في كل ذلك، لدل المعنى حين إطلاقه بالمطابقة على توحيد الألوهية وأنه لا معبود بحق إلا الله ، فتكون بذلك كلمة الإخلاص هي كلمة التوحيد (لا إله إلا الله).

قال رحمه الله: "والذي أمر الله به نوعان: أحدهما: العمل الظاهر، وهو ما كان واجبًا أو مستحبًا، والثاني: العمل الباطن، وهو إخلاص الدين لله. فقوله: «من عمل عملا» إلخ ينفي التقرب إلى الله بغير ما أمر الله به؛ أمر إيجاب أو أمر استحباب.

وقوله: «إنما الأعمال بالنيات» إلخ يبين العمل الباطن، وأن التقرب إلى الله إنما يكون بالإخلاص في الدين لله؛ كما قال الفضيل في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢]، قال: أخلصه وأصوبه، قال: فإن العمل إذا كان خالصًا، و لم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا، و لم يكن خالصًا لم يقبل، فالعمل حتى يكون خالصًا صوابًا. والخالص: أن يكون لله، والصواب: أن يكون على السنة، وعلى هذا دل قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف- ١١٠]، الصالح هو ما أمر الله به ورسوله؛ أمر إيجاب أو أمر استحباب، وألا يشرك العبد بعبادة ربه أحداً، وهو إخلاص الدين لله"[١].

وقال معلقاً على حديث البطاقة: "فهذه حال من قالها بإخلاص وصدق كما قالها هذا الشخص، وإلّا فأهل الكبائر الذين دخلوا النار كلهم كانوا يقولون لا اله إلا الله، و لم يترجح قولهم على سيئاتهم كما ترجح قول صاحب البطاقة"[٢].

وحول حديث المرأة التي سقت الكلب والرجل الذي أماط الأذى عن الطريق قال- رحمه الله-: "فهذه سقت الكلب بإيمان خالص كان في قلبها فغُفِرَ لها، وإلا ليس كل بغي سقت كلباً يُغفر لها، وكذلك هذا الذي نحّى غصن الشوك عن الطريق فعله إذ ذاك بإيمان خالص وإخلاص قائم بقلبه فغفر له بذلك.

---

١) مجموع الفتاوي، التحفة العراقية ، ١٨/٢٥٠- ٢٥١.

٢) منهاج السنة ٦/٢١٩.

فإن الإيمان يتفاضل بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص"[1]، وقال: "قيل لبعض السلف: "الحاج كثير" فقال: "الداج كثير، والحاج قليل"[2].

فبين –رحمه الله– أنه لا يكون العمل مكتملا إلا بتطابق أعمال الجوارح مع الإخلاص لله تعالى وأنه مهما كثرت الأعمال و لم تكن موجهة لله عز وجل فلا عبرة بها.

وقال أيضا: "فالَمحْوُ والتكفير يقع بما يتقبل من الأعمال، وأكثر الناس يقصرون في الحسنات حتى في نفس صلاتهم، فالسعيد منهم من تكتب له نصفها، وهم يفعلون السيئات كثيراً، فلهذا يكفر بما يتقبل من الصلوات الخمس شيء، وبما يتقبل من الجمعة شيء، وبما يتقبل من صيام رمضان شيء آخر، وكذلك سائر الأعمال"[3].

وعلى ذلك فإن شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله يفرق بين، مدلول كلمة الإخلاص إذا تم إطلاقها، إذ تدل بالتطابق– كما بينا– على كلمة التوحيد، وبين إذا تم تخصيصها بأعمال الباطن فتكون شرطا من شروط التوحيد.

وضع شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عددا من الشروط لكلمة الإخلاص (التوحيد)، وهي تدور في فلك ما وضعه السلف في ذلك، وهي:

١– **العلم المنافي للجهل:** قال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴾ [محمد: ١٩]، قال صلى الله عليه وسلم: " من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة "[4] . إذاً يشترط فيها أولاً العلم.

قال– رحمه الله: "وذلك أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو فقد أخبر وبين وأعلم أن ما سواه ليس بإله فلا يُعبد وأنه وحده الإله الذي يستحق العبادة وهذا يتضمن الأمر بعبادته والنهي عن عبادة ما سواه فإن النفي والإثبات في مثل هذا يتضمن الأمر والنهي "[5].

---

١) منهاج السنة، ٦/٢٢١.

٢) المرجع السابق ٦/٢١٨.

٣) منهاج السنة ٦/٢٤٨.

٤) أخرجه مسلم، في كتاب الإيمان ،باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعا ، برقم (٢٦)

٥) مجموع الفتاوى، ١٤/١٧٢

٢- اليقين المنافي للشك: قال تعالى﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ [الحجرات :١٥]، وقال صلى الله عليه وسلم : " أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى الله بهما عبد غير شاكٍّ فيهما إلا دخل الجنَّة "١.

وهذا معنى قوله في الرواية الأخرى : " مستيقناً بها قلبه" ، إذاً هي مرتبة اليقين٢.

٣- الإخلاص المنافي للشرك: قال تعالى: ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة: ٥] وقال عليه الصلاة والسلام عندما ذكر أسعد الناس بشفاعته يوم القيامة، فقال : " الذي يقول لا إله إلا الله خالصاً من قلبه"٣ .

٤- الصدق المنافي للكذب: قال تعالى: ﴿ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[الزمر:٣٣]، قال ابن عباس رضي الله عنه الصِّدق في الآية هو : إله إلا الله، وأيضاً يدل عليه حديث: " ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، صدقاً من قلبه، إلا حرمه الله على النَّار " ٤.

٥- المحبة أو الحب المنافي للكراهية أو البغض: قال عزَّ وجلَّ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾[المائدة: ٥٤]، وقوله صلى الله عليه وسلم : " ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله "٥

٦- الإنقياد المنافي للترك: قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾ [لقمان: ٢٢] ، وقوله تعالى : ﴿ وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤.]

٧- القبول المنافي للرد: كقوله عز وجل: ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٢٢] ، إلى أن قال﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الصافات: ٣٥] فلا يقبلونه .

---

١) أخرجه مسلم، في كتاب الإيمان ، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير، برقم ٤٢

٢) سبق تخريجه ص ٨٦.

٣) أخرجه البخاري في كتاب العلم ، باب الحرص على الحديث، برقم (٩٩).

٤) أخرجه البخاري، في كتاب العلم ، باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا، برقم (١٢٨).

٥) أخرجه البخاري، في كتاب الإيمان، باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان، برقم (١٥)

المبحث الثالث:

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في أنواع العبادة، وفيه تسعة مطالب:

المطلب الأول: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الخوف من الله.

المطلب الثاني: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في حسن الظن بالله.

المطلب الثالث: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في التوكل على الله.

المطلب الرابع: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في المحبة لله تعالى.

المطلب الخامس: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الرجاء في الله.

المطلب السادس: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الدعاء لغير الله.

المطلب السابع: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في التوسل لله تعالى.

المطلب الثامن: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في النذر لغير الله.

المطلب التاسع: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الرياء.

مدخل

عرف ابن تيمية- رحمه الله- العبادة بأنها كل ما يحبه الله ويرضاه، وقسم العبادات إلى نوعين- وقال إن النوع الأول يتمثل في الأعمال الظاهرة كالصلاة، والصيام، والحج، وغيرها من أعمال الجوارح في ظاهر البدن.

أما النوع الثاني فيتمثل في الأعمال القلبية الباطنة مثل: الإخلاص، والخوف، والمحبة، والرجاء، وهذا التقسيم لم يكن معروفا عند الصحابة، إلا أن شيخ الإسلام لجأ إليه في توضيح أمور العبادة وشرحها، معتمدا في ذلك على استنباط الأدلة التي توضح ما ذهب إليه من خلال ما ورد من نصوص شرعية، والمروي عن السلف.

قال- رحمه الله: "العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبر الوالدين وصلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف لعذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إلا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]"١.

وأوضح أن توحيد العبودية هو الغاية من إرسال الرسل جميعا وأورد الأدلة على ذلك من الكتاب والسنة.

قال رحمه الله: " وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه: ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ {الأعراف:٥٩}، وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ {النحل:٣٦}، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ {الأنبياء:٢٥}، وقال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ {الأنبياء:٩٢}

١) شرح رسالة العبادة لابن تيمية ، ص٦-٨

وعلى ذلك فقد تبين أن شيخ الإسلام يتحرى في منهجه إثبات ابن تيمية- رحمه الله- أن العبودية هي أعلى منزلة يمكن أن يصل إليها العبد، وهي مدار فخر الأولياء والأنبياء، وهي أفضل النعم عليهم، لأنهم بتحقيق العبودية لله، قد حصنوا أنفسهم من الشياطين وحققوا الغاية التي من أجلها خلق الإنسان.

المطلب الأول

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الخوف من الله تعالى

قرر ابن تيمية- رحمه الله أن الخوف هو أصل كل خير في الدنيا والآخرة، لأن الخوف: فعل الطاعات وترك المحرمات، وهو مدار دعوة الرسل أجمعين.

قال –رحمه الله-: "وخوفه من الله يوجب فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، والاستغفار من الذنوب، وحينئذ يندفع البلاء وينتصر على الأعداء، فلهذا قال علي رضي الله عنه: لا يخافن عبد إلا ذنبه، وإن سُلّط عليه مخلوق فما سُلّط عليه إلا بذنوبه، فليخف الله وليتب من ذنوبه التي نال بها ما ناله، كما في الأثر: أنا ملك الملوك ، قلوب الملوك بيدي ، فمن أطاعني جعلتهم عليه رحمة ، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة ، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك ، ولكن توبوا إليّ أعطفهم عليكم ١ "٢.

يوضح شيخ الإسلام أن الخوف من الله تعالى من العبادات القلبية العظيمة التي وردت فيها الكثير من الآثار عن الصحابة والتابعين، وقد وافقت المنقول في الكتاب والسنة، ولذلك فلم يظهر الخوف من الله في منهج ابن تيمية فقط، فقد كان نموذجا مثاليا للخوف من الله حتى أنه شُهد له بأنه كان من أخشى الناس وأورعهم. قال البزار: " "إذا أحرم ابن تيمية بالصلاة يكاد يخلع القلوب لهيبة إتيانه بتكبيرة الإحرام، فإذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه حتى يميل يمنة ويسرة"٣.

ويشرح ابن تيمية- رحمه الله- أن معتمده في إثبات الخوف من الله هو ما وافق آثار السلف من النصوص الشرعية، في تفسير قوله تعالى:﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ {الأنفال:٢}،يقول- رحمه الله-:

" معنى الخوف وعلاقاته بأعمال الجوارح والقلوب معتمدا في ذلك على منهج السلف فيقول: " إن وجل القلب عند ذكر الله يقتضي خشيته والخوف منه.

١) الترغيب والترهيب، المنذري، عن مالك بن دينار، ٧٩٢.

٢) مجموع الفتاوى، ٨/ ١٦٤.

٣) الأعلام العلية، للبزّار، ٧٥٨

وقد فسروا ﴿وَجِلَتْ﴾ بفرقت . وفي قراءة ابن مسعود: ﴿إِذَا ذُكِرَ اللّهُ فَرِقَتْ قُلُوبُهُمْ﴾. وهذا صحيح ؛ فإن " الوجل في اللغة " هو الخوف يقال : حمرة الخجل وصفرة الوجل .

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ {المؤمنون:٦٠} ، قالت عائشة: "يا رسول الله هو الرجل يزني ويسرق ويخاف أن يعاقب ؟ قال: لا يا ابنة الصديق هو الرجل يصلي ويصوم ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه"[١] .

ثم يأتي إلى ما وافق الكتاب والسنة من أقوال السلف، ويوضح أن الخوف من الله من أجل العبادات القلبية، وينقل شيخ الإسلام قول سهل بن عبد الله[٢]:" ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى ، ولا طريق إليه أقرب من الافتقار ، وأصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله " [٣].

ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ {الأعراف:١٥٤}، فأخبر أن الهدى والرحمة للذين يرهبون الله . قال مجاهد وإبراهيم: هو الرجل يريد أن يذنب الذنب فيذكر مقام الله فيدع الذنب . رواه ابن أبي الدنيا عن ابن الجعد عن شعبة عن منصور عنهما في قوله : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾. وهؤلاء هم أهل الفلاح المذكورون في قوله تعالى ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ {البقرة:٥}، وهم "المؤمنون" وهم " المتقون " المذكورون في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ {البقرة:٢} ،كما قال عز شأنه في آية البر: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ {البقرة:١٧٧}

وهؤلاء هم المتبعون للكتاب كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ {طه:١٢٣} ، وإذا لم يضل فهو متبع مهتد وإذا لم يشق فهو مرحوم . وهؤلاء هم أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين فإن أهل الرحمة ليسوا مغضوبا عليهم. وأهل الهدى ليسوا ضالين فتبين أن أهل رهبة الله يكونون متقين لله مستحقين لجنته بلا عذاب . وهؤلاء هم الذين أتوا بالإيمان الواجب"[٤].

---

١) شعب الإيمان، البيهقي، حديث رقم: ٧٢٣، سنن الترمذي، كتاب التفسير، باب سورة المؤمنون، حديث رقم ٣١٧٥.

٢) سهل بن عبد الله، ابن يونس : شيخ العارفين أبو محمد التستري ، الصوفي الزاهد. صحب خاله محمد بن سوار ، ولقي في الحج ذا النون المصري وصحبه. روى عنه الحكايات : عمر بن واصل ، وأبو محمد الجريري ، وعباس بن عصام ، ومحمد بن المنذر الهجيمي وطائفة. موته في المحرم سنة ثلاث وثمانين ومائتين ويقال : عاش ثمانين سنة أو أكثر. انظر: سير أعلام النبلاء ١٣/ ٣٣١-٣٣٤.

٣) مجموع الفتاوى، ٧/ ٢٠.

٤) المرجع السابق، ٧/١٧- ٢١.

ويظهر من هنا اهتمام شيخ الإسلام بتوثيق آراء السلف من الكتاب والسنة، ويعتبر أن ذلك هو الضابط الذي يسير عليه في توحيد العبادة لله تعالى.

وعلى هذه القاعدة نفسها يقول ابن تيمية- رحمه الله-:

"وقد روي عن أبي حيان التيمي أنه قال: " العلماء ثلاثة " فعالم بالله ليس عالما بأمر الله ، وعالم بأمر الله ليس عالما بالله ، وعالم بالله عالم بأمر الله . فالعالم بالله هو الذي يخافه والعالم بأمر الله هو الذي يعلم أمره ونهيه. وفي " الصحيح " عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بحدوده"١ ، وإذا كان أهل الخشية هم العلماء الممدوحون في الكتاب والسنة لم يكونوا مستحقين للذم وذلك لا يكون إلا مع فعل الواجبات ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ {إبراهيم: ١٣- ١٤} "٢.

وعن آثار الخوف من الله قال شيخ الإسلام:"ومن يخاف الله فيهم- أي في عباده- ولم يخفهم في الله كان محسنا إلى الخلق وإلى نفسه، فإن خوف الله يحمله على أن يعطيهم حقهم، ويكف عن ظلمهم، وهذا إذا لم يخف الله فهو مختار للعدوان عليهم.. فإن طبائع النفس الظلم لمن لا يظلمها فكيف بمن يظلمها؟ فتجد هذا الضرب كثير الخوف من الخلق، كثير الظلم إذا قَدِر، مهين ذليل إذا قُهِر، فهو يخاف الناس بحسب ما عنده من ذلك، وهذا مما يوقع الفتن بين الناس"٣.

وذكر –رحمه الله- أن الخوف من الله يحرر العبد من عشق الصور المذموم: قال: " إن الخوف المضاد للعشق يصرفه وكل من احب شيئا بعشق او غير عشق فإنه يصره عن محبته بمحته ما هو احب اليه منه اذا كان يزاحمه وينصرف عن محبته بخوف حصول ضرر يكون ابغض اليه من ترك ذاك الحب فاذا كان الله احب الى العبد من كل شئ واخوف عنده من كل شئ لم يحصل معه عشق ولا مزاحمة الا عند غفلة او عند ضعيف هذا الحب والخوف بترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات فان الايمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية فكلما فعل العبد الطاعة محبة لله وخوفا منه وترك المعصية حبا له وخوفا منه قوى حبه له وخوفه منه فيزيل ما فى القلب من محبة غيره ومخافة غيره "٤.

١) أخرجه مسلم، كتاب الصيام، باب صحة صوم من طلع عليه الفجر وهو جنب، حديث: ٧٩.
٢) مجموع الفتاوى ١٠/ ٢٥٧
٣) المرجع السابق ، ١/ ٥٤.
٤) مجموع الفتاوى ١٠/ ١٣٦

وعلى ذلك فقد اتفق شيخ الإسلام- رحمه الله- مع منهج السلف في أن الخوف من الله من أجل منازل العبادة، وأنفعها للقلب، فبه يقوّم الله الشاردين ويبصرهم إلى ما فيه الخير. وأن الخائف من الله لا يخاف المخلوقين فتكون كل عباداته خالصة لله تعالى، إذ يتحرر المرء من عبادة كل معشوق وأن أكثر الناس خشية لله هم العلماء.

ومن خلال استقراء نقولات شيخ الإسلام- رحمه الله- عن السلف يتبين أنه لا يكتفي فقط بمجرد الرجوع إلى قول الصحابي أو التابعي أو غيرهم من السلف المتقدمين عليه زمينا إلا بالبحث عن دليل من الكتاب والسنة يؤكد ما ذهبوا إليه.

المطلب الثاني

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في حسن الظن بالله تعالى

حسن الظن بالله، أصل من أصول أعمال القلوب، إذ لا يمكن أن يخلو قلب المحبين الراغبين فيما عند ربهم من حسن الظن به، فكيف يتوجهون إليه بالدعاء والرجاء، بغير أن يكون لديهم الثقة الكاملة في عطائه ومغفرته ورحمته، فهو وحده القادر وله الملك والملكوت.

وفي ذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:

" إذا كنت غير عالم بمصلحتك ؛ ولا قادرا عليها ؛ ولا مريدا لها كما ينبغي ؛ فغيرك من الناس أولى أن لا يكون عالما بمصلحتك ؛ ولا قادرا عليها ؛ ولا مريدا لها ؛ والله - سبحانه - هو الذي يعلم ولا تعلم ؛ ويقدر ولا تقدر ؛ ويعطيك من فضله العظيم ؛ كما في حديث الاستخارة : "اللهم إني أستخيرك بعلمك ؛ وأستقدرك بقدرتك ؛ وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر ؛ وتعلم ولا أعلم ؛ وأنت علام الغيوب"[١] " [٢]. ومن علامات حسن الظن بالله اليقين بأن الله تعالى هو وحده القادر على فك الكربات وإنزال الفرج.وقد اعتمد شيخ الإسلام في حسن الظن بالله على ما ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومما ورد من آثار السلف ومنها حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه:

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس لم تُسَدَّ فاقتُه، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشِكُ الله له برزق عاجل أو آجل». وإنزالها بالله: أن توقن وتظن أن الله تعالى يفرّجُ عنك ويزيلها"[٣].

وعلى هذا فإن شيخ الإسلام- رحمه الله- يجعل حسن الظن بالله في منزلة متقدمة من منازل العبادة، فلا يعقل أن يتوجه العبد بقلبه لله — تعالى- إلا إذا كان على ثقة بقدرته سبحانه على تحقيق مطلوبه، ومن كانت هذه صفته من العباد كان أكثر الناس محبة وخشية من الله، وطاعة لأوامره وتكاليفه الشرعية.

---

١) سنن الترمذي، كتاب الصلاة، باب صلاة الاستخارة، حديث رقم: ٤٨٠، والبخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، حديث رقم: ٦٠١٩.

٢) مجموع الفتاوى، ١/٣٢.

٣) سنن الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الهم في الدنيا وحبها، حديث رقم: ٢٣٢٦.وقال عنه الترمذي: حديث حسن، وصححه الألباني .

المطلب الثالث

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في التوكل على الله تعالى

التوكل في اللغة هو: الاعتماد على الغير في أمر ما، واصطلاحا: صدق اعتماد القلب على اللّه تعالى في استجلاب المصالح ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة١.

والتوكل من أجل العبادات وأوجبها، وهو لا يناقض الأخذ بالأسباب، وثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي اللّه عنهما قال: كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألوا الناس، فأنزل اللّه تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ {البقرة:١٩٧}٢.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه : "لا تبشّرهم فيتكلوا"٣، وهذا دليل على أنه لابد من بذل الأسباب وعدم الاتكال.

وقد اتفق شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله- مع السلف على أن التوكل على الله من أعظم الواجبات على العباد، وأن التوكل لا ينافي الأخذ بالأسباب، كما لا يعني الاعتماد عليه وحدها دون الاعتماد على الله، فالله تعالى هو الذي قدر المقادير وهيأ لها الأسباب.

وقد ورد عن السلف أن التوكل على الله أصل عظيم من أصول الإيمان، واعتبر بعضهم أنه جماع الإيمان، فمن التابعين قال سعيد بن جبير: "التوكل على الله جماع الإيمان" ٤ .

وعن أبي سنان عن سعيد بن جبير أنه كان يقول: "اللهم إني أسألك صدق التوكل عليك وحسن الظن بك" ٥.

ويؤكد شيخ الإسلام أن التوكل قرين العمل، إذ لا يتحقق التوكل الذي أمر الله تعالى به عباده بغير العمل بتكاليفه الشرعية والسعي في الأرض، وإلا انقلب إلى شيء آخر، فلا تصح العبادة بغير التوكل، والعمل.

قال رحمه الله: "فإن التوكل على الله واجب من أعظم الواجبات كما أن الإخلاص لله واجب وحب الله ورسوله واجب . وقد أمر الله بالتوكل في غير آية أعظم مما أمر بالوضوء والغسل من الجنابة ونهى عن

---

١) العلوم والحكم لابن رجب ، ٤٠٩

٢) أخرجه البخاري، كتاب الحج، باب قول الله تعالى وتزودوا فإن خير الزاد التقوى، برقم (١٤٥١).

٣) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار، برقم (٢٦٥٧) .

٤) مصنف ابن أبي شيبة ، كتاب الزهد، ١٢/٢٢٣، حديث رقم: ٣٦٣٥٢.

٥) مصنف ابن أبي شيبة ، كتاب الزهد، ١٢/٢٢٣، حديث رقم: ٣٦٣٥٣، والذهبي في سير أعلام النبلاء، ٤/٣٢٦.

التوكل على غير الله، قال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِ﴾ {هود:١٢٣} ، وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ {التغابن:١٣]. وقال تعالى : ﴿إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ {آل عمران:١٦٠} . وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ {يونس:٨٤}"[1]

وقال – رحمه الله - : والله فرض على العباد أن يعبدوه ويتوكلوا عليه ، كما قال تعالى:

﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾ {هود:١٢٣} ، وقوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً ﴾ [المزمل:٨-٩]، وقال تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا* وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق:٢-٣]، والتقوى تجمع فعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه .

قال بعض السلف : ما احتاج تقي قط . يقول : إن الله ضمن للمتقين أن يجعل لهم مخرجا مما يضيق على الناس وأن يرزقهم من حيث لا يحتسبون فيدفع عنهم ما يضرهم ويجلب لهم ما يحتاجون إليه .... وإذا أطلق لفظ العبادة دخل فيها التوكل . وإذا قرن أحدهما بالآخر كان للتوكل اسم يخصه. كما في نظائر ذلك مثل التقوى وطاعة الرسول فإن " التقوى " إذا أطلقت دخل فيها طاعة الرسول"[2] .

التوكل لا يغني عن الأسباب :

ويؤكد السلف أن التوكل على الله لا يغني عن العمل، بل جعلوه جنبا إلى جنب مع الأسباب المأمور بها ومن ذلك ما رواه الأوزاعي عن يحيي بن أبي كثير[3]، قال لقمان عليه السلام لابنه: يابني الدنيا بحر عميق، قد غرق فيها أناس كثير، فإن استطعت أن تكون سفينتك فيها الإيمان بالله- عز وجل- وحشوها العمل بطاعة الله سبحانه وشراعها التوكل على الله لعلك تنجو" [4].

---

١) مجموع الفتاوى، ١٧/٧.

٢) المرجع السابق ، ٥٢٧/٨- ٥٢٨.

٣) الإمام الحافظ ، أحد الأعلام أبو نصر الطائي ، مولاهم اليمامي ، واسم أبيه صالح ، وقيل يسار ، وقيل: نشيط . روى عن أبي أمامة الباهلي ، وذلك في صحيح مسلم ، ولكنه مرسل ، وعن أنس بن مالك وذلك في كتاب النسائي . وعن أبي سلمة بن عبد الرحمن ، وعبد الله بن أبي قتادة ، وأبي قلابة الجرمي ، وبعجة بن عبد الله الجهني ، وعمران بن حطان ، وهلال بن أبي ميمونة ، وعدة . و ويروى أن يحيى بن أبي كثير ، أقام بالمدينة عشر سنين في طلب العلم . قال الفلاس : مات سنة تسع وعشرين ومائة . انظر: سير أعلام النبلاء، ٣١/٦.

٤) مسند أحمد، في الزهد، ١٠٤.

ويوضح ابن تيمية -رحمه الله- أن التوكل لا يغني عن الأخذ بالأسباب، ويأتي على ذلك بشواهد من السنة مستعينا بردود السلف على المخالفين لهذه القاعدة من أهل البدع الذين زعموا أن من تمام التوكل على الله عدم حمل الزاد في الأسفار ونحوها:

قال – رحمه الله-: "وأما من ظن أن التوكل يغني عن الأسباب المأمور بها فهو ضال وهذا كمن ظن أنه يتوكل على ما قدر عليه من السعادة والشقاوة بدون أن يفعل ما أمره الله . وهذه " المسألة " مما سئل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم قال :(ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة والنار فقيل يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على الكتاب ؟ فقال : لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له)[١] " [٢].

وكذلك في الصحيحين عنه: (أنه قيل له : أرأيت ما يعمل الناس فيه ويكدحون أفيما جفت الأقلام وطويت الصحف ؟، ولما قيل له : أفلا نتكل على الكتاب ؟ قال : لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له)[٣] ، وبين صلى الله عليه وسلم أن الأسباب المخلوقة والمشروعة هي من القدر (فقيل له : أرأيت رقى نسترقي بها ؟ وتقى نتقي بها ؟ وأدوية نتداوى بها هل ترد من قدر الله شيئا ؟ فقال : هي من قدر الله)[٤] ، " فالالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب المأمور بها قدح في الشرع ، فعلى العبد أن يكون قلبه معتمدا على الله لا على سبب من الأسباب والله ييسر له من الأسباب ما يصلحه في الدنيا والآخرة فإن كانت الأسباب مقدورة له وهو مأمور بها فعلها مع التوكل على الله كما يؤدي الفرائض وكما يجاهد العدو ويحمل السلاح ويلبس جنة الحرب ولا يكتفي في دفع العدو على مجرد توكله بدون أن يفعل ما أمر به من الجهاد ومن ترك الأسباب المأمور بها فهو عاجز مفرط مذموم " [٥].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجزن ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل ؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان)[٦] ، وفي سنن أبي داود (أن رجلين تحاكما إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقضى على أحدهما فقال المقضي عليه حسبنا الله ونعم الوكيل فقال صلى الله عليه وسلم إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكيس فإن غلبك أمر

---

١) أخرجه البخاري في صحيحه ، باب القدر، برقم: (٦٢٣١) .

٢) أخرجه البخاري في صحيحه ، كتاب القدر، مسألة هل الغلاء والرخص من الله أم لا ، برقم (٦٢٣١) .

٣) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، برقم (٨، و٩) .

٤) سنن الترمذي، باب ما جاء في الرقى والأدوية، حديث رقم (٢٠٦٥) .

٥) مجموع الفتاوى، ١/ ١٣١.

٦) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، حديث رقم: ٤٨٢٢.

فقل حسبنا الله ونعم الوكيل)١ ، وقد تكلم الناس في حمل الزاد في الحج وغيره من الأسفار فالذي مضت عليه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسنة خلفائه الراشدين وأصحابه والتابعين لهم بإحسان وأكابر المشايخ هو حمل الزاد لما في ذلك من طاعة الله ورسوله وانتفاع الحامل ونفعه للناس .

كما ذهبت طائفة من الطوائف إلى أن " من تمام التوكل ألا يحمل الزاد، وقد رد الأكابر هذا القول كما رده الحارث المحاسبي في (كتاب التوكل وحكاه عن شقيق البلخي وبالغ في الرد على من قال بذلك وذكر من الحجج عليهم ما يبين به غلطهم وأنهم غالطون في معرفة حقيقة التوكل وأنهم عاصون لله بما يتركون من طاعته . وقد حكي لأحمد بن حنبل أن بعض الغلاة الجهال بحقيقة التوكل كان إذا وضع له الطعام لم يمد يده حتى يوضع في فمه ، وإذا وضع يطبق فمه حتى يفتحوه ويدخلوا فيه الطعام فأنكر ذلك أشد الإنكار ومن هؤلاء من حرم المكاسب .

وهذا وأمثاله من قلة العلم بسنة الله في خلقه وأمره، فإن الله خلق المخلوقات بأسباب ، وشرع للعباد أسبابا ينالون بها مغفرته ورحمته وثوابه في الدنيا والآخرة ، فمن ظن أنه بمجرد توكله مع تركه ما أمره الله به من الأسباب يحصل مطلوبه ،وأن المطالب لا تتوقف على الأسباب التي جعلها الله أسبابا لها . فهو غالط فالله سبحانه وإن كان قد ضمن للعبد رزقه وهو لا بد أن يرزقه ما عمر فهذا لا يمنع أن يكون ذلك الرزق المضمون له أسباب تحصل من فعل العبد وغير فعله ٢.

و" أيضا " وقد يرزق الإنسان رزقا حلالا أو حراما ، فإذا فعل ما أمره الله به ، كان رزقه حلالا ، وإذا ترك ما أمره الله به ، كان رزقه حراما . " ومن هذا الباب الدعاء والتوكل ، فقد ظن بعض الناس أن ذلك لا تأثير له في حصول مطلوب ولا دفع مرهوب ولكنه عبادة محضة ولكن ما حصل به حصل بدونه وظن آخرون أن ذلك مجرد علامة والصواب الذي عليه السلف والأئمة والجمهور أن ذلك من أعظم الأسباب التي تنال بها سعادة الدنيا والآخرة "٣.

وعلى ذلك فقد اعتمد منهج شيخ الإسلام ابن تيمية، على ما ورد في الكتاب والسنة والمروي من آثار السلف في مسألة التوكل على الله، وأكد أن التوكل من أوجب العبادات، وأن من لوازمه الأخذ بالأسباب، وعدم الاعتماد عليها وحدها، بل رد الأسباب إلى مسببها الذي قدرها وهيأها، كما أنكر على الذين تركوا الأسباب بزعم التوكل. وأرد في ذلك الكثير من الشواهد من الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة.

---

١) صحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب الرجل يحلف على حقه، حديث رقم: ٣٦٢٧

٢) مجموع الفتاوى، ٨/ ٣١١.

٣) مجموع الفتاوى، ٨/٥٢٧- ٥٣٢

المطلب الرابع

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في المحبة في الله تعالى

المحبة: "الحبُّ، وهو نقيضُ البغْض. وأصل هذه المادة يدلُّ على اللُّزوم وَالثَّبات، واشتقاقه من أحَبَّه إذا لزمه، تقول: أحبَبْتُ الشَّيْء فَأنا مُحِبٌّ وَهو مُحَبٌّ"١.

واصطلاحا: هي: المحبَّة: الميل إِلَى الشَّيْء السار". وقال الراغب: "المحبَّة: ميل النفس إلى ما تراه وتظنه خيراً"٢.

وعلى ذلك فإن مفهوم المحبة يدور حول ميل النفس والاعتقاد الجازم بنيل الخير لدى المحبوب، ومن علاماتها اللزوم والثبات.

كما اعتبر السلف أن المحبة هي منتهى العبودية لله تعالى، ويعلل شيخ الإسلام- رحمه الله تعالى- بأنه المحبة رأس الإيمان، ويدلل على ذلك بما جاء في نصوص الكتاب والسنة.

قال ابن تيمية- رحمه الله-: " ولهذا كان رأس الإيمان الحب في الله والبغض في الله وكان من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان"٣.

ونظرا لأهمية مقام المحبة فقد اعتبرها ابن تيمية رأس الإيمان بالله،: معتمدا في ذلك على قول الله تعالى: "﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ {البقرة:١٦٥}، قال البغوي: "أي يحبون آلهتهم كحب المؤمنين الله وقال الزجاج : يحبون الأصنام كما يحبون الله لأنهم أشركوها مع الله فسووا بين الله وبين أوثانهم في المحبة"٤.

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: " وإذا كان كذلك فأصل المحبة المحمودة التي أمر الله بها وخلق خلقه لأجلها هي ما في عبادته وحده لا شريك له إذ العبادة متضمنة لغاية الحب بغاية الذل.

---

١) تهذيب اللغة، للأزهري، ٤/٨ن ومقاييس اللغة، لابن فارس، ٢٦/٢، ولسان العرب، لابن منظور، ٢٩٠/١.

٢) المعجم الوسيط، ١٥١، الذريعة إلى مكارم الشريعة، ٢٥٦.

٣) قاعدة في المحبة لابن تيمية، ٩

٤) تفسير البغوي، سورة البقرة، ١٦٦/١.

والمحبة لما كانت جنسا لأنواع متفاوتة في القدر والوصف كان أغلب ما يذكر منها في حق الله ما يختص به ويليق به مثل العبادة والإنابة ونحوهما فإن العبادة لا تصلح إلا لله وحده وكذلك الإنابة

وقد تذكر المحبة المطلقة لكن تقع فيها الشركة، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴾ {البقرة:١٦٥}.

ولهذا كان هذا الحب أعظم الأقسام المذمومة في المحبة كما أن حب الله أعظم الأنواع المحمودة؛ بل عبادة الله وحده، لا شريك له هي أصل السعادة ورأسها التي لا ينجو أحد من العذاب إلا بها، وعبادة إله آخر من دونه هو أصل الشقاء ورأسه الذي لا يبقي في العذاب إلا أهله.

فأهل التوحيد الذين أحبوا الله وعبدوه وحده لا شريك له لا يبقي منهم في العذاب أحد والذين اتخذوا من دونه أندادا يحبونهم كحبه وعبدوا غيره هم أهل الشرك الذين قال الله تعالي فيهم أن الله لا يغفر أن يشرك به"١.

يوضح شيخ الإسلام أن أصل السعادة في إفراد الله تعالى بالمحبة وأكد أن الذين حققوا معاني المحبة هم أهل النجاة من العذاب يوم القيامة.

ثم قال: "وجماع القرآن هو الأمر بتلك المحبة ولوازمها والنهي عن هذه المحبات ولوازمها وضرب الأمثال والمقاييس للنوعين وذكر قصص أهل النوعين، وأصل دعوة جميع المرسلين قولهم: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ {هود:٨٤}

وبهذا يوضح شيخ الإسلام أن القرآن الكريم حينما تحدث عن المحبة كان يتحدث عن توحيد العبادة لله تعالى، وأن هذه الصورة من المحبة هي التي جاء بها الرسل أجميعين.

ويؤكد السلف أن المحبة تسلتزم كمال التوحيد، وأن العبد لا يشعر بحلاوة الإيمان في قلبه إلا بالمحبة المطلقة لله تعالى.

ثم انتقل شيخ الإسلام للاستشهاد بما ورد في السنة حول إفراد الله تعالى بالمحبة دون ما سواه باعتبار أن المحبة كما ذكر هي رأس التوحيد ومخ العبادة.

١) قاعدة في المحبة لابن تيمية، ١٤

فقال: "ولهذا قال في الحديث المتفق عليه في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان)١ ، وفي رواية في الصحيح: (لا يجد طعم الإيمان إلا من كان فيه ثلاث أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله كما يكره أن يلقي في النار) ، وفي الصحيح عن أنس أيضا عن النبي قال: (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين)٢ .

وفي صحيح البخاري: (أن عمر قال يا رسول الله والله لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسي فقال لا يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك قال فوالذي بعثك بالحق لأنت أحب إلى من نفسي قال الآن يا عمر)٣"٤ .

وأكدت الأدلة التي استشهد بها شيخ الإسلام- رحمه الله- من السنة النبوية على أن مطلق المحبة لا تكون إلا لله تعالى، وأن الإيمان بالله تعالى مرهون بحبته ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولن يكون ذلك إلا بالانقياد التام لأوامره ونواهيه.

"... ولهذا ورد في فضل هذه الكلمة شهادة أن لا إله إلا الله من الدلائل ما يضيق هذا الموضع عن ذكره وهى أفضل الكلام وما فيها من العلم والمحبة أفضل العلوم والمحبات كالحديث الذي في السنن: (أفضل الذكر لا إله ألا الله)٥.

والآية المتضمنة لها أعظم آية في القرآن كما في صحيح مسلم: (أن النبي قال لأبى بن كعب يا أبا المنذر أتدري أي آية في كتاب الله أعظم قال: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ {البقرة:٢٥٥}، قال: فضرب بيده صدري وقال: ليهنك العلم أبا المنذر)٦الحديث.

وهنا يوضح شيخ الإسلام- رحمه الله- أن المحبة أصل كل عمل وإخلاص المحبة لله تعالى لا يتحقق إلا إذا كانت كل حركة للعبد مصحوبة بنية رضا المحبوب الأعلى وهو مدار قول النبي صلى الله عليه وسلم "إنما الأعمال بالنيات.

١) أخرجه البخاري، في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، برقم (١٦) .

٢) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان، حديث رقم (١٥).

٣) أخرجه البخاري، في كتاب الأيمان والنذور، باب كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم، برقم (٦٢٥٧) .

٤) قاعدة في المحبة/ ١٥

٥) سنن الترمذي، أبواب الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، حديث رقم: ٣٣٨٣.

٦) أخرجه مسلم، في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل سورة الكهف، وآية الكرسي ، برقم (٨١٠).

وفي هذا يقول- رحمه الله — أيضا:" وإذا كانت المحبة والإرادة أصل كل عمل وحركة وأعظمها في الحق محبة الله وإرادته بعبادته وحده، لا شريك له وأعظمها في الباطل أن يتخذ الناس من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله، ويجعلون له عدلا وشريكا؛ علم أن المحبة والإرادة أصل كل دين، سواء كان دينا صالحا أو دينا فاسدا، فإن الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة والمحبة والإرادة أصل ذلك كله، والدين هو الطاعة والعبادة والخلق فهو الطاعة الدائمة اللازمة التي قد صارت عادة وخلقا بخلاف الطاعة مرة واحدة ولهذا فسر الدين بالعادة والخلق ويفسر الخلق بالدين أيضا كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤]، قال ابن عباس علي دين عظيم وذكره عنه سفيان بن عيينة وأخذه الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة وبذلك فسراه"[١].

وعلى هذا فقد اتفق شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- على أن المحبة هي رأس أعمال القلب، وأن المحبة المطلقة لا تكون إلا لله تعالى، وأنه لا يوجد محبوب لذاته إلا الله وحده، وأن محبة الله هي أصل كل عبادة، ولا تكون العبادة إلا بنية توجه حركات العباد وسكناتهم نحو ما يرضي المحبوب.

المحبة المطلقة لا تكون إلا لله:

عن أنس -رضيَ اللهُ عنهُ- قال: قال رسول الله -صلَّى الله عليهِ وسلَّم-: " ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه؛ وجد بهنَّ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحبَّ المرء لا يُحبُّه إلا لله، وأن يكرهَ أن يعودَ في الكفر بعد إذْ أنقذهُ الله منه كما يَكرهُ أن يُقذفَ في النار"[٢].

قال شيخ الإسلام: "وأما العبادة، فلله وحده، ليس فيها واسطة؛ فلا يعبد العبد إلا الله وحده، كما قد بينا ذلك في مواضع، وبينا أن كل عمل لا يكون غايته إرادة الله وعبادته، فهو عمل فاسد غير صالح باطل غير حق أي لاينفع صاحبه"[٣].

وقال: "فإذا كان لابد لكل آدمي من اجتماع ولا بد في كل اجتماع من طاعة ودين وكل دين وطاعة لا يكون لله فهو باطل فكل دين سوي الإسلام فهو باطل.

---

١) قاعدة في المحبة، ٣١- ٣٢

٢) أخرجه البخاري، في كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان ، برقم (١٦) ، ومسلم، في كتاب الإيمان ، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان ، برقم (٨٩) .

٣) قاعدة في المحبة، ٣٧.

وأيضا فلابد لكل حي من محبوب هو منتهى محبته وإرادته، وإليه تكون حركة باطنه وظاهره وذلك هو إلهه، ولا يصلح ذلك إلا لله وحده لا شريك له، فكل ما سوي الإسلام فهو باطل والمتفرقون أيضا فيه الذين أخذ كل منهم ببعضه وترك بعضه وافترقت أهواؤهم قد بريء الله ورسوله منهم"[١].

وقال شيخ الإسلام:" وإذا كان الحب أصل كل عمل من حق وباطل، وهو أصل الأعمال الدينية وغيرها وأصل الأعمال الدينية حب الله ورسوله كما أن أصل الأقوال الدينية، تصديق الله ورسوله؛ فالتصديق بالمحبة هو أصل الإيمان وهو قول وعمل...

ومعلوم أن قوة المحبة لكل محبوب يتفاوت الناس فيها تفاوتا عظيما ويتفاوت حال الشخص الواحد في محبة الشيء الواحد بحيث يقوي الحب تارة ويضعف تارة بل قد يتبدل أقوي الحب بأقوى البغض وبالعكس.

وأوضح شيخ الإسلام- رحمه الله- أن السلف أجمعوا على أن أعظم أنواع المحبة هي محبة الله.

قال ابن تيمية: "وسلف الأمة، وأئمة السنة، ومشايخ المعرفة، وعامة أهل الإيمان، متفقون على خلاف قول هؤلاء المعطلة لأصل الدين، بل هم متفقون على أنه لا يكون شيء من أنواع المحبة أعظم من محبة العبد ربه"[٢].

ويكاد ابن تيمية أن يجعل المحبة مرادفة للعبادة التي لا تقوم إلا بها، "فيتوجه القلب بالكلية إلى محبوبه راغبا فيما عنده طالبا ما وعد به واثقا في وعده متوكلا عليه ومستعينا به، وهذا لا يكون إلا من صفات المؤمنين الذين يقدرون الله حق قدره" ٣.

---

١) قاعدة في المحبة ، ٣٩.

٢) قاعدة في المحبة، ٥١.

٣) المرجع السابق ١/ ٥٠.

المطلب الخامس

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الرجاء في الله تعالى.

الرجاء لغة: الرَّجَاءُ: من الأَمَلِ نَقِيضُ اليَأْسِ مَمْدودٌ، رَجاهُ يَرْجوهُ رَجْواً ورَجاءً ورَجاوَةً ومَرْجاةً ورَجاةً، وهمزَتُه منقلبة عن واوٍ بدليل ظُهورِها في رَجاوةٍ[1].

الرجاء اصطلاحاً: الرجاء: هو الطمع في فضل الله ورحمته[2]، وقيل: الرجاء هو الإخبار عن تهيئ وقوع أمر في المستقبل وقوعا مؤكداً[3]. وقال الجرجاني: "الرجاء في الاصطلاح: تعلق القلب بحصول محبوب في المستقبل[4]، وقيل: الرجاء هو النظر إلى سعة رحمة الله"[5].

وقيل: " هو الاستبشار بجود وفضل الرب -تبارك وتعالى- والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه. وقيل: هو الثقة بجود الرب تعالى " [6].

وتسير هذه المعاني حول ارتباط العبد بحدوث ما يتمناه من خير لدى المحبوب، ثقة في كرمه، وجوده المطلق. لتميزه بالغنى الذاتي الذي لا يفتقر إلى غيره، واعتمد منهج شيخ الإسلام في ذلك على ما ثبت في الكتاب والسنة، والمروي عن السلف وعلماء أهل السنة.

قال شيخ الإسلام- رحمه الله-: " فليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به، ويتنعم بالتوجه إليه؛ إلا الله سبحانه؛ ومن عبد غير الله وإن أحبه وحصل له به مودة في الحياة الدنيا ونوع من اللذة فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل طعام المسموم ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ {الأنبياء:٢٢} ، فإن قوامهما بأن تأله الإله الحق فلو كان فيهما آلهة غير الله لم يكن إلها حقا ؛ إذ الله لا سمي له ولا مثل له ؛ فكانت تفسد لانتفاء ما به صلاحها، هذا من جهة الإلهية"[7].

وبهذا يؤكد شيخ الإسلام أنه لا سبيل للعبد إلا التوجه لله تعالى، لأن رجاء غيره لا يزيد عن كونه سرابا لا يحقق مأمولا، ولا يُجيب مطلبا.

---

١) لسان العرب، ١٤/ ٣٠٩.

٢) حلية الأولياء، ١٠/ ١٠٩.

٣) التحرير والتنوير، ١/ ١٩٢.

٤) التعريفات، ١/ ١٤٦.

٥) مدارج السالكين، ٢/ ٣٦.

٦) المصدر السابق، ٢/ ٣٥.

٧) مجموع الفتاوى، ١/٢٥.

ثم يبين أن كتاب الله تعالى يحتوي الكثير من الأدلة على أن استجابة حاجة العباد لا تكون إلا باللجوء إلى الله تعالى.

وقال: " والقرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلى الله دون ما سواه ، ومن ذكر نعمائه عليهم؛ ومن ذكر ما وعدهم في الآخرة من صنوف النعيم واللذات ، وليس عند المخلوق شيء من هذا"١.

وقال: " إن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من جهته؛ فإنه يخذل من تلك الجهة؛ وهو أيضا معلوم بالاعتبار والاستقراء، ما علق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة ؛ ولا استنصر بغير الله إلا خذل .

وقد قال الله تعالى : ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ {مريم:٨١ -٨٢ }، وهذان الوجهان في المخلوقات نظير العبادة والاستعانة في المخلوق ؛ فلما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ {الفاتحة:٥} ، كان صلاح العبد في عبادة الله واستعانته، وكان في عبادة ما سواه؛ والاستعانة بما سواه؛ مضرته وهلاكه وفساده"٢.

ويوضح- ابن تيمية رحمه الله- أن الله تعالى إنما يستجيب لرجاء العبد لا عن منفعة يريدها منه، فهو الغني عن ذلك، غير رجاء العبد من المخلوقين الذي لا يخلو من شيء من هذا.

ويوضح أيضاً — رحمه الله- الفرق بين رجاء الله تعالى، ورجاء المخلوقين، فإن العبد إذا كان يرجو مخلوقا، فلابد لهذا المخلوق أن يرى منفعة لدى من يأتي إليه كي يستجيب لرجائه، أما الخالق- سبحانه- فهو الغني عن عباده.

قال شيخ الإسلام: " والرب سبحانه يريد لك ولمنفعتك بك ، لا لينتفع بك . وذلك منفعة عليك بلا مضرة. فتدبر هذا ؛ فملاحظة هذا الوجه يمنعك أن ترجو المخلوق أو تطلب منه منفعة لك، فإنه لا يريد ذلك بالقصد الأول؛ كما أنه لا يقدر عليه . ولا يحملنك هذا على جفوة الناس ، وترك الإحسان إليهم ، واحتمال الأذى منهم ؛ بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم ؛ وكما لا تخفهم فلا ترجهم ؛ وخف الله في الناس ولا تخف الناس في الله ؛ وارج الله في الناس ولا ترج الناس في الله ؛ وكن ممن قال الله فيه : ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى* الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ* وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ * إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ﴾ [الليل:١٧- ٢٠] .

١) مجموع الفتاوى، ٢٨/١.

٢) المرجع السابق ، ٣٠/١.

وقال فيه : ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان:٩]"[١] .

وقال شيخ الإسلام: "وإذا كانت المحبة أصل كل عمل ديني، فالخوف والرجاء وغيرهما يستلزم المحبة ويرجع إليها، فإن الراجي الطامع إنما يطمع فيما يحبه لا فيما يبغضه، والخائف يفر من الخوف لينال المحبوب. قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ {الإسراء:٥٧} ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ {البقرة:٢١٨} [٢].

ويوضح شيخ الإسلام هنا أن الرجاء لا يقل عن المحبة والخشية، فإن العبد لا يرجو سوى ما لدى محبوبه الذي يطمئن إلى إجابة طلبه، ويخشى من عدم رضاه، فالرجاء إذن من علامات توحيد العبودية لله تعالى.

وقال:" وسئل عن قول الخطيب بن نباتة[٣] أبرأ من الحول والقوة إلا إليه ، فأنكر بعض الناس عليه وقال ما يصح ذلك إلا بحذف الاستثناء بأن تقول أبرأ من الحول والقوة إليه فاستدل من نصر قول الخطيب بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (٢٦) إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾ {الزخرف:٢٦ - ٢٧ } فهل أصاب المنكر أم لا ؟ .

فأجاب: ما ذكر الخطيب صحيح باعتبار المعنى الذي قصده ،وما ذكره الآخر من حذف الاستثناء له معنى آخر صحيح ، فإنه إذا قال برئت من الحول والقوة إليه كان المعنى برئت إليه من حولي وقوتي: أي من دعوى حولي وقوتي كما يقال : برئت إلى فلان من الدين ذكره ثعلب في فصيحه والمعنى برئت إليه من هذا ومنه قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ [القصص: ٦٢-٦٣] ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد) وقول الأنصاري يوم أحد: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين... والخطيب

١) مجموع الفتاوى، ٣٢/١.

٢) المرجع السابق ، ٦٢/١٠.

٣) الإمام البليغ الأوحد خطيب زمانه أبو يحيى عبد الرحيم بن محمد بن إسماعيل بن نباتة الفارقي صاحب (الديوان الفائق في الحمد والوعظ) في ٣٣٥هـــ، وكانت ولادته في مدينة ميافارقين، وتعود أصوله إلى قبيلة حذاقة، وإليها يُنسَب. انتقل ابن نباتة إلى مدينة حلب، وهناك اشتهر خطيباً في بلاط سيف الدولة الحمداني، وفي حلب التقى بالمتنبّي ويُقال أنّه قرأ عليه ديوانه. اشتهر ابن نباتة بخُطَبه الحماسية على المنابر، يُحرّض فيها على الجهاد ضدّ الغزو الرومي. لم يُعمّر ابن نباتة طويلاً، وتُوفّي قبل أن يتجاوز الأربعين في مسقط رأسه في ٣٧٤هـــ. انظر: وفيات الأعيان: ٣ / ١٥٦- ١٥٨ المختصر في أخبار البشر: ٢ / ١٢٤.

لم يرد هذا المعنى بل أراد أنه بريء من أن يلجئ ظهره إلا إلى الله ويفوض أمره إلا إلى الله ويتوجه في أمره إلا إلى الله ويرغب في أمره إلا إلى الله .

قال النبي صلى الله عليه وسلم للبراء بن عازب : (إذا أويت إلى مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم قل : اللهم إني أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك)١ فمعنى قوله : وأبرأ من الحول والقوة إلا إليه . أبرأ من أن أثبت لغيره حولا وقوة ألتجئ إليه لأجل ذلك والمعنى لا أتوكل إلا عليه ولا أعتمد إلا عليه"٢ .

وقال: "ولهذا ينبغي للعبد أن لا يعلق رجاءه إلا بالله ولا يخاف من الله أن يظلمه : فإن الله لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ، بل يخاف أن يجزيه بذنوبه .

وهذا معنى ما روي عن علي رضي الله عنه أنه قال : (لا يرجون عبد إلا ربه ولا يخافن إلا ذنبه) . فالرجاء ينبغي أن يتعلق بالله ولا يتعلق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله فإن تعليق الرجاء بغير الله إشراك وإن كان الله قد جعل لها أسبابا فالسبب لا يستقل بنفسه بل لا بد له من معاون ولا بد أن يمنع المعارض المعوق له وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة الله تعالى"٣ .

وعلى ذلك فقد صرح شيخ الإسلام- رحمه الله- بأن تعلق الرجاء بغير الله إشراك ينافي إخلاص التوحيد، وأن العبد لا يعلق قلبه بغير الله، ولا ينظر إلى الأسباب إلا على أنها من خلق الله تعالى، فلا يتعلق بشيء مما خلقه الله لذاته، بل لكونه مأمور بالأخذ بالأسباب.

وقال: "والاستغناء أن لا يرجو بقلبه أحدا فيتشرف إليه و"الاستعفاف ألا يسأل بلسانه أحدا ، ولهذا لما سئل أحمد بن حنبل عن التوكل فقال : قطع الاستشراف إلى الخلق ، أي لا يكون في قلبك أن أحدا يأتيك بشيء فقيل له : فما الحجة في ذلك ؟ فقال : قول الخليل لما قال له جبرائيل هل لك من حاجة ؟ فقال : " أما إليك فلا " . فهذا وما يشبهه مما يبين أن العبد في طلب ما ينفعه ودفع ما يضره لا يوجه قلبه إلا إلى الله ، فلهذا قال المكروب : (لا إله إلا أنت) .

ومثل هذا ما في الصحيحين عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم (كان يقول : عند الكرب لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم لا إله إلا الله رب السموات ورب الأرض رب العرش

---

١) أخرجه مسلم، في الذكر والدعاء والتوبة، باب ما يقول عند النوم وأخذ المضجع، برقم: (٢٧١٠) .

٢) مجموع الفتاوى، ٨/٥٥١- ٥٥٢.

٣) المرجع السابق، ١٠/٢٥٨.

الكريم)١ ، فإن هذه الكلمات فيها تحقيق التوحيد وتأله العبد ربه وتعلق رجائه به وحده لا شريك له، وهي لفظ خبر يتضمن الطلب . والناس وإن كانوا يقولون بألسنتهم : لا إله إلا الله فقول العبد لها مخلصا من قلبه له حقيقة أخرى وبحسب تحقيق التوحيد تكمل طاعة الله"٢.

وعلى ذلك فقد اتفق شيخ الإسلام ابن تيمة –رحمه الله تعال- مع منهج السلف في أن الخوف والرجاء هما جناحا الإيمان، ومن ذلك قول ابن بطة في الإبانة:

" وتخوف العقلاء من المؤمنين على أنفسهم سلب الإيمان وخوفهم النفاق على من أمن ذلك على نفسه. بذلك نزل القرآن وجاءت به السنة.

قال الله عز وجل: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُوا۟ فِى سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ {المائدة:٣٥} ، وقال عز وجل: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ {السجدة:١٦} ، وقال : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ﴾ {الزمر:٩}.

وعن أنس: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على شاب وهو في مرض الموت، فقال: " كيف تجدك "؟ قال : أرجو الله ، وأخاف ذنوبي ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا يجتمع هذا في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله الذي يرجو وأمنه الذي يخاف" ٣.

وبين- رحمه الله- أن في الرجاء إثبات الغنى المطلق لله تعالى، فحينما يتوجه العبد بقلبه إلى الله؛ فلا يرى ما عند سواه من أسباب إلا نعما أنعمها الله على عباده واستخلفهم واسترعاهم عليها، فتكتمل في قلبه معاني التوحيد ويستغني عن المخلوقين، أملا فيما عند ربه.

---

١) أخرجه البخاري، في كتاب الدعوات، بابا الدعاء عند الكرب، برقم (٦٣٤٥) ، وصحيح مسلم، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب دعاء الكرب، برقم (٨٣) .

٢) مجموع الفتاوى، ١٠/٢٦٠- ٢٦١.

٣) الإبانة، باب الإيمان خوف ورجاء، حديث رقم ٢٦٠، ٣٥٨/٢

المطلب السادس

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الدعاء لغير الله تعالى.

الدعاء أساس العبادة، لأن الداعي، إنما يدعو عند انقطاع أمله في قدرته على تحصيل مطلوبه، ويتوجه بالدعاء إيمانا منه بفقره وفقر المخلوقات إلى الله تعالى، وثقة ورجاء وطمعا فيما عنده، ويقينا أنه لا أحد يستطيع جلب منفعة له، أو دفع مضرة عنه سوى ربه، وتظهر على الداعي المحبة المطلقة لله الملازمة للخشية.

قال البغوي: "﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ {مريم:٤٨}، أي أعتزل ما تعبدون من دون الله، قال مقاتل: كان اعتزاله إياهم أنه فارقهم من كوثى[١] ، فهاجر منها إلى الأرض المقدسة ﴿ وَأَدْعُو رَبِّ﴾ أ أي أعبد ربي و﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ {مريم:٤٨} أي عسى ألا أشقى بدعائه وعبادته كما أنتم تشقون بعبادة الأصنام "[٢].

ولما كان مقام الداعي مقام تذلل لمن يدعوه قد أجمع السلف على أن الدعاء لا يكون إلا لله تعالى، وفرقوا في ذلك بين دعاء المسألة ودعاء العبادة.

ويشدد السلف على وجوب صرف الدعاء لله تعالى، لأن "حقيقته: إظهار الافتقار إليه والتبرؤ من الحول والقوة وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله عز وجل"[٣].

وحول تفسير قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ {غافر: ٦٠}، قال القرطبي: " فدل على أن الدعــاء هو العبــادة وكذا عليه أكثر المفسرين"[٤].

وينقسم الدعاء عند السلف إلى نوعين، دعاء العبادة، ودعاء المسألة.

و لم يكن هذا التقسيم معروفا عند الصحابة، و لم يرد به نص صريح منهم وإنما جاء من بعدهم، نتيجة استقراء لنصوص الشرع والآثار الواردة عن الصحابة رضوان الله عليهم، بهدف الشرح وتسهيل الفهم، وهو ما اعتمده شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في منهجه.

---

١) كوثي : البلدة التي نشأ فيها إبراهيم عليه السلام.

٢) تفسير البغوي، ٣ / ١٦٦

٣) شأن الدعاء، الخطابي، ٥.

٤) تفسير القرطبي ، ١٥/٢١٤

وعلق شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى- على قول الله عز وجل ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ {الأعراف:٥٥-٥٦}، قال- رحمه الله: هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء : دعاء العبادة ودعاء المسألة ، فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة ويراد به مجموعهما ، وهما متلازمان . فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره ودفعه . وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر.

ولهذا أنكر تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرا ولا نفعا . وذلك كثير في القرآن كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ﴾ {يونس:١٠٦}، وقال: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ {يونس:١٨} ، فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين الضر والنفع القاصر والمتعدي فلا يملكون لأنفسهم ولا لعابديهم .

وهذا كثير في القرآن يبين تعالى أن المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع . والضر فهو يدعو للنفع والضر دعاء المسألة ويدعو خوفا ورجاء دعاء العبادة فعلم أن النوعين متلازمان فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة . وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة .

وعلى هذا فقوله: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ {البقرة:١٨٦}، يتناول نوعي الدعاء . وبكل منهما فسرت الآية . قيل : أعطيه إذا سألني. وقيل : أثيبه إذا عبدني . والقولان متلازمان . وليس هذا من استعمال اللفظ المشترك في معنييه كليهما أو استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه ، بل هذا استعماله في حقيقته المتضمنة للأمرين جميعا فتأمله فإنه موضوع عظيم النفع وقل ما يفطن له . وأكثر آيات القرآن دالة على معنيين فصاعدا فهي من هذا القبيل.."١.

وللسلف في الدعاء تقسيم استنبطه العلماء من أقوالهم ومنهجم في الاعتماد على النصوص الواردة في ذلك ومن ذلك ما رواه النعمان بن بشير عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الدعاء هي العبادة، وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ {غافر:٦٠}"٢.

---

١) مجموع الفتاوى، ١٥/١٠- ١١.

٢) النسائي، باب في من لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام بالمزدلفة، رقم ١٩٤٩.

ومنها أيضا: وفي الحديث القدسي عن أبي ذر ، عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى ، عن الله تبارك وتعالى ، أنه قال: "... يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته؛ فاستطعموني أطعمكم. يا عبادي، كلكم عارٍ إلا من كسوته؛ فاستكسوني أكسكم. يا عبادي، كلكم ضالٌّ إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم. يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعاً، ولا أبالي؛ فاستغفروني أغفر لكم" [١] .

وعن أبي هريرة قال: قال – صلى الله عليه وسلم –: "ليس شيءٌ أكرمَ على الله من الدعاء" [٢].

وعن أبي سعيدٍ الخـــدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ما من مسلم يدعو، ليس بإثم ولا بقطيعة رحـــم ـــ إلاّ أعطاه الله إحدى ثلاث: إما أن يُعجّلَ له دعوته ، وإما أن يدّخرها له في الآخرة، وإما أن يدفعَ عنه من السوء مثلها. قال: إذاً نكثر، قال :" الله أكثر "[٣].

وعلى هذا فقد اتفق شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- مع السلف في أن الدعاء ينقسم إلى نوعين؛ دعاء عبادة، ودعاء ومسألة، ولا يكون ذلك إلا لله تعالى.

وقال- رحمه الله- :" وأما قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ ﴾ {الحج:٧٣} ، وقوله تعالى : ﴿ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدٗا ﴾ {النساء: ١١٧}، وقوله تعالى: ﴿ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَدۡعُونَ مِن قَبۡلُۖ وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٖ ﴾ {فصلت:٤٨} ، وكل موضع ذكر فيه دعاء المشركين لأوثانهم فالمراد به دعاء العبادة المتضمن دعاء المسألة؛ فهو في دعاء العبادة أظهر ؛ لوجوه ثلاثة:

أحدها : أنهم قالوا :﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ {الزمر:٣} ، فاعترفوا بأن دعاءهم إياهم عبادتهم لهم.

الثاني: أن الله تعالى : فسر هذا الدعاء في موضع آخر كقوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٩٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلۡ يَنصُرُونَكُمۡ أَوۡ يَنتَصِرُونَ ﴾ {الشعراء:٩٢ -٩٣}، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ

---

١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة والآداب ، باب تحريم الظلم حديث رقم ٤٦٨٠.

٢) رواه الترمذي في سننه ، كتاب الدعوات باب ماجاء في فضل الدعاء حديث رقم ٣٣٧٠، وابن ماجه في سننه كتاب الدعاء باب فضل الدعاء حديث رقم ٣٨٢٧.قال الألباني: حديث حسن.

٣) رواه أحمد في " المسند " (١٧/ ٢١٣) ، وجوّد إسناده المنذري في " الترغيب والترهيب "، وصححه الألباني في "صحيح الأدب المفرد " ص٥٤٧.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ {الأنبياء:٩٨}، وقوله تعالى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون: ٢] فدعاؤهم لآلهتهم هو عبادتهم .

الثالث: أنهم كانوا يعبدونها في الرخاء فإذا جاءتهم الشدائد دعوا الله وحده وتركوها ومع هذا فكانوا يسألونها بعض حوائجهم ويطلبون منها وكان دعاؤهم لها دعاء عبادة ودعاء مسألة .

وقوله تعالى: ﴿ فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾{غافر:١٤} ، هو دعاء العبادة والمعنى اعبدوه وحده وأخلصوا عبادته لا تعبدوا معه غيره"١.

وبذلك فقد أوضح شيخ الإسلام، أصول الدعاء لغير الله، وبين أن ذلك من العبادة باعتراف من يدعون غير الله من الأوثان ونحوها، وأن هذا الدعاء يتضمن العبادة من ناحية والمسألة من ناحية أخرى.

دعاء الجن والملائكة:

وبين شيخ الإسلام، أن السلف قد ذكروا أن الدعاء قد يكون للجن والملائكة، طلبا لدفع مضرة أو جلب مصلحة، وأن هذا الدعاء كله مردود على صاحبه. قال -رحمه الله-: "في الكلام على قول الله تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾ {الإسراء:٥٦} ، لما ذكر أن من السلف من ذكر أنهم من الملائكة، ومنهم من ذكر أنهم من الإنس، ومنهم من ذكر أنهم من الجن. ٢

"فكل من دعا ميتا أو غائبا من الأنبياء والصالحين . سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد تناولته هذه الآية، كما تتناول من دعا الملائكة والجن، ومعلوم أن هؤلاء يكونون وسائط فيما يقدره الله بأفعالهم ومع هذا فقد نهى عن دعائهم، وبين أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين، ولا تحويله، لا يرفعونه بالكلية، ولا يحولونه من موضع إلى موضع، أو من حال إلى حال؛ كتغيير صفته أو قدره، ولهذا قال : ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾، فذكر نكرة تعم أنواع التحويل"٣.

يوضح شيخ الإسلام أسباب النهي عن دعاء الجن والملائكة ونحوهما بأن هؤلاء ما هم إلا مجرد أسباب ووسائط تظهر بها قدرة الله تعالى، وأنهم بأنفسهم لا يملكون ضرا ولا نفعا.

---

١) مجموع الفتاوى، ١٥/١٢- ١٣.

٢) المرجع السابق ١٥/١٢- ١٣.

٣) مجموع الفتاوى، ١٥/٢٢٦

ثم يأتي- رحمه الله- بالأدلة على ذلك فيقول: "وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]، كان أحدهم إذا نزل بواد يقول: أعوذ بعظيم هذا الوادي من سفهائه فقالت الجن : الإنس تستعيذ بنا فزادوهم رهقا وقد نص الأئمة - كأحمد وغيره - على أنه لا تجوز الاستعاذة بمخلوق، وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق؛ لما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه استعاذ بكلمات الله، وأمر بذلك فإذا كان لا يجوز ذلك؛ فلأن لا يجوز أن يقول: أنت خير مستعاذ يستعاذ به أولى . فالاستعاذة والاستجارة ، والاستغاثة : كلها من نوع الدعاء أو الطلب وهي ألفاظ متقاربة.

ولما كانت الكعبة بيت الله الذي يدعى ويذكر عنده فإنه سبحانه يستجار به هناك، وقد يستمسك بأستار الكعبة، كما يتعلق المتعلق بأذيال من يستجير به، كما قال عمرو بن سعيد[1]: إن الحرم لا يعيذ عاصيا ولا فارا بدم ولا فارا بخربة . وفي الصحيح : (يعوذ عائذ بهذا البيت)[2] .

والمقصود : أن كثيرا من الضالين يستغيثون بمن يحسنون به الظن ولا يتصور أن يقضي لهم أكثر مطالبهم، كما أن ما تخبر به الشياطين من الأمور الغائبة يكذبون في أكثره ؛ بل يصدقون في واحدة ويكذبون في أضعافها ويقضون لهم حاجة واحدة، ويمنعونهم يكذبون فيما أخبروا به وأعانوا عليه؛ لإفساد حال الرجال في الدين والدنيا، ويكون فيه شبهة للمشركين كما يخبر الكاهن ونحوه"[3].

وعلى ذلك فإن ابن تيمية — رحمه الله- قد أوضح أن هناك من يدعو الملائكة ويدعو الجن لذاتهم، وأكد أن ذلك من أمور الشرك التي تنافي إخلاص التوحيد لله تعالى، لأن العبد إنما يدعو من يحسن الظن فيه لإجابة دعائه، وإنما ذلك لا يكون إلا لله تعالى، وأوضح أن هذه الجن والإنس والملائكة ونحوها ما هي إلا مخلوقات لله تعالى قد يجعلها أسبابا موصلة لإجابة الدعاء بقدرته- تعالى- أما الاعتقاد في قدرتها الذاتية على إجابة الدعاء فهذا هو الشرك المنهي عنه بعينه.

دعاء الرسل كدعاء الله وضلال النصارى:

ثم يقول: " والله سبحانه جعل الرسول مبلغا لأمره ونهيه ووعده ووعيده، وهؤلاء يجعلون الرسل والمشايخ يدبرون العالم بقضاء الحاجات، وكشف الكربات، وليس هذا من دين المسلمين؛ بل النصارى تقول هذا في

---

١) هو سعيد بن العاص ابن أبي أحيحة ، سعيد بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف ابن قصي ، والد عمرو بن سعيد الأشدق، ووالد يحيى، القرشي الأموي المدني الأمير. قتل أبوه يوم بدر مشركا، وخلف سعيدا طفلا... ولي إمرة المدينة غير مرة لمعاوية. وقد ولي إمرة الكوفة لعثمان بن عفان . وقد اعتزل الفتنة ، فأحسن ، و لم يقاتل مع معاوية . ولما صفا الأمر لمعاوية ، وفد سعيد إليه ، فاحترمه ، وأجازه بمال جزيل. انظر: سير أعلام النبلاء، ٣/٤٤٥-٤٤٦.

٢) أخرجه مسلم، في كتاب الفتن وأشراط الساعةن باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت برقم (٢٨٨٢) .

٣) مجموع الفتاوى، ١٥/٢٢٧-٢٢٨.

المسيح وحده بشبهة الاتحاد والحلول؛ ولهذا لم يقولوه في إبراهيم وموسى وغيرهم مع أنهم في غاية الجهل في ذلك فإن الآيات التي بعث بها موسى أعظم ولو كان هذا ممكنا لم يكن للمسيح خاصية به: بل موسى أحق.

ولهذا كنت أتنزل مع علماء النصارى إلى أن أطالبهم بالفرق بين المسيح، وغيره من جهة الإلهية، فلا يجدون فرقا؛ بل أبين لهم أن ما جاء به موسى من الآيات أعظم، فإن كان حجة في دعوى الإلهية، فموسى أحق وأما ولادته من غير أب فهو يدل على قدرة الخالق؛ لا على أن المخلوق أفضل من غيره"١.

دعاء الموتى والغائبين:

يشدد السلف على أن دعاء الأموات والغائبين والتبرك بهم من الأمور غير المشروعة التي لا يجوز لمؤمن أن يفعلها.

ويستأنف شيخ الإسلام توضيح أنواع الدعاء غير المشروع، ومنه دعاء الموتى والغائبين.

قال- رحمه الله-: " وقد وقع دعاء الأموات والغائبين لكثير من جهال الفقهاء والمفتين، حتى لأقوام فيهم زهد وعبادة ودين، ترى أحدهم يستغيث بمن يحسن به الظن، حيا كان، أو ميتا وكثير منهم تتمثل له صورة المستغاث به، وتخاطبه وتقضي بعض حوائجه وتخبره ببعض الأمور الغائبة، ويظن الغر أنه المستغاث به أو أن ملكا جاء على صورته، وإنما هي شياطين تمثلت له به وخيالات باطلة فتراه يأتي قبر من يحسن به الظن إن كان ميتا؛ فيقول يا سيدي فلان: أنا في حسبك، أنا في جوارك، أنا في جاهك، قد أصابني كذا وجرى على كذا، ومقصوده قضاء حاجته، إما من الميت أو به، ومنهم من يقول للميت اقض ديني، واغفر ذنبي، وتب علي، ومنهم من يقول: سل لي ربك، ومنهم من يذكر ذلك في نظمه ونثره، ومنهم من يقول: يا سيدي الشيخ فلان أو يا سيدي رسول الله نشكو إليك ما أصابنا من العدو، وما نزل بنا من المرض، وما حل بنا من البلاء، ومنهم من يظن أن الرسول أو الشيخ يعلم ذنوبه وحوائجه، وإن لم يذكرها وأنه يقدر على غفرانها، وقضاء حوائجه، ويقدر على ما يقدر عليه الله ويعلم ما يعلمه الله.

وهؤلاء قد رأيتهم وسمعت هذا منهم ومن شيوخ يقتدى بهم ومفتين وقضاة ومدرسين"٢.

ولا شك أن من يدعو غير الله تعالى لا يجني إلا الضلال، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف:٥]، قال الطبري: "وأي عبد أضل من عبد يدعو من دون الله آلهة لا تستجيب له إلى يوم القيامة"٣.

---

١) المرجع السابق، ١٥/٢٢٦-٢٢٩.

٢) الاستغاثة والرد على البكري، لابن تيمية، ١/٩٣-٩٤.

٣) تفسير الطبري، سورة الأحقاف، ٢٢/ ٩٦

ويعتبر شيخ الإسلام- رحمه الله- أن سكوت السلف عن دعاء الموتى والغائبين يعد دليلا على عدم مشروعية هذا الفعل لأنه لو كان مأمورا به لسبقونا إليه.

ثم يقول – رحمه الله – : " ومعلوم أن هذا لم يفعله أحد من السلف، ولا شرع الله ذلك، ولا رسوله ولا أحد من الأئمة، ولا مع من يفعل ذلك حجة شرعية أصلا؛ بل من فعل ذلك كان شارعا من الدين ما لم يأذن به الله، فإن هذا الفعل منه ما هو كفر صريح، ومنه ما هو منكر ظاهر سواء قدر أن الميت يسمع الخطاب، كما إذا خوطب من قريب أو قدر أنه لا يسمعه، كما إذا خوطب من بعيد فإن مجرد سماع الميت للخطاب لا يستلزم أنه قادر على ما يطلب الحي منه، وكونه قادرا عليه لا يستلزم أنه شرع لنا أن نسأله، ونطلب منه كل ما يقدر عليه، فليس لنا في حياة الرسل أن نسألهم كل ما يمكنهم فعله؛ بل ولا نسأل الله تعالى كل ما يمكنه فعله، بل الدعاء عبادة شرعية، فكيف يجوز أن نسألهم ذلك بعد مماهم، وليس لنا أن نسألهم كل ما يقدر الله عليه من المفعولات، ليسألوا ربهم إياه كما سأل قوم موسى، موسى أن يريهم الله جهرة، وسألوا المسيح إنزال المائدة، وسألوا صالحا الناقة"[1].

وبهذا يقر شيخ الإسلام مع منهج السلف في اعتبار الدعاء عبادة لا يستحقها إلا الله تبارك وتعالى، ويؤكد أن دعاء الأموات من أمور الشرك التي حذر منها السلف.

وقال: "سؤال الميت والغائب نبيًّا كان أو غيره من المحرمات المنكرة باتفاق المسلمين، لم يأمر الله به ولا رسوله، ولا فعله أحد من أئمة المسلمين، وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين المسلمين أن أحداً منهم كان يقول إذا نزلت به ترة (تبعة)، أو عرضت له حاجة لميت يا سيدي فلان، أنا في حسبك، أو اقض حاجتي كما يقول بعض هؤلاء المشركين لمن يدعوهم من الموتى والغائبين، ولا أحد من الصحابة رضي الله عنهم استغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد موته، ولا بغيره من الأنبياء، لا عند قبورهم، ولا إذا بعدوا عنها"[2].

دعاء صفات الله:

ومن الدعاء المنهي عنه أيضا، دعاء صفات الله تعالى وفي ذلك يقول- رحمه الله-:

"وأما دعاء صفات الله وكلماته فكفر باتفاق المسلمين فهل يقول مسلم يا كلام الله اغفر لي وارحمني، وأغثني، أو أعني، أو يا علم الله، أو يا قدرة الله، أو يا عزة الله، أو يا عظمة الله ونحو ذلك"[3].

---

١) الاستغاثة والرد علي البكري، لابن تيمية، ١/٩٣-٩٤.

٢) الرد على البكري، ١/٢٣١.

٣) انظر المرجع السابق، ١/٢٣١

وقال ابن بطة رحمه الله تعالى:

" ولا يقال: إن عزة الله هي الله، ولو جاز ذلك؛ لكانت رغبة الراغبين ومسألة السائلين أن يقولوا: يا عزة الله! عافينا، ويا عزة الله! أغنينا، ولا يقال: عزة الله غير الله، ولكن يقال: عزة الله صفة الله، لم يزل ولا يزال الله بصفاته واحدا.

وكذلك علم الله، وحكمة الله، وقدرة الله وجميع صفات الله تعالى، وكذلك كلام الله عز وجل.

فتفهموا حكم الله؛ فإن الله لم يزل بصفاته العليا وأسمائه الحسنى عزيزا، قديرا، عليما، حكيما، ملكا، متكلما، قويا، جبارا ... "١.

الحكم فيمن دعا غير الله:

وقد بين – رحمه الله- أنه يتساوى دعاء غير الله في التحريم، سواء كان المدعو حيا أو ميتا، نبيا أو غيره لأن الدعاء من أجل العبادات التي لا يجوز صرفها إلا لله تعالى.

إن الدعاء عبادة من أعظم العبادات، وأجل الطاعات، وإنه يجب صرفه لله تعالى وحده لا شريك له، فإن من دعا أو استغاث أو استعان أو استعاذ بغير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل، فقد كفر وخرج من الملة، سواء كان هذا الغير نبيًّا، أو وليًّا، أو ملكاً، أو جنيًّا، أو غير ذلك من المخلوقات. كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ {يونس:١٠٦- ١٠٧} ، ثم يجمل حكم من دعا غير الله، فيقول: " فكل من غلا في حي، أو في رجل صالح... وجعل فيه نوعاً من الإلهية، مثل أن يقول يا سيدي فلان اغفر لي، أو ارحمني، أو انصرني، أو ارزقني، أو أغثني، أو أجرني، أو توكلت عليك، أو أنت حسبي، أو أنا في حسبك، أو نحو هذه الأقوال والأفعال، التي هي من خصائص الربوبية التي لا تصلح إلا لله تعالى، فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قتل، فإن الله إنما أرسل الرسل، وأنزل الكتب لنعبد الله وحده لا شريك له، ولا نجعل مع الله إلهاً آخر"٢.

ثم يبين- رحمه الله- أن النبي قد نهى عن الاستغاثة أو الدعاء لغير الله تعالى سواء كان المدعو ميتا أو حيا، وأوضح أن ذلك من أمور الشرك التي تفشت في الكثير من المتأخرين بسبب غلبة الجهل.

---

١) الإبانة الكبرى، لابن بطة ، ٢ / ١٨١ – ١٨٢.

٢) مجموع الفتاوى، ٣/٣٩٥.

وقال: " فإنا بعد معرفة ما جاء به الرسول نعلم بالضرورة أنه لم يشرع لأمته أن تدعوا أحداً من الأموات، لا الأنبياء، ولا الصالحين، ولا غيرهم لا بلفظ الاستغاثة، ولا بغيرها، ولا بلفظ الاستعاذة ولا بغيرها، كما أنه لم يشرع لأمته السجود لميت، ولا لغير ميت ونحو ذلك، بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الأمور، وإن ذلك من الشرك الذي حرمه الله تعالى ورسوله، ولكن لغلبة الجهل، وقلة العلم بآثار الرسالة في كثير من المتأخرين، ولم يمكن تكفيرهم بذلك حتى يتبين لهم ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم مما يخالفه، ولهذا ما بينت هذه المسألة قط لمن يعرف أصل الإسلام إلا تفطن وقال: هذا أصل دين الإسلام"١.

ومن خلال ما سبق يتبين لنا اتفاق شيخ الإسلام ابن تيمية مع السلف على أن الدعاء ينقسم إلى نوعين: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، وأنه لا يجوز ذلك إلا لله تعالى، وبين أن حكم من استغاث بالأحياء أو الأموات أو الجن أو الملائكة، واعتقد قدرتهم على جلب منفعة، أو دفع مضرة، فقد أشرك بالله تعالى، وأن من فعل ذلك ينبغي استتابته، ولا يكفر إلا بعد أن يتبين له ما جاء به الله ورسوله في هذا الباب.

---

١) الرد علي البكري، ٣٧٦.

المطلب السابع

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في التوسل لله تعالى.

التوسل والوسيلة لغة:

الوسيلة لغة:" المَنْزِلة عِنْدَ المَلك، وهي: الدَّرَجة، والقُرْبة، ووَسَّلَ فلانٌ إلى اللَّهِ وَسِيلَةً إذا عَمِل عَمَلًا تقرَّب به إليه، والوَاسِل: الراغِبُ إلى اللَّه. قَالَ لَبِيدٌ:

أَرى الناسَ لَا يَدْرونَ مَا قَدْرُ أَمرِهم بَلى كلُّ ذي رَأْيٍ إلى اللَّهِ وَاسِلُ [١]

وتَوَسَّلَ إليه بوَسِيلَة إذا تقرَّب إليه بعَمَل ، وَفِي حَدِيث الأَذان: (اللهمَّ آت مُحَمَّدًا الوَسِيلَة)؛ هيَ فِي الأَصل مَا يتوَصَّل به إلى الشَّيْءِ ويُتَقَرَّب به، وَالْمُرَادُ به في الْحَدِيث القُرْبُ منَ اللَّه تَعَالَى، وَقِيلَ: هيَ الشفاعةُ يَوْمَ الْقِيَامَة، وَقِيلَ: هيَ مَنْزِلَةٌ منْ منازل الْجنَّة كَمَا جَاءَ في الْحَدِيث[٢].

والْوَسِيلَةُ أيضاً: مَا يُتَقَرَّبُ به إِلَى الْغَيْرِ وَالْجَمْعُ (الْوَسِيلُ) وَ (الْوَسَائِلُ)، وَ (التَّوْسِيلُ) وَ(التَّوَسُّلُ) وَاحِدٌ، يُقَالُ: (وَسَّلَ) فُلَانٌ إِلَى رَبِّه وَسِيلَةً بالتَّشْدِيد، وَ (تَوَسَّلَ) إِلَيْه بوَسِيلَة إِذَا تَقَرَّب إِلَيْه بعَمَلٍ" [٣].

التوسل اصطلاحا:

هو "ما يتقرب به إلى الله تعالى من فعل الطاعات وترك المنهيات، وعليه حمل المفسرون قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ {المائدة:٣٥}

ويطلق التوسل أيضاً على التقرب إلى الله بطلب الدعاء من الغير، وعلى الدعاء المتقرب به إلى الله تعالى باسم من أسمائه، أو صفة من صفاته، أو بخلقه كنبي، أو صالح، أو العرش، وغير ذلك"[٤].

وعلى ذلك فإن مدلول التوسل لغة، لا يختلف عن مدلوله اصطلاحا، وللتوسل إلى الله تعالى صور عديدة، وردت في الكتاب والسنة، وأقوال السلف، ومنها:

---

١) خزانة الأدب ، للبغدادي، ٢٤٣/١.

٢) لسان العرب، ١١/ ٧٢٤- ٧٢٥، مادة (وسل).

٣) المرجع السابق ، ١١/ ٧٢٤، مادة (وسل)، و مختار الصحاح، ص ٣٣٨، مادة (وسل).

٤) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، ١٣ وما بعدها، وتفسير الألوسي ١٢٤/٦.

التوسل بأسماء الله تعالى وصفاته:

كأن يقول العبد اللهم إني أسألك بأنك أنت الشافي أن تشفيني، ودليل مشروعية هذا التوسل قوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ {الأعراف:١٨٠} وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "" ما أصاب أحدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك أو علمته أحدا من خلقك ، أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري ، وجلاء حزني وذهاب همي . إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرحا " . قال : فقيل : يا رسول الله ، أفلا نتعلمها ؟ قال : فقال : " بلى ، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها"١.

التوسل بالعمل الصالح:

يؤكد السلف على أن التوسل من العبادات، التي يتقرب العبد بها إلى الله تعالى، وفق الضوابط المنصوص عليها في الكتاب والسنة، وقد حذروا من مخالفتها بل عدوا ذلك من عظائم الأمور، ومنها أن يجعل بين العبد وربه وسطاء يدعوهم ويسألهم.

عن ابن عمر رضي الله عنهما ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (بينما ثلاثة نفر يتماشون أخذهم المطر ، فمالوا إلى غار في الجبل ، فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فأطبقت عليهم ، فقال بعضهم لبعض : انظروا أعمالا عملتموها لله صالحة ، فادعوا الله بها لعله يفرجها . فقال أحدهم : اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران ، ولي صبية صغار ، كنت أرعى عليهم ، فإذا رحت عليهم فحلبت بدأت بوالدي أسقيهما قبل ولدي ، وإنه ناء بي الشجر ، فما أتيت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما ، فحلبت كما كنت أحلب ، فجئت بالحلاب فقمت عند رءوسهما ، أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أبدأ بالصبية قبلهما، والصبية يتضاغون عند قدمي، فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا فرجة نرى منها السماء . ففرج الله لهم فرجة حتى يرون منها السماء .

وقال الثاني : اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحبها كأشد ما يحب الرجال النساء ، فطلبت إليها نفسها ، فأبت حتى آتيها بمائة دينار ، فسعيت حتى جمعت مائة دينار فلقيتها بها ، فلما قعدت بين رجليها قالت : يا عبد الله اتق الله ، ولا تفتح الخاتم، فقمت عنها ، اللهم فإن كنت تعلم أني قد فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا

١) رواه الإمام أحمد في المسند، ٣٩١/١، حديث رقم:٤٥٢ ، وقال الأناؤوط : اسناده صحيح ، وصححه الألباني في تخريج الكلم الطيب، ص٧٣.

منها . ففرج لهم فرجة . وقال الآخر : اللهم إني كنت استأجرت أجيرا بفرق أرز ، فلما قضى عمله قال : أعطني حقي ، فعرضت عليه حقه فتركه ورغب عنه ، فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرا وراعيها ، فجاءني فقال : اتق الله ولا تظلمني وأعطني حقي ، فقلت : اذهب إلى ذلك البقر وراعيها ، فقال : اتق الله ولا تهزأ بي ، فقلت : إني لا أهزأ بك ، فخذ ذلك البقر وراعيها ، فأخذه فانطلق بها ، فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك ، فافرج ما بقي . ففرج الله عنهم)١.

ومن التوسل المشروع، التوسل بالأعمال الصالحة ، ودليله من القرآن قوله تعالى: قوله: ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ {آل عمران:٥٣}

ومن السنة: قصة أصحاب الغار، كما بينا. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر فأووا إلى غار في جبل فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم فقال بعضهم لبعض انظروا أعمالا عملتموها صالحة لله فادعوا الله تعالى بها لعل الله يفرجها عنكم فقال أحدهم اللهم إنه كان لي والدان شيخان كبيران وامرأتي ولي صبية صغار أرعى عليهم فإذا أرحت عليهم حلبت فبدأت بوالدي فسقيتهما قبل بني وأنه نأى بي ذات يوم الشجر فلم آت حتى أمسيت فوجدتهما قد ناما فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقمت عند رءوسهما أكره أن أوقظهما من نومهما وأكره أن أسقي الصبية قبلهما والصبية يتضاغون عند قدمي فلم يزل ذلك دأبي ودأبهم حتى طلع الفجر فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء وقال الآخر اللهم إنه كانت لي ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار فتعبت حتى جمعت مائة دينار فجئتها بها فلما وقعت بين رجليها قالت يا عبد الله اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه فقمت عنها فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة ففرج لهم وقال الآخر اللهم إني كنت استأجرت أجيرا بفرق أرز فلما قضى عمله قال أعطني حقي فعرضت عليه فرقه فرغب عنه فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرا ورعاءها فجاءني فقال اتق الله ولا تظلمني حقي قلت اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها فقال اتق الله ولا تستهزئ بي فقلت إني لا أستهزئ بك خذ ذلك البقر ورعاءها فأخذه فذهب به فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقي ففرج الله ما بقي"٢.

---

١) أخرجة البخاري، في كتاب الأدب ، باب إجابة دعاء من بر والدية ، برقم (٥٦٥٣)، وأخرجه مسلم، في كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال ، برقم (٥٠٥٥).

٢) أخرجه مسلم، في كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال، برقم (٢٧٤٣) .

والتوسل من أجل العبادات التي يتقرب بها العبد إلى الله تعالى، ولا تكون إلى بما شرع الحق تبارك وتعالى، والتوسل بالعمل الصالح من أوضح الأمور التي وردت في الكتاب والسنة، وأقرها الشرع الحكيم كما وضح في الآية والحديث الصحيح السابقين.

التوسل إلى الله بدعاء الصالحين:

ومنه حديث أنس بن مالك رضي الله عنه: "أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قحطوا استسقى بالعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، فقال: "اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا صلى الله عليه وسلم فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا"، قَالَ: فَيُسْقَوْنَ"١.

قال اللالكائي: "وروى ابن عساكر أيضاً أن الضحاك بن قيس خرج يستسقي بالناس، فقال ليزيد بن الأسود أيضاً: قم يا بكاء! زاد في رواية: فما دعا إلا ثلاثاً حتى أمطروا مطراً كادوا يغرقون منه"٢.

قال شيخ الإسلام- رحمه الله- عند الكلام على قوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ {المائدة:٣٥} ، " فابتغاء الوسيلة إلى الله سبحانه وتعالى؛ إنما يكون لمن توسل إلى الله بالإيمان بمحمد واتباعه ، وهذا التوسل بالإيمان به وبطاعته فرض على كل أحد في كل حال باطناً وظاهراً في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد موته في مشهده ومغيبه لا يسقط التوسل بالإيمان به وبطاعته عن أحد من الخلق في حال من الأحوال بعد قيام الحجة عليه ولا يعذر من الأعذار ولا طريق إلى كرامة الله ورحمته والنجاة من هوانه وعذابه إلا بالتوسل به وبطاعته وهو صلى الله عليه وسلم شفيع الخلائق " ٣ ، وقال تعالى عن موسى: ﴿ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴾ {الأحزاب:٦٩} ، وقال عن المسيح: ﴿ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ {آل عمران:٤٥}، " ومحمد صلى الله عليه وسلم أعظم جاهاً من الأنبياء والمرسلين، ولكن شفاعته ودعاؤه إنما ينتفع به من شفع له الرسول ودعا له فمن دعا له الرسول وشفع له توسل إلى الله بشفاعته ودعائه كما كان أصحابه يتوسلون إلى الله بدعائه وشفاعته وكما يتوسل الناس يوم القيامة إلى الله تعالى بدعائه وشفاعته صلى الله عليه وآله وسلم تسليماً.

---

١) أخرجه البخاري، في كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا، برقم (٩٦٤).

٢) كرامات الأولياء من شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، ١/١٩٠.

٣) مجموع الفتاوى، ١٤٢- ١٤٤.

ولفظ التوسل في عرف الصحابة كانوا يستعلمونه في هذا المعنى . والتوسل بدعائه وشفاعته ينفع مع الإيمان به وأما بدون الإيمان به فالكفار والمنافقون لا تغني عنهم شفاعة الشافعين في الآخرة . ولهذا نهي عن الاستغفار لعمه وأبيه وغيرهما من الكفار ونهي عن الاستغفار للمنافقين"١.

وعلى ذلك فهذا رد دامغ من شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- على خصومه في هذا الباب.

قال شيخ الإسلام -رحمه الله-: " والسائل لله بغير الله إما أن يكون مقسما عليه ، وإما أن يكون طالبا بذلك السبب، كما توسل الثلاثة في الغار بأعمالهم ، وكما يتوسل بدعاء الأنبياء والصالحين.

فإن كان إقساما على الله بغيره : فهذا لا يجوز، وإن كان سؤالا بسبب يقتضى المطلوب، كالسؤال بالأعمال التي فيها طاعة الله ورسوله، مثل السؤال بالإيمان بالرسول ومحبته وموالاته ونحو ذلك: فهذا جائز .

وإن كان سؤالا بمجرد ذات الأنبياء والصالحين : فهذا غير مشروع ، وقد نهى عنه غير واحد من العلماء ، وقالوا : إنه لا يجوز . ورخص فيه بعضهم ، والأول أرجح كما تقدم؛ وهو سؤال بسبب لا يقتضى حصول المطلوب " ٢.

بخلاف من كان طالبا بالسبب المقتضى لحصول المطلوب، " كالطلب منه سبحانه بدعاء الصالحين وبالأعمال الصالحة : فهذا جائز ، لأن دعاء الصالحين سبب لحصول مطلوبنا الذي دَعَوا به.

وكذلك الأعمال الصالحة سبب لثواب الله لنا ، وإذا توسلنا بدعائهم وأعمالنا : كنا متوسلين إليه تعالى بوسيلة ،كماقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾ {المائدة:٣٥} ، والوسيلة هي الأعمال الصالحة. وقال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾ {الإسراء:٥٧}

وأما إذا لم نتوسل إليه سبحانه بدعائهم ولا بأعمالنا ، ولكن توسلنا بنفس ذواتهم : لم يكن نفس ذواتهم سببا يقتضى إجابة دعائنا ، فكنا متوسلين بغير وسيلة ، ولهذا لم يكن هذا منقولا عن النبي صلى الله عليه و سلم نقلا صحيحا ، ولا مشهورا عن السلف"٣.

اتفق شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى- مع منهج السلف في أن التوسل يكون بدعاء الصالحين وليس بذواتهم واورد على ذلك الأدلة من السنة النبوية ومن عمل الصحابة والآثار الواردة عن السلف ومنها الرواية

---

١) مجموع الفتاوى ١/١٤٢-١٤٤.

٢) المرجع السابق، ١/٣٣٧-٣٣٨

٣) مجموع الفتاوى ١/٣٣٧-٣٣٨

المعروفة عن الاستسقاء بدعاء العباس رضي الله عنه عم النبي صلى الله عليه وسلم، ومنها أيضا توسل الأعمى بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم.

التوسل باسماء الله الحسنى:

من الآثار الواردة في ذلك ما رواه الترمذي من حديث عبد الله بن بريدة عن أبيه قال " سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يدعو ، ويقول : اللهم إني أسألك بأني أشهد أنك الله الذي لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد و لم يولد ، و لم يكن له كفوا أحد ، فقال : والذي نفسي بيده ، لقد سأل الله باسمه الأعظم ، الذي إذا دعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى"[١].

ومن الأمور المشروعة التي أقرها السلف التوسل بأسماء الله الحسنى، وقد اتفق أيضا شيخ الإسلام رحمه الله مع منهج السلف في هذه المسألة.

قال- رحمه الله-: "وأما الذين يقسمون على الله؛ فيبر قسمهم فإنهم ناس مخصوصون . فالسؤال كقول السائل لله : أسألك بأن لك الحمد أنت الله المنان بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام . وأسألك بأنك أنت الله الأحد الصمد الذي لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفوا أحد. وأسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك . فهذا سؤال الله تعالى بأسمائه وصفاته وليس ذلك إقساما عليه، فإن أفعاله هي مقتضى أسمائه وصفاته فمغفرته ورحمته من مقتضى اسمه الغفور الرحيم، وعفوه من مقتضى اسمه العفو ؛ ولهذا لما (قالت عائشة للنبي صلى الله عليه وسلم إن وافقت ليلة القدر ماذا أقول ؟ قال قولي : اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني) ٢. وهدايته ودلالته من مقتضى اسمه الهادي وفي الأثر المنقول عن أحمد بن حنبل أنه أمر رجلا أن يقول : يا دليل الحيارى دلني على طريق الصادقين واجعلني من عبادك الصالحين[٣].

---

١) مسند أحمد ، ٣٣٨/٤.

٢) رواه الترمذي، في كتاب الدعوات ، باب منه ١٨٢/٦ ،حديث رقم (٣٥١٣) ، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشّيخين، قال الترمذي: هذا حديثٌ حسن صحيح، وصحّحه النّووي في "الأذكار" (ص: ٢٤٨)، وفي المجموع ٦/ ٤٥٩.

٣) الخبر رواه أيضا الإمام اللالكائي في كرامات الأولياء ٢١٢ ، ومع ذلك فلم يجزم شيخ الإسلام- رحمه الله- بصحته بقوله "في الأثر المنقول" فلم يسنده مباشرة إلى الإمام أحمد. كما أنكر كثير من العلماء أن يسمى الله تعالى "دليل الحيارى" وحجتهم في ذلك أنه لم يرد شيء من ذلك في الكتاب أو السنة ولا نقل عن أحد من الصحابة، ومن هؤلاء ابن القيم في كتاب الفروسية ص ٢٨٤، قال: " وكذلك أصحاب أحمد إذا انفرد راو عنه برواية تكلموا فيها وقالوا: تفرد بها فلان .ولا يكادون يجعلونها رواية إلا على إغماض ولا يجعلونها معارضة لرواية الأكثرين عنه وهذا موجود في كتبهم، يقولون: انفرد بهذه الرواية أبو طالب أو فلان لم يروها غيره.

فإذا جاءت الرواية عنه عن غير صالح وعبد الله وحنبل وأبي طالب والميموني والكوسج وابن هانئ والمروزي والأثرم وابن القاسم ومحمد بن مشيش ومثنى بن جامع وأحمد بن أصرم وبشر بن موسى وأمثالهم من أعيان أصحابه استغربوها جدا. ولو كان الناقل لها إماما ثبتا ولكنهم أعلى توقيا في نقل مذهبه وقبول رواية من روى عنه من الحفاظ الثقات ولا يتقيدون في ضبط مذهبه بناقل معين .كما يفعل غيرهم من الطوائف بل إذا صحت

وجميع ما يفعل الله بعبده من الخير من مقتضى اسمه الرب ولهذا يقال في الدعاء : يا رب يا رب كما قال آدم: ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ {الأعراف:٢٣}

وقال نوح : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ {هود:٤٧} ، وقال إبراهيم : ﴿رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ﴾ {إبراهيم:٣٧} ، وكذلك سائر الأنبياء "١.

ويتضح مما سبق كيف اتفق شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – مع السلف على أن هناك توسلا مشروعا وتوسلا ممنوعا ومحرما، وأن من بين التوسل المشروع إلى الله تعالى، التوسل بطاعته والأعمال الصالحة، والتوسل بأسمائه الحسنى وصفاته العلا، والتوسل بدعاء الصالحين، ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم، وذكر الأدلة على ذلك-كما بينا- من الكتاب والسنة وأقوال السلف.

لهم عنه رواية حكوها عنه وإن عدوها شاذة إذا خالفت ما رواه أصحابه عودة إلى زيادة الثقة فإذا كان هذا في نقل مذاهب العلماء مع أنه يجوز بل يقع منهم الفتوى بالقول ثم يفتون بغيره لتغير اجتهادهم وليس في رواية من انفرد عنهم بما رواه ما يوجب غلطه إذ قد يوجد عنهم اختلاف الجواب في كثير من المسائل فكيف بأئمة الحديث مع رسول الله الذي لا يتناقض ولا يختلف كلامه".

١) مجموع الفتاوى، ١/٢٠٧-٢٠٨.

المطلب الثامن

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في النذر لغير الله تعالى.

النذر لغة:

"النَّذْرُ النَّحْبُ، وهو ما يَنْذره الإنسان، فيجعله على نفسه نَحْبًا واجبًا، وجمعه نُذُور... وقال أبو سعيد الضرير: إنما قيل له: نَذْر؛ لأنه نُذِرَ فيه؛ أي: أوجب، من قولك: نَذَرتُ على نفسي؛ أي: أَوْجبْت... وفي الحديث ذِكْرُ النَّذْرِ مُكرَّرًا؛ تقول: نذَرْتُ أنذِرُ وأنذُر نذْرًا، إذا أَوجبتَ على نفسِك شيئًا تبَرُّعًا، مِن عبادة أو صدقةٍ أو غيرِ ذلك"١.

النذر اصطلاحا:

" هو أن يوجب المكلّف على نفسه أمرًا لم يلزمه به الشارع"٢.

وعلى ذلك فإن مصطلح النذر لغة واصطلاحا يقابل الإيجاب بأن يوجب الشخص على نفسه شيئا لم يكلفه الله به. والنذر نوعان: أحدهما النذر لله، والآخر هو النذر للمخلوقين.

قال ابن المنذر: "وأجمعوا أن كل من قال: إن شفى الله عليلي، أو قدم غائبي، أو ما أشبه ذلك، فعلي من الصوم كذا، ومن الصلاة كذا، فكان ما قال، أن عليه الوفاء بنذره" ٣

كما شدد السلف على أن النذر للمخلوقين من أعظم المحظورات، سواء كان بالذبح لهم أو نحو ذلك

ويرى السلف أن النذر شبيه بالدعاء لكنه لا يرد القدر، قال ابن العربي : "النذر شبيه بالدعاء فإنه لا يرد القدر ولكنه من القدر أيضا ، ومع ذلك فقد نهي عن النذر وندب إلى الدعاء ، والسبب فيه أن الدعاء عبادة عاجلة ويظهر به التوجه إلى الله والتضرع له والخضوع وهذا بخلاف النذر فإن فيه تأخير العبادة إلى حين الحصول وترك العمل إلى حين الضرورة والله أعلم"٤.

---

١) "لسان العرب"، مادة "نذر".

٢) الفقه علي المذاهب الأربعة، ١٤٥/٢.

٣) الحاوي الكبير، كتاب الحج ، باب نذر الهدي، فصل زمان النحر، ٤/ ٣٧٩.

٤) فتح الباري، ٥٨٧/١١.

وقد فرق السلف بين النوعين، واتفق معهم شيخ الإسلام في ذلك. قال - رحمه الله-: "وأما المعقود لله فعلى وجهين:

أحدهما: أن يكون قصده التقرب الى الله لا مجرد أن يحض أو يمنع وهذا هو النذر فإنه قد ثبت فى الصحيح عن النبى أنه قال:(كفارة النذر كفارة يمين)١، وثبت عنه أنه قال: (من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصى الله فلا يعصه)٢ ، " فإذا كان قصد الإنسان أن ينذر لله طاعة فعليه الوفاء به وأن نذر ما ليس بطاعة؛ لم يكن عليه الوفاء به، وما كان محرما لا يجوز الوفاء به، لكن إذا لم يوف بالنذر لله فعليه كفارة يمين عند أكثر السلف، وهو قول أحمد، وهو قول أبى حنيفة قيل مطلقا وقيل إذا كان فى معنى اليمين." ٣

والثانى: أن يكون مقصوده الحض أو المنع أو التصديق، أو التكذيب، فهذا هو الحلف بالنذر والطلاق والعتاق والظهار والحرام كقوله: إن فعلت كذا، فعلي الحج وصوم سنة ومالى صدقة وعبيدى أحرار ونسائى طوالق فهذا الصنف يدخل فى مسائل الأيمان ويدخل فى مسائل الطلاق والعتاق والنذر والظهار"٤.

وبهذا فقد قسم- رحمه الله- النذر المشروع إلى قسمين، وهما: أن يكون بقصد التقرب إلى الله تعالى، أو يكون قصده الحلف بالنذر.

ذهب السلف، واتفق معهم شيخ الإسلام- رحمه الله- إلى أن أصل النذر منهي عنه لعلل كثيرة،

قال المازري٥: يحتمل أن يكون سبب النهي كون الناذر يصير ملتزما له ، فيأتي به تكلفا بغير نشاط ، قال: ويحتمل أن يكون سببه كونه يأتي بالقربة التي التزمها في نذره على صورة المعاوضة للأمر الذي طلبه فينقص أجره، وشأن العبادة أن تكون متمحضة لله تعالى ، قال القاضي عياض: ويحتمل أن النهي لكونه قد يظن بعض الجهلة أن النذر يرد القدر ، ويمنع من حصول المقدر فنهى عنه خوفا من جاهل يعتقد ذلك ، وسياق الحديث يؤيد هذا والله أعلم"٦ .

---

١) أخرجه مسلم في كتاب النذر، باب في كفارة النذر، برقم (١٦٤٥) .

٢) أخرجه البخاري، في كتاب الأيمان والنذور ، باب النذر في الطاعة ، برقم (٨٣) .

٣) مجموع الفتاوى، ٤٩/٣٣.

٤) المرجع السابق، ١٤٢-١٤٤.

٥) المازري ، الشيخ الإمام العلامة البحر المتفنن أبو عبد الله ، محمد بن علي بن [ص: ١٠٥] عمر بن محمد التميمي المازري المالكي. مصنف كتاب " المعلم بفوائد شرح مسلم " ومصنف كتاب " إيضاح المحصول " في الأصول ، وله تواليف في الأدب ، وكان أحد الأذكياء ، الموصوفين والأئمة المتبحرين ، وله شرح كتاب " التلقين " لعبد الوهاب المالكي في عشرة أسفار ، هو من أنفس الكتب. وكان بصيرا بعلم الحديث. مات في ربيع الأول سنة ست وثلاثين وخمس مائة وله ثلاث وثمانون سنة، انظر: سير أعلام النبلاء، ١٠٥/٢٠.

٦) شرح النووي على صحيح مسلم، صحيح مسلم، كتاب النذر، باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئا.

أما عن أصل النذر وحكمه، فقال رحمه الله: "وأما النذر للموتى من الأنبياء والمشايخ وغيرهم : أو لقبورهم أو المقيمين عند قبورهم . فهو نذر شرك ومعصية لله تعالى. سواء كان النذر نفقة أو ذهبا أو غير ذلك وهو شبيه بمن ينذر للكنائس؛ والرهبان وبيوت الأصنام .

وقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه) "[1] وقد اتفق العلماء على أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به؛ بل عليه كفارة يمين في أحد قولي العلماء وهذا إذا كان النذر لله وأما إذا كان النذر لغير الله فهو كمن يحلف بغير الله وهذا شرك، فيستغفر الله منه وليس في هذا وفاء ولا كفارة .

ومن تصدق بالنقود على أهل الفقر والدين فأجره على رب العالمين . وأصل عقد النذر منهي عنه.

كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه نهى عن النذر وقال:

(إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل)[2] ، وإذا نذر فعليه الوفاء بما كان طاعة لله؛ كالصلاة والصدقة والصيام والحج؛ دون ما لم يكن طاعة لله تعالى"[3].

وأوضح- رحمه الله- وجوب الوفاء بالنذر إذا كان في طاعة، وعدم الوفاء به إذا كان على شيء غير مشروع أو معصية، وبين أن الأصل في عقد النذر هو النهي.

النذر للمخلوق كالحلف بدون الله:

ثم ينتقل شيخ الإسلام للحديث عن النذر لغير الله، كالأولياء والمشايخ ونحوهم ويوضح موقف الشرع من ذلك فيقول:

"والنذر للمخلوقات أعظم من الحلف بها، فمن نذر لمخلوق لم ينعقد نذره ولا وفاء عليه باتفاق العلماء : مثل من ينذر لميت من الأنبياء والمشايخ وغيرهم كمن ينذر للشيخ جاكير. وأبي الوفاء أو المنتظر أو الست نفيسة أو للشيخ رسلان، أو غير هؤلاء، وكذلك من نذر لغير هؤلاء : زيتا أو شمعا أو ستورا أو نقدا : ذهبا أو دراهم أو غير ذلك : فكل هذه النذور محرمة باتفاق المسلمين ولا يجب؛ بل ولا يجوز الوفاء بها باتفاق المسلمين، وإنما

---

١) سبق تخريجه ص ١٣٧.

٢) أخرجه مسلم في كتاب النذر، باب النهي عن النذر وأنه لا يرد شيئا، برقم (١٦٣٩) .

٣) مجموع الفتاوى، ١١/٥٠٤- ٥٠٥.

يوفي بالنذر إذا كان لله عز وجل وكان طاعة؛ فإن النذر لا يجوز إلا إذا كان عبادة ولا يجوز أن يعبد الله إلا بما شرع"١ .

وقد وردت الكثير من الأدلة على تحريم توجيه العبادة لغير الله تعالى، لأن القدرة المطلقة والغنى المطلق لا يكون إلا لله، فليس في الكون ما يضر ولا ينفع إلا بما شاء الله، قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾{يونس:١٨} ، قال القرطبي: "ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله وهذه غاية الجهالة منهم ؛ حيث ينتظرون الشفاعة في المآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضر في الحال . وقيل : شفعاؤنا أي تشفع لنا عند الله في إصلاح معائشنا في الدنيا"٢.

ثم يتحدث عن النذر بالسفر إلى بعض الأماكن بقصد التعظيم، فيقول" "فمن نذر سفرا إلى بقعة ليعظمها غير هذه الثلاثة كالسفر إلى الطور الذي كلم الله عليه موسى بن عمران أو غار حراء الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحنث فيه أو غار ثور الذي قال الله تعالى فيه : ﴿ } ، لم يف بهذا النذر باتفاق الأئمة؛ فكيف بما سوى ذلك من الغيران والكهوف، وكذلك لو نذر السفر إلى قبر الخليل عليه السلام أو قبر أبي بريد أو قبر أحمد بن حنبل أو قبور أهل البقيع؛ فإن زيارة القبور مشروعة لمن كان قريبا منها وكان مقصوده الدعاء للميت . فأما السفر إليها فمنهي عنه . وأما الحلف بالنبي صلى الله عليه وسلم فجمهور العلماء على أنه أيضا منهي عنه ولا تنعقد به اليمين ولا كفارة فيه (هذا قول مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد في إحدى الروايتين عنه . . وعنه تنعقد به اليمين "٣.

ونقل رحمه الله تنازع العلماء في حكم الوفاء بالنذر غير المشروع، فقال:

"وأما " الأصل الثاني ": وهو أنه إذا عاهد الله على ذلك ونذره . فالأصل فيه ما أخرجاه في الصحيحين عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " (من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه)، فإذا كان المنذور الذي عاهد الله يتضمن ضررا غير مباح يفضي إلى ترك واجب أو فعل محرم كان هذا معصية : لا يجب الوفاء به بل لو نذر عبادة مكروهة مثل قيام الليل كله وصيام النهار كله لم يجب الوفاء بهذا النذر.

١) مجموع الفتاوى، ٣٣/ ١٢٤.

٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، تفسير سورة يونس، ٨/٢٦٣.

٣) مجموع الفتاوى ، ٣٣/ ١٢٥.

ثم تنازع العلماء: هل عليه كفارة يمين ؟ على قولين: أظهرهما: أن عليه كفارة يمين لما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح أنه قال: (كفارة النذر كفارة يمين)١، وقال: (النذر حلفة)، وفي السنن عنه : (لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين)٢ وقد ذكرنا سبب نزول الآية .

ومثل ذلك ما رواه البخاري في صحيحه عن ابن عباس: (أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا قائما في الشمس فقال : ما هذا ؟ فقالوا : هذا أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يستظل ولا يتكلم وأن يصوم. فقال: مروه فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه)٣ ، فلما نذر عبادة غير مشروعة من الصمت والقيام والتضحية أمره . بفعل المشروع وهو الصوم في حقه ونهاه عن فعل غير المشروع"٤ .

وعلى ذلك فإن ابن تيمية- رحمه الله- يوكد أن النذر لغير الله من أمور الشرك المنهي عنها لمنافاتها كمال التوحيد لله تعالى، لأن من نذر لمخلوق يرى فيمن نذر له القدرة المطلقة والغنى المطلق الذي يستطيع به إجابة طلبه، وذلك لا يكون إلا لله تعالى.

كما أوضح أن من الأمور المنهي عنها أيضا النذر بشد الرحال إلى أرض معينة التماسا للبركة بها، واعتبر أن ذلك ايضا من أمور الشرك لمنافاتها توحيد العبودية، ومخالفتها نصوص الشرع، وقال إن من نذر بعبادة غير مشروعة فلا يجوز له الوفاء بها.

النذر للمخلوقين:

ومن الصور الشائعة من النذور، النذر لأهل القبور، وهو من الأمور العظيمة التي نهى عنها الشرع، وفي ذلك قال شيخ الإسلام:

" وأما النذر للقبور، أو لسكان القبور، أو العاكفين على القبور؛ سواء كانت قبور الأنبياء ، أو الصالحين ؛ فهو نذر حرام باطل، يشبه النذر للأوثان؛ سواء كان نذر زيت، أو شمع، أو غير ذلك . قال النبي – صلى الله عليه وسلم – : (لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج)٥، وقال: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)٦ يحذر ما فعلوا ، وقال :(إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ، ألا

---

١) أخرجه مسلم، في كتاب النذر، باب في كفارة النذر، برقم (١٦٤٥).

٢) سنن أبو داود ، كتاب الأيمان والنذور، باب من رأى عليه كفارة إذا كان في معصية، حديث رقم: ٣٢٩٠، و الترمذي: كتاب النذور والأيمان، باب ما جاء في قول رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم –: ((لا نذر في معصية))، وقال الألباني: صحيح، مختصر إرواء الغليل، حديث رقم: ١٥٢٤– ١٥٢٥.

٣) أخرجه البخاري في كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية، برقم (٦٧٠٤) .

٤) مجموع الفتاوى، ٢٥/٢٧٧– ٢٧٨.

٥) سنن الترمذي، كتاب الجنائز عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في كراهية زيارة القبور للنساء، برقم (١٠٥٦)

٦) أخرجه البخاري، كتاب أحاديث الأنبياءن باب ما ذكر عن بني إسرائيل، برقم (٣٤٥٣).

فلا تتخذوا القبور مساجد ، فإني أنهاكم عن ذلك)١ ، وقال: (اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد من بعدي)٢ .وقد اتفق أئمة الدين على أنه لا يشرع بناء المساجد على القبور ، ولا أن تعلق عليها الستور، ولا أن ينذر لها النذور، ولا أن يوضع عندها الذهب والفضة، بل حكم هذه الأموال أن تصرف في مصالح المسلمين إذا لم يكن لها مستحق معين، ويجب هدم كل مسجد بني على قبر كائناً من كان الميت، فإن ذلك من أكبر أسباب عبادة الأوثان، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

وقال طائفة من السلف : هذه أسماء قوم صالحين لما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم عبدوهم ، ومن نذر لها نذراً لم يجز له الوفاء ، لما ثبت في الصحاح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : (من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه)٣، وعليه كفارة يمين ، لما روي عنه أنه قال : (لا نذر في معصية وكفارته كفارة يمين)٤".٥

وبهذا فقد أوضح شيخ الإسلام- رحمه الله- أن من أعظم أنواع النذور المنهي عنها، النذر لأهل القبور، لما في ذلك من أمور الشرك التي شدد الشرع النكير على من يفعل ذلك، وتوعدهم باللعن والطرد من رحمة الله تعالى، وختم بأن من نذر لشيء من ذلك فلا يجوز له الوفاء بما نذر.

الذبح لغير الله:

ويدخل الذبح أيضا في باب النذور، قد أوضح السلف أنه من العبادات التي لا يجوز صرفها لغير الله

عن طارق بن شهاب: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب. قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئا، فقالوا لأحدهما: قرب. قال ليس عندي شيء أقرب. قالوا له: قرب ولو ذبابا. فقرب ذبابا، فخلوا سبيله. فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب. فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئا دون الله عز وجل، فضربوا عنقه؛ فدخل الجنة"٦.

١) أخرجه مسلم، كتاب المساجد، باب النهي عن بناء المساجد علي القبور واتخاذ الصور فيها، والنهي عن اتخاذ القبور مساجد، برقم (٢٣) .

٢) مسند الإمام أحمد في " المسند " (٣١٤/١٢). وقال الأرناؤوط: محقق " المسند " إسنادة قوي.

٣) سبق تخريجه ص ٢٥٢.

٤) سبق تخريجه ص ١٤٠.

٥) جامع الرسائل والحكم ، ٢٨/١.

٦) مسند أحمد، حديث رقم، ٨١.

قال شيخ الإسلام: "والذبح بغرض التقرب لا يكون إلا لله تعالى، وهو من الأمور التي مازال يقع فيه الكثير من الناس، فمنهم من ينذر لوضع الذبائح لأهل القبور وغيرهم، وفي ذلك قال شيخ الإسلام – رحمه الله–: " في قوله تعالى: – ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ﴾ {المائدة:٣} ، ظاهره أنه ما ذبح لغير الله تعالى، مثل أن يقال هذا ذبيحة لكذا، وإذا كان هذا هو المقصود، فسواء لفظ به أو لم يلفظ، وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه للحم وقال فيه: باسم المسيح ونحوه، كما أن ما ذبحناه نحن، متقربين به إلى الله سبحانه، كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم وقلنا عليه باسم الله، فإن عبادة الله سبحانه بالصلاة له والنسك له، أعظم من الاستعانة باسمه في فواتح الأمور، فإذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزهرة، فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح والزهرة أو قصد به ذلك أولى، وهذا يبين لك ضعف قول من حرم ما ذبح باسم غير الله، ولم يحرم ما ذبح لغير الله، كما قاله طائفة من أصحابنا وغيرهم، بل لو قيل بالعكس لكان أوجه، فإن العبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله وعلى هذا فلو ذبح لغير الله متقرباً به إليه لحرم، وإن قال فيه باسم الله، كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة الذين قد يتقربون إلى الكواكب، بالذبح والبخور ونحو ذلك، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال، لكن يجتمع في الذبيحة مانعان"١.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يسر إلي شيئاً يكتمه الناس، غير أنه قد حدثني بكلمات أربع، فقيل: ما هن يا أمير المؤمنين؟ قال: لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والده، ولعن الله من آوى محدثاً، ولعن الله من غير منار الأرض"٢.

"ومما يبين لك أن هؤلاء الذين ينذرون أو يذبحون لغير الله تعالى، إنما هو عن اعتقاد بأنها تجلب النفع أو تدفع الضر، ما يرى من أحوالهم وأوضاعهم، وقد بين العلماء ذلك في كتبهم"٣.

وقال: " فإذا كان الذبح والنذر، وكذا السجود والركوع والطواف عبادات لا يجوز صرفها إلا لله تعالى وحده، فمن أثبت لغير الله تعالى ما لا يكون إلا لله فهو كافر"٤.

---

١) اقتضاء الصراط المستقيم، ٥٦٣/٢.

٢) أخرجه مسلم في كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، برقم (١٩٧٨) .

٣) الشرك في القديم والحديث، أبو بكر زكريا، ١١٤١

٤) الرد علي البكري، ٢١٤.

الخلاصة:

وخلاصة القول نجد أن ابن تيمية- رحمه الله تعالى- يتفق مع منهج السلف في تحديد مفهوم النذر على أنه أمر يوجبه العبد على نفسه بقصد التقرب إلى الله تعالى، وبين أن للنذر أحكاما وأنواعا، منها المحبوب المطلوب، ومنها المذموم المنهي عنه وأتى على ذلك بالأدلة من الكتاب والسنة.وأوضح شيخ الإسلام أنواع النذور وبين أن منها ما يجب الوفاء به، ومنها ما لا يجب، ومنها ما يقع مقام اليمين، ومنها المحرم الذي يوقع بصاحبه في منازل الشرك كالنذر لغير الله والذبح لأصحاب القبور ونحوها.

المطلب التاسع

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الرياء

الرياء لغة:

الرِّياء: مصْدر قولهم: راءَى فلان الناسَ يُرائيهم مراءاة، ورِاياهم مراياةً على القلْب، وفلان مُراءٍ، وقوم مراؤون، والاسم منه الرياء، وهو مشتقٌّ من مادة رأى.

يقال: تراءى الجمْعان؛ رأى بعضُهم بعضًا.

ويقال: فلان يتراءى؛ أي: ينظر إلى وجهه في المِرْآة وفي السَّيف.

فهو أن يُظهِر الإنسانُ من نفسه خلافَ ما هو عليه ليراه الناس"[١].

ومن هذا التعريف، يتبين أن الرياء يهدف إلى مرضاة الناس، وأن يظهر أمامهم بالشكل الذي يرضى أن يرى نفسه في أعينهم عليه، وهو ما نهى عنه الكتاب والسنة، واعتبره من أمور الشرك. وقد فصل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله القول في هذه المسألة معتمدا فيها على منهج السلف وأقوالهم.

قال الحسن البصري: "لا يزال العبدُ بخير ما علِم ما الذي يفسد عليه عمَلَه، فلا غِنى للعبد عن معرفة ما أُمِرْنا باتقائه من الرِّياء، إذ وُصِف بالخفاء، ففي الحديث: "أنَّه أخْفى مِن دبيب النمل"[٢]، فما خفِي لم يُعرف إلا بشدة التَفَقُّد ونفاذ البصيرة بمعرفته له حين يعرِض، وإلا لم ينفع التفقُّد لما لا يُعرف، فبالخوف والحذر يَتفقَّد العبد الرِّياء، وبمعرفته يبصره حين يعرِض، فلا غنى بك عن معرِفة الرياء"[٣].

قال شيخ الإسلام – رحمه الله-:" وكثيرا ما يقرن الناس بين الرياء والعجب؛ فالرياء من باب الإشراك بالخلق والعجب من باب الإشراك بالنفس وهذا حال المستكبر فالمرائي لا يحقق قوله : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، {الفاتحة:٥} ، والمعجب لا يحقق قوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ {الفاتحة:٥} ، فمن حقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، خرج عن الرياء

---

١) لسان العرب ٢٩١/٤، مختار الصحاح ١١١/١، معجم الفقهاء ٢٢٨/١.

٢) مسند أحمد، ٤٠٣/٤. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح غير أبي علي ووثقه ابن حبان.

٣) الرعاية لحقوق الله، المحاسبي، ١٦٠.

ومن حقق قوله: ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ خرج عن الإعجاب وفي الحديث المعروف: (ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه)[1]"[2] .

وبهذا قد وضع شيخ الإسلام فرقا بين الرياء والعجب وأوضح أن الرياء هو أن يسعى العبد لرضا المخلوقين، أما العجب فهو الكبرياء ، وقد اعتمد في ذلك في الأساس على ما ورد في الكتاب والسنة، وما ثبت من المروي عن الصحابة والتابعين.

وقال: " وذلك لأن الإنسان قد يكون مقصوده نيل العلم والحكمة ، أو نيل المكاشفات والتأثيرات، أو نيل تعظيم الناس له ومدحهم إياه ، أو غير ذلك من المطالب ، وقد عرف أن ذلك يحصل بالإخلاص لله وإرادة وجهه ، فإذا قصد أن يطالب ذلك بإخلاص لله وإرادة وجهه كان متناقضاً ؛ لأن من أراد شيئاً لغيره فالثاني هو المراد المقصود لذاته ، والأول يراد لكون وسيلة إليه ، فإذا قصد أن يخلص لله ليصير عالماً أو عارفاً أو ذا حكمة ، أو صاحب مكاشفات ، وتصرفات ونحو ذلك ، فهو هنا لم يرد الله ؛ بل جعل الله وسيلة له إلى ذلك المطلوب الأدنى "[3].

قال ابن قدامة- رحمه الله- عن الرياء: "وهذه الشهوة الخفية يعجز عن الوقوف على غوائلها كبار العلماء، فضلا عن عامة العباد، وإنما يبتلى بها العلماء والعباد المشمرون عن ساق الجد لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم لما قهروا نفوسهم وفطموها عن الشهوات، وحملوها بالقهر عن أسباب العبادات، و لم تطمع في المعاصي الظاهرة، الواقعة على الجوارح، فاستراحت عن التظاهر بالعمل والعمل ووجد مخلصا من شدة المجاهدة في لذة القبول عن الخلق، ونظرهم إليها بعين الوقار والتعظيم، فأصابت النفس في ذلك لذة عظيمة فأحدهم يظن أنه مخلص لله عز وجل، وقد أثبتت في ديوان المنافقين، وهذه مكيدة عظيمة لا يسلم منها إلا المقربون"[4].

والشرك غالب على النفوس . وهو كما جاء في الحديث . (وهو في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل)[5] ، وفي حديث آخر (قال أبو بكر : يا رسول الله . كيف ننجو منه وهو أخفى من دبيب النمل ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : ألا أعلمك كلمة إذا قلتها نجوت من دقه وجله ؟ قل : اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم)[6] ." وكان عمر يقول في دعائه : اللهم اجعل عملي كله صالحا واجعله لوجهك خالصا ولا تجعل لأحد فيه شيئا . وكثيرا ما يخالط النفوس من الشهوات الخفية ما يفسد عليها تحقيق

---

١) رواه لطبراني في الأوسط، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٣٠٤١) ، وفي السلسلة الصحيحة برقم (١٨٠٢).

٢) مجموع الفتاوى، ٢٧٨/١٠.

٣) درء التعارض، ٦٦/٦- ٦٧.

٤) مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة، ٢٠٩.

٥) سبق تخريجة ١٤٤.

٦) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، ٢٥٠، برقم ٧١٦، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، ص ٢٦٦، برقم (٥٥١) .

محبتها لله وعبوديتها له . وإخلاص دينها له كما قال شداد بن أوس[1] : يا بقايا العرب إن أخوف ما أخاف عليكم الرياء والشهوة الخفية. قيل لأبي داود السجستاني : وما الشهوة الخفية ؟ قال : حب الرئاسة وعن كعب بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (ما ذئبان جائعان أرسلا في زريبة غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه)[2] "[3].

إذن فابن تيمية هنا يركز على ما روي عن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى رأسهم أبو بكر وعمر رضى الله عنهما، كما اعتمد أيضا على ما روي عن التابعين، في بغض الرياء، واعتمد ابن تيمية في ذلك على أن هذه المرويات لا تخالف نصا من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

وقال: " لكن يفرق بين من يكون قد عرف الله معرفة أحبه لأجلها وبين من سمع مدح أهل المعرفة فاشتاق إلى كونه منهم، لما في ذلك من الشرف، فإن هذا في الحقيقة إنما مراده تعظيم نفسه وجعل المعرفة طريقا إليها.

وذلك لأن الإنسان قد يكون مقصوده نيل العلم والحكمة، أو نيل المكاشفات والتأثيرات أو نيل تعظيم الناس له ومدحهم إياه، أو غير ذلك من المطالب ، وقد عرف أن ذلك يحصل بالإخلاص لله وإرادة وجهه ، فإذا قصد أن يطلب ذلك بالإخلاص لله وإرادة وجهه كان متناقضا ، لأن من أراد شيئا لغيره فالثاني هو المراد المقصود بذاته ؛ والأول يراد لكونه وسيله إليه ، فإذا قصد أن يخلص لله ليصير عالما أو عارفا أو ذا حكمة أو متشرفا بالنسبة إليه أو صاحب مكاشفات وتصرفات ونحو ذلك؛ فهو هنا لم يرد الله بل جعل الله وسيلة له إلى ذلك المطلوب الأدنى وإنما يريد الله ابتداءً من ذاق حلاوة محبته وذكره ، وفطر العباد مجبولة على محبته لكن منهم من فسدت فطرته "[4].

أوضح شيخ الإسلام أن الرياء يناقض الإخلاص لله تعالى، وفيه يكون غاية العبد أن يصل إلى ما يخالف رضا الله من تحقيق السمعة ونيل الشرف فيقع في باب الشرك الذي أخفى من دبيب النمل.

---

١) شداد بن أوس ،ابن ثابت بن المنذر بن حرام . أبو يعلى ، وأبو عبد الرحمن ، الأنصاري ، النجاري ، الخزرجي . أحد بني مغالة ، وهم بنو عمرو بن مالك بن النجار. وشداد هو ابن أخي حسان بن ثابت ، شاعر رسول الله – صلى الله عليه وسلم . من فضلاء الصحابة ، وعلمائهم . نزل بيت المقدس .حدث عنه ابنه يعلى ؛ وأبو إدريس الخولاني ، وأبو أسماء الرحبي ، وأبو الأشعث الصنعاني ، وعبد الرحمن بن غنم ، وجبير بن نفير ، وكثير بن مرة ، وبشير بن كعب ، وآخرون . انظر: سير أعلام النبلاء: ٢/ ٤٦١.

٢) أخرجه الترمذي: كتاب الزهد، حديث رقم ٢٣٧٦، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٥٤٩٦.

٣) مجموع الفتاوي، ١٠/٢١٥- ٢١٦.

٤) درء التعارض،٦٦/٦.

ترك العمل خوفا من الرياء:

وقد يقع العبد في الخوف من الرياء فيترك الأمور المشروعة من العبادات ونحوها حتى يهرب من الرياء ، وقد نهى السلف عن ترك العمل خوفا من الرياء ومن ذلك قول ابن قدامة- رحمه الله-:

"فأما ترك الطاعات خوفا من الرياء، فإن كان الباعث له على الطاعة غير الدين، فهذا ينبغي أن يترك لأنه معصة لا طاعة فيه، وإن كان الباعث على الدين، وكان ذلك لأجل الله تعالى خالصا فلا ينبغي أن يترك العمل لأت الباعث الدين.

وكذلك إذا ترك العمل خوفا من أن يقال: إنه مراء فلا ينبغي ذلك، لأنه من مكائد الشيطان"١.

قال إبراهيم النخعي: "قال إبراهيم النخعي : إذا أتاك الشيطان وأنت في صلاة ، فقال : إنك مراء فزدها طولا"٢.

وقال أبو الفرج بن الجوزي : "فأما ترك الطاعات خوفا من الرياء فإن كان الباعث له على الطاعة غير الدين فهذا ينبغي أن يترك ؛ لأنه معصية ، وإن كان الباعث على ذلك الدين وكان ذلك لأجل الله عز وجل مخلصا فلا ينبغي أن يترك العمل ؛ لأن الباعث الدين ، وكذلك إذا ترك العمل خوفا من أن يقال : مراء ، فلا ينبغي ذلك لأنه من مكايد الشيطان"٣.

وقد علق ابن تيمية – رحمه الله- على ذلك فقال: "ومن كان له ورد مشروع من صلاة الضحى أو قيام ليل أو غير ذلك فإنه يصليه حيث كان ولا ينبغي له أن يدع ورده المشروع لأجل كونه بين الناس إذا علم الله من قلبه أنه يفعله سرا لله مع اجتهاده في سلامته من الرياء ومفسدات الإخلاص ؛ ولهذا قال الفضيل بن عياض : ترك العمل لأجل الناس رياء والعمل لأجل الناس شرك . وفعله في مكانه الذي تكون فيه معيشته التي يستعين بها على عبادة الله خير له من أن يفعله حيث تتعطل معيشته ويشتغل قلبه بسبب ذلك فإن الصلاة كلما كانت أجمع للقلب وأبعد من الوسواس كانت أكمل..."٤

١) مختصر منهاج القاصدين، ابن قدامة، ٢٢٥.

٢) الآداب الشرعية، لابن مفلح، ٢٦٦/١

٣) المرجع السابق.

٤) مجموع الفتاوى، ٢٣/ ١٥٧.

قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ {الكهف: ١١٠}، قال الطبري: "ولا يجعل له شريكا في عبادته إياه ، وإنما يكون جاعلا له شريكا بعبادته إذا راءى بعمله الذي ظاهره أنه لله وهو مريد به غيره "[١].

وخلاصة القول: أن ابن تيمية- رحمه الله- أوضح أن هناك قسمين من الرياء، واعتمد في ذلك على ما ورد عن الصحابة والتابعين وعلماء السلف:

أحدهما: العمل لأجل الناس، واتفق مع منهج السلف في أن هذا النوع من الشرك؛ إذ ينتفي مع إخلاص العبادة لله تعالى، وما في ذلك من مفسدة عظيمة تجعل هم العبد رضا المخلوقين بدلا من رضا الله.

والثاني: وهو ترك العمل خوفا من الناس لأن من يفعل ذلك يترك أمرا مشروعًا خوفًا من الرياء.

١) تفسير الطبري، سورة الكهف، ١٣٦/١٨

المبحث الرابع

محاكاة شيخ الإسلام ابن تيمية لأئمة السلف فيما ينافي كمال التوحيد في الأقوال والأفعال

المطلب الأول: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في مباحث العقيدة المتعلقة بشد الرحال لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، والأنبياء، والصحابة.

المطلب الثاني: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد علي الآثار الوارد عن السلف في مسائل الاعتقاد المتعلقة بزيارة الرجال والنساء للقبور.

المطلب الثالث: منهج شيخ الإسلام في الاعتماد علي الآثار الوارد عن السلف في مسائل الاعتقاد المتعلقة بتعظيم القبور والتوسل بأصحابها والتبرك بهم.

مدخل

التوحيد لغة:

قال الخليل بن أحمد: "الوَاحَد المنفرد، والواحد أول عدد من الحساب، والوُحدان جماعة الواحد"[1]. والرجل وَحَد والوَحْد: الذي لا يعرف له أصل. ووحده توحيداً: جعله واحداً"[2].

التوحيد اصطلاحا:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عن معنى التوحيد:" وأما التوحيد الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب: فليس هو متضمنا شيئا من هذه الاصطلاحات بل أمر الله عباده أن يعبدوه وحده لا يشركوا به شيئا فلا يكون لغيره نصيب فيما يختص به من العبادة وتوابعها - هذا في العمل.

وقال: من المعلوم: " أن مذهب السلف إن كان يعرف بالنقل عنهم فليرجع في ذلك إلى الآثار المنقولة عنهم وإن كان إنما يعرف بالاستدلال المحض بأن يكون كل من رأى قولا عنده هو الصواب قال: " هذا قول السلف لأن السلف لا يقولون إلا الصواب وهذا هو الصواب " فهذا هو الذي يجرئ المبتدعة على أن يزعم كل منهم: أنه على مذهب السلف فقائل هذا القول قد عاب نفسه بنفسه حيث انتحل مذهب السلف بلا نقل عنهم بل بدعواه: أن قوله هو الحق[3].

وعن كمال التوحيد قال- رحمه الله-: " وجماع دين الإسلام: أن يعبد الله وحده لا شريك له ويعبد بما شرعه سبحانه وتعالى على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم من الواجبات والمستحبات والمندوبات. فمن تعبد بعبادة ليست واجبة ولا مستحبة فهو ضال والله أعلم"[4].

---

1) العين ٣/٢٨١

2) تهذيب اللغة ٥/١٩٣، الصحاح ٢/٥٤٨، لسان العرب ٣/٤٤٦ - ٤٤٧، القاموس المحيط ص ٤١٤.

3) مجموع الفتاوى، ١/٣٢١.

4) المرجع السابق، ١/١٢٢

المطلب الأول

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في مباحث العقيدة

المتعلقة بشد الرحال لزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، والأنبياء، والصحابة

اتفق السلف على جواز شد الرحال إلى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، لورود الأدلة على ذلك، وكانت لهم تفاصيل أخرى في زيارة قبره صلى الله عليه وسلم، واتفق السلف على جواز شد الرحال إلى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، لورود الأدلة على ذلك، و لم يكن شيخ الإسلام أول من فرق في مسألة شد الرحال إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وبين زيارة قبره، فقد سبقه الكثير من السلف في ذلك.

وعن قصد زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم دون مسجده كان للسلف تفاصيل واضحة منها ما ذكره القاضي عياض عن السلف فقال- رحمه الله-:

"وقال مالك في المبسوط : وليس يلزم من دخل المسجد ، وخرج منه من أهل المدينة الوقوف بالقبر ، وإنما ذلك للغرباء .

وقال فيه أيضا : لا بأس لمن قدم من سفر أن يقف على قبر النبي – صلى الله عليه وسلم – ، فيصلي عليه، ويدعو له ، ولأبي بكر ، وعمر .

فقيل له : فإن ناسا من أهل المدينة لا يقدمون من سفر ، ولا يريدونه ، يفعلون ذلك في اليوم مرة أو أكثر، وربما وقفوا في الجمعة أو في الأيام المرة ، والمرتين أو أكثر عند القبر فيسلمون ، ويدعون ساعة!.

فقال : لم يبلغني هذا عن أحد من أهل الفقه ببلدنا ، وتركه واسع ، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها ، و لم يبلغني عن أول هذه الأمة ، وصدرها أنهم كانوا يفعلون ذلك ، ويكره إلا لمن جاء من سفر أو أراده.

قال ابن القاسم[1] : ورأيت أهل المدينة إذا خرجوا منها أو دخلوها أتوا القبر فسلموا ، قال : وذلك رأي .

---

١) ابن القاسم، عبد الرحمن بن القاسم، عالم الديار المصرية ومفتيها أبو عبد الله العتقي مولاهم المصري صاحب مالك الإمام. روى عن مالك ، وعبد الرحمن بن شريح ، ونافع بن أبي نعيم المقرئ ، وبكر بن مضر ، وطائفة قليلة. وعنه : أصبغ ، والحارث بن مسكين ، وسحنون ، وعيسى بن مثرود ، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم ، وآخرون، انظر: سير أعلام النبلاء، ٩/١٢١.

قال الباجي[١] : ففرق بين أهل المدينة والغرباء ، لأن الغرباء قصدوا لذلك ، وأهل المدينة مقيمون بها لم يقصدوها من أجل القبر والتسليم"[٢].

ومن النصوص التي رواها الصحابة عن رسول الله حديث جابر، قال:" نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يجصص القبر وأن يقعد عليه وأن يبنى عليه وحدثني هارون بن عبد الله حدثنا حجاج بن محمد ح وحدثني محمد بن رافع حدثنا عبد الرزاق جميعا عن ابن جريج قال أخبرني أبو الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول سمعت النبي صلى الله عليه وسلم بمثله"[٣].

وأعد ابن بطة زيارة هذه القبور من البدع فقال:"ومن البدع البناء على القبور وتجصيصها وشد الرحل إلى زيارتها"[٤].

وفي ذلك قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:"وسئل مالك عن رجل نذر أن يأتي قبر النبي، فقال مالك: إن كان أراد القبر فلا يأته وإن أراد المسجد؛ فليأته ثم ذكر الحديث: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد)[٥]، ذكره القاضي إسماعيل في مبسوطه"[٦].

وأكد ابن تيمية- رحمه الله- أن كل الأحاديث المروية في زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ضعيفة أو موضوعة فقال:

"وكذلك كل حديث يروى في زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه ضعيف؛ بل موضوع ولم يرو أهل الصحاح، والسنن والمسانيد، كمسند أحمد، وغيره من ذلك شيئا؛ ولكن الذي في السنن ما رواه أبو داود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ما من رجل يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام) [٧] ،

---

١) أبو الوليد الباجي، الإمام العلامة سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي ، الأندلسي ، القرطبي ، الباجي ، الذهبي ، صاحب التصانيف . أصله من مدينة بطليوس فتحول جده إلى باجة - بليدة بقرب إشبيلية - فنسب إليها ، وما هو من باجة المدينة التي بإفريقية التي ينسب إليها الحافظ أبو محمد عبد الله بن محمد بن علي الباجي ، وابنه الحافظ الأوحد أبو عمر أحمد بن عبد الله بن الباجي ، وهما من علماء الأندلس أيضا. ولد أبو الوليد في سنة ثلاث وأربعمائة . وأخذ عن : يونس بن مغيث ، ومكي بن أبي طالب ، ومحمد بن إسماعيل ، وأبي بكر محمد بن الحسن بن عبد الوارث، انظر: سير أعلام النبلاء، ١٨/ ٥٣٧.

٢) الشفا، للقاضي عياض، ٢/٤٩٤.

٣) صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه، حديث رقم: ٩٧٠.

٤) الإبانة، لابن بطة، ٩٢.

٥) أخرجه البخاري، كتاب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، حديث رقم (١١٣٢).

٦) مجموع الفتاوى، ١/٣٠٤.

٧) أخرجه أبو داود، كتاب المناسك، باب زيارة القبور حديث رقم (٢٠٤١) .

فهو يرد السلام على من سلم عليه عند قبره، ويبلغ سلام من سلم عليه من البعيد، قال – صلى الله عليه وسلم – : (أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة، وليلة الجمعة، فإن صلاتكم معروضة علي، قالوا : وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت ؟ فقال : إن الله قد حرم على الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء)١ ، فبين صلى الله عليه وسلم أن الصلاة والسلام توصل إليه من البعيد . والله قد أمرنا أن نصلي عليه ونسلم"٢.

ومن الذين فرقوا بين زيارة مسجد المدينة وقبر النبي صلى الله عليه وسلم ابن الأثير رحمه الله قال:" المراد : لا يقصد موضع من المواضع بنية العبادة والتقرب إلى الله تعالى إلا إلى هذه الأماكن الثلاثة ، تعظيماً لشأنها وتشريفاً "٣.

أما عن السفر وشد الرحال إلى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد قال- رحمه الله-: "وقد ذكر بعض المتأخرين من العلماء : أنه لا بأس بالسفر إلى المشاهد، واحتجوا (بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأتي قباء كل سبت راكبا وماشيا)٤ ، أخرجاه في الصحيحين ولا حجة لهم فيه ؛ لأن قباء ليست مشهدا ؛ بل مسجد وهي منهي عن السفر إليها باتفاق الأئمة ؛ لأن ذلك ليس بسفر مشروع ؛ بل لو سافر إلى قباء من دويرة أهله لم يجز ولكن لو سافر إلى المسجد النبوي ثم ذهب منه إلى قباء فهذا يستحب كما يستحب زيارة قبور أهل البقيع وشهداء أحد"٥ .

ثم يوضح ابن تيمية عدم صحة الأحاديث التي وردت في تخصيص قبري النبي صلى الله عليه وسلم بالزيارة، فيقول:

" وأما قوله :(من زار قبري وجبت له شفاعتي)، فهذا الحديث رواه الدارقطني فيما قيل بإسناد ضعيف، ولهذا ذكره غير واحد من الموضوعات ولم يروه أحد من أهل الكتب المعتمد عليها من كتب الصحاح والسنن والمسانيد.

وأما الحديث الآخر قوله (من حج البيت ولم يزرني فقد جفاني)، فهذا لم يروه أحد من أهل العلم بالحديث؛ بل هو موضوع على رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعناه مخالف للإجماع، فإن جفاء الرسول صلى

---

١) أخرجه ابو داود، كتاب الصلاة، باب فضل يوم الجمعة وليلة الجمعة، حديث رقم (١٠٤٧).

٢) مجموع الفتاوى، ١٧/٢٧.

٣) جامع الأصول، ابن الأثير،٢٨٣/٩

٤) أخرجه مسلم، كتاب الحج، باب فضل مسجد قباء وفضل الصلاة فيه وزيارته، حديث رقم (١٣٩٩) .

٥) مجموع الفتاوى، ٢/٢٧

الله عليه وسلم من الكبائر؛ بل هو كفر ونفاق؛ بل يجب أن يكون أحب إلينا من أهلينا وأموالنا كما قال صلى الله عليه وسلم: (والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين)١.

وأما " زيارته " فليست واجبة باتفاق المسلمين؛ بل ليس فيها أمر في الكتاب ولا في السنة وإنما الأمر الموجود في الكتاب والسنة بالصلاة عليه والتسليم . فصلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا . وأكثر ما اعتمده العلماء في " الزيارة " قوله في الحديث الذي رواه أبو داود: (ما من مسلم يسلم علي إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام)٢ .

وكان الإمام مالك يرى كراهة زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم:قال ابن القاسم: "وكان مالك يكره أن يقول الرجل طواف الزيارة ، قال: وقال مالك : وناس يقولون زرنا قبر النبي عليه السلام ، قال : فكان مالك يكره هذا ويعظمه أن يقال إن النبي يزار"٣

وقد كره مالك وغيره أن يقال : زرت قبر النبي صلى الله عليه وسلم . وقد كان الصحابة كابن عمر وأنس وغيرهما يسلمون عليه صلى الله عليه وسلم وعلى صاحبيه، كما في الموطأ أن ابن عمر كان إذا دخل المسجد يقول: السلام عليك يا رسول الله السلام عليك يا أبا بكر السلام عليك يا أبت..."٤ .

وبهذا يوضح شيخ الإسلام أن تخصيص قبر النبي بالزيارة ليست واجبة على المسلمين، وأن ما ورد في فضل ذلك من أحاديث إما ضعيف أو موضوع.

ثم يقول: "وشد الرحال إلى مسجده مشروع باتفاق المسلمين كما في الصحيحين عنه أنه قال: (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدي هذا)٥ . وفي الصحيحين عنه أنه قال:(صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام)٦ . فإذا أتى مسجد النبي صلى الله عليه وسلم فإنه يسلم عليه وعلى صاحبيه كما كان الصحابة يفعلون .

---

١) سبق تخريجه ص ١١٢.

٢) سبق تخريجه ص ١٥٢.

٣) المدونة الكبرى،عبد الرحمن بن القاسم العتقي، ٣٩٦/١.

٤) مجموع الفتاوى، ٢٧/ ٢٥

٥) سبق تخريجه ص١٥٢.

٦) أخرجه البخاري، كتاب فضل الصلاة، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة، حديث رقم (١١٩٠).

وأما إذا كان قصده بالسفر زيارة قبر النبي دون الصلاة في مسجده، فهذه المسألة فيها خلاف. فالذي عليه الأئمة وأكثر العلماء أن هذا غير مشروع ولا مأمور به؛ لقوله صلى الله عليه وسلم (لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى)١، ولهذا لم يذكر العلماء أن مثل هذا السفر إذا نذره يجب الوفاء به ؛ بخلاف السفر إلى المساجد الثلاثة لا للصلاة فيها والاعتكاف فقد ذكر العلماء وجوب ذلك في بعضها – في المسجد الحرام – وتنازعوا في المسجدين الآخرين "٢.

فالجمهور يوجبون الوفاء به في المسجدين الآخرين : " كمالك والشافعي وأحمد ؛ لكون السفر إلى الفاضل لا يغني عن السفر إلى المفضول . وأبو حنيفة إنما يوجب السفر إلى المسجد الحرام ؛ بناء على أنه إنما يوجب بالنذر ما كان جنسه واجبا بالشرع والجمهور يوجبون الوفاء بكل ما هو طاعة ؛ لما في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه)٣ . بل قد صرح طائفة من العلماء كابن عقيل وغيره بأن المسافر لزيارة قبور الأنبياء عليهم السلام وغيرها لا يقصر الصلاة في هذا السفر؛ لأنه معصية لكونه معتقدا أنه طاعة وليس بطاعة والتقرب إلى الله عز وجل بما ليس بطاعة هو معصية ؛ ولأنه نهى عن ذلك والنهي يقتضي التحريم .

ورخص بعض المتأخرين في السفر لزيارة القبور كما ذكر أبو حامد في " الإحياء " وأبو الحسن بن عبدوس وأبو محمد المقدسي وقد روى حديثا رواه الطبراني من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من جاءني زائرا لا تنزعه إلا زيارتي كان حقا علي أن أكون له شفيعا يوم القيامة) لكنه من حديث عبد الله بن عبد الله بن عمر العمري وهو مضعف . ولهذا لم يحتج بهذا الحديث أحد من السلف والأئمة . وبمثله لا يجوز إثبات حكم شرعي باتفاق علماء المسلمين . والله أعلم "٤.

وبهذا فقد قطع شيخ الإسلام – رحمه الله- الطريق أمام كل من يدعي مشروعية قصد زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم أكد ما ذهب إليه بأقوال الأئمة.

---

١) سبق تخريجه ص ١٥٢.

٢) مجموع الفتاوى، ٢٧/ ٢٥

٣) سبق تخريجه ص ١٣٧.

٤) مجموع الفتاوى، ٢٧/ ٢٥- ٢٩.

وينقل ابن تيمية كلام السلف على عدم تخصيص زيارة القبر بمزية أو التمسح به بقصد التبرك، وأن ذلك من الأمور المنافية لكمال التوحيد، فيقول:

"ولهذا اتفق السلف على أنه لا يستلم قبرا من قبور الأنبياء وغيرهم ولا يتمسح به ولا يستحب الصلاة عنده ولا قصده للدعاء عنده أو به ؛ لأن هذه الأمور كانت من أسباب الشرك وعبادة الأوثان كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، قال طائفة من السلف : هؤلاء كانوا قوما صالحين في قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم"١ .

وقال رحمه الله: "وأما " التربة " التي دفن فيها النبي صلى الله عليه وسلم فلا أعلم أحدا من الناس قال إنها أفضل من المسجد الحرام أو المسجد النبوي أو المسجد الأقصى ، إلا القاضي عياض . فذكر ذلك إجماعا وهو قول لم يسبقه إليه أحد فيما علمناه . ولا حجة عليه بل بدن النبي صلى الله عليه وسلم أفضل من المساجد٢.

وأما ما فيه خلق أو ما فيه دفن فلا يلزم إذا كان هو أفضل أن يكون ما منه خلق أفضل . فإن أحدا لا يقول إن بدن عبد الله أبيه أفضل من أبدان الأنبياء فإن الله يخرج الحي من الميت والميت من الحي . ونوح نبي كريم وابنه المغرق كافر وإبراهيم خليل الرحمن وأبوه آزر كافر . والنصوص الدالة على تفضيل المساجد مطلقة لم يستثن منها قبور الأنبياء ولا قبور الصالحين . ولو كان ما ذكره حقا لكان مدفن كل نبي بل وكل صالح أفضل من المساجد التي هي بيوت الله فيكون بيوت المخلوقين أفضل من بيوت الخالق التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه وهذا قول مبتدع في الدين مخالف لأصول الإسلام"٣

وعلى ذلك فإن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قد اتفق مع منهج السلف على التفرقة بين شد الرحال إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين أن ذلك من الأمور المأمور بها شرعا، لما ثبت من الشرع في أفضلية المساجد الثلاثة التي ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم عن غيرها، ونقل أقوال الأئمة في تحريم تخصيص الزيارة لقبره صلى الله عليه وسلم بغير الوجه الذي أوضحه الشرع.

---

١) مجموع الفتاوى ، ٢٧/ ٣٢- ٣٤.

٢) المرجع السابق ،٢٧/ ٣٢- ٣٤.

٣) مجموع الفتاوى، ٢٧/ ٣٨- ٣٩.

المطلب الثاني

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد علي الآثار الوارد عن السلف في مسائل الاعتقاد

المتعلقة بزيارة الرجال والنساء للقبور

اتفق السلف على استحباب زيارة القبور للرجال، واختلفوا في زيارة النساء بين المنع والإباحة، كما فرقوا بين الزيارة المشروعة والزيارة الممنوعة، المحرمة، وأكدوا أن الأصل في البداية المنع للرجال والنساء إلى أن أباحها النبي صلى الله عليه وسلم.

قال ابن عبد البر رحمه الله : " في هذا الحديث من الفقه : إباحة الخروج إلى المقابر وزيارة القبور وهذا أمر مجتمع عليه للرجال ، ومختلف فيه للنساء وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرا فإنها تذكر الآخرة"[١].

سئل شيخ الإسلام رحمه الله عن الحديث المروي عن النبي صلى الله عليه وسلم وهو قوله صلى الله عليه وسلم (لعن الله زوارات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج)[٢] هل هو منسوخ بقوله صلى الله عليه وسلم (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكركم الآخرة)[٣] ؟ أم لا ؟ وهل صح الحديث الأول أم لا ؟ وهل يحرم على النساء زيارة القبور ؟ أم يكره ؟ أم يستحب ؟ .

فأجاب : الحمد لله رب العالمين . أما زيارة القبور فقد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان قد نهى عنها نهيا عاما ثم في ذلك . فقال : (كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها . فإنها تذكركم الآخرة)[٤] ، وقال صلى الله عليه وسلم: (استأذنت ربي في أن أزور قبر أمي فأذن لي واستأذنت في أن أستغفر لها فلم يأذن لي فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة)[٥] .

وهنا مسألتان : إحداهما : متفق عليها والأخرى متنازع فيها.

فأما الأولى : فإن الزيارة تنقسم إلى قسمين : زيارة شرعية وزيارة بدعية .

---

١) التمهيد، لابن عبدالبر، ٢٠/٢٣٩.

٢) سنن أبو داود، كتاب الجنائز، باب في زيارة النساء القبور، حديث رقم (٣٢٣٦) .

٣) سبق تخريجه ص ١٥٧.

٤) سنن الترمذي، أبواب الجنائز عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الرخصة في زيارة القبور، برقم (١٠٥٤)، والنسائي، كتاب الأشربة، باب الإذن في شيء منها، برقم (٥٦٥٢)، وابن ماجه، أبواب الجنائز، باب ما جاء في زيارة قبور المشركين، برقم (١٥٧١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٤٧٥).

٥) أخرجه مسلم، في كتاب الجنائز، باب استئذان النبي صلى الله عليه وسلم ربه في زيارة قبر أمه، برقم (١٠٨) .

فالزيارة الشرعية: السلام على الميت والدعاء له بمنزلة الصلاة على جنازته كما ثبت في الصحيح (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعلم أصحابه إذا زاروا القبور أن يقولوا : السلام عليكم أهل الديار من المسلمين والمؤمنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين نسأل الله لنا ولكم العافية اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم)١ ، وهذا الدعاء يروى بعضه في بعض الأحاديث وهو مروي بعدة ألفاظ ، كما رويت ألفاظ التشهد وغيره وهذه الزيارة هي التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعلها إذا خرج لزيارة قبور أهل البقيع .

وأما الزيارة البدعية: فهذا نفسه مما حذر منه السلف أيضا لورود الأدلة عليه، ومن ذلك ما رواه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: لما كان مرض النبي صلى الله عليه وسلم تذاكر بعض نسائه كنيسة بأرض الحبشة يقال لها: مارية – وقد كانت أم سلمة وأم حبيبة قد أتتا أرض الحبشة – فذكرن من حسنها وتصاويرها قالت: فرفع النبي صلى الله عليه وسلم رأسه فقال: "أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، ثم صوروا تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة"٢.

فمن جنس زيارة اليهود والنصارى وأهل البدع الذين يتخذون قبور الأنبياء والصالحين مساجد وقد استفاض عن النبي صلى الله عليه وسلم في الكتب الصحاح وغيرها أنه قال عند موته: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد يحذر ما فعلوا)٣، قالت عائشة – رضي الله عنها – : ولولا ذلك لأبرز قبره ولكن كره أن يتخذ مسجدا ، وثبت في الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك)٤ " ٥.

وبهذا فقد أوضح شيخ الإسلام أن الزيارة البدعية هي التي تكون من نوع زيارة اليهود والنصارى التي يعظمون فيها قبور الأنبياء والصالحين، وهي من الأمور المنهي عنها لمخالفتها كمال التوحيد.

وقال: " و"الزيارة البدعية " هي من أسباب الشرك بالله تعالى ودعاء خلقه وإحداث دين لم يأذن به الله .
و"الزيارة الشرعية " هي من جنس الإحسان إلى الميت بالدعاء له كالإحسان إليه . بالصلاة عليه وهي من العبادات لله تعالى التي ينفع الله بها الداعي والمدعو له كالصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم وطلب الوسيلة والدعاء لسائر المؤمنين : أحيائهم وأمواتهم وعلى ذلك فإن ابن تيمية يعتبر أن هذا النوع من الزيارة من الشرك

١) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب النهي عن بناء المساجد على القبور واتخاذ الصور فيها ، برقم (٨٦٤).
٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب بناء المسجد على القبر، حديث رقم: ١٢٧٦ .
٣) سبق تخريجه ص ١٤٠.
٤) سبق تخريجه ص ١٤١.
٥) مجموع الفتاوى، ٢٤/ ٣٣٣- ٣٣٥.

العظيم، لأن الزائر إنما يعظم هذه القبور باعتبار قدرة صاحبها الذاتية على تحقيق النفع والضر للعباد، وهي من الأمور التي اختص بها الله تعالى نفسه.

زيارة النساء للقبور:

وعن زيارة النساء للقبور قال ابن قدامة: "وهذا خاص في النساء ، والنهي المنسوخ كان عاما للرجال والنساء . ويحتمل أنه كان خاصا للرجال . ويحتمل أيضا كون الخبر في لعن زوارات القبور ، بعد أمر الرجال بزيارتها ، فقد دار بين الحظر والإباحة ، فأقل أحواله الكراهة . ولأن المرأة قليلة الصبر، كثيرة الجزع ، وفي زيارتها للقبر تهييج لحزنها ، وتجديد لذكر مصابها ، فلا يؤمن أن يفضي بها ذلك إلى فعل ما لا يجوز ، بخلاف الرجل ، ولهذا اختصصن بالنوح والتعديد ، وخصصن بالنهي عن الحلق والصلق ونحوهما"[1].

ونقل شيخ الإسلام أقوال السلف في حكم زيارة النساء للقبور، وهل أُذن لهن بالزيارة مثل الرجال أم لا؟

قال- رحمه الله: "وأما المسألة المتنازع فيها: فالزيارة المأذون فيها هل فيها إذن للنساء ونسخ للنهي في حقهن؟ أو لم يأذن فيها بل هن منهيات عنها ؟ وهل النهي نهي تحريم أو تنزيه ؟ في ذلك للعلماء ثلاثة أقوال معروفة والثلاثة أقوال في مذهب الشافعي وأحمد أيضا وغيرهما . وقد حكي في ذلك ثلاث روايات عن أحمد ، وهو نظير تنازعهم في تشييع النساء للجنائز وإن كان فيهم من يرخص في الزيارة دون التشييع كما اختار ذلك طائفة من أصحاب أحمد وغيرهم .

فمن العلماء من اعتقد أن النساء مأذون لهن في الزيارة وأنه أذن لهن، كما أذن للرجال واعتقد أن قوله صلى الله عليه وسلم: (فزوروها فإنها تذكركم الآخرة)، خطاب عام للرجال والنساء، والصحيح أن النساء لم يدخلن في الإذن في زيارة القبور .

ويوضح ابن تيمية- رحمه الله- أن النساء غير مخاطبات برفع النبي صلى الله عليه وسلم الحرج عن المسلمين في زيارة القبور والتي كان قد نهى عنها. ثم يقول:

" وإذا قيل مفسدة الاتباع للجنائز أعظم من مفسدة الزيارة، لأن المصيبة حديثة وفي ذلك أذى للميت وفتنة للحي بأصواتهن وصورهن. قيل : ومطلق الاتباع أعظم من مصلحة الزيارة؛ لأن في ذلك الصلاة عليه التي هي أعظم من مجرد الدعاء، ولأن المقصود بالاتباع الحمل والدفن والصلاة فرض على الكفاية وليس شيء من الزيارة فرضا على الكفاية – وذلك الفرض يشترك فيه الرجال والنساء بحيث لو مات رجل وليس عنده إلا نساء لكان حمله ودفنه والصلاة عليه فرضا عليهن وفي تغسيلهن للرجال نزاع وتفصيل . وكذلك إذا تعذر غسل الميت هل

---

١) المغني، لابن قدامة، ٢/ ٢٢٧.

ييمم ؟ فيه نزاع معروف وهو قولان في مذهب أحمد وغيره - فإذا كان النساء منهيات عما جنسه فرض على الكفاية ومصلحته أعظم إذا قام به الرجال فما ليس بفرض على أحد أولى.

فقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية أن هناك قسمين من زيارة القبور، إحداها الزيارة الشرعية المأذون بها، وهي التي تشمل الصلاة علي الميت واتباع جنازته والدعاء له عند قبره أو غير ذلك، وبين الزيارة البدعية المنهي عنها التي تشبه زيارة اليهود والنصارى، والإقامة عليها والنذر لها والتبرك بها.

وفرق في الزيارة المأذون بها بين زيارة الرجال والنساء وأوضح موقف العلماء وأئمة السلف من ذلك على الوجه الذي بينا.

المطلب الثالث

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد علي الآثار الوارد عن السلف في مسائل الاعتقاد

المتعلقة بتعظيم القبور والتوسل بأصحابها والتبرك بهم

أكد السلف على النهي عن تعظيم القبور والتمسح بها أو التوسل بأصحابها، لما ورد في ذلك من أدلة قطعية من الكتاب والسنة.

وتعظيم القبور والتوسل بأصحابها لم يكن من الأمور المعهودة في عصر الصحابة، لما علموه من أمور الشرع بأن أهل القبور قد انقطعت أعمالهم عن الدنيا إلا بما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد اعتمد شيخ الإسلام على ما ورد في هذه المسألة على أقوال السلف الموافقة للكتاب والسنة.

و النصوص التي رواها الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المسألة كثيرة، ومنها:

عن الحارث النجراني قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت بخمسٍ وهو يقول: "ألا وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك"[١].

وحديث أسامة ابن زيد رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في مرضه الذي مات فيه: "أدخلوا عليَّ أصحابي فدخلوا عليه وهو متقنع ببردة معافريّ، فكشف القناع فقال: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد"[٢].

ومن الأئمة، قال الإمام الشافعي- رحمه الله-: "وأكره[٣] أن يعظم مخلوق حتى يُجعل قبره مسجداً"[٤].

---

١) مسند ابن أبي شيبة، حديث رقم: ٧٥٤٦.

٢) مسند الإمام أحمد، حديث رقم: ٢١٨٢٢.

٣) قال ابن القيم: "فالسلف كانوا يستعملون الكراهة في معناها الذي استعملت فيه في كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولكن المتأخرين اصطلحوا على تخصيص الكراهة بما ليس بمحرّم، وتركه أرجح من فعله، ثم حمل من حمل منهم كلام الأئمة على الاصطلاح الحادث، فغلط في ذلك، وأقبح غلطاً منه من حمل لفظ الكراهة، أو لفظ لا ينبغي في كلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم على المعنى الاصطلاحي الحادث، انظر: أعلام الموقعين، ١/٤٧- ٤٨.

٤) الأم، للإمام الشافعي، ١/٢٧٨.

وقال الطحاوي- رحمه الله-: "ولا يمس القبر ولا يقبله فإنه من عادة أهل الكتاب و لم يعهد الاستلام إلا للحجر الأسود والركن اليماني خاصة"١.

وحرص شيخ الإسلام ابن تيمية على توضيح معاني توحيد العبادة لله وحده لا شريك، ونبذ الشرك بكل صوره، وقد اختار في ذلك منهج السلف باعتبارهم أقرب الناس فهما للوحي وقال: : "وكل قول ينفرد به المتأخر عن المتقدمين و لم يسبقه إليه أحد منهم فإنه يكون خطأ كما قال الإمام أحمد بن حنبل: إياك أن تتكلم في مسألة ليس لك فيها إمام"٢، ومن أعظم المسائل في هذا الباب تعظيم القبور والتوسل بأصحابها، والتبرك بهم.

التوسل بأصحاب القبور:

والتوسل بالمقبورين لم يكن معلوما على عند المسلمين في عهد النبوة وقد جاء في عهود اخرى "فما كان أهل الجاهلية يفعلونه، وإنما كانوا يتقربون ليدعوهم لهم، لكن أن يطلب من الميت الدعاء هذا بدعة ما كانت أصلا موجودة لا عند الجاهليين ولا عند المسلمين فحدثت فهي بدعة ولا شك، ولكنها بدعة شركية كفرية"٣.

ولذلك فالأصل لدى العقلاء وأهل السنة والجماعة أن يكون التوسل بطلب الدعاء من صالحي الأحياء وليس من الموتى.وفي عصر شيخ الإسلام- رحمه الله- انتشرت أنواع كثيرة من البدع على يد الطوائف المنحرفة، ومن هذه البدع التوسل بأصحاب القبور.

وكان السلف يعرفون أنه ليس للميت ولا لأهل القبور شيء من الدنيا، بل ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الميت أحوج لأهل الدنيا في أمور كثيرة وهو ما اعتمد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية.

ومن الآثار المروية عن السلف في ذلك: ما نقله اللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة من آثا، قال:

عن أبي أسيد- وكان بدريا- أي من أهل بدر- قال :"كنت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا، فجاء رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، هل بقى من بر والداي من بعدهما شيء أبرهما به؟ قال" نعم، الصلاة عليهما والاستغفار لهما وإنفاذ عهدهما من بعدهما...."٤.

---

١) حاشية الطحاوي على مراقي الفلاح، ٦٢٠.

٢) مجموع الفتاوى، ٢١/٢٩١.

٣) شرح العقيدة الطحاوية، صالح آل الشيخ، ٢/١٠٣٠.

٤) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، حديث رقم: ٢١٧٠، والأدب المفرد، البخاري، حديث رقم: ٣٥.

وإذا علم ذلك فإن أهل القبور مفتقرون إلى دعاء الأحياء، وليس العكس.

وعن التوسل والاستغاثة بالمقبورين قال شيخ الإسلام- رحمه الله-:

"وأما الرجل إذا أصابته نائبة أو خاف شيئا فاستغاث بشيخه يطلب تثبيت قلبه من ذلك الواقع فهذا من الشرك وهو من جنس دين النصارى فإن الله هو الذي يصيب بالرحمة ويكشف الضر ١، قال تعالى : ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ {يونس:١٠٧} ،وقال تعالى:﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ {فاطر:٢} ، وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ {الأنعام:٤٠-٤١} ، وقال تعالى : ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴾ {الإسراء:٥٦-٥٧ }، فبين أن من يدعى من الملائكة والأنبياء وغيرهم لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلا .

وفي مسند الإمام أحمد وصحيح أبي حاتم البستي عن ابن مسعود – رضي الله عنه – عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : (ما أصاب عبدا قط هم ولا حزن فقال : اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضاؤك أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك : أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي : إلا أذهب الله همه وغمه وأبدله مكانه فرحا : قالوا : يا رسول الله : أفلا نتعلمهن ؟ قال : ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن)٢ . وقال لأمته : (إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته ولكن الله يخوف بهما عباده فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى الصلاة وذكر الله والاستغفار)٣، فأمرهم عند الكسوف بالصلاة والدعاء والذكر والعتق والصدقة و لم يأمرهم أن يدعوا مخلوقا ولا ملكا ولا نبيا ولا غيرهم " ٤ .

---

١)) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، حديث رقم: ٢١٧٠، والأدب المفرد، البخاري، حديث رقم: ٣٥.

٢) رواه الإمام أحمد في المسند، ١/٣٩١، حديث رقم: ٤٥٢، وقال الأرناؤوط: إسناده صحيح ، مسند البزار ١٩٩٤.
وابن أبي شيبة في مصنفه، ٦/٤٠، حديث رقم: ٢٩٣١٨)، وفي مسنده، ١/٢٢٣، حديث رقم: ٣٢٩.

٣) أخرجه البخاري، في كتاب الكسوف، باب الصلاة في كسوف الشمس، برقم (١٠٤١) ، وصحيح مسلم، كتاب الكسوف، باب ذكر النداء بصلاة الكسوف، برقم (٢٢) .

٤) مجموع الفتاوى، ٢٧/٨٨- ٩١.

وقال: "ومثل هذا كثير في سنته : لم يشرع للمسلمين عند الخوف إلا ما أمر الله به : من دعاء الله وذكره والاستغفار والصلاة والصدقة ونحو ذلك . فكيف يعدل المؤمن بالله ورسوله عما شرع الله ورسوله إلى بدعة ما أنزل الله بها من سلطان تضاهي دين المشركين والنصارى ؟ .

فإن زعم أحد أن حاجته قضيت بمثل ذلك ، وأنه مثل له شيخه، ونحو ذلك فعباد الكواكب والأصنام ونحوهم من أهل الشرك يجري لهم مثل هذا كما قد تواتر ذلك عمن مضى من المشركين وعن المشركين في هذا الزمان . فلولا ذلك ما عبدت الأصنام ونحوها قال الخليل إبراهيم عليه السلام:

﴿ وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ {إبراهيم: ٣٥ - ٣٦ }، ويقال : إن أول ما ظهر الشرك في أرض مكة بعد إبراهيم الخليل من جهة " عمرو بن لحي الخزاعي " الذي رآه النبي صلى الله عليه وآله وسلم يجر أمعاءه في النار وهو أول من سيب السوائب وغير دين إبراهيم قالوا : إنه ورد الشام فوجد فيها أصناما بالبلقاء يزعمون أنهم ينتفعون بها في جلب منافعهم ودفع مضارهم فنقلها إلى مكة وسن للعرب الشرك وعبادة الأصنام"١ .

وعلى ذلك فقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية تحريم التوسل بأصحاب القبور، وأوضح ان ذلك من قبيل فعل النصارى، وأثبت رحمه الله أن ذلك ما اتفق عليه أهل السنة، واستشهد على ذلك بالكثير من الآثار المروية عن السلف، والثابتة من الكتاب والسنة.

التبرك بالقبور:

قال –رحمه الله- :"وأما التمسح بالقبر – أي قبر كان – وتقبيله، وتمريغ الخد عليه فمنهي عنه باتفاق المسلمين، ولو كان ذلك من قبور الأنبياء، ولم يفعل هذا أحد من سلف الأمة وأئمتها، بل هذا من الشرك، قال الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا – وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا﴾ [نوح: ٢٣ - ٢٤] وقد تقدم أن هؤلاء أسماء قوم صالحين كانوا من قوم نوح، وأنهم عكفوا على قبورهم مدة، ثم طال عليهم الأمد فصوروا تماثيلهم؛ لاسيما إذا اقترن بذلك دعاء الميت والاستغاثة به. وقد تقدم ذكر ذلك، وبيان ما فيه من الشرك، وبينا الفرق بين " الزيارة البدعية " التي تشبه أهلها بالنصارى و"الزيارة الشرعية ".

وأما وضع الرأس عند الكبراء من الشيوخ وغيرهم، أو تقبيل الأرض ونحو ذلك، فإنه مما لا نزاع فيه بين الأئمة في النهي عنه، بل مجرد الانحناء بالظهر لغير الله عز وجل منهي عنه. ففي المسند وغيره "أن معاذ بن جبل رضي الله عنه لما رجع من الشام سجد للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فقال: ما هذا يا معاذ؟ فقال: يا رسول الله ! رأيتهم في الشام يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، ويذكرون ذلك عن أنبيائهم، فقال: كذبوا يا

١) مجموع الفتاوى، ٢٧/٨٨- ٩١.

معاذ! لو كنت آمرا أحد يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها، يا معاذ! أرأيت إن مررت بقبري أكنت ساجدا؟ قال: " لا " - قال: لا تفعل هذا)١ ، أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم"٢.

وبهذا يوضح ابن تيمية أنه لا يجوز لمسلم أن يتبرك بالقبور أو يتمسح بها، ويؤكد أنه لم يفعل أحد من السلف ذلك لمنافاته مع كمال التوحيد وإفراد الله تعالى بالعبادة، ثم تحدث شيخ الإسلام عن تعظيم الأولياء والصالحين، مؤكدا أن ذلك من الأمور المنهي عنها، فيقول:

"بل قد ثبت في الصحيح من حديث جابر: (أنه صلى الله عليه وآله وسلم صلى بأصحابه قاعدا من مرض كان به، فصلوا قياما، فأمرهم بالجلوس، وقال: لا تعظموني كما تعظم الأعاجم بعضها بعضا وقال: من سره أن يتمثل له الناس قياما فليتبوأ مقعده من النار)٣ ، فإذا كان قد نهاهم مع قعوده - وإن كانوا قاموا للصلاة - حتى لا يتشبهوا بمن يقومون لعظمائهم، وبين أن من سره القيام له كان من أهل النار فكيف بما فيه من السجود له، ومن وضع الرأس، وتقبيل الأيادي، وقد كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه - وهو خليفة الله على الأرض - قد وكل أعوانا يمنعون الداخل من تقبيل الأرض ويؤدبهم إذا قبل أحد الأرض.

فالعبادة كلها لله وحده لا شريك له ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥]، وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: (إن الله يرضى لكم ثلاثا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا . وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم)٤ ، وإخلاص الدين لله هو أصل العبادة"٥ .

وبهذا فإن شيخ الإسلام- رحمه الله قد اتفق مع منهج السلف في تحريم التبرك بالقبور، مؤكدا ان ذلك من أمور الشرك المنهي عنها.

التبرك بأصحاب القبور:

تؤكد الآثار والنصوص الشرعية على أن أصحاب القبور فقراء انقطعت أعمالهم بما يتفضل به أهل الدنيا عليهم، أو أعمالهم الصالحة التي تركوها في الدنيا، وبالتالي فإن تبرك أهل الدنيا بهم ليس من أعمال العقلاء ومن ذلك ما

١) سنن أبوداود، كتاب النكاح، باب في حق الزوج على المرأة، حديث رقم: ٢١٤٠.

٢) مجموع الفتاوي، ٩٢/٢٧.

٣) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب التمام المأموم بالإمام، حديث برقم (٨٤) .

٤) أخرجه مسلم، كتاب الأقضية، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة، برقم (١٠) .

٥) مجموع الفتاوي، ٩٣/٢٧- ٩٥.

رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة إلا من صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له".

وهذا النص وغيره من الأمور التي اعتمد عليها شيخ الإسلام رحمه الله في هذه المسألة.

وعن التبرك بأصحاب القبور وغيرهم ، قال شيخ الإسلام: "وأما قول القائل : انقضت حاجتي ببركة الله وبركتك . فمنكر من القول ؛ فإنه لا يقرن بالله في مثل هذا غيره، حتى إن قائلا قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: (ما شاء الله وشئت فقال: أجعلتني لله ندا؟؛ بل ما شاء الله وحده)١ وقال لأصحابه : (لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد)٢ وفي الحديث أن بعض المسلمين رأى قائلا يقول : نعم القوم أنتم لولا أنكم تنددون . أي تجعلون لله ندا . يعني تقولون : ما شاء الله وشاء محمد . فنهاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن ذلك وفي الصحيح عن زيد بن خالد قال : (صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلاة الفجر بالحديبية في إثر سماء من الليل فقال : أتدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم قال : قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر . فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب)٣ . والأسباب التي جعلها الله أسبابا لا تجعل مع الله شركاء وأندادا وأعوانا "٤.

ويوضح- رحمه الله- أن التبرك باصحاب القبور نوع من الشرك إذ يجعل العبد صاحب القبر ندا لله -تعالى- في تحقيق الحاجات وإجابة الدعوات، وإنما هذه من الأمور التي اختص الله بها نفسه وليس لأحد من عباده أن يدعي أن هناك أحدا من خلقه يمتلك القدرة على ذلك، وهي من أمور الشرك المنهي عنها.

ثم يقول:

"وقول القائل : ببركة الشيخ قد يعني بها دعاءه . وأسرع الدعاء إجابة دعاء غائب لغائب . وقد يعني بها بركة ما أمره به وعلمه من الخير . وقد يعني بها بركة معاونته له على الحق وموالاته في الدين ونحو ذلك . وهذه كلها معان صحيحة . وقد يعني بها دعاءه للميت والغائب ؛ إذ استقلال الشيخ بذلك التأثير أو فعله لما هو عاجز عنه أو غير قادر عليه أو غير قاصد له : متابعته أو مطاوعته على ذلك من البدع المنكرات ونحو هذه المعاني

---

١) المشكل، للطحاوي ٣٥٧/١.

٢) سنن النسائي، ٦/٧، و أحمد، ٣٧٢/٦، صححه الألباني في الصحيحة برقم: ١٦، ١٣٧.

٣) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم، برقم (٨٤٦) ، ومسلم، كتاب الإيمان، باب كفر من قال: مطرنا بالنوء، حديث رقم: ١٢٥.

٤) مجموع الفتاوى، ٩٥/٢٧.

الباطلة. والذي لا ريب فيه : أن العمل بطاعة الله تعالى ودعاء المؤمنين بعضهم لبعض ونحو ذلك : هو نافع في الدنيا والآخرة وذلك بفضل الله ورحمته"[١] .

وخلاصة القول: أن شيخ الإسلام ابن تيمية قد اتفق مع منهج السلف في أن التشديد على حرمة التوسل باصحاب القبور والتوسل بالأموات، لأن ذلك من الأمور التي تنافي كمال التوحيد، لأن التبرك بهم لا يكون إلا اعتقادا بقدرتهم الذاتية على تحقيق النفع والضرر، وهي من الأمور التي اختصها الله تعالى بنفسه.

---

١) مجموع الفتاوى، ٢٧/٩٦.

الفصل الثالث

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في توحيد الأسماء والصفات، وفيه خمسة مباحث

المبحث الأول:

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الصفات الذاتية لله تعالى، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الصفات الذاتية لله تعالى.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الصفات الذاتية لله تعالى.

المبحث الثاني:

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في صفة العلو والاستواء وما يتعلق بهما، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في صفة العلو والاستواء.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في صفة العلو والاستواء.

المبحث الثالث:

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في صفة الكلام لله تعالى، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في صفة الكلام لله تعالى.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في صفة الكلام لله تعالى.

المبحث الرابع:

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في رؤية الله تعالى، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في رؤية ربنا تبارك وتعالى.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في رؤية ربنا تبارك وتعالى.

المبحث الخامس:

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الصفات الاختيارية لله تعالى، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الصفات الاختيارية لله تعالى.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الصفات الاختيارية لله تعالى.

مدخل

من المهم قبل الدخول في تفاصيل هذا المبحث التنبيه على أن تقسيم صفات الله تعالى إلى ذاتية وفعلية أو اختيارية، جاء بناء على استقراء وتتبع النصوص الشرعية الواردة في الكتاب والسنة، و لم يثبت ذلك نصا عن النبي صلى الله عليه وسلم، أو صحابته رضوان الله عليهم.

وصفات الله تعالى هي نعوت الكمال التي يستحقها سبحانه، وقد استقر في منهج السلف، ومنهج شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، أن تكون بما وصف الله بها نفسه في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، كما استقروا أيضا على أن يكون كلام العرب، هو الوسيلة لفهم ما بينه الله من هذه الصفات، بعيدا عن التأويلات، والتشبيهات التي لا أصل لها في اللغة.

وقال شيخ الإسلام- رحمه الله-: "الوصف هو الإظهار والبيان للبصر أو السمع، كما يقول الفقهاء: ثوب يصف البشرة أو لا يصف البشرة، وقال تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ [الأنعام:١٣٩]، وقال: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات:١٨٠]، وقال صلى الله عليه وسلم "لا تَنْعَت المرأةُ المرأةَ لزوجها، حتى كأنه ينظر إليها"١ والنعت الوصف، ومثل هذا كثير. والصفة: مصدر وصفت الشيء أصفه وصفًا وصفة، مثل وعد وعدًا وعدة، ووزن وزنًا وزنة، وهم يطلقون اسم المصدر على المفعول، كما يسمون المخلوق خلقًا، ويقولون: درهم ضرب الأمير، فإذا وصف الموصوف، بأنه وسع كل شيء رحمة وعلمًا، سمي المعنى الذي وصف به بهذا الكلام صفة. فيقال للرحمة والعلم والقدرة: صفة، بهذا الاعتبار، هذا حقيقة الأمر"٢.

ثم قال عن لفظ (الذات): "وأما لفظ الذات فإنها في اللغة تأنيث ذو، وهذا اللفظ يستعمل مضافًا إلى أسماء الأجناس، يتوصلون به إلى الوصف بذلك. فيقال: شخص ذو علم وذو مال وشرف، ويعني: حقيقته، أو عين أو نفس ذات علم وقدرة وسلطان ونحو ذلك"٣.

ويوضح شيخ الإسلام أن استخدام لفظ الذات على نفس الله ليس من منهج السلف وإنما هو من ابتداع المعتزلة، وأنه قد ورد في الكتاب والسنة بمعنى الخصلة والجهة.

قال-رحمه الله-: " وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم قال " لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، كلهن في ذات الله"٤ وعن أبي ذَرّ: كلنا أحمق في ذات الله. وفي قول بعضهم: أصبنا في ذات الله. والمعنى: في

---

١) أخرجه البخاري كتاب النكاح، باب لا تباشر المرأة المرأة فتنعتها لزوجها، برقم (٤٩٤٢) .

٢) مجموع الفتاوى، ٣٤١/٦.

٣) المرجع السابق، ٣٤٢/٦

٤) أخرجه البخاري، في كتاب أحاديث الأنبياء، برقم(٣١٧٩).

جهة الله وناحيته، أي: لأجل الله ولابتغاء وجهه، ليس المراد بذلك النفس ونحوه في القرآن﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾[الأنفال:١]، وقوله: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [آل عمران:١١٩]، أي: الخصلة والجهة التي هي صاحبة بينكم، وعليم بالخواطر ونحوها، التي هي صاحبة الصدور. فاسم الذات في كلام النبي صلى الله عليه وسلم، والصحابة، والعربية المحضة: بهذا المعنى. ثم أطلقه المتكلمون وغيرهم على (النفس) بالاعتبار الذي تقدم، فإنها صاحبة الصفات. فإذا قالوا: الذات، فقد قالوا: التي لها الصفات"١.

باب الأسماء والصفات من أعظم أبواب الدين، فبه يتعرف العبد على معبوده، وقد أفرد شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- لهذا الباب من مؤلفاته القدر الكبير، وتميز به حتى أعده الكثيرون أول من اهتم بذلك في تقسيم التوحيد.

والحقيقة فإن المتأمل لمؤلفات الشيخ- رحمه الله تعالى- يجد أنه لم يخترع شيئا في هذا الباب من عنده، بل تركزت جهوده في الغوص في تراث سلف الأمة، يستخرج منه كل ثمين، ويستقي من معينه ما تطيب له نفس الأبرار وذوي العقول الأخيار، حول أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله. ويرده إلى مرجعه الأول، الكتاب والسنة كما فهمه الصحابة والتابعون من الشرع الحكيم، من غير تشبيه أو تعطيل أو تأويل أو تقديم لرأي على شرع الله عز وجل.

---

١) مجموع الفتاوي، ٣٤٣/٦.

المبحث الأول

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الصفات الذاتية لله تعالى، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الصفات الذاتية لله تعالى.

المطلب الثاني: أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية في الصفات الذاتية لله تعالى.

المطلب الأول

الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الصفات الذاتية لله تعالى.

يتجلى منهج السلف في صفات الله تعالى أنهم يثبتون ما أثبته لنفسه، وينفون ما نفاه عن نفسه في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ويتلقونه بالقبول والتسليم.

ومن الآثار الواردة في ذلك ما رواه اللالكائي عن أفلح بن محمد قال: "قلت لابن المبارك: يا أبا عبدالرحمن، إني أكره الصفة- يعني الكلام في صفة الرب عز وجل-، فقال له ابن المبارك، وأنا أشد الناس كراهة لذلك، ولكن إذا نطق الكتاب بشيء؛ قلنا به، وإذا جاءت الآثار بشيء جسرنا عليه"١.

عن يونس بن عبد الأعلى قال: "سمعت الشافعي يقول وقد سئل عن صفات الله وما يؤمن به فقال: "لله تبارك وتعالى أسماء وصفات، جاء بها كتابه وأخبر بها نبيه صلى الله عليه وسلم أمته، لا يسمع أحد من خلق الله عز وجل قامت لديه الحجة أن القرآن نزل بها، وصح عنده بقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه العدل خلافه، فإن خالف ذلك بعد ثبوت تالحجة عليه فهو كافر بالله عز وجل، فأما قبل ثبوت الحجة عليه من جهة الخبر، فمعذور بالجهل؛ لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل ولا بالروية والفكر،ولا يكفر بالجهل بها أحد إلا بعد انتهاء الخبر إليه بها. "٢

وتثبت هذه الصفات وينفى عنها التشبيه كما نفى التشبيه عن نفسه فقال: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]

وقال الإمام أحمد رحمه الله: " لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم؛ لا يُتجاوز القرآن والحديث"٣.

وقد سار شيخ الإسلام رحمه الله تعالى على هذا المنهج يثبت ما أثبته الرب تبارك وتعالى لنفسه من الصفات، في الكتاب والسنة، ويمسك عما أمسك عنه، وقد أكد أن هذه الطريق هي طريق السابقين الأولين.

قال- رحمه الله تعالى: "ثم القول الشامل في جميع هذا الباب: أن يوصف الله بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، وبما وصفه به السابقون الأولون، لا يتجاوز القرآن والحديث"٤.

---

١) شرح اعتقاد أهل السنة، اللالكائي، ٧٣٧.

٢) انظر: إثبات صفة العلو، ابن قدامة، ١٢٤.

٣) المسائل المروية عن الإمام أحمد، ١/ ٢٧٧ــ ٢٧٨

٤) الفتوى الحموية، ٢٧١.

إذن فهناك اتفاق بين السلف على أنه لا يجوز وصف الله الله تعالى إلا بما وصف به نفسه في كتابه، وما صح عن نبيه صلى الله عليه وسلم، وأنه لا يجوز في ذلك الاعتماد على الآراء أو المقاييس.

وطريقة السلف في صفات الله تعالى هي أنهم يمررونها كما جاءت في الكتاب والسنة بغير تكييف أو تعطيل أو تأويل، ومن ذلك قول الأوزاعي- رحمه الله تعالى- : "كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله تعالى فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته جل وعلا".

وقال الوليد بن مسلم: "سألت الأوزاعي ومالك بن أنس، وسفيان الثوري والليث بن سعد عن هذه الأخبار التي فيها الصفات، فقالوا: أمروها كما جاءت"١.

وقال الحميدي – رحمه الله-: "أصول السنة عندنا.... وما نطق به القرآن والحديث والحديث مثل:

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ (المائدة: ٦٤)، ومثل قوله: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِه﴾ (الزمر:٦٧)، وما أشبهه من القرآن الكريم والحديث، لا نزيد فيه، ولا نفسره، ونقف على ما وقف عليه القرآن والسُّنَّة، ونقول: ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (طه:٥)، ومن زعم غير هذا، فهو مبطل جهمي.

وقال: وذكر حديث: ﴿ إن الله خلق آدم ﴾، يعني: بيديه، فقال: لا نقول غير هذا على التسليم والرضا بما جاء به القرآن والحديص، لا نستوحشن أن نقول كما قال القرآن الكريم"٢.

ويتفق معهم شيح الإسلام ابن تيمية في هذا المنهج ويؤكد أهمية الاعتماد على اللغة وألفاظ العربية لفهم مراد الله تعالى ، فيقول:

"وكذلك يُحمل نهي من تقدم من الأئمة عن تفسير نصوص الصفات، أي: بتفسيرات ةتأويلات الجهمية، وسيأتي تصريحهم بأن نصوص الصفات معاني معلومة تفسر بها النصوص على مقتضى لغة العرب التي خاطبنا الله تعالى بها، لا أنها مجهولة المعنى، كما تقول المفوضة".

ومن هنا يتبين أن المنهج الذي ارتكن إليه السلف وشيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى- في مسألة صفات الرب جل وعلا ترتكز لما يلي:

أولا: أن صفات الله تعالى توقيفية، فلا يجوز القول فيها بغير ما أخبر الله بها عن نفسه في كتابه وسنة نبيه.

---

١) الشريعة للآجري، ٧٢٠.

٢) التوحيد، ابن منده، ٩٠٢.

ثانيا: السلف وشيخ الإسلام يمررون صفات الله تعالى كما هي في الكتاب والسُنة بغير تأويل أو تعطيل أو تفويض.

ثالثا: مثلما أوضح شيخ الإسلام، فإن تفسير صفات الله تعالى يكونعلى مقتضي حروف العربية، فهي ليست مجهولة المعنى لكي يتم تفويض العلم بها إلى الخالق سبحانه.

آثار السلف في بعض صفات الله:

صفة المعية:

وتعني إثبات أن علم الله تعالى في كل مكان، فلا يخلو منه شيء، وهو ما اتفق عليه السلف، فالله تعالى مستو على عرشه، يحيط علمه بكل شيء.

قال عبد الله بن الإمام أحمد- رحمهما الله-: حدثني أبي رحمه الله، حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا عبد الله بن نافع، قال: كان مالك بن أنس يقول:" الله في السماء وعلمه في كل مكان لا يخلو منه شيء "١.

وفي هذا إثبات لصفة علو الذات لله تعالى، كما فيه من إثبات أن علم الله في كل مكان، وليس كما زعم أصحاب وحدة الوجود والحلول والاتحاد من الفرق المنحرفة التي تقول بأن الله -تعالى عما يصفون- في كل مكان. وقد فصل ذلك اللالكائي- رحمه الله تعالى - فقال:

"ولله معيتان: معية عامة، ومعية خاصة، فالمعية العامة هي التي تشمل المؤمن والكافر وكل الخلائق، وهي الإحاطة بالعلم، التي قال الله فيها: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد:٤]، بمعنى : أن أي نفس تتنفسه فالله جل وعلا يعلم به، فهو يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء.

ومعية خاصة، هذه المعية الخاصة للرسل وللمؤمنين، وهي معية النصرة والتأييد، قال الله جل وعلا لموسى وهارون: ﴿ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴾ [طه:٤٣]، فلما خافا منه وخشيا على أنفسهما قال الله تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه:٤٦] أي: معكما بالنصرة والتأييد والحفظ والرعاية"٢.

صفة الوجه:

ومن الصفات الذاتية لله تعالى صفة الوجه، وقد وردت الصفة مثبتة في القرآن الكريم، وهو ما اتفق عليه السلف لوضوح ذلك.

---

١) مسائل أحمد من رواية أبي داود ٢٦٣

٢) شرح اعتقاد أهل السنة، اللالكائي،٣/٣

قال الإمام الحافظ أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن منده: " باب قول الله جل وعز : ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾ ، وقال الله عز وجل : ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ ، وذكر ما ثبت عن النبي مما يدل على حقيقة ذلك"١.

وقال الدارمي- رحمه الله في الرد على المريسي: " نقول كما قال الله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦-٢٧] أنه عني به الوجه الذي هو الوجه عند المؤمنين، لا الأعمال الصالحة، ولا القبلة، ولا ما حكيته من الخرافات، كاللاعب بوجه الله عز وجل، وكذلك قوله: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨] يقول: كل وجه هالك إلا وجه نفسه الذي هو أحسن الوجوه، وأجمل الودوه، وأنور الوجوه، الموصوف بذي الجلال والإكرام"٢.

إذن فقد أثبت السلف صفة الوجه لله تعالى، وأقروا بأنها من الصفات الذاتية، واعتمدوا في ذلك على ما ورد في كتاب الله.

صفتا السمع والبصر:

ومن الصفات الذاتية أيضا صفتا السمع والبصر، وقد اتفق السلف أيضا على أن السبيل إلى إثباتها لا يكون إلا عن طريق السمع، لأن الله تعالى أعلم بصفاته فليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

والصفات الذاتية هي لازمة لذات الله تعالى لا تنفك عنها ولا تتعلق بمشيئته جل وعلا، ومنها السمع والبصر، وهي تختلف عن الصفات الفعلية التي جاءت في الكتاب والسنة فمثلا البصر صفة لازمة لله تعالى وبها جاءت نصوص الشرع، أما لفظ النظر فجاء مع أفعال الله كقوله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (آل عمران:٧٧).

وقول النبي صلى الله عليه وسلم الذي رواه أبو ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم .. الحديث)٣

وقد وردت صفتا السمع والبصر في القرآن والسنة، تارة مقترنتين، وتارة غير ذلك، ومن الآثار الواردة عن الصحابة رضوان الله عليه وسلم، ما رواه البخاري عن السيدة عائشة رضى الله عنها في آية المجادلة، قالت:

١) الرد على الجهمية، ابن منده، ٩٤.

٢) نقض الدارمي على المريسي، ٤٢٠.

٣) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم إسبال الإزار والمن بالعطية، حديث رقم: ١٠٦.

"الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات فأنزل الله تعالى على النبي صلى الله عليه وسلم قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها "١.

وكذا حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: " كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر فكنا إذا علونا كبرنا فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، ولكن تدعون سميعا بصيرا. ثم أتى علي وأنا أقول في نفسي لا حول ولا قوة إلا بالله. فقال: يا عبد الله بن قيس قل لا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كتر من كنوز الجنة أو قال: ألا أدلك على كلمة هي كتر من كنوز الجنة لا حول ولا قوة إلا بالله"٢.

وقال ابن تيمية- رحمه الله- : وقد دل الكتاب، والسنة، واتفاق سلف الأمة ودلائل العقل على أنه سميع بصير، والسمع والبصر لا يتعلق بالمعدوم، فإذا خلق الأشياء رآها سبحانه، وإذا دعاه عباده سمع دعاءهم وسمع نجواهم، كما قال تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة: ١] أي تشتكي إليه وهو يسمع التحاور – والتحاور تراجع الكلام – بينها وبين الرسول، قالت عائشة: "سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، لقد كانت المجادلة تشتكي إلى النبي –صلى الله عليه وسلم- في جانب البيت وإنه ليخفى علي بعض كلامها فأنزل الله: ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا﴾ [المجادلة: ١]. وقال تعالى لموسى وهارون: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ [طه: ٤٦] وقال: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف: ٨٠]"٣.

وقد روى اللالكائي من حديث أبي موسي إن النبي صلى الله حين سمع أصحابه يرفعون أصواتهم بالدعاء قال: عن أبي موسى قال: " كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة فجعلنا لا نصعد شرفا ولا نعلو شرفا ولا نهبط في واد إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير ، قال فدنا منا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا بصيرا٤".٥

١) أخرجه البخاري، باب وكان الله سميعا بصيرا، حديث رقم: ٦٩٥٢.
٢) أخرجه البخاري، كتاب الدعوات، باب الدعاء إذا علا عقبة، حديث رقم: ٦٠٢١.
٣) الرد على المنطقيين، ابن تيمية، ٤٦٥.
٤) أخرجه البخاري في كتاب القدر، باب لا حول ولا قوة إلا بالله، برقم (٦٢٣٦).
٥) شرح الاعتقاد، اللالكائي، تحقيق سيد عمران، ١/ ٢٥٩.

اليد واليمين

ومن الصفات الذاتية التي أثبتها السلف واتفق معهم ابن تيمية- رحمه الله في منهجه- صفتا اليد واليمين، ومن ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله يقبل الصدقة، ويأخذها بيمينه؛ فيُربيها لأحدكم كما يُربي أحدكم مهره..."[1].

وقال ابن تيمية في إثبات الصفات الذاتية لله كاليد والعين واليمين:

" قال شيخ الإسلام ابن تيمية: " القول في الصفات كالقول في الذات؛ فإن الله ليس كمثله شيء، لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فإذا كان له ذات حقيقةً لا تماثل الذوات، فالذات متصفة بصفات حقيقةً لا تماثل سائر الصفات"[2].

الخلاصة:

اتفق السلف على أن صفات الله تعالى، لا يمكن إثباتها إلا عن طريق السمع، وأنه لا سبيل إلى تأويل ما ورد في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، حول هذا الباب لأن الله تعالى ليس كمثله شيء، فما أثبته الشرع من صفات أثبته السلف.

واتفق معهم شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- كما فرقوا بين صفات الله الذاتية والفعلية. وأقروا أن صفات الله الذاتية هي اللازمة لذات الله ، ومنها الوجه واليدين والسمع والبصر والمعية والقدرة وغيرها.

---

١) سنن الترمذي كتاب الزكاة عن رسول الله صلى الله عليه، باب ما جاء في فضل الصدقة، حديث رقم: ٦٦٢.

٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ٢/٢٥.

المطلب الثاني

قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الصفات الذاتية لله تعالى

يقدم ابن تيمية شرحا وافيا للصفات المضافة إلى الله تعالى، ويبين أنها أنواع: منها ما يتعلق بذات الله، ومنها ما يتعلق بأفعاله، ومنها ما يتعلق بأحد مخلوقاته.

ويتفق شيخ الإسلام مع السلف في تقسيم صفات الله تعالى إلى صفات ذاتية وصفات فعلية، فيقر بأن الصفات الذاتية لله تعالى قديمة أزلية غير مخلوقة، لتعلقها بذات الله تعالى، ومنها الخلق والعلم والرزق والتدبير والقوة والقدرة وغيرها، ويسوق على ذلك الأدلة من الكتاب والسنة.

ومن الصفات الذاتية التي لا تتعلق بمشيئة الله تعالى: السمع والبصر والنظر، وقد أكد شيخ الإسلام أن هذه من صفات الكمال لله تعالى.

قال – رحمه الله-: " وكذلك السمع والبصر والنظر. قال الله تعالى: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ﴾[التوبة:١٠٥] هذا في حق المنافقين، وقال في حق التائبين﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وقوله[فَسَيَرَى ٱللَّهُ] دليل على أنه يراها بعد نزول هذه الآية الكريمة، والمنازع إما أن ينفي الرؤية، وإما أن يثبت رؤية قديمة أزلية.

ثم يوضح شيخ الإسلام أن صفات الله تعالى ليست كصفات المخلوقين، ولا يوصف بشيء منها، فقال:

"والله تعالى لا يوصف بشيء من مخلوقاته، بل صفاته قائمة بذاته، وهذا مطرد على أصول السلف وجمهور المسلمين من أهل السنة وغيرهم، ويقولون: إنَّ خلق الله للسماوات والأرض ليس هو نفس السماوات والأرض، بل الخلق غير المخلوق، لاسيما مذهب السلف والأئمة وأهل السنة الذين وافقوهم على إثبات صفات الله وأفعاله"١.

ومن الصفات الذاتية التي تناولها شيخ الإسلام صفتا السمع والبصر:

قال رحمه الله: "وأما كون السمع والبصر صفتين ذاتيتين فعليتين، فإن الأشاعرة لا ينازعون في كونهما ذاتيتين، وإنما الكلام معهم في كونهما فعليتين أيضاً، وهم لا ينفون وجود تعلق بين السمع والمسموعات، والبصر والمبصرات بعد حدوثها، فيقال لهم عندئذ، هذا التعلق إما أن يكون وجوداً، وإما أن يكون عدماً، فإن كان عدماً فلم يتجدد شيء، فإن العدم لا شيء، وإن كان وجوداً بطل قولهم إذ هو الفعل عينه الذي فروا من إثباته

١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية ، ١٢٦/٨.

بدعوى تتريه الله من حلول الحوادث به وأيضاً فحدوث تعلق هو نسبة وإضافة من غير حدوث ما يوجب ذلك ممتنع، فلا تحدث نسبة وإضافة إلا بحدوث أمر وجودي يقتضي ذلك"١.

وعلى ذلك فقد أوضح ابن تيمية- رحمه الله- أن السمع والبصر من الصفات الذاتية لله، وبين أن الأشاعرة لم تختلف في أهما من الصفات الذاتية لله تعالى، وفي الوقت نفسه استطاع أن يرد عليهم في القول بأن الصفتين لا يتعلقان بآلة للسمع والبصر، التي فروا من إثباتها بدعوى تتريه الله.

صفة الوجه:

وهي من الصفات الذاتية لله، الثابتة لله تعالى والأدلة السمعية على ذلك في الكتاب والسنة واضحة وكثيرة، وقد اتفق السلف على إثبات صفة الوجه لله تعالى ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

وعن قوله تعالى: ﴿ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَام ﴾ [الرحمن:٢٧]، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨] ، قال شيخ الإسلام: في هاتين الآيتين الكريمتين إثبات الوجه لله تعالى "وثبوت الوجه، والصورة لله قد جاء في نصوص كثيرة من الكتاب والسنة، واتفق على ذلك سلف الأمة وهو من الصفات الخبرية "السمعية التي لا تعلم إلا بالسمع"٢.

وبذلك فقد أكد شيخ الإسلام أن السلف قد اتفقوا على ثبوت صفة الوجه لله تعالى من غير تكييف أو تأويل أو تعطيل، وأن السبيل إلى ذلك هو السمع والاعتماد على الكتاب والسنة.

صفة الغنى:

من الصفات الذاتية لله تعالى الثابتة في الكتاب والسنة قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ﴾ [محمد: ٣٨]، قال الطبري: يقول – تعالى ذكره – : ولا حاجة لله أيها الناس إلى أموالكم ولا نفقاتكم ؛ لأنه الغني عن خلقه ، والخلق الفقراء إليه ، وأنتم من خلقه ، فأنتم الفقراء إليه"٣.

ولشيخ الإسلام قصيدة ذكرها ابن القيم- رحمه الله تعالى- قال عنها: وبعث إلي في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه:

والفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتٍ لاَزِمٌ أبَداً ... كَمَا أَنَّ الغِنى أبداً وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي"٤.

١) جامع الرسائل، ابن تيمية، ٢/١٨.

٢) درء تعارض العقل والنقل ١٦/٩.

٣) تفسير الطبري، سورة محمد، ١٩٣/٢٢

٤) مدارج السالكين، ابن القيم، ٥٢١/١.

الخلاصة:

وعلى هذا فإن شيخ الإسلام- رحمه الله تعالى- بين أن صفات الله تعالى لا يمكن الوصول إليها إلا بما أخبر الله به عن نفسه في كتابه أو على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم.

كما اتفق مع منهج السلف على تقسيم الصفات إلى: ذاتية، لازمة لذات الله غير مباينة عنه، وصفات فعلية كالاستواء والنزول وغيرها.

كما أقر منهج السلف في أن الصحابة والقرون الفاضلة هم أعلم الناس بصفات الله لقربهم من الوحي، وأبطل قول الخلف في هذه المسألة.

المبحث الثاني

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في صفة العلو والاستواء وما يتعلق بهما، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في صفة العلو والاستواء.

المطلب الثاني: أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية في صفة العلو والاستواء.

مدخل

العلو لغة:

قال ابن فارس: "العين واللام والحرف المعتل، ياء كان أو واوا أو ألفا، أصل واحد يدل على السمو والإرتفاع، لا يشذ عنه شيء. ومن ذلك العلاء والعلو. ويقولون: تعالى النهار، أي ارتفع ... لكل شيء يعلو: علا يعلو. فإن كان في الرفعة والشرف قيل علي يعلى. ومن قهر أمرا فقد اعتلاه واستعلى عليه وبه"[١].

العلو اصطلاحا:

علو الله من صفاته الذاتية، وينقسم إلى قسمين وهما: علو الذات ومعناه أن الله تعالى بذاته فوق جميع خلقه، وعلو الصفات معناه، أن الله تعالي له من صفات الكمال أعلاها وأكملها وأجلها، وهما ما دل عليهما الكتاب والسنة وما أجمع عليه سلف الأمة، ومن روي عن الأوزاعي: كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما جاءت به السنة من الصفات"[٢].

وبهذا فإن مفهوم العلو يدور حول الارتفاع والسمو، ارتفاع المكانة والمكان، وهو من الصفات الذاتية لله تعالى، التي لا يجوز فيها التأويل.

ويفرق العلماء بين العلو والاستواء، فالعلو صفة ذات لله تعالى، والاستواء من صفات الأفعال.

الاستواء لغة:

تأثر كثير من اللغويين بمنهج المتكلمين، في تحديد معنى الاستواء، وبعضهم زاد عليها معنى الاستيلاء، لكي يوافقهم فيما ذهبوا إليه، في تحديد مفهوم صفة الاستواء لله تعالى، ورغم ذلك فقد تمسك الكثيرون بالمعنى اللغوي للكلمة دون تحريف أو تأويل لكلام العرب حولها.

قال الزجاج: قال قوم في قوله عز وجل: (ثم استوى إلى السَّماء) عَمَدَ وقَصَد إلى السماء، كما تقول فرغ الأمير من بلد كذا وكذا، ثم استوى إلى بلد كذا وكذا، معناه: قصد بالاستواء إليه"[٣].

---

١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/١١٣-١١٤.

٢) اجتماع الجيوش الإسلامية، ٤٣، وانظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ٦/٣٩٤.

٣) تهذيب اللغة، الأزهري، ٤/٣٤٠.

وعلى ذلك فالاستواء في كلام العرب على المعنى الصحيح يدل على الصعود والعلو والإقبال ونحو ذلك، وليس في كلام العرب ما يدل على أن الاستواء معناه الاستيلاء. إذ إن هذا التأويل " يوجب أنه عز وجل قبل خلق السماوات والأرض لم يكن مستوليا على العرش وهذا باطل"١.

الاستواء اصطلاحا:

لا يختلف مدلول الاستواء اصطلاحا في حق الله تعالى عن معناه اللغوي لدى السلف، فهو يدور لديهم حول العلو والارتفاع والاستقرار على العرش، استوى الله تعالى على عرشه استواء يليق به، ويخصه، لا يشبه استواء المخلوق. قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله –:

" أصل الاستواء على العرش: ثابت بالكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة وأئمة السنة، بل هو ثابت في كل كتاب أنزل، على كل نبي أرسل "٢ .

---

١) أصول الدين، البغدادي، ١١٢.

٢) مجموع الفتاوى، ٢ / ١٨٨.

المطلب الأول

الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في صفة العلو والاستواء

نتاول في هذا المطلب كيف فرق السلف بين مفهوم العلو والاستواء، وأن شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله قد اتفق معهم في هذا التفريق، كما اتفق معهم أيضا في إثبات الصفتين من الكتاب والسنة دونما تعطيل أو تأويل أو تحريف. ونتحدث عن الآثار الواردة عن السلف في هذا الباب .

قال شيخ الإسلام فيما نقله عن السلف في إثبات صفة العلو: "فإن من تأمل كلام السلف والأئمة، وجد أعلم الأمة عند الأمة كأبي بكر وعمر، وعثمان، وعلى، وابن مسعود ومعاذ بن جبل، وعبد اللّه بن سلام، وسلمان الفارسي، وأبي بن كعب، وأبي الدرداء، وعبد اللّه بن عباس، وعبد اللّه بن عمر، وعبد اللّه بن عمرو وأمثالهم، هم أعظم الخلق إثباتًا. وكذلك أفضل التابعين، مثل سعيد بن المسيب وأمثاله، والحسن البصري وأمثاله، وعلي ابن الحسين وأمثاله، وأصحاب ابن مسعود وأصحاب ابن عباس، وهم من أجل التابعين... لأن ذلك ثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، والسابقين، والتابعين لهم بإحسان بخلاف النفي، فإنه لا يوجد عنهم، ولا يمكن حمله عليه"١.

وبهذا فقد أكد شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- أن إثبات صفتي العلو والاستواء لله تعالى، هو مذهب الصحابة والتابعين وأن منهجه في القول بقول السلف في ذلك هو ثبوته بالنصوص الصحيحة من كتاب الله وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستحالة ثبوت النفي عنهم. كما أورد- رحمه الله تعالى- الكثير من أقوال السلف في هذه المسألة فقال:

"وفي سنن أبي داود: عن جبير بن مطعم قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابيّ فقال: يا رسول الله، جهدت الأنفس، وجاع العيال، وهلك المال، فادع الله لنا، فإنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، فسبح رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه وقال: «ويحك! أتدري ما الله؟ إن الله لا يُستشفع به على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، إن الله على عرشه، وإن عرشه على سمواته ، وأرضه لهكذا » وقال بأصابعه مثل القبة " ٢.

وفي هذه الرواية دليل على علو الله تعالى على عرشه، ثم ينتقل إلى ما ورد في صحيح مسلم في خطبة الوداع، وحديث الجارية فيقول:

١) مجموع الفتاوى، ٥/١٧٠

٢) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في الجهمية، ٤/٢٣٢، حديث رقم: ٤٧٢٦. ضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير برقم(٦١٥٠).

"وفي الصحيح عن جابر بن عبد الله، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خطب خطبة عظيمة يوم عرفات، في أعظم جمع حضره رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل يقول: «ألا هل بلغت؟» فيقولون: نعم. فيرفع إصبعه إلى السماء وينكبها إليهم ويقول: «اللهم اشهد» غير مرة١. وحديث الجارية لما سألها: «أين الله؟» قالت: في السماء. فأمر بعتقها »٢، وعلل ذلك بإيمانها. وأمثاله كثيرة"٣.

وبعد هذه الأدلة يتحدث شيخ الإسلام عن إجماع السلف على إثبات صفة العلو لله تعالى فيقول:

"وأما الذي يدل عليه من الإجماع: ففي الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كانت زينب تفتخر على أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، تقول: زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سمواته٤.

وقال: "روى عبد الله بن أحمد وغيره بأسانيد صحاح عن ابن المبارك، أنه قيل له: بم نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق سمواته على عرشه، بائن من خلقه، ولا نقول كما قالت الجهمية: إنه هاهنا في الأرض.

وبإسناد صحيح عن سليمان بن حرب الإمام سمعت حماد بن زيد وذكر الجهمية فقال: إنما يحاولون أن يقولوا: ليس في السماء شيء"٥.

ولما كانت نصوص الكتاب والسنة ناطقة بإثبات صفتي العلو والاستواء، مثل قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه:٥]:: وهو ما فهمه الصحابة والتابعون من بعدهم فقد ورد الكثير من الآثار حول ذلك، مثلما بين شيخ الإسلام- رحمه الله تعالى.

كما نقل أيضا قول أبي حاتم وابن خزيمة والأوزاعي والخلال والإمام أحمد فقال:" وروى ابن أبي حاتم عن سعيد بن عامر الضبعي إمام أهل البصرة علمًا ودينًا أنه ذكر عنده الجهمية فقال: هم أشرُّ قولًا من اليهود والنصارى، وقد اجتمع أهل الأديان مع المسلمين على أن الله تعالى على العرش، وقالوا هم: ليس على العرش شيء.

وقال محمد بن إسحاق بن خزيمة إمام الأئمة من لم يقل: إن الله فوق سمواته على عرشه، بائن من خلقه، وجب أن يستتاب، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، ثم ألقى على مزبلة، لئلا يتأذى به أهل القبلة ولا أهل الذمة.

---

١) أخرجه مسلم في كتاب الحج، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، برقم (١٢١٨) .

٢) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، برقم (٥٣٧).

٣) مجموع الفتاوى، ١٣٨/٥.

٤) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب وكان عرشه على الماء وهو رب العرش العظيم، برقم(٦٩٨٤).

٥) مجموع الفتاوى، ١٣٩/٥

وروى الإمام أحمد قال: إن شريح بن النعمان قال: سمعت عبد الله بن نافع الصائغ قال: سمعت مالك بن أنس يقول: الله في السماء، وعلمه في كل مكان، لا يخلو من علمه مكان."١.

وبهذا فإن السلف يرون أن نفي صفة العلو عن الله تعالى أشر قولا من اليهود والنصارى، وأنه يجب استتابة من قال بهذا، وإلا ضربت عنقه، كما نقل رواية الإمام أحمد عن أنس بأن الله في السماء وعلمه في كل مكان وهي من أهم القواعد التي اتفق عليها السلف في إثبات صفة العلو لله تعالى.

ومنهج ابن تيمية واضح في هذا لعدم ورود دليل من الشرع على النفي، وقد رأى أن سكوت السلف عن هذا كان مشهورا لهذا السبب في عصر التابعين فقال: "وحكى الأوزاعي أحد الأئمة الأربعة في عصر تابعي التابعين الذين هم مالك إمام أهل الحجاز، والأوزاعي إمام أهل الشام، والليث إمام أهل البصرة، والثوري إمام أهل العراق حكى شهرة القول في زمن التابعين بالإيمان بأن الله تعالى فوق العرش وبصفاته السمعية، وإنما قاله بعد ظهور جَهْم، المنكر لكون الله فوق عرشه النافي لصفاته، ليعرف الناس أن مذهب السلف خلافه.

وروى الخلال بأسانيد كلهم أئمة عن سفيان بن عيينة قال: سئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن قوله تعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه:٥]: كيف استوى؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، ومن الرسول البلاغ، وعلينا التصديق"٢.

يؤكد شيخ الإسلام أن منهج السلف هو الاعتماد على الكتاب والسنة، وأن إثبات صفة الاستواء لله تعالى لا مجال فيها لتأويل أو فهمها على المجاز ونحوه مما ذهب إليه الجهمية وغيرهم.

ثم يقول: "وجملة قولنا: بأنا نقر بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، وبما جاؤوا به من عند الله وبما رواه الثقات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا نرد من ذلك شيئا، وأن الله واحد لا إله إلا هو، فرد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وأن محمدًا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق، وأن الجنة حق، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور، وأن الله مستو على عرشه كما قال:

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، ونعود فيما اختلفنا فيه إلى كتاب ربنا وسنة نبينا وإجماع المسلمين. إلى أن قال: باب ذكر الاستواء على العرش إلى أن قال: فإن قال قائل: فما تقولون في الاستواء؟ قيل له: إن الله مستو على عرشه كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]"٣.

١) مجموع الفتاوى، ٥/١٣٩.

٢) المرجع السابق ، ٥/١٤٠.

٣) مجموع الفتاوى ، ٥/١٤٣.

وفي هذا النص الذي نقله شيخ الإسلام عن أبي الحسن الأشعري القول الفصل فيما ذهب إليه في إثبات صفة العلو لله تعالى، وهو ما يرد به على أصحاب فرقة الأشاعرة، التي تنتسب إليه في تأويل صفة العلو.

وخلاصة القول في الآثار المروية عن السلف في إثبات صفة العلو لله تعالى أن ما رواه شيخ الإسلام وحده فيه الكفاية لإثبات موافقة شيخ الإسلام- رحمه الله تعالى- للسلف في هذا الباب، وأنه لم يبتدع شيئا من عنده بل القول بعلو الله تعالى هو مذهب الصحابة والتابعين في هذه المسألة.

ويمكن أيضا تتبع ذلك فيما رواه أيضا شيخ الإسلام عن أئمة السلف في هذا الباب، الذي أكد فيه إجماع السلف على إثبات صفة الاستواء لله تعالى فقال: " السلف كلهم أنكروا على الجهمية النفاة، وقالوا بالإثبات وأفصحوا به، وكلامهم في الإثبات والإنكار على النفاة أكثر من أن يمكن إثباته في هذا المكان، وكلام الأئمة المشاهير مثل مالك، والثوري، والأوزاعي، وأبي حنيفة، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وعبد الرحمن بن مهدي، ووكِيع بن الجراح، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وأبي عبيد، وأئمة أصحاب مالك وأبي حنيفة، والشافعي وأحمد موجود كثير لا يحصيه أحد."[1]

أما الإمام اللالكائي- رحمه الله- فقد روى أيضا عن كثير من السلف إثبات صفة العلو لله تعالى، فقال:

" جاء رجل إلى مالك بن أنس ، فقال :يا أبا عبد الله ،﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، (كيف استوى؟) قال: فما رأيت (مالكا) وجد من شيء كموجدته من مقالته ، وعلاه الرحضاء ، يعني العرق ، قال: وأطرق القوم ، جعلوا ينتظرون ما يأتي منه فيه ، قال:

فسري عن مالك، فقال: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فإني أخاف أن تكون ضالا، وأمر به فأخرج"[2] .

وقد أقر الإمام مالك- رحمه الله- صفة الاستواء لله تعالى، كما أقر قاعدة أن الاستواء معلوم من النصوص، وأن الكيف مجهول وأن الإيمان بذلك واجب.

ثم ذكر اللالكائي- رحمه الله - أيضا أنه وجد ورقة بخط الإمام الدارقطني ، يثبت فيها الاستواء مؤكدا أن ذلك هو كلام العرب: وجدت بخط أبي الحسن الدارقطني رحمه الله ، عن إسحاق الهادي ، قال : سمعت أبا العباس ثعلبا يقول : " استوى : أقبل عليه وإن لم يكن معوجا. ﴿ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء ﴾ [فصلت:١١]، أقبل.

١) المرجع السابق، ١٧٩/٥-١٨٠.

٢) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، ٤٤٢/٣، رقم: ٦٦٤.

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ {الأعراف:٥٤} : أي : علا واستوى وجهه. اتصل واستوى القمر : امتلأ، واستوى زيد وعمرو: أي تشابها، واستوى فعلاهما وإن لم تتشابه شخوصهما، هذا الذي يعرف من كلام العرب"١.

أما الذهبي فقد روى عن الكثير من السلف القول بإثبات صفة الاستواء، ومنهم ما روي عن نفطويه٢ قال: " عن نفطويه قال: حدثنا داود بن علي، قال : كنا عند ابن الأعرابي فأتاه رجل، فقال: يا أبا عبد الله، ما معنى قوله تعالى : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه: ٥]، قال : هو على عرشه كما أخبر، فقال الرجل : ليس كذاك ، إنما معناه استولى .

فقال : اسكت ما يدريك ما هذا ، العرب لا تقول للرجل استولى . على الشيء حتى يكون له فيه مضاد ، فأيهما غلب ، قيل : استولى ، والله تعالى لا مضاد له ، وهو على عرشه كما أخبر ، ثم قال: والاستيلاء بعد المغالبة . قال النابغة :

ألا لمثلك أو من أنت سابقه.... سبق الجواد إذا استولى على الأمد"٣.

وفي هذه الرواية رد من ابن الأعرابي على من زعم بأن معنى الاستواء هو الاستيلاء، وتأكيد على أن ذلك الفهم ليس له وجود في كلام العرب.

كما كان السلف ينكرون أشد النكير على من يخالف هذا ومنه ما نقله عمرو بن النضر النيسابوري قال: سمعت يحيى بن يحيى يقول: كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال: يا أبا عبدالله: الرحمن على العرش استوى، فكيف استوى؟ قال: فأطرق مالك رأسه حتى علاه الرحضاء، ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعا، فأمر به أن يخرج"٤.

---

١) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، ٣/٤٤٤، رقم: ٦٦٨.

٢) الإمام الحافظ النحوي العلامة الأخباري أبو عبد الله إبراهيم بن محمد بن عرفة بن سليمان ، العتكي الأزدي الواسطي ، المشهور بنفطويه صاحب التصانيف.سكن بغداد ، وحدث عن : إسحاق بن وهب العلاف ، وشعيب بن أيوب الصريفيني ، ومحمد بن عبد الملك الدقيقي ، وأحمد بن عبد الجبار العطاردي ، وداود بن علي ، وعدة . وأخذ العربية عن محمد بن الجهم ، وثعلب والمبرد ، وتفقه على داود. حدث عنه : المعافى بن زكريا ، وأبو بكر بن شاذان ، وأبو عمر بن حيويه ، وأبو بكر بن المقرئ ، وآخرون . ولد سنة أربع وأربعين ومائتين. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، ١٥/١٧٦.

٣) العلو للعلي الغفار، حديث رقم: ٣٤٢.

٤) أخرجه الدارمي، في الرد على الجهمية، ١٠٤، واللاكائي، في شرح أصول الاعتقاد، ٦٦٤.

الخلاصة:

ومن هنا فقد تبين أن منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في إثبات العلو والاستواء لله تعالى، قد اعتمد في الأساس على ما ثبت في الكتاب والسنة، وأن موقف السلف من هذا كان واضحا جليا لا يحيد عن النقل الصحيح، وقد اعتمد الشيخ على ما ورد عن الصحابة والتابعين وتابعيهم من آثار وأقوال توافق المنقول.

فقد اتفق السلف على إثبات صفة الاستواء لله عز وجل و بالاعتماد على الكتاب والسنة ، وروى الكثير من الأئمة الإجماع على ذلك، وأكدوا أن الاستواء معلوم الكيف مجهول، فأمره موكول إلى الخالق جل في علاه، لأننا لا ندرك كيفيته فهو كما أخبر عن نفسه﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾(الشورى:١١)

المطلب الثاني

قول شيخ الإسلام ابن تيمية في صفة العلو والاستواء

اتفق شيخ الإسلام ابن تيمية مع منهج السلف في التفريق بين صفتي العلو والاستواء لله عز وجل، فقال: " الأصل أن علوه على المخلوقات، وصف لازم له كما أن عظمته وكبرياءه وقدرته كذلك، وأما " الاستواء " فهو فعل يفعله سبحانه وتعالى بمشيئته وقدرته ؛ ولهذا قال فيه﴿ ثُمَّ اسْتَوَى﴾، ولهذا كان الاستواء من الصفات السمعية المعلومة بالخبر"١.

وعلى ذلك فقد وضح شيخ الإسلام أن هناك فرقا بين العلو والاستواء، فالعلو صفة ذاتية لازمة لله تعالى، أما الاستواء فهي من الصفات الفعلية.

صفة العلو عند شيخ الإسلام:

اعتمد ابن تيمية على منهج السلف في أثبات صفة العلو لله تعالى من غير تأويل أو تعطيل أو تشبيه، وكان سبيله إلى ذلك الكتاب والسنة. قال- رحمه الله-:

"وجوب إثبات العلو للّه تعالى ونحوه، يتبين من وجوه: أحدها: أن يقال: إن القرآن والسنن المستفيضة المتواترة وغير المتواترة وكلام السابقين والتابعين، وسائر القرون الثلاثة مملوء بما فيه إثبات العلو للّه تعالى على عرشه بأنواع من الدلالات.

فتارة يخبر بعروج الأشياء وصعودها، وارتفاعها إليه، كقوله تعالى: ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١٥٨]، وقوله تعالى: ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ [آل عمران:٥٥] ، قال تعالى : ﴿ تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾ [المعارج:٤]، وقوله تعالى: ﴿ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ﴾[فاطر:١٠] ، وتارة يخبر بنزولها منه أو من عنده، كقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٞ مِّن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ﴾ [الأنعام:١١٤]، ﴿ قُلۡ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلۡقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ [النحل: ١٠٢]، ﴿ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [فصلت:١- ٢]، ﴿ تنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [الأحقاف: ١- ٢].

١) مجموع الفتاوى، ٥٤٢/٥.

وتارة يخبر بأنه العلي الأعلى، كقوله تعالى:﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ﴾ [الأعلى:١] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة:٢٥٥]،وتارة يخبر بأنه في السماء كقوله تعالى: ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُور أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاء أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ [الملك: ١٦-١٧]. فذكر السماء دون الأرض، ولم يعلق بذلك ألوهية أو غيرها "١ ، وكما ذُكر في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الزخرف: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٣].

وكذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم" ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء؟"٢، وقال للجارية"أين الله؟ قالت: في السماء. قال: أعتقها فإنها مؤمنة"٣ ، وتارة يجعل بعض الخلق عنده دون بعض، كقوله تعالى: ﴿ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩].

وهنا يعتمد شيخ الإسلام ابن تيمية على ما أخبر به رب العزة عن نفسه في كتابه الكريم، وأنه تعالى حدد أنه في السماء في أكثر من موضع، كما أخبر عن ذلك بعروج الأشياء وصعودها إليه، كما أخبر أنه العلي الأعلى، كما أثبت ذلك من كلام النبي صلى الله عليه وسلم.

ثم ينتقل لإثبات صفة العلو من زاوية أخرى وهي "العندية" فيقول:

"ويخبر عمن عنده بالطاعة ، كقوله:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴾ [الأعراف:٢٠٦]، فلو كان موجب (العندية) معنى عامًا، كدخولهم تحت قدرته ومشيئته وأمثال ذلك لكان كل مخلوق عنده، ولم يكن أحد مستكبرًا عن عبادته، بل مسبحًا له ساجدًا ، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر:٦٠]، وهو سبحانه وصف الملائكة بذلك ردًا على الكفار المستكبرين عن عبادته، وأمثال هذا في القرآن لا يحصى إلا بكلفة"٤.

وبهذا فقد أبطل شيخ الإسلام- رحمه الله- شبهة من قال إن العندية في القرآن تعني الدخول في المشيئة.

---

١) مجموع الفتاوى، ١٦٥/٥.

٢) أخرجه البخاري، في كتاب المغازي، باب بعث علي بن أبي طالب عليه السلام وخالد بن الوليد رضي الله عنه إلى اليمن قبل حجة الوداع ، برقم (٤٠٩٤).

٣) أخرجه مسلم، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته، برقم: (٥٣٧) .

٤) مجموع الفتاوى،١٠٥/٣

ويقول إن الأدلة على إثبات صفة العلو في السنة النبوية أكثر من أن تحصى،" وأما الأحاديث والآثار عن " الصحابة والتابعين " فلا يحصيها إلا الله تعالى"[1]

صفة الاستواء:

وعن صفة الاستواء لله تعالى، فقد اتفق أيضا شيخ الإسلام ابن تيمية مع منهج السلف في إثبات هذه الصفة ونقل الإجماع على ذلك، فقال: " أصل الاستواء على العرش: ثابت بالكتاب والسنة واتفاق سلف الأمة وأئمة السنة ، بل هو ثابت في كل كتاب أنزل على كل نبي أرسل"[2].

---

١) مجموع الفتاوى،٣/١٠٥.

٢) المرجع السابق ، ٢/١٨٨.

المبحث الثالث

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في صفة الكلام لله تعالى، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في صفة الكلام لله تعالى.

المطلب الثاني: أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية في صفة الكلام لله تعالى.

مدخل

الكلام من الصفات الثابتة لله تعالى، وقد ورد في ذلك الكثير من الأدلة الشرعية في الكتاب والسنة، ومنها ما جاء لفظا صريحا لا لبس فيه نحو قوله تعالى: ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ﴾ [النساء:١٦٤]، كما جاء بصيغة التحدي للكافرين المعاندين نحو قوله تعالى: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ هود:١٣، ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ {البقرة:٢٣} ، وقد اتفق السلف على ثبوت صفة الكلام لله تعالى، ومنهجهم في ذلك الصحيح المنقول من الكتاب والسنة، وكانت لهم ردود مفحمة حولها الجدل والتشغيب الذي أثاره الجهمية وأهل الاعتزال والمتكلمين، والمتفلسفة ونحوهم، من الذين قالوا إن كلام الله مخلوق، رغم ثبوت الصفة بالنصوص الشرعية الصحيحة المبينة، وهو ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة، ثم صار مصطلح الكلام علما على "علم الكلام" الذي خالف أصحابه الثابت من كلام الله تعالى، وسنة نبيه، ومنهج الصحابة والتابعين.

الكلام لغة:

يقول ابن فارس: "يدلُّ على نطقٍ مُفهِم، تقول: كلّمته أُكلّمه تكليماً؛ وهو كَلِيمي إذا كلّمك أو كلّمتَه"١.

وجاء في الصحاح: "الكلام اسم جنس يقع على القليل والكثير، والكلمة، أيضا القصيدة بطولها"٢.

الكلام اصطلاحا:

اختلف تحديد مفهوم الكلام بين السلف، والمتكلمين، فقد أثبت السلف صفة الكلام لله تعالى، فقالوا: " إن الله يتكلم بكلام حقيقي، متى شاء وكيف شاء، بما شاء، بحرف وصوت، لا يماثل أصوات المخلوقين"٣.

١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس، ١٣١/٥.

٢) الصحاح، للجوهري، ٢٠٢٣/٥.

٣) شرح الواسطية، لابن عثيمين ١/ ٤١٩.

المطلب الأول

الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في صفة الكلام لله تعالى

تعد صفة الكلام واحدة من أوائل المسائل التي وقع فيها النزاع بين السلف وأهل البدع من المتكلمين وأشهرها، وقد كانت من أبرز المحن التي اُبتلي بها أئمتهم وعلى رأسهم الإمام أحمد بن حنبل- رحمه الله تعالى، فقد أثبت السلف ما أثبته الله لنفسه من الصفات وبينها صفة الكلام، ولم يكن هناك خلاف بين الصحابة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم حول ثبوتها، ولم تكن مطروحة كغيرها من المسائل للنقاش في عهدهم، إلى أن جاء من بعدهم وأثاروها وصارت علما ورمزا لبعضهم، حتى كان الأمراء يمتحنون الناس بها كما حدث في عهد الإمام أحمد، وتناقل المتكلمون هذه المسألة إلى اليوم.

وما يهمنا هنا هو منهج شيخ الإسلام ابن تيمية وكيف اعتمد على الآثار الواردة عن السلف في هذه المسألة.

قال ابن الجوزي:" وقرأت على أبي الفضل محمد بن ناصر الحافظ عن أبي القسم عبد الرحمن بن أبي عبد الله بن منده عن أبيه، قال: إن الصحابة والتابعين وأئمة الأمصار، قرنًا بعد قرن إلى عصرنا هذا، أجمعوا على أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ومن قال غير ذلك كفر..."[1]

وقال: "ذكر ما انتهى إلينا من قول الصحابة في ذلك: أبو بكر الصديق، عمر بن الخطاب، عثمان بن عفان، علي بن أبي طالب، عبد الله بن مسعود، خباب بن الأرت، عبد الله بن عباس، عبد الله بن عمرو، عبد الله بن عمر، عمران بن حصين، أبو سعيد الخدري، عبادة بن الصامت، أبو هريرة، عكرمة بن أبي جهل، عائشة وأسماء ابنتا أبي بكر، والنجاشي أصحمة[2]، وأويس القرني، قالوا ذلك، ثم لا أعرف لهم من الصحابة مخالفًا في أن القرآن كلام الله عز وجل غير مخلوق"[3].

وبهذا يؤكد ابن الجوزي- رحمه الله- أن هناك إجماعا من الصحابة والتابعين على القول بأن كلام الله غير مخلوق، وأن من قال بغير ذلك فقد كفر.

أما الإمام أحمد- رحمه الله- وهو إمام المحنة- محنة خلق القرآن- فقد روى عن الكثير من الصحابة والتابعين القول بأن كلام الله غير مخلوق، كما ساق الأدلة على القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق من كتاب الله فقال

---

١) فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، ابن الجوزي، ١٥٩.

٢) النجاشي ،واسمه أصحمة ملك الحبشة . معدود في الصحابة رضي الله عنهم وكان ممن حسن إسلامه ولم يهاجر ، ولا له رؤية ، فهو تابعي من وجه ، صاحب من وجه ، وقد توفي في حياة النبي – صلى الله عليه وسلم – فصلى عليه بالناس صلاة الغائب ولم يثبت أنه صلى – صلى الله عليه وسلم – على غائب سواه ، وسبب ذلك أنه مات بين قوم نصارى ، ولم يكن عنده من يصلي عليه ؛ لأن الصحابة الذين كانوا مهاجرين عنده خرجوا من عنده مهاجرين إلى المدينة عام خيبر . انظر: سير أعلام النبلاء، ١/ ٤٣٠.

٣) المرجع السابق ص ١٦٠.

في رسالته إلى عبيد الله بن يحيى[1]:" وقد قال الله جل ثناؤه: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة:٦]. وقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤] ، وأخبر تبارك وتعالى بالخلق، ثم قال "والأمر"فأخبر أن الأمر غير الخلق. وقال تبارك وتعالى: ﴿ الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ [الرحمن:١-٤]، فأخبر تبارك وتعالى أن القرآن من علمه. وقال عز وجل : ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة:١٢٠]. وقال: ﴿ وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:١٤٥]. وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾ [الرعد:٣٧] ، فالقرآن من علم الله. وفي هذه الآيات دليل على أن الذي جاءه صلى الله عليه وسلم هو القرآن لقوله: ﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [البقرة:١٢٠]"[2].

فمن خلال ما سبق نلاحظ أن الإمام أحمد – رحمه الله تعالى- استشهد بعدد من آيات الله عز وجل ليؤكد من خلالها أن صفة الكلام لله تعالى ثابتة بالنصوص الشرعية، التي أخبر الله تعالى بها في كتابه الكريم، بما لا يدع مجالا للمتأولين، ولا فرصة للمحرفين.

كما أكد- رحمه الله- أن ذلك هو مذهب السلف من الصحابة والتابعين، فقال:

"وقد روي عن غير واحد ممن مضى من سلفنا أنهم كانوا يقولون: القرآن كلام الله ليس بمخلوق، وهو الذي أذهب إليه ولست بصاحب كلام، ولا أرى الكلام في شيء من هذا إلا ما كان في كتاب الله، أو في حديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أو عن أصحابه -رحمة الله عليهم-، أو عن التابعين، فأما غير ذلك فإن الكلام فيه غير محمود"[3].

١) عبيد الله بن يحيى، ابن كثير بن وسلاس : الفقيه ، الإمام المعمر أبو مروان الليثي ، مولاهم الأندلسي ، القرطبي ، مسند قرطبة . روى عن : والده الإمام يحيى " الموطأ " وتفقه به ، وارتحل للحج والتجارة ، فسمع من : أبي هشام الرفاعي ، ومحمد بن عبد الله بن البرقي ، وطائفة . وطال عمره ، وتنافسوا في الأخذ عنه ، وكان كبير القدر ، وافر الجلالة، توفي في عاشر رمضان ، سنة ثمان وتسعين ومائتين وصلى عليه ولده يحيى ، وكانت جنازته مشهودة، انظر: سير أعلام النبلاء، ١٣/ ٥٣٢- ٥٣٣.

٢) الآثار الواردة عن السلف في العقيدة، رسالة ماجيستير، أسعد فتحي الزعتري، ٢٧٣/١، السنة ، للإمام أحمد، ١/ ١٣٤.

٣) السنة، للإمام أحمد، ١٣٤/١

وقال الإمام اللالكائي: "صفة الكلام ثابتة لله عز وجل وهي ذاتية، أي: أن الأصل فيها: أنها ذاتية أزلية حادثة الأفراد، يعني: متجددة، فهي ثابتة من الأزل قبل أن يخلق الخلق"١.

وقال: "ما روي من إجماع الصحابة على أن القرآن غير مخلوق، ورد عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وعائشة أن القرآن كلام الله تكلم به وليس بمخلوق.

عن أبي بكر أنه راهن قريشاً على أن الروم ستغلب، فلما غلبت الروم قالوا: من أين أتيت بهذا؟ أمنك أم من صاحبك؟ قال: لا مني ولا من صاحبي، بل هو من كلام الله جل وعلا، ثم تلا عليهم: ﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ﴾[الروم: ١ - ٣].٢

أيضاً: عمر بن الخطاب رضي الله عنه سألوه عن القرآن فقال: هو كلام الله.

أما عثمان فقال: لو طهرت قلوبنا ما شبعنا من كلام الله، يعني: عثمان يعتقد أن القرآن كلام الله، ووجه الشاهد من كلامه قوله: من كلام الله، حيث أضاف الكلام إلى الله جل وعلا، وإذا أضيف الكلام إلى الله فهو إضافة صفة إلى موصوف.

وابن مسعود قال: من أراد أن يختبر حبه لله جل وعلا فلينظر حبه لكلام الله جل وعلا.

وعلي بن أبي طالب لما حاجوه في أمر التكفير قال: كلام الله ليس بخالق ولا مخلوق، بل هو كلام الله جل وعلا.

ولما كان ابن عباس يصلي على رجل في جنازة سمع رجلاً يقول: اللهم رب القرآن ارحم هذا الميت، فأخذه بعد الجنازة، وقال: القرآن ليس بمربوب، القرآن من الله جل وعلا منه بدأ وإليه يعود وهو منه؛ لأنه صفة من صفاته جل وعلا.

وعائشة قالت: برأني الله من فوق سبع سماوات تكلم الله فيّ، هكذا قالت، فأثبتت كلام الله جل وعلا.

وأيضاً التابعون وتابعو التابعين يقولون:" القرآن كلام الله، وليس بمخلوق"٣.

وهكذا أكد اللاكائي كغيره من السلف أن الصحابة لم يختلفوا في فهم صفة الكلام لله تعالى و لم يخطر ببالهم ما ذهب إليه الجهمية والمتكلمون من تحريف المعنى عما أراده الله تعالى، لتعطيل صفة الكلام كما فعلوا مع غيرها من الصفات.

الخلاصة

تبين مما سبق أن منهج السلف واضح في إثبات صفة الكلام لله تعالى، وأن معتمدهم في ذلك ما صح من المنقول في الكتاب والسنة، ولذلك فقد احتجوا بالنصوص الشرعية في إجماعهم على إثبات صفة الكلام لله تعالى، وأن الله متكلم أزلا كيفما شاء ووقتما شاء، و أن الكلام من صفات الكمال للمخلوقين، وما كان من صفات الكمال لغير الله فهو لله أولى، وقد استند السلف في ذلك إلى حجية النصوص الشرعية، والثابت من الكتاب والسنة، وهو مذهب الصحابة رضوان الله عليهم كأبي بكر وعمر، وهو المروي عن السيدة عائشة رضي الله عنهم أجمعين، كما اتفق التابعون على إثبات الصفة لله دون تأويل أو تحريف فالفعل معلوم والكيف مجهول.

المطلب الثاني

قول شيخ الإسلام ابن تيمية في صفة الكلام لله تعالى

اتفق شيخ الإسلام ابن تيمية مع منهج السلف في إثبات صفة الكلام لله تعالى، وأكد- رحمه الله- أن الإثبات هو مذهب الصحابة والتابعين وأئمة السلف.

قال شيخ الإسلام : " ومذهب سلف الأمة وأئمتها، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم، ما دل عليه الكتاب والسنة، وهو الذي يوافق الأدلة العقلية الصريحة ، أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، فهو المتكلم بالقرآن والتوراة والإنجيل وغير ذلك من كلامه، ليس ذلك مخلوقا منفصلا عنه، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته، فكلامه قائم بذاته، ليس مخلوقا بائنا عنه، وهو يتكلم بمشيئته وقدرته لم يقل أحد من سلف الأمة إن كلام الله مخلوق بائن عنه، ولا قال أحد منهم إن القرآن أو التوراة أو الإنجيل لازمة لذاته أزلا وأبدا، وهو لا يقدر أن يتكلم بمشيئته وقدرته، ولا قالوا إن نفس ندائه لموسى أو نفس الكلمة المعينة قديمة أزلية، بل قالوا لم يزل الله متكلما إذا شاء فكلامه قديم بمعنى أنه لم يزل متكلما إذا شاء "[١].

يوضح شيخ ابن تيمية- رحمه الله- أن السلف أجمعوا على إثبات صفة الكلام لله تعالى، وأن هذه الصفة من صفات الأفعال المرتبطة بمشيئة رب العزة، فهم لم يزل متكلما إذا شاء بالكيفية التي يعلمها.

وقال – رحمه الله-: "إن مذهب أهل السنة والحديث المتبعين للسلف من الصحابة والتابعين.. أن القرآن كلام الله غير مخلوق وأن للذين أحدثوا في الإسلام القول بأن القرآن مخلوق، هم الجعد بن درهم والجهم بن صفوان ومن اتبعه من المعتزلة وغيرهم من أصناف الجهمية، لم يقل هذا القول أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، فهذا القول هو القول المعروف عن أهل السنة والجماعة، هو القول بأن القرآن كلام الله غير مخلوق"[٢].

وبهذا فقد أوضح شيخ الإسلام أن مذهب الصحابة والتابعين هو أن القرآن كلام الله غير مخلوق وأن أول من أحدث هذه البدعة هو الجعد بن درهم[٣]، وأن القول بخلق القرآن لم يكن معروفا قبل ذلك.

---

١) مجموع الفتاوى، ١٢/٣٩

٢) المرجع السابق، ١٧/ ٧٦.

٣) الجعد بن درهم، مؤدب مروان الحمار هو أول من ابتدع بأن الله ما اتخذ إبراهيم خليلا ، ولا كلم موسى ، وأن ذلك لا يجوز على الله . قال المدائني : كان زنديقا . وقد قال له وهب : إني لأظنك من الهالكين ، لو لم يخبرنا الله أن له يدا ، وأن له عينا ما قلنا ذلك ، ثم لم يلبث الجعد أن صلب . انظر: سير أعلام النبلاء، ٥/ ٤٣٣.

ثم يوضح أن الله تعالى تكلم بالقرآن كما تكلم بغيره، وأن كلمات الله لا نهاية لها:" وكلمات الله لا نهاية لها، كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف:١٠٩]، والله سبحانه تكلم بالقرآن العربي، وبالتوراة العبرية، فالقرآن العربي كلام الله، كما قال تعالى:﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ إلى قوله ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل: ٩٨ ــ ١٠٣] فقد بين سبحانه أن القرآن الذي يبدل منه آية مكان آية نزله روح القدس وهو جبريل وهو الروح الأمين كما ذكر ذلك في موضع آخر من الله بالحق، وبين بعد ذلك أن من الكفار من قال: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ {النحل:١٠٣} كما قال بعض المشركين: يعلمه رجل بمكة أعجمي، فقال تعالى:﴿ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ ﴾ {النحل:١٠٣} أي الذي يضيفون إليه هذا التعليم أعجمي ﴿ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل:١٠٣]"١.

يوضح شيخ الإسلام أن القرآن نزل من عند الله تعالى بلسان عربي مبين، وأن جميع الخلق يعلمون علما يقينيا أنه تكلم به، وأنه سبحانه أثبت ذلك في كتابه وأرسل به رسله.

ويبين شيخ الإسلام – رحمه الله – أن كلام الله حقيقي وليس مجازيا، وليس إيحاء، مؤكدا أن الكلام يكون بحروف مسموعة، ويفرق بين الحالين لأن هذا ما دل عليه كتاب الله تعالى، فيقول رحمه الله:

"وقد فرق سبحانه بين إيحائه إلى غير موسى وبين تكليمه لموسى في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾ إلى قوله: ﴿ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء:١٣٦ــ ١٦٥] فرق سبحانه بين تكليمه لموسى وبين إيحائه لغيره، وأكد تكليمه لموسى بالمصدر، وقال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ إلى قوله ﴿ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ﴾ [البقرة:٢٥٣]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً ﴾ [الشورى:١٥] إلى آخر السورة. فقد بين سبحانه أنه لم يكن لبشر أن يكلمه الله إلا على أحد الأوجه الثلاثة؛ إما وحياً، وإما من وراء حجاب، وإما أن يرسل رسولا. فيوحي بإذنه ما يشاء، فجعل الوحي غير التكليم، والتكليم من وراء حجاب كان لموسى. وقد أخبر في غير موضع أنه ناداه كما قال: ﴿ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٢٥]، وقال: ﴿ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَٰطِىِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ﴾ [القصص:٣٠]. والنداء باتفاق أهل اللغة لا يكون إلا صوتاً مسموعاً، فهذا مما اتفق عليه سلف المسلمين وجمهورهم"٢.

وبهذا فقد تبين أن شيخ الإسلام لم ير حجة أقوى مما جاء في كتاب الله تعالى لإثبات صفة الكلام لله تعالى، يقطع بها الطريق أمام من ينفي صفة الكلام لله تعالى، مؤكدا أن ما نص عليه كتاب الله تعالى يدل دلالة واضحة،

١) مجموع الفتاوي، ١٢/٣٨

٢) المرجع السابق، ١٢/٤٠- ٤١.

لا لبس فيها على أن صفة الكلام المسموع ثابتة في حق رب العزة، مشيرا إلى أن صفة الوحي لا تأتي إلا على ثلاثة أوجه كما جاء في القرآن الكريم، وأن صفة الكلام ثابتة في المواضع الثلاثة.

وبين كيف اعتمد أيضا على منهج السلف في هذه المسألة، مشيرا إلى أن السلف عبروا عن ذلك بقولهم إن القرآن منه- تعالى- بدأ وهو الذي تكلم به فقال: " هذا معنى قول السلف: منه بدأ، قال أحمد بن حنبل رحمه الله : منه بدأ: أي هو المتكلم به، فإن الذين قالوا: إنه مخلوق، قالوا: خلقه في غيره، فبدا من ذلك المخلوق، فقال السلف: منه بدا، أي هو المتكلم به لم يخلقه في غيره فيكون كلاماً لذلك المحل الذي خلقه فيه؛ فإن الله تعالى إذا خلق صفة من الصفات في محل كانت الصفة صفة لذلك المحل و لم تكن صفة لرب العالمين؛ فإذا خلق طعما أو لوناً في محل كان ذلك المحل هو المتحرك المتلون به، وكذلك إذا خلق حياة أو إرادة أو قدرة أو علماً أو كلاماً في محل كان ذلك المحل هو المريد، القادر، العالم، المتكلم بذلك الكلام، و لم يكن ذلك المعنى المخلوق في ذلك المحل صفة لرب العالمين، وإنما يتصف الرب تعالى بما يقوم به من الصفات، لا بما يخلقه في غيره من المخلوقات، فهو الحي، العليم، القدير، السميع، البصير، الرحيم، المتكلم بالقرآن وغيره من الكلام، بحياته وعلمه وقدرته وكلامه القائم به، لا بما يخلقه في غيره من هذه المعاني.

ومن جعل كلامه مخلوقاً لزمه أن يقول المخلوق هو القائل لموسى: ﴿ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ﴾ [طه:١٤]، وهذا ممتنع، لا يجوز أن يكون هذا كلاماً إلا لرب العالمين، وإذا كان الله قد تكلم بالقرآن والتوراة وغير ذلك من الكتب بمعانيها وألفاظها المنتظمة من حروفها لم يكن شيء من ذلك مخلوقاً، بل كان ذلك كلاماً لرب العالمين"١.

إذن فهناك فرق بين ما يقوم في ذات الله من صفات، وبين ما يجعله الله من صفات لمخلوقاته، فإذا كان القرآن مخلوقا لزم من ذلك أن يكون المتكلم هو القرآن نفسه، وهذا مما لا يعقل، وقد نقل شيخ الإسلام، ما قاله الإمام أحمد- رحمهما الله تعالى- حول هذه المسألة٢ ، التي كانت من أشد الابتلاءات التي واجهها الإمام أحمد في حياته.

---

١) مجموع الفتاوى ،١٢/٤١.

٢) محنة خلق القرآن كانت في عهد الخليفة العباسي المأمون في عام ٢١٨ هجرى/٨٣٣ الذي فرض آراءه الاعتزالية والفلسفية على الأمة، فعمم في الأقطار الدعوة إلى خلق القرآن وطلب موافقة العلماء، ومناظرة المخالف وإجباره على الإقرار بذلك أمام ابن أبي دواد، وكان الإمام أحمد- رحمه الله- من أبرز الذين تصدوا لهذه المحنة، وقد ذكر ابن كثير أن الذين لم يجيبوا في الفتنة خمسة من العلماء، هم ابن حنبل و نعيم بن حماد ومحمد بن نوح والبويطي وأحمد بن نصر الخزاعي، ومات المأمون في نفس عام الفتنة ٢١٨هـــ وكان ابن حنبل من رهبته دعا ألا يلتقي بالمأمون فكانت إجابة ربه أن قبض المأمون، وتولى الخلافة المعتصم أخو المأمون الذي أكمل ما بدأه أخوه، فحبس ابن حنبل وقيده بالقيود ثمان وعشرين شهراً أو نيفاً وثلاثين، ثم عقد له مجلس مناظرة مع أحمد بن أبي دواد بحضرة المعتصم لثلاثة أيام أو أكثر يغلبهم في الحجة والمعتصم لين هش معه، فهيجوه وأغضبوه وكفروا أحمد فأمر بضرب

قال شيخ الإسلام: " وقد قيل للإمام أحمد بن حنبل: إن فلاناً يقول: لما خلق الله الأحرف سجدت له إلا الألف، فقالت: " لا أسجد حتى أومر " ، فقال: هذا كفر. فأنكر على من قال: إن الحروف مخلوقة؛ لأنه إذا كان جنس الحروف مخلوقاً لزم أن يكون القرآن العربي والتوراة العبرية وغير ذلك مخلوقاً، وهذا باطل مخالف لقول السلف والأئمة، مخالف للأدلة العقلية والسمعية، كما قد بسط في غير هذا الموضع"١.

وقد أثبت شيخ الإسلام- رحمه الله- برواية الإمام أحمد بطلان القول بأن حروف القرآن مخلوقة، وبين شناعة هذا القول وبعده عن العقل ومخالفته للأدلة الثابتة من الكتاب والسنة، كما بين مخالفته للرسالات السماوية في التوراة والإنجيل.

ثم يوضح شيخ الإسلام- رحمه الله تعالى- موقف السلف من صفة الكلام فيقول: "وأما السلف فقالوا: لم يزل الله متكلما إذا شاء، وأن الكلام صفة كمال، ومن يتكلم أكمل ممن لا يتكلم، كما أن من يعلم ويقدر، أكمل ممن لا يعلم ولا يقدر، ومن يتكلم بمشيئته وقدرته، أكمل ممن يكون الكلام لازما لذاته، ليس له عليه قدرة، ولا له فيه مشيئة، والكمال إنما يكون بالصفات القائمة بالموصوف لا بالأمور المباينة له، ولا يكون الموصوف متكلما عالما قادرا إلا بما يقوم به من الكلام والعلم والقدرة. وإذا كان كذلك فمن لم يزل موصوفا بصفات الكمال، أكمل ممن حدثت له بعد أن لم يكن متصفا بها، لو كان حدوثها ممكنا فكيف إذا كان ممتنعا؟ فتبين أن الرب لم يزل ولا يزال موصوفا بصفات الكمال منعوتا بنعوت الجلال، ومن أجلها الكلام. فلم يزل متكلما إذا شاء ولا يزال كذلك وهو يتكلم إذا شاء بالعربية كما تكلم بالقرآن العربي وما تكلم الله به فهو قائم به ليس مخلوقا منفصلا عنه فلا تكون الحروف التي هي مباني أسماء الله الحسنى وكتبه المترلة مخلوقة لأن الله تكلم بها"٢.

فهنا يبين شيخ الإسلام – رحمه الله – في هذه الفقرة موافقته لمنهج السلف من صفة الكلام لله تعالى، ويشير إلى أن السلف متفقون على أن الله تعالى مازال متكلما إذا شاء، وأن الكلام صفة كمال للمتكلم وما كان من صفات الكمال للمخلوق فالله تعالى أولى به، كما أن ذلك ما يوافق الكتاب والسنة وما جاءت به جميع الرسل.

- ضربوه رحمه الله تعالى في ٢٥/رمضان/٢٢١هـ ضُرِبَ قيل ثمانين سوطاً وقيل نيفاً وثلاثين ، أُغمي عليه خلالها مرات حتى فقد الوعي تماماً وكان سنه آنذاك سبع وخمسون عاماً، ندم المعتصم على ضربه لشيخ مسن فأمر بفك قيوده وعلاجه حتى طاب ورجع إلى بيته وبقي فيه إحدى عشرة سنة فيها مات المعتصم والواثق وتولى المتوكل ورُفِعَت المحنة، انظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر، ٥٨/٥، وتاريخ بغداد ٢٠٣/١٤، و الكامل في التاريخ، لابن الأثير،٦/ ١٢٥، سير أعلام النبلاء،١١/ ١٧٧.

١) مجموع الفتاوي، ٤١/١٢.

٢) مجموع الفتاوى، ٥٣/١٢-٥٤.

المبحث الرابع

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في رؤية ربنا تبارك وتعالى، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في رؤية ربنا تبارك وتعالى.

المطلب الثاني: أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية في رؤية ربنا تبارك وتعالى.

مدخل

بداية يفرق أهل العلم في قضية رؤية الله تعالى بين إمكان رؤية الله ووقوع الرؤية، كما يفرقون بين الرؤية في الدنيا وفي الآخرة، ويفرقون أيضا بين الرؤية في اليقظة والمنام، فنحن هنا إذن أمام وجهين:

الوجه الأول: الرؤية في الدنيا وفيها:

-الإمكان والوقوع.

-الرؤية في اليقظة، والرؤية في المنام.

الوجه الثاني: الرؤية في الآخرة.

أما عن الوجه الأول الإمكان والوقوع، فالمتفق عليه عند السلف أنه ليس لبشر أن يرى الله في الدنيا، لقول النبي – صلى الله عليه وسلم –: "تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه –عز وجل– حتى يموت"[1] ، ولكن العلماء أكدوا أن هناك فرقا بين الإمكان، والوقوع، لأن عدم الرؤية لا يعني استحالة حدوث الشيء؛ بل لقصور في حاسة البصر، واستدلوا على ذلك بنصوص الشرع التي تؤكد هذا، ومنها قصة نبي الله موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف:١٤٣]

رؤية الله في الدنيا يقظة:

أما عن وقوع الرؤية في الدنيا، فقد اتفق السلف على استحالة حدوثها يقظة، واستدلوا على ذلك بقول النبي صلى الله عليه وسلم: "تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه –عز وجل– حتى يموت"[2]، وقوله تعالى لموسى عليه السلام: "﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ [الأعراف:١٤٣] قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف: ١٤٣]،

إذن فإن رؤية الله تعالى في الدنيا غير مستحيلة؛ لانعدام ذلك على حواس الإنسان، ورغم ذلك فإن هذا لا ينفي إمكان وقوعها، لكن الاستحالة هنا بسبب قصور في المدارك الحسية.

ويؤكد السلف على وقوع رؤية الله تعالى في الآخرة لثبوت الأدلة على ذلك.

---

١) أخرجه مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر ابن صياد، برقم (٢٩٣١).

٢) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، حديث رقم: ٧٣٥٦.

قال إسحاق بن راهويه "وقد مضت السنة من رسول الله صلى الله عليه و سلم بأن أهل الجنة يرون ربهم وهو من أعظم نِعم أهل الجنة"[1].

أما الإمام أحمد بن حنبل فقد بلغه عن رجل أنه قال: "إن الله تعالى لا يُرى في الآخرة"، فغضب غضبا شديدًا ثم قال: «من قال بأن الله تعالى لا يُرى في الآخرة فقد كفر، عليه لعنة الله وغضبه، من كان من الناس، أليس الله عز وجل قال: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ}، وقال تعالى: {كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ}، هذا دليل على أن المؤمنين يرون الله تعالى"[2].

وعلى ذلك، فإن مذهب السلف هو إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة، وهو قول الصحابة والتابعين، وهو الثابت في نصوص الشرع، والمتفق مع قواعد اللغة.

١) مسند إسحاق بن راهويه ، ٣ /٦٧٢

٢) الشريعة للآجري ، ٢ /٩٨٦.

المطلب الأول

الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في رؤية ربنا تبارك وتعالى

لم يختلف السلف في إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة،لثبوت الرؤية في الكتاب والسنة وأقوال الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وقد أفرد الكثير من السلف مؤلفات خاصة حول رؤية الله عز وجل.

وكغيرها من الأمور الاعتقادية، فإن منهج ابن تيمية رحمه الله تعالى ، في إثبات رؤية الخالق سبحانه، مبنية على التوقيف، وقد اعتمد في ذلك على ما ثبت من الكتاب والسنة وآثار السلف التي لا تخالف النص، فالله تعالى لا يُرى إلا بما أخبر، ومن الآثار المروية عن السلف في ذلك، ما رواه مسلم في صحيحه قال:

عن أبي موسى ، قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس كلمات ، فقال : " إن الله عز وجل ، لا ينام ، ولا ينبغي له أن ينام ، يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل ، حجابه النور "١.

كما روى أيضا من حديث إسحاق بن إبراهيم، قال: أخبرنا جرير ، عن الأعمش ، بهذا الإسناد ، قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع كلمات ، ثم ذكر بمثل حديث أبي معاوية ، ولم يذكر : من خلقه ، وقال : " حجابه النور " ٢.

وفي حديث جبريل عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه، قال النبي صلى الله عليه وسلم- عن الإحسان-: "أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"٣.

ويثبت السلف رؤية الله تعالى في الآخرة، لورود الأدلة الصحيحة على الرؤية، قال الإمام أحمد: «من قال بأن الله تعالى لا يُرى في الآخرة فقد كفر، عليه لعنة الله وغضبه، من كان من الناس، أليس الله عز وجل قال: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[القيامة: ٢٢ – ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، هذا دليل على أن المؤمنين يرون الله تعالى.» وقال: «قالت الجهمية: إن الله لا يُرى في الآخرة، وقال الله تعالى ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾[المطففين: ١٥] فلا يكون هذا إلا أن الله تعالى يُرى، وقال تعالى: ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ ﴾[القيامة: ٢٢ – ٢٣]، فهذا النظر

١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب قوله صلى الله عليه وسلم: إن الله عز وجل لا ينام، حديث رقم: ٢٦٨.

٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب قوله صلى الله عليه وسلم: إن الله عز وجل لا ينام، حديث رقم: ٢٦٨. والأسماء والصفات، البهقي، ٢٥٥

٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان والإسلام والقدر وعلامة الساعة، حديث رقم: ٣٤.

إلى الله تعالى، والأحاديث التي رويت عن النبي صلى الله عليه وسلم: (إنكم ترون ربكم) برواية صحيحة، وأسانيد غير مدفوعة ، والقرآن شاهد أن الله تعالى يُرى في الآخرة.»١.

وقال ابن خزيمة في "كتاب التوحيد" له: " باب ذكر البيان إن رؤية الله التي يختص بها أولياءه يوم القيامة هي التي ذكر في قوله ﴿ وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾[القيامة: ٢٢ -٢٣]، ويفضل بهذه الفضيلة أولياءه من المؤمنين، ويُحجب جميع أعدائه عن النظر إليه من مشرك ومتهود ومتنصر ومتمجس ومنافق ، كما أعلم في قوله ﴿ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥]، وهذا نظر أولياء الله إلى خالقهم جل ثناؤه بعد دخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيزيد الله المؤمنين كرامة، وإحسانا إلى إحسانه، تفضلا منه وجودا بإذنه إياهم النظر إليه، ويحجب عن ذلك جميع أعدائه .

حدثنا محمد بن بشار بندار، قال حدثنا عبد الرحمن يعني ابن مهدي بن حسان، قال حدثنا حماد بن سلمة ، عن ثابت النباني، عن عبد الرحمن بن أبي ليلى ،عن صهيب، عن النبي في قوله تعالى ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦] قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، نادى مناد، يا أهل الجنة إن لكم عند ربكم موعدا قالوا: ألم تبيض وجوهنا وتنجنا من النار وتدخلنا الجنة؟ قال فيكشف الحجاب قال : " فوالله ما أعطاهم شيئا هو أحب إليهم من النظر٢"٣.

يتفق ابن خزيمة أيضا في إثبات رؤية المؤمنين لله تعالى في الآخرة، فيكشف الله الحجاب ليراه المؤمنون كرامة لهم على ما فعلوه من طاعة في الدنيا، وهو أعظم جزاء للمؤمن في الجنة.

رؤية الله في الدنيا:

يفرق السلف بين رؤية الله في المنام، ورؤيته في اليقظة. ويؤكدون أن الله تعالى لا يمكن رؤيته في حال اليقظة لقصور مدارك العباد عن النظر إليه، وليس لاستحالة الرؤية.

الرؤية في اليقظة:

هناك اتفاق بين السلف على استحالة الرؤية البصرية لله في الدنيا، لقصور في حواس العباد، ويعتمد السلف في ذلك على توافر النصوص الواردة في الكتاب والسنة حول هذه المسألة ومنها الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه واجتمع في روايته أربعة من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، فعن عمر بن ثابت الأنصاري، أنه

---

١) الشريعة، ٩٨٦/٢

٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، حديث رقم: ١٨١.

٣) التوحيد، ابن خزيمة، ٤٤٢/٢-٤٤٣.

أخبره بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه حتى يموت"١.

والحديث في رواية ابن أبي شيبة وسعيد بن عمرو وزهير وابن أبي عمر عن (سفيان عن الزهري عن عروة عن زينب بنت أبي سلمة عن حبيبة عن أم حبيبة عن زينب بنت جحش) هذا الإسناد اجتمع فيه أربع صحابيات ، زوجتان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وربيبتان له ، بعضهن عن بعض ، ولا يعلم حديث اجتمع فيه أربع صحابيات بعضهن عن بعض غيره.

أما عن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه في رحلة المعراج ، فقد اختلف السلف فيه ومن بعدهم في رؤيته صلى الله عليه وسلم، وإنكار عائشة رضي الله عنها أن يكون صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعين رأسه، وأنها قالت لمسروق حين سألها: هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد وقف شعري مما قلت، ثم قالت: من حدثك أن محمدا رأى ربه فقد كذب .٢

ثم قال: وقال جماعة بقول عائشة رضي الله عنها، وهو المشهور عن ابن مسعود وأبي هريرة واختلف عنه، وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته في الدنيا جماعة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أنه صلى الله عليه وسلم رأى ربه بعينه، وروى عطاء عنه: أنه رآه بقلبه. ثم ذكر أقوالا وفوائد، ثم قال:

وأما وجوبه لنبينا صلى الله عليه وسلم والقول بأنه رآه بعينه فليس فيه قاطع ولا نص ، والمعول فيه على آية النجم ، والتنازع فيها مأثور ، والاحتمال لها ممكن"٣.

حديث الصورة ورؤية النبي ربه مناما

من المسائل التي وقع فيها نزاع بين السلف والمتكلمين ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في رؤية ربه تبارك وتعالى ، حال منامه، ووصفه له بأنه جاء في صور شاب، وقد شغب المتكلمون حول إثبات هذا الحديث وموقف السلف منه ووصفوهم بالمشبهة، رغم أن الكلام واضح وضوح الشمس، فالنبي صلى الله عليه وسلم، يتكلم عن رؤيا منامية، وليس في اليقظة.

كما ضعف الحديث من حيث السند بعض السلف، وأثبتوه من طرق أخرى، ومن الذين ضعفوا رواية مروان ابن عثمان الإمام أحمد- رحمه الله، وهو ما ذكره الخلال في المنتخب قال:

١) أخرجه مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، حديث رقم:١٩٦.

٢) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن ، باب من سورة النجم، برقم (٤٨٥٥)، وصحيح مسلم، في صحيحه ١٦٠/١ برقم ،(١٧٧).

٣) شرح العقيدة الطحاوية، ٢٢٣/١-٢٢٤

" قال مهنا: سألت أبا عبد الله ـــ يعني الإمام أحمد ـــ عن حديث ابن وهب عن عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال أن مروان بن عثمان حدثه عن عمارة عن أم الطفيل ـــ امرأة أبي بن كعب ـــ أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر أنه رأى ربه في المنام في صورة شاب موفر، رجلاه في حضر، عليه نعلان من ذهب، وعلى وجهه فراش من ذهب. فحول وجهه عني وقال: هذا حديث منكر.

وقال: مروان بن عثمان: هذا رجل مجهول، وعمارة بن عامر هذا الذي روى عنه مروان لا يعرف. وسألته: بلغك أن أُمَّ الطفيل سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: لا أدري"[١].

ورغم تضعيف الإمام، أحمد لرواية مروان ابن عثمان، للسبب الذي ذكره، إلا أنه لم يمنع وجود روايات أخرى صحيحة، لهذا النص، وقد صححه الإمام أحمد، وثبت أنه حدثه، وقد نقل ذلك عنه شيخ الإسلام وغيره، قال ابن تيمية- رحمه الله-:

"قال أحمد بن حنبل: هذا الحديث رواه الكبر عن الكبر عن الصحابة عن النبي - صلى الله عليه وسلم - فمَن شكَّ في ذلك، أو في شيء منه؛ فهو جهمي لا تقبل شهادته، ولا يسلم عليه، ولا يعاد في مرضه، قلت: في هذه الرواية عن أحمد نظر، وأنبأنا أحمد بن محمد بن عبدالله بن إسحاق: حدثنا محمد بن يعقوب: حدثنا أحمد بن محمد قال: حدثنا عبدالله بن أحمد بن حنبل قال: رأيت أبي يصحّح هذه الأحاديث، ويذهب إليها، وجمعها، وحدثناها"[٢].

وعلل السلف عدم وجود إشكال في هذه الحديث ومثله، بأنه جاء في رؤيا منامية وليس في اليقظة.

قال الإمام الدارمي، عند كلامه على حديث: "أتاني ربي في أحسن صورة": "وإنما هذه الرؤية كانت في المنام، وفي المنام يمكن رؤية الله تعالى على كل حال وفي كل صورة"[٣].

وقد اعتمد شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في تأكيد ما ذهب إليه السلف في إثبات هذا الرؤية على النصوص الواردة في الكتاب والسنة، حول مواقف تخص الرؤيا ويستحيل تصديقها في اليقظة، وهو من الأقيسة المتميزة لشيخ الإسلام.

---

١) المنتخب من علل الخلال، ٢٨٢

٢) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية ، ابن تيمية، ٧/ ١٩٥

٣) النقض على المريسي، ٧٣٨/٢

قال ابن تيمية- رحمه الله-:

" لفظ الرؤية وإن كان في الأصل مطابقاً فقد لا يكون مطابقاً كما في قوله: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ وقال: ﴿ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ﴾ وقد يكون التوهم والتخيل مطابقا من وجه دون وجه فهو حق في مرتبته وإن لم يكن مماثلا للحقيقة الخارجة مثل ما يراه الناس في منامهم وقد يرى في اليقظة من جنس ما يراه في منامه فإنه يرى صوراً وأفعالاً ويسمع أقوالا وتلك أمثال مضروبة لحقائق خارجية كما رأى يوسف سجود الكواكب والشمس والقمر له فلا ريب أن هذا تمثله وتصوره في نفسه وكانت حقيقته سجود أبويه وأخوته كما قال: ﴿ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ وكذلك رؤيا الملك التي عبرها يوسف حيث رأى السنبل بل والبقر فتلك رآها متخيلة متمثلة في نفسه وكانت حقيقتها وتأويلها من الخصب والجدب فهذا التمثل والتخيل حق وصدق في مرتبته بمعنى أن له تأويلاً صحيحاً يكون مناسباً له ومشابهاً له من بعض الوجوه فإن تأويل الرؤيا مبناها على القياس والاعتبار والمشابهة والمناسبة ولكن من اعتقد أن ما تمثل في نفسه وتخيل من الرؤيا هو مماثل لنفس الموجود في الخارج وأن تلك الأمور هي بعينها رآها فهو مبطل، مثل من يعتقد أن نفس الشمس التي في السماء والقمر والكواكب انفصلت عن أماكنها وسجدت ليوسف وأن بقراً موجودة في الخارج سبعاً سماناً أكلت سبعاً عجافاً فهذا باطل"١.

الرؤية في المنام:

قال البغوي في شرح السنة : "رؤية الله في المنام جائزة، قال معاذ عن النبي – صلى الله عليه وسلم:

(إني نعست فرأيت ربي) ٢ ، وتكون رؤيته -جلت قدرته- ظهور العدل والفرج والخصب والخير لأهل ذلك الموضع، فإن رآه فوعد له جنة، أو مغفرة، أو نجاة من النار، فقوله حق، ووعده صدق، وإن رآه ينظر إليه فهو رحمته، وإن رآه معرضاً عنه فهو تحذير من الذنوب؛ لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [سورة آل عمران: ٧٧] وإن أعطاه شيئاً من متاع الدنيا فأخذه فهو بلاء ومحن وأسقام تصيب بدنه، يعظم بها أجره، لا يزال يضطرب فيها حتى يؤديه إلى الرحمة، وحسن العاقبة"٣.

ويتفق قول البغوي مع قول شيخ الإسلام ابن تيمية في أن رؤية العبد لربه في المنام تكون بحسب حاله وإيمانه.

---

١) بيان تلبيس الجهمية، ابن تيمية، ١/٣٢٥.

٢) أخرجه صحيح البخاري في صحيحه، في التعبير، باب من رأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، وصحيح مسلم، في الرؤيا، حديث رقم ٢٢٦٦.

٣) شرح السنة، البغوي، ١٢/٢٢٧-٢٢٨

كما اتفق معهما أيضا القاضي عياض بقوله:

" و لم يختلف العلماء في جواز صحة رؤية الله في المنام، وإذا رئي على صفة لا تليق بجلاله من صفات الأجسام للتحقيق أن ذات المرئي غير ذات الله، إذ لا يجوز عليه التجسيم ولا اختلاف في الحالات بخلاف رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، فكانت رؤيته تعالى في النوم من أنواع الرؤيا من التمثيل والتخيل"[1].

الخلاصة

اتفق السلف على عدم رؤية الله تعالى بالبصر في الحياة الدنيا، وجوزوا إمكان وقوعها، واستدلوا على ذلك بطلب نبي الله موسى عليه السلام، رؤية ربه قال تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَاْ أَوَّلُ الْمُؤْمِنِين﴾[الأعراف : ١٤٣] مؤكدين بذلك أن موسى عليه السلام لا يمكن أن يطلب محرما أو مستحيلاً الوقوع، وأن عدم إمكان الرؤية في الدنيا يرجع إلى قصور مدارك البصر لدى العباد، وعدم قدرتهم أو علمهم لرؤية الله ، كما قال النبي – صلى الله عليه وسلم – : " نوراً أني أراه " ، ثم قوله تعالى : (لن تراني) معناه: لا تستطيع رؤيتي، وليس لامتناع وقوع الرؤية [2].

واختلفوا حول رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه في رحلة المعراج.

كما جوز السلف إمكانية الرؤية في المنام بحسب حال العبد ولكن ليس على الصورة الحقيقية لله تعالى فليس كمثله شيء.

كما أجمع السلف على رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة، وأن ذلك جزاء لهم على ما فعلوه في الآخرة، واختلفوا على وقوع الرؤية لغير المؤمنين.

---

١) إكمال المعلم، القاضي عياض، ٧/٢٢٠.

٢) أخرجه صحيح البخاري، في " كتاب التفسير"، باب ﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ "حديث(٤٨٥٦)، أخرجه وصحيح مسلم في كتاب الإيمان باب في قوله عليه السلام نور أنى أراه وفي قوله رأيت نورا، برقم (١٧٨).

المطلب الثاني

قول شيخ الإسلام ابن تيمية في رؤية ربنا تبارك وتعالى

في هذا المطلب نبين موقف ابن تيمية رحمه من اثبات رؤية الله تعالى وكيف اتفق مع منهج السلف في نفي رؤية الله في الدنيا وإثباتها في الآخرة، وفصل ذلك في مواضع شتى من تصنيفاته، ونقل الإجماع على ذلك فقال:

"أجمع سلف الأمة وأئمتها على أن المؤمنين يرون الله بأبصارهم في الآخرة وأجمعوا على أنهم لا يرونه في الدنيا بأبصارهم و لم يتنازعوا إلا في النبي صلى الله عليه وسلم. وثبت عنه في الصحيح أنه قال: (واعلموا أن أحدا منكم لن يرى ربه حتى يموت)١. ومن قال من الناس: إن الأولياء أو غيرهم يرى الله بعينه في الدنيا فهو مبتدع ضال مخالف للكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، لاسيما إذا ادعوا إنهم أفضل من موسى فإن هؤلاء يستتابون، فإن تابوا وإلا قتلوا"٢.

وبهذا يثبت شيخ الإسلام ابن تيمية أن الرؤية البصرية ثابتة للمؤمنين في الآخرة، وينفي وقوعها في الدنيا، وأن حكم من قال بإمكان الرؤية البصرية في الدنيا الاستتابة وإلا القتل لمخالفته صريح النصوص الشرعية. وعلل ذلك بما وقع لنبي الله موسى عليه السلام، ويعلل شيخ الإسلام- رحمه الله- أن الإجماع هنا جاء بناء على ما ثبت من نصوص الكتاب والسنة التي تؤكد ذلك، فقال:

"وقد ثبت بنص القرآن أن موسى قيل له: ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ [الأعراف: ١٣٤] وأن رؤية الله أعظم من إنزال كتاب من السماء كما قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً﴾[النساء:١٥٣]، فمن قال إن أحدا من الناس يراه ؛ فقد زعم أنه أعظم من موسى بن عمران ، ودعواه أعظم من دعوى من ادعى أن الله أنزل عليه كتابا من السماء" ٣. ﴿ لَن تَرَىٰنِي ﴾ [الأعراف:١٤٣]

وهذا هو الدليل نفسه الذي استند عليه السلف في إثبات عدم الرؤية البصرية لله في الدنيا.

ويبين شيخ الإسلام انعدام الرؤية البصرية لله تعالى في الدنيا بقوله: " وإنما لم نره في الدنيا لعجز أبصارنا، لا لامتناع الرؤيا، فهذه الشمس إذا حدق الرائي البصر في شعاعها ضعف عن رؤيتها لا لامتناع في ذات المرئي، بل لعجز الرائي، فإذا كان في الدار الآخرة أكمل الله قوى الآدميين حتى أطاقهم رؤيته، ولهذا لما تجلى الله للجبل

---

١) سبق تخريجه ص ٢٠٤.

٢) مجموع الفتاوي، ابن تيمية، ٥١٢/٦

٣) المرجع السابق ، ٣٣٦/٢.

خر موسى صعقاً، قال: سبحانك تبت إليك، وأنا أول المؤمنين بأنه لا يراك حي إلا مات، ولا يابس إلا تدهده، ولهذا كان البشر يعجزون عن رؤية المَلَك في صورته إلا من أيده الله كما أيد نبينا – صلى الله عليه وسلم –"١.

رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه ليلة الإسراء والمعراج:

ذهب ابن تيمية إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير ربه رؤية بصرية، لأن حجابه النور، وقال إن هناك خلافا بين السلف في كيفية رؤية الله، فقال رحمه الله:" و لم يتنازعوا إلا في النبي – صلى الله عليه وسلم –خاصة مع أن جماهير الأئمة على أنه لم يره بعينه في الدنيا، وعلى هذا دلت الآثار الصحيحة الثابتة عن النبي – صلى الله عليه وسلم –والصحابة وأئمة المسلمين، و لم يثبت عن ابن عباس ولا عن الإمام أحمد وأمثالهما أنهم قالوا: إن محمداً رأى ربه بعينه، بل الثابت عنهم إما إطلاق الرؤية، وإما تقييدها بالفؤاد، وليس في شيء من أحاديث المعراج الثابتة أنه رآه بعينه، وقوله: (أتاني البارحة ربي في أحسن صورة)٢ الحديث الذي رواه الترمذي وغيره إنما كان بالمدينة في المنام هكذا جاء مفسراً"٣.

وبهذا يؤكد شيخ الإسلام أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يقل أحد منهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى ربه بعينه، وهو المنقول عن السلف في هذا الباب وإنما الخلاف في كيفية الرؤية بغير العين.

رؤية الله في المنام:

يتفق شيخ الإسلام– رحمه الله– مع منهج السلف في رؤية الله تعالى في المنام فيقول: "وقد يرى المؤمن ربه في المنام في صورة متنوعة على قدر إيمانه ويقينه، فإذا كان إيمانه صحيحا لم يره إلا في صورة حسنة، وإذا كان في إيمانه نقص رأى ما يشبه إيمانه، ورؤيا المنام لها حكم غير رؤيا الحقيقة في اليقظة، ولها تعبير وتأويل لما فيها من الأمثال المضروبة للحقائق.

وقد يحصل لبعض الناس في اليقظة أيضا من الرؤيا نظير ما يحصل للنائم في المنام، فيرى بقلبه مثل ما يرى النائم، وقد يتجلى له من الحقائق ما يشهده بقلبه، فهذا كله يقع في الدنيا.

وربما غلب أحدهم ما يشهده قلبه وتجمعه حواسه، فيظن أنه رأى ذلك بعيني رأسه حتى يستيقظ فيعلم أنه منام، وربما علم في المنام أنه منام.

---

١) منهاج السنة النبوية ، ابن تيمية، ٣٣٢/٢

٢) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، ، حديث برقم (٣١٥٧). ونقل الترمذي في سننه عن البخاري قوله: حديث حسن صحيح الاسناد ، وصححه الألباني في " السلسلة الصحيحة" برقم (٣١٦٩) .

٣) مجموع الفتاوي، ابن تيمية، ١٦٩/١.

فهكذا من العباد من يحصل له مشاهدة قلبية تغلب عليه حتى تفنيه عن الشعور بحواسه فيظنها رؤية بعينه، وهو غالط في ذلك، وكل من قال من العباد المتقدمين أو المتأخرين أنه رأى ربه بعيني رأسه فهو غالط في ذلك بإجماع أهل العلم والإيمان"١.

يوضح شيخ الإسلام أنه يجوز رؤية الله في المنام، ويؤكد أن حكم الرؤيا حال النوم تختلف عن حال اليقظة، وأن المؤمن يرى الله في المنام بحسب حال وقدر إيمانه، وهي لا تكون صورة حقيقية لله تعالى الذي ليس كمثله شيء.

الرؤية في الآخرة:

أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- أن السلف قد اتفقوا على رؤية الله تعالى في الآخرة، وهي من أعلى وأعظم درجات النعيم لأهل الجنة، وهم في ذلك درجات بحسب قربهم ومعرفتهم بالله عز وجل، وأن ذلك يكون جائزة للمؤمنين، وهو الثابت من نصوص الشرع. قال رحمه الله: "والذي عليه جمهور " السلف " أن من جحد رؤية الله في الدار الآخرة فهو كافر، فإن كان ممن لم يبلغه العلم في ذلك، عرف ذلك كما يعرف من لم تبلغه شرائع الإسلام فإن أصر على الجحود بعد بلوغ العلم له فهو كافر. والأحاديث والآثار في هذا كثيرة مشهورة قد دون العلماء فيها " كتبا " مثل: " كتاب الرؤية " للدارقطني، ولأبي نعيم وللآجري، وذكرها المصنفون في السنة كابن بطة، واللالكائي، وابن شاهين، وقبلهم عبد الله بن أحمد بن حنبل، وحنبل بن إسحاق، والخلال، والطبراني وغيرهم. وخرجها أصحاب الصحيح والمساند والسنن وغيرهم "٢ .

يبين شيخ الإسلام حكم من أنكر رؤية المؤمنين لله تعالى في الآخرة لثبوت الرؤية في الكتاب والسنة، وأكد أن ذلك هو مذهب السلف ومنهم من أفرد لذلك مؤلفات خاصة، ثم نقل اختلاف العلماء في مسألة رؤية الكافرين لله يوم القيامة.

رؤية الكافرين لله – عز وجل –:

قال شيخ الإسلام: "أما رؤية الكافرين لله تعالى يوم القيامة فقد نقل شيخ الإسلام اختلاف العلماء حول ذلك فقال : فأول ما انتشر الكلام فيها وتنازع الناس فيها – فيما بلغنا – بعد ثلاثمائة سنة من الهجرة وأمسك عن الكلام في هذا قوم من العلماء وتكلم فيها آخرون فاختلفوا فيها على " ثلاثة أقوال " مع أني ما علمت أن أولئك المختلفين فيها تلاعنوا ولا تهاجروا فيها، إذ في الفرق الثلاثة قوم فيهم فضل وهم أصحاب سنة. والأقوال الثلاثة في رؤية الكفار:

---

١) مجموع الفتاوي ، ابن تيمية، ٣/ ٣٩٠.

٢) المرجع السابق ، ٤٨٧/٦.

أحدها: أن الكفار لا يرون ربهم بحال ، لا المظهر للكفر ولا المسر له ، وهذا قول أكثر العلماء المتأخرين ، وعليه يدل عموم كلام المتقدمين ، وعليه جمهور أصحاب الإمام أحمد وغيرهم .

الثاني : أنه يراه من أظهر التوحيد من مؤمني هذه الأمة ومنافقيها ، وغبرات[1] من أهل الكتاب وذلك في عرصة القيامة ثم يحتجب عن المنافقين فلا يرونه بعد ذلك ، وهذا قول أبي بكر بن خزيمة من أئمة أهل السنة ، وقد ذكر القاضي أبو يعلى نحوه في حديث إتيانه سبحانه وتعالى لهم في الموقف الحديث المشهور .

الثالث: أن الكفار يرونه رؤية تعريف وتعذيب - كاللص إذا رأى السلطان - ثم يحتجب عنهم ليعظم عذابهم ويشتد عقابهم، وهذا قول أبي الحسن بن سالم وأصحابه وقول غيرهم ، وهم في الأصول منتسبون إلى الإمام أحمد بن حنبل وأبي سهل بن عبد الله التستري .

وهذا مقتضى قول من فسر " اللقاء " في كتاب الله بالرؤية . إذ طائفة من أهل السنة منهم أبو عبد الله بن بطة الإمام قالوا في قول الله : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَلِقَآئِهِۦ﴾ [الكهف:١٠٥]، وفي قوله: ﴿مَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٖۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [العنكبوت:٥] وفي قول الله : ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥] ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة:٤٦] وفي قوله : ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٢٤٩] وفي قوله : ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:٣١] إن اللقاء يدل على الرؤية والمعاينة"[2].

وبهذا فقد بين شيخ الإسلام – رحمه الله – أن السلف اختلفوا في رؤية الكافرين لله تعالى يوم القيامة، و لم يرجح – رحمه الله– رأي طرف على طرف، وقال: "فبالجملة، فليس مقصودي بهذه الرسالة الكلام المستوفي لهذه المسألة، فإن العلم كثير وإنما الغرض بيان أن هذه " المسألة " ليست من المهمات التي ينبغي كثرة الكلام فيها وإيقاع ذلك إلى العامة والخاصة حتى يبقى شعارا ويوجب تفريق القلوب، وتشتت الأهواء. وليست هذه

" المسألة " فيما علمت مما يوجب المهاجرة والمقاطعة، فإن الذين تكلموا فيها قبلنا عامتهم أهل سنة واتباع وقد اختلف فيها من لم يتهاجروا ويتقاطعوا كما اختلف الصحابة رضي الله عنهم – والناس بعدهم – في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم ربه في الدنيا وقالوا فيها كلمات غليظة كقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها :(من زعم أن محمدا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية) . ومع هذا فما أوجب هذا النزاع تهاجرا ولا تقاطعا "[3].

---

١) غُبْرُ كلِّ شيء : بقيّته ، آخره، والجمع غُبَّرات، انظر المعجم الوسيط، مادة: غبر.

٢) مجموع الفتاوى، ٤٨٨/٦

٣) المرجع السابق، ٦/ ٥٠٢.

الخلاصة:

اتفق شيخ الإسلام ابن تيمية — رحمه الله – على أن الله تعالى لا يُرى في الحياة الدنيا بالعين، وبين حكم من قال ذلك، ووهم من يقع في مثل هذا القول، كما بين جواز رؤية الله في المنام، بحسب حال المؤمن ولا يكون ذلك على صورته الحقيقية، فالله تعالى ليس كمثله شيء، لكن ابن تيمية، حينما أراد أن يثبت هذه الرؤية، ربما وقع في استخدام بعض المصطلحات التي لم يستخدمها السلف مثل "المكاشفات والمشاهدات" في قوله: فالصحابة والتابعون وأئمة المسلمين على أن الله يُرى في الآخرة بالأبصار عيانا وأن أحدا لا يراه في الدنيا بعينه ، لكن يُرى في المنام ويحصل للقلوب من (المكاشفات والمشاهدات) ما يناسب حالها"[1] ، وهي من المصطلحات التي يستخدمها الصوفية، وليست معروفة عن السلف في عهده، وربما اختارها ليبين ذلك لهم بشيء يستطيعون فهمه.

كما أوضح -رحمه الله – ما إذا كان النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى الله في رحلة المعراج أم أنه كان محجوبا بنوره، وبين أيضا موقف السلف في رؤية الله تعالى يوم القيامة، ونقل الإجماع حول رؤية المؤمنين لله تعالى كرامة وجزاء لهم، كما بين اختلاف السلف حول رؤية الكافرين لله تعالى في الآخرة، وأوضح أن لكل فريق حججه في هذه المسألة التي رأى التوقف عن الخلاف فيها، و لم يرجح أيا من أقوالهم.

---

١) المرجع السابق ، ٢/٢٣٨.

المبحث الخامس

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الصفات الاختيارية لله تعالى، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الصفات الاختيارية لله تعالى.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الصفات الاختيارية لله تعالى.

مدخل

تنقسم صفات الله عز وجل الثبوتية إلى قسمين:

صفات ذاتية وقد سبق الحديث عنها في المبحث السابق وصفات فعلية أو اختيارية وهي التي تتعلق بالمشيئة.

أهل السنة متفقون على إثبات صفات الله تعالى، من غير تكييف ولا تمثيل ولا تشبيه ولا تعطيل. ولكن هناك من ضل في هذه القضية وهم فرق كثيرة ،كالمعتزلة والجهمية والكلابية والأشاعرة، وكل حججهم تدور حول حدوث الأفعال في ذات الله، وقد رد السلف على اعتراضاتهم وبدعهم، ومنها ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى- الذي تصدى لكل هذه الفرق وبين موقف السلف منها، قال ابن تيميه –رحمه الله- فيما رواه أبو بكر الأثرم في "السنة" عن الفضيل بن عياض:

" أراد الفضيل بن عياض رحمه الله مخالفة الجهمي الذي يقول: إنه لا تقوم به الأفعال الاختيارية فلا يتصور منه إتيان، ولا مجيء، ولا نزول، ولا استواء، ولا غير ذلك من الأفعال الاختيارية القائمة به.

فقال الفضيل: إذا قال لك الجهمي: أنا أكفر برب يزول عن مكانه فقل: أنا أؤمن برب يفعل ما يشاء. فأمره أن يؤمن بالرب الذي يفعل ما يشاء من الأفعال القائمة بذاته، التي يشاؤها لم يرد من المفعولات المنفصلة عنه. ومثل ذلك يروى عن الأوزاعي وغيره من السلف أنهم قالوا في حديث النزول يفعل الله ما يشاء"[١].

وعلى ذلك فإن السلف يثبتون الصفات الاختيارية لله تعالى، فقد أخبر رب العزة أنه فعال لما يريد وهو ما اتفق عليه السلف في كل العصور، و لم يختلف منهم أحد على ذلك، وقد ردوا على أهل البدع من المتكلمين والمتفسلفة كما سيأتي.

١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ٣٧٧/٥

المطلب الأول

الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الصفات الاختياريه لله تعالى

سبق وأكدنا أن تقسيم صفات الله تعالى لذاتية واختيارية أو فعلية، لم يكن منصوصًا عليه عن الصحابة، وإنما هو أمر استنبطه من جاء بعدهم، من السلف، من خلال اعتمادهم على النصوص الشرعية، بهدف التيسير والتسهيل على طلبة العلم.

ومن أصول السلف في صفات الله تعالى، أنهم لا يعتدون فيها برأي أو قياس ، وعمدتهم في ذلك ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم؛ فهو سبحانه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى:١١) في أفعاله ولا فصفاته جل شأنه.

قال الشافعي- رحمه الله: "لله تبارك وتعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه، وأخبر بها نبيه صلى الله عليه وسلم أمته، لا يسمع أحد من خلق الله عز وجل قامت لديه الحجة أن القرآن نزل بها، وصح عنده بقول النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عنه العدل خلافه، فإذا خالف ذلك بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر بالله عز وجل، فأما قبل ثبوت الحجة عليه من جهة الخبر فمعذور بالجهل؛ لأن علم ذلك لا يُدرك بالعقل، ولا بالرَّوية والفكر"[١].

والصفات الاختيارية كما ذكرنا هي التي ترتبط بمشيئة الله تعالى، إن شاء فعلها وإن لم يشأ؛ لم يفعلها.

ومن الصفات الاختيارية لله تعالى صفة النزول والكلام والضحك والغضب وغير ذلك من الصفات الثابتة في كتاب الله وسنة نبيه

ومن أبرز الذين تعرضوا لذلك الإمام أحمد- رحمه الله تعالى وقد ظل ثابتا على موقفه رغم ما ناله من الأذى تمسكا بكتاب الله وسنة نبيه، -قال رحمه الله: " بل نقول: إن الله لم يزل متكلما إذا شاء، ولا نقول: إنه كان، ولا يتكلم حتى خلق الكلام.

ولا نقول: إنه قد كان لا يعلم، حتى خلق علما فعلم، ولا نقول: إنه قد كان ولا قدرة له، حتى خلق لنفسه القدرة، ولا نقول: إنه قد كان ولا نور له، حتى خلق لنفسه نورا. ولا نقول: إنه قد كان لا عظمة له، حتى خلق لنفسه عظمة.

وضربنا لهم مثلا في ذلك، فقلنا: أخبرونا، عن هذه النخلة:، أليس لها جذع، وكرب، وليف، وسعف، وخوص، و(حجار)[٢]، واسمها اسم شيء واحد، وسميت نخلة، بجميع صفاتها؟، فكذلك الله -ولله-المثل الأعلى-

١) طبقات الحنابلة، ٢/٢٣٨.

٢) حجار، وردت هكذا في أغلب الطبعات، وربما كانت تصحيفا من الناقل لكلمة (جمار) وهو قلب النخلة.

بجميع صفاته، إله واحد. ولا نقول: إنه قد كان في وقت من الأوقات، لا قدرة له، حتى خلق له قدرة. والذي ليس له قدرة، هو عاجز.

ولا نقول: قد كان في وقت من الأوقات، لا يعلم حتى خلق له علما فعلم، والذي لا يعلم هو جاهل،. ولكن نقول : لم يزل الله عالما قادرا لا متى ولا كيف"١.

ومما سبق يؤكد الإمام أحمد- رحمه الله - أن إثبات الصفات لله تعالى إنما يعني إثبات الكمال لرب العزة، فذات الله موصوفة بكل الصفات اللازمة لذلك، وأن نفي الصفات يعد نفيا للكمال عن الله- تعالى عما يصفون- وضرب مثلا بكمال المخلوقين، وأثبت أن تعدد الصفات لا يعني نفي التوحيد، كما يزعم النفاة.

ويتبين من هذا أيضا مدى ثبات السلف على منهجهم في الاعتماد على الكتاب والسنة في إثبات صفات الله تعالى.

وقد تحدث السلف عن الصفات الفعلية وأفردوا لها الفصول في مؤلفاقم ومنهم، الإمام البخاري الذي بوب بابا في صحيحه تحت عنوان "كل يوم هو في شأن"، قال: باب قول الله تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]، ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنبياء:٢] وقوله تعالى : ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ [الطلاق:١]، وأن حدثه لا يشبه حدث المخلوقين لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١] وقال ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم إن الله يحدث من أمره ما يشاء وإن مما أحدث أن لا تكلموا في الصلاة"٢.

يؤكد البخاري في شرحه لقول الله تعالى ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]، أن صفات الله تعالى الفعلية تتوقف على مشيئته وقدرته، فالله تعالى فعال لما يريد وقتما يريد بمشيئته وقدرته.

وقال البخاري:" واختلف الناس في الفاعل والمفعول والفعل، فقالت القدرية: الأفاعيل كلها من البشر ليست من الله، وقالت الجبرية: الأفاعيل كلها من الله، وقالت الجهمية:الفعل والمفعول واحد. لذلك قالوا لكن مخلوق. وقال أهل العلم: التخليق فعل الله وأفاعيلنا مخلوقة، لقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ يعني السر والجهر من القول ففعل الله صفة الله والمفعول غيره من الخلق"٣ .

---

١) الرد على الزنادقة والجهمية، ٣٦.

٢) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى كل يوم هو في شأن، برقم (٧٠٨٤).

٣) خلق أفعال العباد ، ١١٣، وانظر: منهج الإمام البخاري في التفسير من خلال كتابه (الصحيح)، ٤٦٠.

وقد فرق البخاري في ذلك بين قول السلف، وقول المخالفين الذين شبهوا صفات الله بصفات المخلوقين، وبين أن هناك فرقا بين أفعال العباد التي هي مخلوقة لله، وبين الصفات الفعلية لله تعالى.

أما ابن ابي يعلى فقال:" اعلم أنَّ أهل السنة والجماعة يثبتون هذه الصفة وغيرها من صفات الله عزَّ وجلَّ الثابتة له بالكتاب أو السنة الصحيحة؛ من غير تمثيل ولا تكييف، ويسلمون بذلك، ويقولون: كلٌّ من عند ربنا.

وقال الإمام الشافعي –رحمه الله-: (لله تبارك وتعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه وأخبر بها نبيه صلى الله عليه وسلم أمته ... وأنه يضحك من عبده المؤمن لقول النبي صلى الله عليه وسلم للذي قتل في سبيل الله: (إنه لقي الله وهو يضحك إليه[١]"[٢].

فيؤكد ابن أبي يعلى أن عمدة السلف في إثبات الصفات الفعلية لله تعالى هي الكتاب والسنة.

وصفات الله الفعلية، قد أثبتها السلف، لورود النص عليها في النصوص الصريحة وكانوا يمرونها كما جاءت، وفي ذلك قال الخطابي- رحمه الله-:

"هذا الحديث- أي حديث النزول- وما اشبهه من الأحاديث في الصفات كان مذهب السلف فيها الإيمان بها، وإجراؤها على ظاهرها ونفي الكيفية عنها، وذكر الحكاية ... عن الأوزاعي، عن الزهري ومكحول قال: امضوا الأحاديث على ما جاءت"[٣].

وأخرج اللالكائي أيضا عن الوليد بن مسلم قال: سئل الأوزاعي ومالك وسفيان الثوري، والليث بن سعد عن هذه الأحاديث التي جاءت في التشبيه، فقالوا: أمروها كما جاءت بلا كيفية"[٤].

وبالتالي فإن منهج السلف في صفات الله عموما هو الإثبات بغير كيفية، وأن يمروها كما أخبر الله تعالى بها عن نفسه في كتابه وسنة نبيه، صلى الله عليه وسلم.

ومن الصفات التي أثبتها السلف المجيء والإتيان والهرولة والتقرب والكلام والنزول ونحوها، وفي ذلك تفاصيل.

---

١) أخرجه البخاري في كتاب االجهاد ، باب فضل الجهاد والسير ، برقم (٢٦٧١)، وصحيح مسلم في كتاب الإيمان ، باب: أول الإيمان قول لا إله إلا الله ، برقم (٢٩٩).

٢) طبقات الحنابلة، ابن أبي يعلى، ٢٨٢/١.

٣) شرح أصول الاعتقاد، اللالكائي، ٧٣٦، ومجموع الفتاوى، لابن تيمية، ٣٩/٥.

٤) المرجع السابق ، ٩٣٠، والشريعة، للآجري، ٧٥٦.

عن أنس ابن مالك- رضي الله عنه قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: يقول الله عز وجل إن تقرب عبدي مني شبرا تقربت منه ذراعا، وإن تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا"١.

وعن صفة الضحك فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يضحك الله إلى رجلين، يقتل أحدهما الآخر؛ كلاهما يدخل الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيقتل، ثم يتوب الله على القاتل؛ فيقاتل في سبيل الله فيستشهد"٢.

ومن الصفات التي شغلت السلف كثيرا صفة النزول لما وقع حولها من جدال المخالفين من أهل الكلام.

وقال ابن خزيمة أيضا ، أن من أفعاله عز وجل النزول وهي من صفات الأفعال الثابتة في الكتاب والسنة والتي تلقاها السلف بالقبول، فقال :" باب: ذكر أخبار ثابتة السند صحيحة القوام، رواها علماء الحجاز والعراق عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :" ينزل ربنا تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له، حتى ينفجر الفجر .٣

نشهد شهادة مقر بلسانه، مصدق بقلبه، مستيقن بما في هذه الأخبار من ذكر نُزول الرب، من غير أن نصف الكيفية؛ لأنَّ نبينا المصطفى لم يصف لنا كيفية نزول خالقنا إلى سماء الدنيا، وأعلمنا أنه يَنْزل، والله جل وعلا لم يترك ولا نبيه عليه السلام بيان ما بالمسلمين الحاجة إليه من أمر دينهم؛ فنحن قائلون مصدقون بما في هذه الأخبار من ذكر النُّزول، غير متكلفين القول بصفته أو بصفة الكيفية؛ إذ النبي صلى الله عليه وسلم لم يصف لنا كيفية النُّزول.

وفي هذه الأخبار ما بان وثبت وصح أنَّ الله جل وعلا فوق سماء الدنيا الذي أخبرنا نبينا صلى الله عليه وسلم أنه يَنْزل إليه، إذ محال في لغة العرب أن يقول: نزل من أسفل إلى أعلى، ومفهوم في الخطاب أنَّ النُّزول من أعلى إلى أسفل" ٤.

يؤكد أن الصفة ثابتة في الكتاب والسنة، وأن القول بذلك معروف في قواعد اللغة العربية.

---

١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب ذكر النبي صلى الله عليه وسلم وروايته عن ربه، حديث رقم:٧٤٠٥.

٢) أخرجه مسلم، كتاب الإمارة، باب بيان الرجلين يقتل أحدهما الآخر يدخلان الجنة، حديث رقم: ١٨٩٠.

٣) التوحيد، لابن خزيمة، ٢٨٩/١. شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، ٤٨٤/٣. أخرجه البخاري في كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، رقم ١٠٩٤، و مسلم في كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في الدعاء والذكر، رقم ١٢٦٧.

٤) كتاب التوحيد، ١/ ٢٨٩.

وفي حديث أبي هريرة قال: (ينزل الله عز وجل كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الآخر إلى سماء الدنيا فيقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ من يسألني فأعطيه"[1]. وقد روى اللالكائي الكثير من الأحاديث الدالة على إثبات صفة النزول لله تعالى.

كما ذكر الطبري في ذلك فقال: " علم ذلك لا يدرك بالعقل، ولا بالروية والفكرة. وذلك نحو إخبار الله تعالى ذكره إيانا أنه سميعٌ بصيرٌ، وأن له يدين لقوله: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة:٦٤] . وأن له يميناً لقوله: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر:٦٧] . وأن وله وجهاً لقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨] ، وقوله تعالى : ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧] . وأن له قدماً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (حتى يضع الرب قدمه فيها)٢ . يعني جهنم. وأنه يضحك إلى عبده المؤمن لقول النبي صلى الله عليه وسلم للذي قتل في سبيل الله: (إنه لقي الله عز وجل وهو يضحك إليه٣). وأنه يهبط كل ليلةٍ وينزل إلى السماء الدنيا، لخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم"٤.

ويؤكد الطبري- رحمه الله- أن إثبات الصفات لله تعالى مبنية على التوقيف، وأنه لا مجال فيها للتأويل أو التعطيل.

خلو عرش الرحمن

ومن الأمور المتعلقة بصفات الله تعالى الفعلية، ما ورد في حديث نزول الرحمن إلى السماء الدنيا، وهل يخلو العرش منه تبارك وتعالى، فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: (يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ، يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ؟ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ"٥.

وكان للسلف من ذلك أقوال منها ما ذهب إليه ابن بطة العكبري:

---

١) أخرجه البخاري في كتاب التهجد ، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل حديث رقم ١١٠٦، ومسلم في صحيحة باب صلاة المسافرين ١٢٦٢.

٢) أخرجه البخاري في كتاب تفسير القرآن، سورة ق، باب قوله وتقول هل من مزيد، برقم:، (٤٥٦٧).

٣) سبق تخريجه ص ٢٢١.

٤) التبصير في معالم الدين، الطبري، ١٣٢.

٥) أخرجه البخاري ، كتاب التهجد، باب الدعاء في الصلاة من آخر الليل، حديث رقم:٧٤٩٤

"فنقول كما قال: (ينـــزل ربنا عز وجل) ولا نقول: إنه يزول، بل ينـــزل كيف يشاء، ولا نصف نزوله، ولا نحده، ولا نقول إن نزوله زواله)١.

اقوال ابن تيمية

القول الأول: قول من قال: إن العرش يخلو منه، وإلى هذا ذهب عبدالرحمن بن محمد بن مندة، الإمام المحدث المشهور، وألف مصنَّفًا في الرد على من قال بعدم خلوّ العرش منه.

القول الثاني: التوقُّف، فلا يقال: يخلو، ولا يقال: لا يخلو، وإلى هذا ذهب الحافظ عبدالغني المقدسي، وبعض أهل الحديث.

القول الثالث: قول من قال: إن العرش لا يخلو منه، وهذا مذهب جمهور أهل السنة، ونقل ذلك عن الإمام أحمد، وإسحاق بن راهويه، وحماد بن زيد وعبيدالله بن بطة وغيرهم.

قال ابن تيمية – رحمه الله –: "والقول الثالث: هو الصواب، وهو المأثور عن سلف الأمة وأئمتها: أنه لا يزال فوق العرش، ولا يخلو العرش منه، مع دنوّه، ونزوله إلى سماء الدنيا، ولا يكون العرش فوقه، وكذلك يوم القيامة كما جاء به الكتاب والسنة، وليس نزوله كنزول أجسام بني آدم من السطح إلى الأرض بحيث يبقى السقف فوقهم؛ بل الله مُنزَّه عن ذلك"٢.

الخلاصة:

فقد أثبت السلف الصفات الفعلية لله تعالى، كما أثبتوا غيرها من الصفات، وأكدوا أن السبيل إلى ذلك هو الكتاب والسنة، وبينوا بطلان قول المعطلة ومخالفتهم لصحيح المعقول وصريح المنقول وقواعد اللغة. مؤكدين أن ما كان من صفات الكمال للمخلوقين فهو في حق الله أولى.

وقد اتفق شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله– مع منهج السلف في إثبات الصفات الفعلية الاختيارية لله تعالى.

---

١) انظر المختار من الإبانة، لابن بطة، ٢٤٠.

٢) شرح حديث النزول، ابن تيمية، ١٦١، ٢٣٢

المطلب الثاني

قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الصفات الاختيارية لله تعالى

اتفق شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى- مع منهج السلف في إثبات الصفات الاختيارية لله تعالى، وقد عرف شيخ الإسلام الصفات الاختيارية بقوله:

" الصفات الاختيارية: هي الأمور التي يتصف بها الرب عز وجل فتقوم بذاته وبمشيئته وقدرته، مثل كلامه وسمعه وبصره وإرادته ومحبته ورضاه ورحمته وغضبه وسخطه، ومثل خلقه وإحسانه وعدله، ومثل استوائه ومجيئه وإتيانه ونزوله ونحو ذلك من الصفات التي نطق بها الكتاب العزيز والسنة"١.

وعلى ذلك فإن الصفات الاختيارية قائمة بذات الله، مرتبطة بمشيئته وقدرته فإذا شاء فعلها وإذا لم يشأ لم يفعلها.

وأوضح –رحمه الله تعالى – إن الصفات الفعلية ثابتة في الكتاب والسنة من غير تشبيه أو تمثيل، فقال: " فإن وصفه سبحانه وتعالى في هذا الحديث بالنزول هو كوصفه بسائر الصفات ، كوصفه بالاستواء إلى السماء وهي دخان ، ووصفه بأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش، ووصفه بالإتيان والمجيء في مثل قوله تعالى ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة:٢١٠]، وقوله تعالى : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ [الأنعام ١٥٨]، وأمثال ذلك من الأفعال التي وصف الله تعالى بها نفسه التي تسميها النحاة أفعالا متعدية وهي غالب ما ذكر في القرآن ، أو يسمونها لازمة لكونها لا تنصب المفعول به بل لا تتعدى إليه إلا بحرف الجر : كالاستواء إلى السماء وعلى العرش والنزول إلى السماء الدنيا ونحو ذلك"٢ .

يوضح شيخ الإسلام- رحمه الله- أن صفات الأفعال لله تعالى جاءت لازمة في مواضع ومتعدية في مواضع أخرى، ومن هذه الأفعال الاستواء والمجيء والنزول ونحوها ومنها أيضا كلام الله تعالى، وتابع ابن تيمية ذكر الأدلة على ذلك من كتاب الله فقال:

---

١) مجموع الفتاوى، ٦/٢١٨.

٢) المرجع السابق ، ٥/٣٢٣.

"فإن الله وصف نفسه بهذه الأفعال، ووصف نفسه بالأقوال اللازمة والمتعدية في مثل قوله : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾[البقرة:٣٠]،وقوله تعالى:﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾[النساء:١٦٤]، وقوله تعالى ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ ﴾ [الأعراف:٢٢] وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ {القصص:٦٥} ، وقوله : ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب:٤] وقوله : ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ [الزمر:٢٣] وقوله : ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ﴾[الأعراف:١٣٧]، وقوله : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الأنعام:١١٥] وقوله: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ ﴾[آل عمران:١٢٥]

وكذلك وصف نفسه بالعلم والقوة والرحمة، ونحو ذلك كما في قوله:﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ [البقرة:٢٥٥] وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِين ﴾ [الذاريات:٥٨]،وقوله:﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾[غافر:٧]،وقوله ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف:١٥٦]، ونحو ذلك مما وصف به نفسه في كتابه ،وما صح عن رسوله صلى الله عليه وسلم فإن القول في جميع ذلك من جنس واحد"١.

وبهذا فقد أوضح شيخ الإسلام أن السبيبل إلى معرفة هذه الصفات مرده إلى ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه، وليس هناك أي مجال للتأويل فيه فهو كما وصف نفسه ليس كمثله شيء.

وأوضح أن السلف متفقون على ذلك فقال: " ومذهب سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفونه بما وصف به نفسه ووصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم في النفي والإثبات. والله سبحانه وتعالى قد نفى عن نفسه مماثلة المخلوقين، فقال الله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَد اللَّهُ الصَّمَد لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَد وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَد ﴾ [الإخلاص] "٢.

وبهذا فقد أبطل شيخ الإسلام- رحمه الله- حجج القائلين بالتماثل والتشابه بين صفات الله وصفات المخلوقين، واستند في ذلك إلى قواعد اللغة، إضافة إلى الثابت من الكتاب والسنة، فلم يعد من العقل القول بتشابه صفات الله بأحد من مخلوقاته لانعدام التلازم، لأن كل صفة تتبع موصوفها.

وقد بين –رحمه الله – في موضع آخر مخالفة المتكلمين في نفي الصفات الاختيارية، فقال: " فالجهمية ومن وافقهم من المعتزلة وغيرهم، يقولون: لا يقوم بذاته شيء من هذه الصفات، ولا غيرها.

١) مجموع الفتاوى، ٣٢٤/٥.

٢) المرجع السابق ٣٢٦/٥-٣٢٧.

والكُلاَّبية ومن وافقهم من السالمية وغيرهم يقولون: تقوم صفات بغير مشيئته وقدرته، فأما ما يكون بمشيئته وقدرته، فلا يكون إلا مخلوقًا منفصلا عنه"١.

إذن فالجهمية والمعتزلة ينفون الصفات الاختيارية، أما الكلابية والسالمية ينكرون قيام هذه الصفات بمشيئته وقدرته؛ لأن ما يقوم بمشيئة الله لا يكون إلا مخلوقا، والمخلوق لا يكون إلا منفصلا مباينا عن ذات الله، ولهذا أنكروا هذه الصفات.

ذكر شيخ الإسلام موقف السلف من الصفات الاختيارية فقال:

" وأما السلف وأئمة السنة والحديث، فيقولون: إنه متصف بذلك، كما نطق به الكتاب والسنة، وهو قول كثير من أهل الكلام والفلسفة أو أكثرهم، كما ذكرنا أقوالهم بألفاظها في غير هذا الموضع. ومثل هذا الكلام، فإن السلف وأئمة السنة والحديث يقولون: يتكلم بمشيئته وقدرته، وكلامه ليس بمخلوق، بل كلامه صفة له قائمة بذاته"٢.

ومما سبق نجد أن شيخ الإسلام ابن تيميه — رحمه الله - أكد أن السلف يثبتون الصفات الاختيارية لله تعالى ومستندهم في ذلك ما ورد في الكتاب والسنة. كما نقل عن عدد منهم القول بذلك فقال: " وممن ذكر أن ذلك قول أئمة السنة، أبو عبد الله بن منده، وأبو عبد الله بن حامد، وأبو بكر عبد العزيز، وأبو إسماعيل الأنصاري وغيرهم. وكذلك ذكر أبو عمر بن عبد البر نظير هذا في الاستواء، وأئمة السنة كعبد الله بن المبارك، وأحمد بن حنبل، والبخاري، وعثمان بن سعيد الدارمي ومن لا يحصى من الأئمة، وذكره حرب بن إسماعيل الكرماني عن سعيد بن منصور، وأحمد بن حنبل، وإسحاق بن إبراهيم، وسائر أهل السنة والحديث متفقون على أنه متكلم بمشيئته، وأنه لم يزل متكلمًا إذا شاء، وكيف شاء"٣.

وقال إن السلف تصدوا للمخالفين منذ ظهور الجهمية في القرن الثاني، ومن ذلك محنة الإمام أحمد، فقال: " لكن لما ظهرت الجهمية النفاة، في أوائل المائة الثانية، بيّن علماء المسلمين ضلالهم وخطأهم، ثم ظهر رَعْنَة ٤، الجهمية في أوائل المائة الثالثة. وامتحن "العلماء:" : الإمام أحمد وغيره، فجردوا الرد على الجهمية وكشف ضلالهم حتى جرد الإمام أحمد الآيات التي من القرآن، تدل على بطلان قولهم، وهي كثيرة جدًا"٥.

١) مجموع الفتاوى، ، ٢١٩/٦.

٢) المرجع السابق ، ٢٢٠/٦

٣) مجموع الفتاوى، ٢١٩/٦.

٤) رعنة: حماقة، انظر القاموس مادة رعن.

٥) مجموع الفتاوى، ٢٢٣/٦.

وأكد أن الآيات الدالة على الصفات الاختيارية في القرآن كثيرة جدا، وهو ما اعتمد عليه السلف في هذا الباب وقال:

"بل الآيات التي تدل على الصفات الاختيارية التي يسمونها حلول الحوادث كثيرة جدًا، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ﴾[الأعراف: ١١]، فهذا بين في أنه إنما أمر الملائكة بالسجود بعد خلق آدم، لم يأمرهم في الأزل، وكذلك قوله﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:٥٩]، فإنما قال له: بعد أن خلقه من تراب، لا في الأزل. وكذلك قوله في قصة موسى﴿فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص:٣٠]، فهذا بين في أنه إنما ناداه حين جاء لم يكن النداء في الأزل، كما يقوله الكُلاَّبية، يقولون: إن النداء قائم بذات الله في الأزل، وهو لازم لذاته لم يزل ولا يزال مناديًا له، لكنه لما أتى خلق فيه إدراكًا لما كان موجودًا في الأزل"١.

الخلاصة:

اتفق شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – – رحمه الله – مع منهج السلف في إثبات الصفات الاختيارية لله تعالى، وبين أن الله لم يزل متصفا بها متى شاء

١) مجموع الفتاوى، ٢٢١/٦

الباب الثاني

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في مسائل الإيمان، وفيه ثلاثة فصول:

الفصل الأول

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في أركان الإيمان الستة، وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بالملائكة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بالملائكة.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بالملائكة.

المبحث الثاني

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بالكتب المترلة، وفيه مطلبان

المطلب الأول الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بالكتب المترلة.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بالكتب المترلة.

المبحث الثالث

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بالأنبياء، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بالأنبياء.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بالأنبياء.

المبحث الرابع

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان باليوم الآخر، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان باليوم الآخر.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان باليوم الآخر.

المبحث الخامس

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بالقدر، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بالقدر.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بالقدر.

الفصل الثاني

منهج شيخ الإسلان في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في باب الإيمان بالقبر والقيامة وما يتعلق به، وفيه ثلاثة مباحث.

المبحث الأول

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بأحوال القبر وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بأحوال القبر

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بأحوال القبر.

المبحث الثاني

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد علي الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بالشفاعة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بالشفاعة.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بالشفاعة.

المبحث الثالث

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بأهوال يوم القيامة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بأهوال يوم القيامة.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بأهوال يوم القيامة.

الفصل الثالث

منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الصحابة والخلافة والإمامة والرد على المخالفين والتمسك بالكتاب والسنة، وفيه مبحثان:

المبحث الأول

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الصحابة والخلافة والإمامة والرد على المخالفين، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الصحابة والخلافة والإمامة والرد على المخالفين.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الصحابة والخلافة والإمامة والرد على المخالفين.

المبحث الثاني

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في التمسك بالكتاب والسنة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في التمسك بالكتاب والسنة.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في التمسك بالكتاب والسنة.

الفصل الأول

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في أركان الإيمان الستة، وفيه خمسة مباحث:

المبحث الأول

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بالملائكة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بالملائكة.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بالملائكة.

المبحث الثاني

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بالكتب المترلة، وفيه مطلبان

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بالكتب المترلة.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بالكتب المترلة.

المبحث الثالث

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بالأنبياء، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بالأنبياء.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بالأنبياء.

المبحث الرابع

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان باليوم الآخر، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان باليوم الآخر.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان باليوم الآخر.

المبحث الخامس

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بالقدر، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بالقدر.

المطلب الثاني:قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بالقدر.

المبحث الأول

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بالملائكة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بالملائكة.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بالملائكة.

مدخل

الملائكة لغة:

الملائكة جمع ملك، قال ابن فارس: (الميم واللام والكاف أصل صحيح يدل على قوة في الشيء وصحة)١ والملك أصله (ملاك) نقلت حركة الهمزة فيه إلى الساكن قبله، ثم حذفت الألف تخفيفاً فصارت ملكاً، وهو مشتق من الألوكة والمألكة وهي: الرسالة، والملأك: الملك؛ لأنه يبلغ عن الله تعالى، يقال: ألك؛ أي تحمل الرسالة٢.

الملائكة اصطلاحا:

خلق من خلق الله تعالى، خلقهم الله عز وجل من نور، مربوبون مسخرون، عباد مكرمون، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، لا يوصوفون بالذكورة ولا بالأنوثة، لا يأكلون ولا يشربون، ولا يملون ولا يتعبون ولا يتناكحون ولا يعلم عددهم إلا الله٣.

وقد عرفها بعضهم بأنها: (أجسام نورانية، أعطيت قدرة على التشكل والظهور بأشكال مختلفة بإذن الله تعالى)٤.

والإيمان بالملائكة هو الأصل الثاني من أصول الإيمان، لا يتحقق إيمان العبد إلا به ، وقد أخبر الله تعالى عنها في كتابه ، كما أخبر عنها النبي صلى الله عليه وسلم في سنته، قال تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾ [النساء: ١٣٦].

وفي حديث جبريل قال صلى الله عليه وسلم: "... فأخبرني عن الإيمان قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره"٥.

وبهذا يتبين منزلة الإيمان بالملائكة، ووجوب الإيمان بهم، من باب تصديق خبر الله تعالى لأنهم عالم غيبي لم يرهم أحد من البشر، ولم يسمع أحد صوتهم، ولكن جاء خبرهم في كتاب الله وسنة نبيه،

---

١) مقاييس اللغة، ابن فارس، مادة ملك، ٣٥١/٥

٢) مقاييس اللغة، مادة ألك، ١٣٢/١، المحيط في اللغة، ٢٧٣/٦، المصباح المنير، ١٢٣/١، القاموس المحيط،٤٣٢/٣.

٣) لوامع الأنوار البهية، ٤٤٧/١، أعلام السنة المنشورة، ٧٨.

٤) فتح الباري، ٤٥٠/٦، روح المعاني، للألوسي، ٢١٨/١، وانظر: المسائل العقدية التي حكى فيها ابن تيمية الإجماع، ٦٦٠.

٥) اخرجه مسلم، في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان والإيمان بالقدر، برقم (٨).

وبذلك يصبح الإيمان بهم إيمانا بما أنزل الله في كتابه الذي بين فيه مترلتهم على وجه الإجمال والتفصيل، وقد اعتنى علماء الأمة بهذا الباب، وكانت لهم الكثير من المؤلفات حوله، نظرا لمكانتهم، غير أنه وقع خلاف في بعض المسائل المتعلقة بهم، تبعا للخلافات القائمة في مسائل العقيدة بين السلف وغيرهم، وقد عني شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- كثيرا بهذا الباب، معتمدا في ذلك على الآثار الواردة عن السلف، وهو ما سوف نلقي الضوء عليه في هذا المبحث.

والإيمان بالملائكة كغيره من الغيبيات، لا يجوز وصفهم بغير ما وصفهم به الشرع، فهم كما أخبر الله عنهم بصفاهم وأسمائهم وأحوالهم جميعها، ومعنى الإيمان بالملائكة تصديق القلب واللسان والجوارح.

المطلب الأول

الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة هو الركن الثاني من أركان الإيمان بالله تعالى، ولما كانت الملائكة من العوالم الغيبية، فقد اعتمد منهج السلف، وكذا شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى- في الإيمان بها على إخبار الله عز وجل عنها في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه.

قال تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وفي سؤال جبريل عن الإيمان قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أنْ تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر[١]"،

وقد ورد الكثير من آثار السلف المعتمدة على نصوص الشرع في توضيح ماهيتها، ووظائفها وعلاقتها ببني آدم

خلق الملائكة

دلت السنة والآثار الواردة عن السلف أن الملائكة خلق من نور، عن عائشة قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم"[٢].

وفي شرح الحديث قال الحافظ المنذري: "خُلقت الملائكة من نور، أي أن المادة التي خلقت منها الملائكة هي النور، فمادة خلقها هي النور، فالملائكة أجسامٌ خلقت من النور، ولا يلزم من هذا أن تكون نوراً في نفسها على كل حال، فالإنسان خُلق من طين، أي أن أصله ومادة خلقه هي الطين، ولكن هو ليس طيناً في نفسه، وهكذا الجن خُلقوا من النار، هذا أصل المادة، ولا يلزم من ذلك أن يبقى الجان ناراً، بل أصل الخلقة كذلك.

فالملائكة مادة خلقهم هي النُّور، والله تبارك وتعالى خالق هذه الأنوار كلها، منها نور الشمس، ومنها نور القمر، وغيرها من الأنوار، فهو سبحانه منوِّر السموات والأرض وما بينهما"[٣].

---

١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان والإيمان بالقدر، برقم (٨).

٢) أخرجه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة، حديث رقم: ٧٦٨٧.

٣) شرح كتاب التفسير من مختصر صحيح مسلم، الحافظ المنذري، باب: خلق الإنسان والملائكة والجان، ٢/٥٧٨.

يوضح المنذري كيف خلق الله الملائكة، وأن النور الذي خلقت منه من أنواره تبارك وتعالى، ولا يلزم بالضرورة أن تكون نورا في ذاتها كحال الإنسان الذي خلق من طين.

كما دلت السنة على قدرة الملائكة على التمثل في شكل؛ كما في حديث جبريل المشهور عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: (بينا نحن عند رسول الله ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد! أخبرني عن الإسلام؟...).

ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث: ((يا عمر! أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: فإنه جبريل، أتاكم يعلمكم دينكم"[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أن رجلا زار أخا له في قرية أخرى، فأرصد الله له على مدرجته ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخا لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل، قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه"[٢]. وبالتالي فإن الملائكة خلق من خلق الله، خلقهم بالصورة التي تتوافق مع ما وكل إليهم من أعمال، بحسب حكمته جل وعلا.

عظم خلقهم

الملائكة الكرام عليهم والسلام من أقوى مخلوقات الله تعالى، ميزهم الله بالقوة العظيمة، فهم أشداء أقوياء، لهم خلقة عظيمة تليق بما كلفهم الله به من أعمال، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في صورته، وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم"[٣].

---

١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان والإيمان بالقدر، برقم (٨)

٢) أخرجه مسلم – كتاب البر والصلة والآداب – باب في فضل الحب في الله، حديث رقم: ٢٥٦٧.

٣) أخرجه البخاري ، كتاب التفسير – سورة النجم ، باب فكان قاب قوسين ، برقم (٤٨٥٦)، ومسلم في كتاب الإيمان ، باب ذكر سدرة المنتهى، برقم (١٧٤).

عددهم ووظائفهم وأحوالهم

اتفق السلف على أن عدد الملائكة لا يحصيه إلا الله وأنه لا يمكن حصرهم في عدد معين كما ادعت الفلاسفة وغيرهم من الذين ينكرون أن الملائكة خلق من خلق الله، ويؤمن السلف إيمانا تفصيليا بأعداد الملائكة.

روى الترمذي عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنِّي أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون. أَطَّت السَّماءُ وحق لها أَنْ تَئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتُم قليلاً ولبكيتم كثيراً ولما تلذذتم بالنِّساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى: فقال أبو ذر: والله لوددت أني شجرة تعضد"١.

وقال ابن كثير عند تفسير قوله تعالى ﴿ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ﴾ [الطور: ٤]: "ثبت في الصحيحين: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في حديث الإسراء، بعد مجاوزته السماء السابعة: (ثم رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألفاً، لا يعودون إليه آخر ما عليهم) ؛ يعني يتعبدون فيه، ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم، والبيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة، ولهذا وَجَد إبراهيمَ الخليل - عليه الصلاة والسلام - مسنداً ظهره إلى البيت المعمور؛ لأنه باني الكعبة الأرضية، والجزاء من جنس العمل"٢.

علاقة الملائكة بالمؤمنين

كما أثبت السلف علاقة الملائكة بالمؤمنين، وأن رؤيتهم على حالهم ممكنة، وليست مستحيلة، رغم عدم وجود ما دل على رؤيتهم علي هئيتهم في الدنيا، وقد روى الكثير من السلف أخبارا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تبين ذلك.

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: "أن أسيد بن حضير بينما هو في ليلة يقرأ في مربده، إذ جالت فرسه، فقرأ، ثم جالت أخرى، فقرأ، ثم جالت أيضاً. قال أسيد: فخشيت أن تطأ يجيى، فقمت إليها، فإذا مثل الظلة فوق رأسي، فيها أمثال السرج، عرجت في الجوّ حتى ما أراها. قال: فغدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت: يا رسول الله، بينا أنا البارحة من جوف الليل أقرأ في مربدي، إذ جالت فرسي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرأ ابن حضير، قال: فقرأت، ثمّ جالت أيضاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرأ ابن حضير، قال: فقرأت، ثم جالت أيضاً،

---

١) سنن الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب في قول النبي صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا، حديث رقم: ٢٣١٢ وَقَالَ: حديثٌ حسنٌ .وصححه الألباني في السلسلة، رقم (١٧٢٢).

٢) تفسير القرآن العظيم، ٧/٤٩٢.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اقرأ ابن حضير، قال: فانصرفت، وكان يحيى قريباً منها، خشيت أن تطأه، فرأيت مثل الظلة فيها أمثال السرج، عرجت في الجوّ حتى ما أراها ،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تلك الملائكة كانت تسمع لك، ولو قرأت لأصبحت يراها الناس ما تستتر منهم"[1].

وعن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن لله ملائكة سياحين في الأرض يبلغوني عن أمتي السلام"[2].

كما أخبر النبي صحابته أنهم لو ثبتوا على الإيمان الكامل بالله، لصافحتهم الملائكة في الطرقات، لولا أن الله تعالى، قد جعل من طبيعة البشر، أن لها ما يشغلها بأمور الدنيا.

وفي حديث حنظلة- رضي الله عنه- عن الخوف من النفاق قال: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات"[3].

وعن تعدد أحوال الملائكة ووظائفهم قال المنذري:

"وقد ورد في القرآن والسنة أن الملائكة لهم قدرات وقوة عظيمة وهبهم الله إياها، وأن الله تبارك وتعالى استعملهم ووظّفهم في وظائف كثيرة في الكون، فهم يَسوقون السحاب والرياح بأمر الله تعالى، ويُرسلون المطر بإذن الله، وملائكة موكلون بقبض أرواح بني آدم، وملائكة موكلون بحفظ أعمال بني آدم وهم الحفظة، وهناك ملائكة موكلون بمجالس الذكر، وهم سيّاحون في الأرض، يتنادون إذا سمعوا مجلساً يُذكر فيه الله تعالى، ويقولون: هلموا إلى بُغيتكم، إلى حاجتكم، فيحفون أهل الذكر إلى السماء الدنيا، ومنهم ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار فينا، ويجتمعون في صلاة العصر والفجر كما ورد في الأحاديث، وأعمالهم كثيرة جداً، وهم جندٌ لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم، كما قال تعالى ﴿ وما يَعلم جُنودَ ربّك إلا هو﴾ ومنهم جندٌ يقاتلون مع المؤمنين الصادقين المخلصين في القتال والجهاد، ويعينونهم على أعدائهم، ومنهم جُندٌ يبثّون الرُّعب في قلوب المشركين، ويزلزلونهم ويخوفونهم"[4].

---

١) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن، حديث رقم: ٥٠١٨.

٢) مسند أحمد بن حنبل، حديث رقم: ٤١٨٢.

٣) أخرجه مسلم، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة، حديث رقم: ٢٧٥٠.

٤) شرح مختصر صحيح مسلم، المنذري، ٤٤

المطلب الثاني

قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بالملائكة.

في المطلب السابق اطلعنا على بعض الآثار الواردة عن السلف، في الإيمان بالملائكة، وكيف كان منهجهم في ذلك، وبينا أن شيخ الإسلام في اعتماده على هذه الآثار وغيرها، يسير على ما ثبت من الكتاب والسنة وما وافق ذلك منها.

وأوضح أنها مخلوقات حقيقية وليست كما زعم الفلاسفة، بأنها ليست أجساما، وأنها مجرد صفات غير قائمة بذاتها، ونقل إجماع الأمة حول هذه المسألة فقال رحمه الله-: " والملائكة من الأعيان لا من الأعراض، فهي من المخلوقات باتفاق المسلمين، وليس بين أهل الملل خلاف في أن الملائكة جميعهم مخلوقون، ولم يجعل أحد منهم المصنوعات نوعين: عالم خلق وعالم أمر، بل الجميع عندهم مخلوق، ومن قال: إن قوله تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، أريد به هذا التقسيم الذي ذكره، فقد خالف إجماع المسلمين"١.

وبهذا لم يخالف شيخ الإسلام الإجماع حول أن الملائكة أجسام حقيقية، وليست أعراضا أو صفات، وأوضح أن المسلمين أكثر الناس معرفة بالملائكة فقال:" فنقول إن المسلمين من أعظم الناس معرفة بوجود الملائكة والجن كما دل على ذلك الكتاب والسنة وإجماع الأمة"٢.

وبين – رحمه الله– أن للملائكة وظائف متعددة بحسب ما أخبر الله تعالى به فيهم ، قال شيخ الإسلام: " فإن اسم الملائكة، والملك يتضمن أنهم رسل الله، كما قال تعالى: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]، وكما قال تعالى : ﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١]، فالملائكة رسل الله في تنفيذ أمره الكوني الذي يدبر به السموات والأرض، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام:٦١]، وكما قال: ﴿بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]، وأمره الديني الذي تنزل به الملائكة، فإنه قال: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: ٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى:٥١]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج:٧٥]٣.

---

١) بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية، ص ٢٣١– ٢٣٢.

٢) الجواب الصحيح، ٢٤/٥.

٣) مجموع الفتاوى، ١١٩/٤.

وبهذا فقد أوضح شيخ الإسلام أن من أهم وظائف الملائكة، أنهم رسل الله تعالى في تنفيذ أمره الكوني، فهم ينفذون أوامره فيما يتم به تدبر الأمر في السموات والأرض، كما أنهم رسل الله الذين تتنزل بهم الرسالة على من أنبيائه ورسله فتتحقق بهم الهداية.

أعداد الملائكة:

يوضح شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – أن أعداد الملائكة من الأمور التي لا يحصيها إلا الله فيقول:"وملائكة الله لا يحصى عددهم إلا الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر:٣١]. وقيل لهم: الذي في الكتاب والسنة، من ذكر الملائكة وكثرتهم، أمر لا يحصر، حتى قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أطّت السماء وحُقّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا ملك قائم أو قاعد، أو راكع، أو ساجدا"١، ٢وقال الله تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى: ٥]٣.

أحوال الملائكة:

ذكر شيخ الإسلام أيضا أن أحوال الملائكة كأعدادها، من الأمور التي لا يعلمها ولا يحصيها إلا خالقها جل شأنه فيقول: "ومن المعلوم أن الملائكة لهم من الأحوال، والإرادات، والأعمال ما لا يحصيه إلا ذو الجلال، ووصفهم في القرآن بالتسبيح والعبادة لله أكثر من أن يذكر هنا، كما ذكر تعالى في خطابه للملائكة، وأمره لهم بالسجود لآدم. وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: ٣٨]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا

---

١) أخرجه سنن الترمذي، كتاب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب في قول النبي صلى الله عليه وسلم لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا، حديث رقم: ٢٣١٢ وَقالَ: حديثٌ حسنٌ .وصححه الألباني في السلسلة، رقم (١٧٢٢).

٢) الأطيط: صوت الأقتاب، وأطيط الإبل: أصواتها وحنينها، أي: أن كثرة ما فيها من الملائكة قد أثقلها حتى أطت. وهذا مثل وإيذان بكثرة الملائكة، وإن لم يكن ثم أطيط، وإنما هو كلام تقريب أريد به تقرير عظمة الله تعالى.

٣) مجموع الفتاوى، ١٢٠/٤

لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّن دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٢٦- ٢٩]،"١.

فهذه الآيات التي نقلها شيخ الإسلام - رحمه الله - تؤكد تعدد أحوال ووظائف الملائكة في الدنيا والآخرة، وهي أيضا من الأمور التوقيفية التي لا يجوز الحديث عنها إلا بالاعتماد على خبر الله، فتتعدد أحوال الملائكة في الدنيا والآخرة، فمنهم جنود الله الذين يرسلهم جل شأنه لتأييد عباده المؤمنين في دار الدنيا، ومنهم الموكلون بقبض الأرواح وغيرهم مما يلازم عباد الله في الدنيا والآخرة.

ثم يؤكد شيخ الإسلام أن السنة المطهرة ورد فيها أيضا ذكر أحوال الملائكة وتعدد وظائفهم وأحوالهم، فقال:" عـــن جابر بن سَمُرَةَ عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ قالوا وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: يتمون الصف الأول، ويتراصون في الصف"٢، وفي الصحيحين عن قتادة عن أنس عن مالك بن صعْصَعَة في حديث المعراج عن النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر صعوده إلى السماء السابعة قال:"فرفع لي البيت المعمور؛ فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا آخر ما عليهم"٣.

وقال البخاري: وقال همَّام عن قتادة عن الحسن، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إذا أمَّنَ القارئ فأمنوا؛ فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه٤ "٥ .

وتتعدد الأدلة من السنة الصحيحة على توجيه النبي صلى الله عليه وسلم بأهمية التشبه بالملائكة في الركن الأعظم من أركان الإسلام، بتنظيم الصفوف في الصلاة، والتأمين خلف الإمام، لأن الملائكة يؤمنون خلفه.

ملائكة السماء والملائكة السيارة:

يتابع شيخ الإسلام نقل الأدلة من السنة حول أحوال الملائكة ومنها: "وفي الصحيح عن عروة، عن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم؛ أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن الملائكة

١) مجموع الفتاوي، ٤/١٢١- ١٢٢.
٢) أخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باب الأمر بالسكون في الصلاة والنهي عن الإشارة باليد ورفعها عند السلام، برقم (٤٣٠).
٣) أخرجه البخاري، في كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (٣٠٣٥).
٤) أخرجه البخاري، في أبواب صفة الصلاة، باب جهر الإمام بالتأمين، برقم (٧٤٧).
٥) مجموع الفتاوى، ٤/١٢٤.

تنزل في العَنَان وهو السحاب فتذكر الأمر قضى في السماء، فتسترق الشياطين السمع، فتسمعه، فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم"١.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"إن لله ملائكة سيارة فضلاء، يتبعون مجالس الذكر، فإذا وجدوا مجلسًا فيه ذكر قعدوا معهم، وحَفَّ بعضهم بعضًا بأجنحتهم، حتى يملؤوا ما بينهم وبين السماء الدنيا، فإذا تفرقوا عرجوا وصعدوا إلى السماء، فيسألهم الله وهو أعلم من أين جئتم؟ فيقولون: جئنا من عند عباد لك في الأرض يسبحونك ويكبرونك، ويهللونك ويحمدونك، ويسألونك. قال: وما يسألوني؟ قالوا: يسألونك جنتك. قال: وهل رأوا جنتي؟ قالوا: لا أي رب، قال: فكيف لو رأوا جنتي؟ قالوا: ويستجيرونك. قال: ومم يستجيرونني؟ قالوا: من نارك. قال: وهل رأوا ناري؟ قالوا :يا رب لا. قال: فكيف لو رأوا ناري؟ قالوا: ويستغفرونك. قال: فيقول: قد غفرت لهم وأعطيتهم ما سألوا، وأجَرْتهم مما استجاروا، قال: يقولون: رب، فيهم فلان عبد خطاء، إنما مر فجلس معهم. قال: فيقول: وله قد غفرت، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم٢".

وفي هذا الحديث حث على حضور حلق العلم ومجالس الذكر، التي تحفها الملائكة فيكونوا شهداء على أصحابها، أمام الله تعالى ومغفرته لمن يحرص على المشاركة بينهم.

ثم ينقل شيخ الإسلام- رحمه الله- ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم، عن الهيئة التي يأتي إليه جبريل عليه السلام بها، فيقول:"وفي الصحيح عن أنس قال: "كأني أنظر إلى غبار ساطع في سكة بني غنم موكب جبريل" ٣، وفي الصحيحين عن عائشة" أن الحارث بن هشام قال يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ قال أحيانًا يأتيني مثل صَلْصَلَة الجرس، وهو أشده علي، فَيُفْصِم عني وقد وَعَيْتُ ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلاً، فيكلمني، فأعي ما يقول٤".

وإتيان جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم تارة في صورة أعرابي، وتارة في صورة دحْيَة الكلبي، ومخاطبته وإقراؤه إياه كثيرًا، أعظم من أن يذكر هنا"٥.

---

١) أخرجه البخاري، في كِتَاب بَدْءِ الْخَلْقِ، بَاب ذِكْرِ الْمَلَائِكَةِ، برقم (٢٩٨٩) وأخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب فضل مجالس الذكر، برقم (٢٦٨٩).

٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات ، باب فضل ذكر الله والأستغفار ، برقم (٦٠٤٥)، و مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل مجالس الذكر برقم (٢٦٨٩).

٣) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق،باب ذكر الملائكة ، برقم (٣٢١٤) .

٤) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق،باب ذكر الملائكة ، برقم (٣٢١٥)، و مسلم في كتاب الفضائل ، باب عرق النبي صلى الله عليه وسلم في البرد وحتى يأتيه الوحي ، برقم (٨٧) .

٥) مجموع الفتاوى، ٢٢٦/٤

ما يتأذى منه الملائكة:

نقل شيخ الإسلام عن السيدة عائشة رضي الله عنها حول أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صوراً؟ وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : حشوت للنبي صلى الله عليه وسلم وسادة فيها تماثيل كأنها نمرقة ، فجاء فقام بين البابين وجعل يتغير وجهه .فقلت : ما لنا يا رسول الله قال ما بال هذه الوسادة ؟ قالت: وسادة جعلتها لك لتضطجع عليها. قال: أما علمت أن الملائكة لا تدخل بيتا فيه صورة ، وأن من صنع الصورة يعذب يوم القيامة يقول أحيوا ما خلقتم ١"

وعَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، عَنْ عَائِشَةَ ، أَنَّهَا قَالَتْ : وَاعَدَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي سَاعَةٍ يَأْتِيهِ فِيهَا ، فَجَاءَتْ تِلْكَ السَّاعَةُ وَلَمْ يَأْتِهِ ، وَفِي يَدِهِ عَصًا ، فَأَلْقَاهَا مِنْ يَدِهِ ، وَقَالَ : مَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَا رُسُلُهُ ، ثُمَّ الْتَفَتَ ، فَإِذَا جِرْوُ كَلْبٍ تَحْتَ سَرِيرِهِ ، فَقَالَ : يَا عَائِشَةُ ، مَتَى دَخَلَ هَذَا الْكَلْبُ هَاهُنَا ؟ فَقَالَتْ : وَاللَّهِ ، مَا دَرَيْتُ ، فَأَمَرَ بِهِ فَأُخْرِجَ ، فَجَاءَ جِبْرِيلُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : وَاعَدْتَنِي فَجَلَسْتُ لَكَ فَلَمْ تَأْتِ ، فَقَالَ : مَنَعَنِي الْكَلْبُ الَّذِي كَانَ فِي بَيْتِكَ ، إِنَّا لَا نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلَا صُورَةٌ .٢" ٣.

وبهذا فقد بين شيخ الإسلام- رحمه الله- تعدد أحوال الملائكة وبين صفاتهم، وأن أعدادهم لا يحصيها أحد إلا الله تعالى، وأوضح أن للملائكة وظائف في الدنيا تختلف عن الآخرة، فهناك الملائكة الموكلون بتنفيذ التدابير الكونية في السموات والأرض، وهناك الملائكة السيارة الذين يتحرون مجالس العلم ويشهدون على أهلها أمام الله تعالى، وكذلك الملائكة الموكلون بالوحي مثل جبريل عليه السلام، وهناك الملائكة الذين في السموات وملائكة الهواء والجبال، والملائكة المتصرفون في أمور العباد وغير ذلك، وأخيرا بين لنا ما يتأذى منه الملائكة والحث على تجنب ذلك.

التفضيل بين الملائكة وبني آدم:

وقد نقل شيخ الإسلام أن هناك خلافا بين أهل السنة وغيرهم في مسألة الأفضلية، كما أوضح أن السلف يقولون بالتفاضل بين الملائكة والبشر، وأنه اتفق مع مذهب السلف في تقرير المسألة ونقل المروي عن السلف فيها ومنها ما ورد في الأفضلية بين الملائكة والنبي صلى الله عليه وسلم، وكذلك سجود الملائكة لآدم عليه السلام، فقال:" روى أبو يعلى الموصلي في [كتاب التفسير] المشهور له عن

---

١) أخرجه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (٣٢١٥).

٢) أخرجه البخاري، كتاب اللباس، باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة، برقم (٥٦١٥)، ومسلم في كتاب اللباس والزينة ، باب لا تدخل الملائكة بيتا فيه صورة برقم، (٣٩٣٤).

٣) مجموع الفتاوى، ١٢٦/٤.

عبد اللّه ابن سلام ١ ، وكان عالمًا بالتوراة والإنجيل ؛ إذ كان كتابيًا، وقد شهد له النبي صلى الله عليه وسلم بحسن الخاتمة، ووصية معاذ عند موته، وأنه أحد العلماء الأربعة الذين يبتغي العلم عندهم قال: ما خلق اللّه خلقًا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم. الحديث عنه. قلت: ولا جبرائيل، ولا ميكائيل؟ قال: يا بن أخي، أو تدري ما جبرائيل وميكائيل؟ إنما جبرائيل وميكائيل خلق مسخر، مثل: الشمس، والقمر، وما خلق اللّه تعالى خلقًا أكرم عليه من محمد صلى الله عليه وسلم. وروى عبد اللّه في [التفسير] وغيره عن مَعْمَر، عن زيد بن أسلم؛ أنه قال " قالت الملائكة: يا ربنا، جعلت لبني آدم الدنيا، يأكلون فيها ويشربون، فاجعل لنا الآخرة. فقال: وعزتي لا أجعل صالح ذرية من خلقتُ بيدي كَمَنْ قلت له كن فكان"٢.

وكذلك قصة سجود الملائكة كلهم أجمعين لآدم ٣، قال تعالى: ﴿ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ ، [سورة الحجر: ٣٠]، ولعن الممتنع عن السجود له، وهذا تشريف وتكريم له"٤.

الخلاصة:

اتفق شيخ الإسلام ابن تيمية–رحمه الله- مع منهج السلف الصالح في بيان صفات وأحوال الملائكة، وأن الإيمان بهم من باب الغيبيات التي لا مجال فيها للاجتهاد، فهم كما أخبر عنهم ربهم، وأوضح أن هناك ملائكة موكلون بأمور الدنيا الكونية والدينية، وملائكة موكلون بأمور الآخرة، وأوضح أنهم خلق من خلق الله وليس كما ذهب الفلاسفة، بأنهم غير ذلك .

فالله – عز وجل – خلق الملائكة عقولاً بلا شهوات ، وخلق الحيوان شهوة بلا عقل ، وخلق البشر عقولا وشهوات . فإن غلب عقل الإنسان واتبع شرع الله بتنفيذ أوامره واجتناب نواهيه ارتفع إلى درجة الملائكة. بل يكون أفضل من الملائكة . ومن أولئك نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – سيد ولد آدم ولا فخر .وأما إن غلبت شهوة الإنسان عقلة فإنه ينزل إلى درجة الحيوان بل يكون أضل، قال تعالى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ سورة : الأعراف:١٧٩

---

١) مسند أبو يعلى، ص٩٧٩، برقم، (٥٣٨١).

٢) المعجم الأوسط للطبراني، باب الميم، من اسمه محمد، محمد بن حنيفة الواسطي، حديث رقم: ٦١٦٩، قال الطبراني: "لم يرو هذا الحديث عن صفوان بن سليم إلا طلحة بن زيد ، وأبو غسان محمد بن مطرف ، تفرد به عن طلحة بن زيد ، محمد بن ماهان ، وتفرد به عن أبي غسان ، حجاج الأعور"، وقال ابن كثير في تفسير القرآن العظيم، تفسير سورة الإسراء، ٩٨/٥: "وهذا الحديث مرسل من هذا الوجه ".

٣) مجموع الفتاوى، ٤/ ٣٥٦.

٤) المرجع السابق، ٣٦٤/٤ .

المبحث الثاني

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بالكتب المترلة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بالكتب المترلة.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بالكتب المترلة.

مدخل

الإيمان بالكتب المترلة من الله تعالى على رسله؛ هو الركن الثالث من أركان الإيمان، وهي من الأمور التي لا يعلمها إلا الله تعالى، فكما أنزل رب العزة القرآن على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، أنزلها أيضا على غيره من الأنبياء، وأخبر عن بعضها في كتابه الكريم ، والإيمان بها من أوجب واجبات الدين.

تعريف الكتب:

الكتب لغة: "جمع كتاب بمعنى مكتوب، والكتب صحف ضم بعضها إلى بعض.

والكتاب مصدر سمي به المكتوب، وهو في الأصل اسم للصحيفة مع المكتوب فيها"١

ويطلق على كل كتابة ومكتوب، ثم غلب في عرف أهل الشرع على القرآن"٢، و"يطلق على كل كتابة ومكتوب، فهو يستعمل بمعنى المصدر ، وبمعنى اسم المفعول"٣

الكتب اصطلاحا: "الكتب التي أنزلها الله تعالى على رسله رحمة للخلق، وهداية لهم، ليخرج بها من يشاء من الظلمات إلى النور"٤، وقيل: " هي كلام الله أوحى بها إلى رسله – عليهم الصلاة والسلام – عن طريق جبريل – عليه السلام –؛ وذلك ليبلغوه للناس ليكون حجة لله على خلقه " ٥.

والإيمان بالكتب السماوية إجمالا، من الأركان الستة التي لا يصح إيمان العبد إلا بها، وقد وردت الكثير من الأدلة على ذلك، قال تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴾ [النساء: ١٣٦].

---

١) لسان العرب، فصل (كتب)، والعقيدة الصافية، سيد عبدالغني، ص:٨١.

٢) إرشاد الفحول إلى علم الأصول، الشوكاني، ١/١٢٠.

٣) مقاييس اللغة ٥/١٠٨ ، مادة قرأ.

٤) المدخل إلى الثقافة الإسلامية، مجموعة مؤلفين، ص:١٢٧.

٥) العقيدة الصافية للفرقة الناجية، سيد سعيد عبدالغني، (ص:٨١).

وفي حديث جبريل قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " قال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره) ١.

وروى مسلم عن تميم الداري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الدين النصيحة قلنا لمن قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) "٢.

كما توعد ربنا تبارك وتعالى الذين يكفرون بكتبه بعذاب أليم، قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١]. وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ﴾ [الأنعام:١٥٧].

وقال تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف:٣٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لاَ تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء وَلاَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:٤٠].

ونقل العلماء إجماع السلف على كفر من أنكر الكتب المنزلة، قال ابن عبدالبر:

"وأجمع العلماء أن ما في مصحف عثمان وهو الذي بأيدي المسلمين اليوم في أقطار الأرض حيث كانوا، هو القرآن المحفوظ الذي لا يجوز لأحد أن يتجاوزه، ولا تحل الصلاة لمسلم إلا بما فيه... - إلى أن قال: - وإنما حلّ مصحف عثمان رضي الله عنه هذا المحل، لإجماع الصحابة وسائر الأمة عليه، و لم يجمعوا على ما سواه... ويبين لك أن من دفع شيئاً مما في مصحف عثمان كفر"٣.

وقال القاضي عياض: اعلم أن من استخفّ بالقرآن، أو المصحف، أو بشيءٍ منه، أو سبّهما، أو جحده، أو حرفاً منه أو آيةً، أو كذّب به، أو بشيءٍ منه، أو كذّب بشيءٍ مما صرح به فيه من حكم، أو خبر، أو أثبت ما نفاه، أو نفى ما أثبته علـــى علمٍ منه بذلك، أو شك في شيءٍ من ذلك فهو كافر

---

١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب تعريف الإسلام والإيمان،برقم (١).

٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، برقم (٥٥).

٣) التمهيد، ٢٧٨- ٢٧٩.

عند أهل العلم بإجماعٍ، قال الله تعالى: ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت:٤٢].

وكذلك إنْ جحد التوارة والإنجيل وكتب الله المنزلة، أو كفر بها، أو لعنها، أو سبها، أو استخف بها فهو كافر.

وقال أبو عثمان الحداد: " جميع من ينتحل التوحيد متفقون أن الجاحد لحرف من التنزيل كفر"[١]

١) الشفا، للقاضي عياض ٢/١١٠١

المطلب الأول

الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بالكتب المترلة.

اتفق السلف على وجوب الإيمان بالكتب المترلة لما ورد في ذلك من أدلة شرعية تؤكد أن ذلك فهو الركن الثالث من أركان الإيمان التي لا يتم إيمان العبد إلا بها.

وجوب الإيمان بها:

حكم من أنكر الكتب المترلة أو استهزأ بشيء منها عند السلف:

أجمع السلف على كفر من أنكر الكتب المترلة أو شيئا منها أو استهزأ بشيء فيها، و قد نقل ابن عبد البر عن اسحق بن راهويه الإجماع على كفر من أنكر أو استهان بما أنزله الله على رسله: قال: "وقد أجمع العلماء أن من سب الله عز وجل ، أو سب رسول الله – صلى الله عليه وسلم-، أو دفع شيئا أنزله الله، أو قتل نبيا من أنبياء الله، وهو مع ذلك مقر بما أنزل الله أنه كافر"١.

وقد نقل السلف أنه يجب عقاب من استهزأ أو أنكر شيئا من الوحي، قال تعالى: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ ،[سورة الأعراف: ٦٥]. قال القاضي عياض: " اعلم أن من استخفّ بالقرآن، أو المصحف، أو بشيءٍ منه، أو سبّهما، أو جحده، أو حرفاً منه أو آيةً، أو كذّب به، أو بشيءٍ منه، أو كذّب بشيءٍ مما صرح به فيه من حكم، أو خبر، أو أثبت ما نفاه، أو نفى ما أثبته علـــى علمٍ منه بذلك، أو شك في شيءٍ من ذلك فهو كافر عند أهل العلم بإجماعٍ، قال الله تعالى: ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢].

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من جحد آية من كتاب الله من المسلمين فقد حل ضرب عنقه)٢. وكذلك إنْ جحد التوارة والإنجيل وكتب الله المترلة، أو كفر بها، أو لعنها، أو سبها، أو استخف بها فهو كافر"٣.

كما أكد القاضي عياض- رحمه الله- أن العقوبة تشمل أيضا من استهزأ بكتاب من الكتب المترلة ومنها التوراة ورأي أن في ذلك عقوبة مغلطة فقال: " وقد سئل القابسي٤ ، عمن خاصم يهوديا

١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ٢٢٧/٤.

٢) سنن ابن ماجة، في كتاب الحدود، باب إقامة الحدود، حديث رقم: (٢٥٣٩)، ضعيف الجامع (٥٥٤٢)، السلسلة الضعيفة (١٤١٦).

٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، ٣٢٢

٤) الإمام الحافظ الفقيه ، العلامة عالم المغرب ، أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القروي القابسي المالكي ، صاحب "

فحلف له بالتوراة ، فقال الآخر: لعن الله التوراة ، فشهد عليه بذلك شاهد ، ثم شهد آخر أنه سأله عن القضية فقال : إنما لعنت توراة اليهود، فقال أبو الحسن : الشاهد الواحد لا يوجب القتل ، والثاني علق الأمر بصفة تحتمل التأويل، إذ لعله لا يرى اليهود متمسكين بشيء من عند الله لتبديلهم وتحريفهم، ولو اتفق الشاهدان على لعن التوراة مجردا لضاق التأويل "١.

فقد بين القاضي عياض أنه لا فرق بين من استهزأ بالقرآن أو غيره من الكتب المنزلة في إنزال العقوبة.

كما ذكر ابن بطة العكبري أن من آمن بكل الكتب المنزلة وكل ما جاءت به الرسل إلا شيئا واحدا فقد كفر، قال –رحمه الله–: "وكذلك وجوب الإيمان والتصديق بجميع ما جاءت به الرسل من عند الله، وبجميع ما قاله الله عز وجل فهو حقٌّ لازمٌ، فلو أن رجلاً آمن بجميع ما جاءت به الرسل إلا شيئاً واحداً، كان بردّ ذلك الشيء كافراً عند جميع العلماء"٢.

ويؤكد القاضي عياض أيضا أن إنكار حرف من أحرف القرآن أو زيادة شيء فيه من الكفر، كما فعلت طائفة الإسماعيلية وغيرها، فقال رحمه الله: و" كذلك من أنكر القرآن أو حرفا منه ، أو غير شيئا منه ، أو زاد فيه ، كفعل الباطنية والإسماعيلية ، أو زعم أنه ليس بحجة للنبي – صلى الله عليه وسلم – ، أو ليس فيه حجة ولا معجزة ، كقول هشام الفوطي ومعمر الصيمري : إنه لا يدل على الله ، ولا حجة فيه لرسوله ، ولا يدل على ثواب ولا عقاب ولا حكم ، ولا محالة في كفرهما بذلك القول .

وكذلك تكفيرهما بإنكارهما أن يكون في سائر معجزات النبي – صلى الله عليه وسلم – حجة له، أو في خلق السماوات والأرض دليل على الله ، لمخالفتهم الإجماع والنقل المتواتر عن النبي – صلى الله عليه وسلم – باحتجاجه بهذا كله وتصريح القرآن به .

وكذلك من أنكر شيئا مما نص فيه القرآن بعد علمه أنه من القرآن الذي في أيدي الناس ومصاحف المسلمين، و لم يكن جاهلا به، ولا قريب عهد بالإسلام"٣.

الملخص "، ألف تواليف بديعة ككتاب " الممهد " في الفقه ، وكتاب " أحكام الديانات " ، و " المنقذ من شبه التأويل "، وكتاب " المنبه للفطن "وكتاب" ملخص الموطأ "، وكتاب " المناسك "، وكتاب " الاعتقادات "، وغير ذلك ، وكان مولده في سنة أربع وعشرين وثلاثمائة، وتوفي في ١١ ربيع الآخر بمدينة القيروان ، وبات عند قبره خلق من الناس ، وضربت الأخبية ، ورثته الشعراء سنة ثلاث وأربعمائة، انظر: سير أعلام النبلاء، ١٧/١٥٩-١٦١.

١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، ٣٢٣.

٢) الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة، لابن بطة،٢١١

٣) الشفا، للقاضي عياض، ٢/٥٨٩.

ومن هنا فإن السلف قد اتفقوا على تكفير من أنكر الكتب السماوية أو شيئا منها ، وخصوا القرآن باعتبارها مهيمنا على ما قبله من الكتب، بتكفير من أنكر شيئا منه إلا بشروط أوضحوها كما بينا.

منزلة القرآن من الكتب المنزلة:

أجمع السلف على أن القرآن الكريم هو المهيمن على الكتب السماوية كلها. قال ابن كثير رحمه الله : "جعل الله هذا الكتاب العظيم الذي أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها؛ حيث جمع فيه محاسن ما قبله من الكمالات ما ليس في غيره، فلهذا جعله شاهداً، وأميناً، وحاكماً عليها كلها، وتكفل تعالى حفظه بنفسه الكريمة، فقال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] . فهو محفوظ بحفظ الله عز وجل إلى قيام الساعة، شاهد على هذه الكتب، مبين ما حرف منها، وحاكم بما أقره الله وأمر به من أحكامها، وناسخ ما نسخه الله منها، وهو أمين عليها في ذلك كله"١.

وقال القاضي عياض في قول النبي صلى الله عليه وسلم لأُبي : أتدري أي آية من كتاب الله أعظم ؟ وذكر آية الكرسي . فيه حجة تفضيل بعض القرآن على بعض ، وتفضيل القرآن على سائر كتب الله عند من اختاره، منهم: إسحاق بن راهويه وغيره من العلماء المتكلمين"٢.

الخلاصة:

اتفق السلف على وجوب الإيمان بالكتب السماوية، وأن الإيمان بها هو الركن الثالث من أركان الإيمان، كما اتفقوا على أنها كلام حقيقي لا مجازيا يوحي الله به إلى من شاء من رسله وأنبيائه، وأن الإيمان بها يكون على وجه الإجمال كما أخبر رب العزة، وأنه وحده الذي يحصي أعدادها ويعلم أسماءها.

كما اتفق السلف أيضا على أن القرآن الكريم له المنزلة العالية بين هذه الكتب لأنه مهيمن عليه، وناسخ لها ففيه خبر من كان قبلنا، وبه كمال التشريع، ويتصف بكمال الرسالة وشمولها إلى يوم الدين.

---

١) تفسير ابن كثير، ٢/٦٤..

٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ٥١/١٧

المطلب الثاني

قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بالكتب المنزلة

اتفق شيخ الإسلام ابن تيمية مع منهج السلف حول وجوب الإيمان بالكتب السماوية ، وأنها الركن الثالث من أركان الإيمان، التي لا يتم إيمان العبد إلا بها، ويعتبر شيخ الإسلام أن حاجة العباد لها أهم من حاجتهم للطعام والشراب.

قال رحمه الله:"والرسالة ضرورية للعباد لا بد لهم منها ، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور ؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة و، كذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة ويناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة ، وهو من الأموات قال الله تعالى :﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فهذا وصف المؤمن كان ميتا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان وجعل له نورا يمشي به في الناس. وأما الكافر فميت القلب في الظلمات . وسمى الله تعالى رسالته روحا ، والروح إذا عدم فقد فقدت الحياة قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ﴾ [الشوري:٥٢]، فذكر هنا الأصلين وهما : الروح والنور فالروح الحياة والنور النور "١.

ومن خلال ما سبق أوضح شيخ الإسلام – رحمه الله - أهمية رسالات الله تعالى إلى البشرية كلها، وكيف أنه نور الله المهدى إلى عباده في الدنيا والآخرة، وبغيرها تكون الدنيا مظلمة ملعونة، وقلوب العباد خربة لا صلاح فيها، ثم بعد ذلك يوضح أهمية حاجة العباد إليها، فيقول: " وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطبيب ، فإن آخر ما يقدر بعدم الطبيب موت الأبدان ، وأما إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتا لا ترجى الحياة معه أبدا ، أو شقي شقاوة لا سعادة معها أبدا. فلا فلاح إلا باتباع الرسول فإن الله خص بالفلاح أتباعه المؤمنين وأنصاره، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، أي : لا مفلح إلا هم ، كما قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٠٤]، فخص هؤلاء بالفلاح ، كما خص المتقين الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، وينفقون مما رزقهم ، ويؤمنون

١) مجموع الفتاوي، ١٩/٩٤-٩٥

بما أنزل إلى رسوله وما أنزل من قبله، ويوقنون بالآخرة وبالهدى والفلاح ، فعلم بذلك أن الهدى والفلاح دائر حول ربع الرسالة وجودا وعدما "١.

يوضح شيخ الإسلام فيما سبق بذلك أن حاجة البشر للرسالة أولى من حاجاتهم العضوية، كالطعام والشراب، كما هي أكثر من حاجة المريض للدواء، فبها غذاء النفس وعلاج القلوب، والمفلحون وحدهم هم الذين يدركون ذلك.

ثم بين عقوبة من خالف ذلك من الأمم السابقة حينما جاءتهم رسالات السماء فكذبوها فيقول:" وهذا مما اتفقت عليه الكتب المترلة من السماء ، وبعث به جميع الرسل، ولهذا قص الله علينا أخبار الأمم المكذبة للرسل وما صارت إليه عاقبتهم وأبقى آثارهم وديارهم عبرة لمن بعدهم وموعظة. وكذلك مسخ من مسخ قردة وخنازير لمخالفتهم لأنبيائهم وكذلك من خسف به ، وأرسل عليه الحجارة من السماء وأغرقه في اليم ، وأرسل عليه الصيحة وأخذه بأنواع العقوبات وإنما ذلك بسبب مخالفتهم للرسل ، وإعراضهم عما جاءوا به واتخاذهم أولياء من دونه "٢.

وعلى ذلك يوضح شيخ الإسلام- رحمه الله تعالى- أن عقاب الله الشديد يكون من نصيب المكابرين المعاندين لرسالات الله تعالى، بسبب مخالفتهم للرسل، الذين جاءوا لهدايتهم، ويستدل شيخ الإسلام بالقرآن الكريم على ذلك، فيقول: " وهذا كثير في الكتاب العزيز : يخبر الله سبحانه عن إهلاك المخالفين للرسل ونجاة أتباع المرسلين ، ولهذا يذكر سبحانه في سورة الشعراء قصة موسى وإبراهيم ونوح وعاد وثمود ولوط وشعيب ، ويذكر لكل نبي إهلاكه لمكذبيهم ،والنجاة لهم ولأتباعهم ثم يختم القصة بقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٦٧]، ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٩١]، فختم القصة باسمين من أسمائه تقتضيها تلك الصفة ﴿ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ١٩١]، فانتقم من أعدائه بعزته ، وأنجى رسله وأتباعهم برحمته "٣.

ثم يؤكد- رحمه الله- أنه لولا الرسالة لما عرف العقل النافع من الضار، فالرسالة من أعظم نعم الله على عباده، لأن فيها صلاح دنياهم وهدايتهم إلى صراط الله في المستقيم في الآخرة، فيقول: " ولولا الرسالة لم يهتد العقل إلى تفاصيل النافع والضار في المعاش والمعاد، فمن أعظم نعم الله على عباده وأشرف منة عليهم: أن أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبين لهم الصراط المستقيم. ولولا ذلك

---

١) مجموع الفتاوى، ١٩/ ٩٨/٩٧

٢) المرجع السابق ، ٩٨/١٩

٣) مجموع الفتاوى، ٩٩/١٩.

لكانوا بمترلة الأنعام والبهائم بل أشر حالا منها. فمن قبل رسالة الله واستقام عليها فهو من خير البرية، ومن ردها وخرج عنها فهو من شر البرية وأسوأ حالا من الكلب والخترير والحيوان البهيم "١.

يوضح شيخ الإسلام هنا أن من عاند وكفر بالرسالة، فقد صار شر البرية وأن البهائم أكثر منه صلاحا، لأن الله تعالى أراد صلاح حاله ولكنه أبى.

ثم يبين رحمه الله أن الآيات الدالة على أهمية الرسالة في كتاب الله كثيرة، وقد افتتح الله تعالى بها سورة البقرة وذكرها في وسطها وختم بها السورة، قال ابن تيمية: "والله تعالى افتتح البقرة ووسط البقرة وختم البقرة بالإيمان بجميع ما جاءت به الأنبياء ، فقال في أولها ما تقدم وقال في وسطها : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦] : وقال في آخرها ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] والآية الأخرى"٢.

ويستدل شيخ الإسلام- رحمه الله تعالى- بذكر هذه الآيات لبيان ما لأهمية الإيمان الكتب المترلة، وكثرة ورودها في القرآن الكريم.

الإيمان بأنها جميعا مترلة من عند الله

يتفق شيخ الإسلام ابن تيمية مع السلف في الإيمان بأن جميع الكتب السماوية مترلة من الله تعالى، أوحاها الله إلى رسله لهداية البشر، وأن الواجب الإيمان بها جملة. قال –رحمه الله-:"فإن الواجب الإيمان بجميع الحق المترل، فأما من آمن بذلك وكفر به غيره فهذا اختلاف يذم فيه أحد الصنفين، كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَـكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَـكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة:٢٥٣]. الاختلاف في تتريله هو بين المؤمنين والكافرين؛ فإن المؤمنين يؤمنون بما أنزل، والكافرون كفروا بالكتاب وبما أرسل الله به رسله فسوف يعلمون، فالمؤمنون بجنس الكتاب والرسل من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين يؤمنون بذلك، والكافرون بجنس الكتاب والرسل من المشركين والمجوس والصابئين يكفرون بذلك"٣.

١) مجموع الفتاوى، ١٩/١٠١.

٢) المرجع السابق ، ٧/٢٠٢.

٣) مجموع الفتاوى، ١٢/٧.

وبهذا فإن شيخ الإسلام يقرّ أن الكتب السماوية إجمالا مترلة من الله، وذلك من أوجب واجبات الدين، وأن الاختلاف في ذلك من صفات الكافرين ويؤكد ذلك فيقول- رحمه الله تعالى-: "الاختلاف في تتريله هو بين المؤمنين والكافرين؛ فإن المؤمنين يؤمنون بما أنزل، والكافرون كفروا بالكتاب وبما أرسل الله به رسله فسوف يعلمون، فالمؤمنون بجنس الكتاب والرسل من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين يؤمنون بذلك، والكافرون بجنس الكتاب والرسل من المشركين والمجوس والصابئين يكفرون بذلك.

"وذلك أن الله أرسل الرسل إلى الناس لتبلغهم كلام الله الذي أنزله إليهم، فمن آمن بالرسل آمن بما بلغوه عن الله، ومن كذب بالرسل كذب بذلك، فالإيمان بكلام الله داخل في الإيمان برسالة الله إلى عباده، والكفر بذلك هو الكفر بهذا، فتدبر هذا الأصل، فإنه فرقان هذا الاشتباه١.

ثم ينتقل شيخ الإسلام إلى أن أصل آخر وهو أن الكفر بالكتب المترلة قد يكون على وجه الإجمال أو التبعيض، فهناك من يكفر بكل ما أنزل الله، وهناك من يكفر ببعضها.

يقول رحمه الله:"التفريق والتبعيض قد يكون في القدر تارة، وقد يكون في الوصف: إما في الكم وإما في الكيف، كما قد يكون في التتريل تارة، وفي التأويل أخرى؛ فإن الموجود له حقيقة موصوفة، وله مقدار محدود، فما أنزل الله على رسله قد يقع التفريق والتبعيض في وصفه.

فالأول مثل قول اليهود: نؤمن بما أنزل على موسى دون ما أنزل على عيسى ومحمد. وهكذا النصارى في إيمانهم بالمسيح دون محمد. فمن آمن ببعض الرسل والكتب دون بعض فقد دخل في هذا، فإنه لم يؤمن بجميع المترل، وكذلك من كان من المتسبين إلى هذه الأمة يؤمن ببعض نصوص الكتاب والسنة دون بعض؛ فإن البدع مشتقة الكفر"٢.

ويؤكد شيخ الإسلام- رحمه الله- أن الله تعالى أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤمن بجميع الكتب المترلة: قال –رحمه الله-: "فأمر الله نبيه أن يؤمن بجميع الكتب المترلة، وأن يعدل بين الناس كلهم فيعطي كل ذي حق حقه، ويمنع كل مبطل عن باطله؛ فإن القسط والعدل في جميع أمور الدين فيما جاء به، وهو المقصود بإرسال الرسل وإنزال الكتب، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد:٢٥]، وقال تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا

١) مجموع الفتاوى ، ١٢/٧.

٢) المرجع السابق ، ١٢/١٣.

سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥]، وقال تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ* فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [البقرة:١٣٦- ١٣٧]"[١].

يوضح شيخ الإسلام أن الله تعالى أوجب على المسلمين الإيمان بجميع الكتب المنزلة على رسله، وساق الأدلة على ذلك من القرآن الكريم، التي تدل على أن الإيمان لا يتحقق إلا بذلك.

الكتب كلام الله حقيقةً وليس مجازاً:

كما يتفق ابن تيمية مع منهج السلف في اعتبار أن الكتب المنزلة، هي من كلام الله – عز وجل – وأن الله تعالى تكلم بها حقيقة لا مجازا، كما زعم أهل البدع، ويفرق بين التكليم العام الذي هو صفة من صفات الله تعالى وبين التكليم الخاصة الذي أنزله تعالى في كتبه على رسله.

يقول شيخ الإسلام: " ومذهب سلف الأمة وأئمتها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وسائر أئمة المسلمين كالأئمة الأربعة وغيرهم ما دل عليه الكتاب و السنة، وهو الذي يوافق الأدلة العقلية الصريحة أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، فهو المتكلم بالقرآن والتوراة والإنجيل وغير ذلك من كلامه، ليس ذلك مخلوقاً منفصلا عنه، وهو سبحانه يتكلم بمشيئته وقدرته، فكلامه قائم بذاته، ليس مخلوقاً بائناً عنه، وهو يتكلم بمشيئته وقدرته، لم يقل أحد من سلف الأمة: إن كلام الله مخلوق بائن عنه، ولا قال أحد منهم: إن القرآن أو التوراة أو الإنجيل لازمة لذاته أزلا وأبداً، وهو لا يقدر أن يتكلم بمشيئته وقدرته، ولا قالوا: إن نفس ندائه لموسى أو نفس الكلمة المعينة قديمة أزلية، بل قالوا: لم يزل الله متكلماً إذا شاء، فكلامه قديم، بمعنى أنه لم يزل متكلماً إذا شاء"[٢].

كما يوضح شيخ الإسلام-رحمه الله- أن كلام الله تعالى الذي أنزله على رسله، يتوافق مع طبيعة من أرسل إليهم فالقرآن نزل باللغة العربية وكذلك التوراة بالعبرية، وأن كلام الله تعالى لا نهائي وغير محصور في لغة معينة، فيتكلم الله تعالى بما شاء وقتما يشاء وكيفما يشاء.

قال شيخ الإسلام – رحمه الله – : " وكلمات الله لا نهاية لها، كما قال تعالى: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً ﴾ [الكهف:١٠٩]، والله سبحانه تكلم بالقرآن العربي، وبالتوراة العبرية، فالقرآن العربي كلام الله، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا

---

١) مجموع الفتاوى، ١٢/٤٣٥.

٢) مجموع الرسائل والمسائل، ٣/٣٠.

قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ إلى قوله:﴿ لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ٩٨ ــ ١٠٣] فقد بين سبحانه أن القرآن الذي يبدل منه آية مكان آية نزله روح القدس وهو جبريل وهو الروح الأمين كما ذكر ذلك في موضع آخر من الله بالحق، وبين بعد ذلك أن من الكفار من قال: ﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ كما قال بعض المشركين: يعلمه رجل بمكة أعجمي، فقال تعالى:﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ أي الذي يضيفون إليه هذا التعليم أعجمي ﴿ وَهَـذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ [النحل:١٠٣]"١.

فالقرآن نسخ ما قبله ، وشيخ الإسلام- رحمه الله- يقر أن السلف متفقون على أن القرآن مهيمن على الكتب السابقة، فيقول: " فالسلف كلهم متفقون على أن القرآن هو المهيمن المؤتمن الشاهد على ما بين يديه من الكتب ،ومعلوم أن المهيمن على الشيء أعلى منه مرتبة . ومن أسماء الله " المهيمن " ويسمى الحاكم على الناس القائم بأمورهم المهيمن"٢.

ويشرح شيخ الإسلام الأسباب التي جعلت القرآن مهيمنا وناسخا لما قبله من الكتب المنزلة بعدة أمور، يقول- رحمه الله-:" وفي مهيمن قولان : قيل أصله مؤيمن والهاء مبدلة من الهمزة وقيل بل الهاء أصلية. وهكذا القرآن فإنه قرر ما في الكتب المتقدمة من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر وزاد ذلك بيانا وتفصيلا "٣.

وبهذا يوضح شيخ الإسلام أن القرآن الكريم شمل كل ما جاء في كل الكتب المنزلة من الله تعالى على رسله، ويوضح تفاصيل ذلك فيما يلي: قال- رحمه الله- عن منزلة القرآن من الكتب السابقة إنه:"بين الأدلة والبراهين على ذلك وقرر نبوة الأنبياء كلهم ورسالة المرسلين، وقرر الشرائع الكلية التي بعثت بها الرسل كلهم. وجادل المكذبين بالكتب والرسل بأنواع الحجج والبراهين وبين عقوبات الله لهم ونصره لأهل الكتب المتبعين لها وبين ما حرف منها وبدل وما فعله أهل الكتاب في الكتب المتقدمة، وبين أيضا ما كتموه مما أمر الله ببيانه وكل ما جاءت به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج التي نزل بها القرآن فصارت له الهيمنة على ما بين يديه من الكتب من وجوه متعددة فهو شاهد بصدقها وشاهد بكذب ما حرف منها وهو حاكم بإقرار ما أقره الله ونسخ ما نسخه فهو شاهد في الخبريات حاكم في الأمريات"٤ .

---

١) مجموعة الرسائل والمسائل، لابن تيمية ، ٣ /٣٥- ٣٦.

٢) مجموع الفتاوى، ١٧/٤٤.

٣) المرجع السابق، ١٧/٤٤.

٤) مجموع الفتاوى، ١٧/٤٥.

يوضح شيخ الإسلام هنا أن القرآن يشمل من الأدلة والبراهين ما قرر به نبوة جميع الأنبياء والمرسلين، والشرائع الكلية والتفصيلية التي بعثوا بها إلى عباده، كما شمل الحجج والبراهين التي تبطل مناهج المكذبين، كما شهد بصدق ما بين أيدي الرسل من بينات التتريل، وأنه قد نسخ ما قبله.

ثم يسوق عددا من الأوجه الأخرى التي توضح مترلة القرآن بين الكتب المترلة، فيقول:"وكذلك معنى " الشهادة " و " الحكم " يتضمن إثبات ما أثبته الله من صدق ومحكم وإبطال ما أبطله من كذب ومنسوخ، وليس الإنجيل مع التوراة ولا الزبور بهذه المثابة بل هي متبعة لشريعة التوراة إلا يسيرا نسخه الله بالإنجيل ، بخلاف القرآن . ثم إنه معجز في نفسه لا يقدر الخلائق أن يأتوا بمثله ففيه دعوة الرسول، وهو آية الرسول وبرهانه على صدقه ونبوته ، وفيه ما جاء به الرسول وهو نفسه برهان على ما جاء به"١.

وبهذا أيضا فقد أكد شيخ الإسلام كيف أن إعجاز القرآن الكريم في نسخ ما قبله من كتب، وبيان ما وقع فيها من تحريف، وكيف أنه أعجز البشر من أن يأتوا بآية من مثله، وهو برهان على صدق نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم.

ثم يأتي ابن تيمية إلى وجه آخر وهو كمال أخبار وعلوم القرآن، فيقول: "وفيه أيضا من ضرب الأمثال وبيان الآيات على تفضيل ما جاء به الرسول ما لو جمع إليه علوم جميع العلماء لم يكن ما عندهم إلا بعض ما في القرآن"٢.

وبعد فيوضح شيخ الإسلام مذهب السلف في أن القرآن نسخ ما سبقه من الكتب المترلة وأنه لا يجوز لأحد اتباع شريعة غير شريعة الإسلام فيقول: "بل مما يعلم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لا يجوز لمن بلغته أن يتبع شريعة رسول غيره، كموسى وعيسي فإذا لم يجز الخروج عن شريعته إلى شريعة رسول فكيف بالخروج عن الرسل؟ كما قال تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ* فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٦-١٣٧].

وقال تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

---

١) مجموع الفتاوى ، ١٧/ ٤٥.

٢) المرجع السابق، ١٧/ ٤٦.

ولهذا لما كان قد دخل فيما ينقله أهل الكتاب عن الأنبياء تحريف وتبديل، كان ما علمنا أنه صدق عنهم آمنا به، وما علمنا أنه كذب رددناه، وما لم نعلم حاله لم نصدقه و لم نكذبه، كما روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم، ولا تكذبوهم، فإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوهم، وإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوهم، وقولوا: آمنا بما أنزل ألينا وما أنزل إليكم[١]"[٢].

ويوضح شيخ الإسلام أيضا أن من أسباب نسخ الإسلام لما جاء قبله من رسالات أنها قد نالها التحريف والتبديل، أما ما أرسل به النبي صلى الله عليه وسلم فقد تكفل بحفظه.

حكم من أنكر الكتب المترلة أو استهزأ بشيء منها عند ابن تيمية:

قال ابن تيميّة – رحمه الله – " اتفق المسلمون على أن من استخف بالمصحف، مثل أن يلقيه في الحش أو يركضه برجله، إهانة له، أنه كافر مباح الدم"[٣].

الخلاصة:

يتفق شيخ الإسلام ابن تيمية مع منهج السلف في وجوب الإيمان بالكتب المترلة، وأنه الركن الثالث من أركان الإيمان، كما يؤكد الإجماع على ذلك، ويوضح أن الكتب هي كلام الله الحقيقي إلى رسله، وليس كلاما مجازيا كما ذهب أهل الكلام والفلاسفة وغيرهم، وبين أن حاجة البشر للكتب المترلة أكثر من حاجتهم للطعام والشراب، وأكثر من حاجتهم للعلاج فيها صلاحهم وهدايتهم إلى سبيل الله المستقيم.

كما أوضح أسباب أفضلية القرآن الكريم عن غيره من الكتب المترلة، ونسخه لما سبق منها وهيمنته عليها.

---

١) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، حديث رقم: ٦٩٢٣.

٢) مجموع الفتاوى، ١١/٤٢٦

٣) المرجع السابق، ٨/ ٤٢٥.

المبحث الثالث

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بالأنبياء، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بالأنبياء.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بالأنبياء.

مدخل

تعددت الأقوال في تعريف النبي والرسول، فهناك من فرق بينهما، وهناك من اعتبرهما شيئا واحدا، قال ابن أبي العز الحنفي: " وقد ذكروا فروقاً بين النبي والرسول، وأحسنها: أن من نبأه الله بخبر السماء، إن أمره أن يبلغ غيره، فهو نبي رسول، وإن لم يأمره أن يبلغ غيره فهو نبي وليس رسولا، فالرَّسُول أخص من النبي فكل رَسُول نبي، وليس كل نبي رسولاً، ولكن الرسالة أعم من جهة نفسها، فالنبوة جزء من الرسالة، إذ الرسالةُ تتناول النبوةَ وغيرها، بخلاف الرسل، فإنهم لايتناولون الأَنْبِيَاء وغيرهم، بل الأمر بالعكس. فالرسالة أعم من جهة نفسها، وأخص من جهة أهلها"١.

النبي لغة:

في لسان العرب : " والنبي : المخبر عن الله – عز وجل – مكية ؛ لأنه أنبأ عنه ، وهو فعيل بمعنى فاعل . قال ابن بري : صوابه أن يقول فعيل بمعنى مفعل ، مثل نذير بمعنى منذر وأليم بمعنى مؤلم. وفي النهاية : فعيل بمعنى فاعل للمبالغة من النبإ الخبر ؛ لأنه أنبأ عن الله أي أخبر"٢.

الرسول لغة:

"مشتق من الإرسال، ومعناه البعث والتوجه، فإذا بعثت شخصا في القيام بمهمة ما فهو رسولك، قال تعالى حكاية عن ملكة سبأ: ﴿إِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل: ٣٥]، ويجمع رسول على أرسل ورُسُل ورُسْل ورُسَلاء، وسموا الرسل بذلك لأنهم مبعوثون وموجهون من قبل الله عز وجل لتبليغ الخلق أمر الله ووحيه"٣.

النبي والرسول شرعًا:

اختلفت تعريفات النبي والرسول تبعا للفرق بينهما، وقد اشتهر بين العلماء :

أنَّ الرسول هو: مَنْ أُوحِيَ إليه بشرعٍ وأُمِرَ بتبليغه، والنبيَّ هو: مَنْ أُوحِيَ إليه بشرعٍ و لم يُؤْمَرْ بتبليغه"٤.

---

١) شرح العقيدة الطحاوية، ١/١٥٦.

٢) لسان العرب، لابن منظور، ١٤/١٧٠.

٣) لسان العرب، لابن منظور، ١١/٢٨٤، الصحاح، للجوهري، ٤/١٧٩٠

٤) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العزّ ١/١٦٧، لوامع الأنوار البهيّة، للسفاريني ١/ ٤٩.

وقال ابن تيمية: "النبوة داخلة في الرسالة والرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولا ، فالأنبياء أعم والنبوة نفسها جزء من الرسالة فالرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف النبوة ، فإنها لا تتناول الرسالة"١ .

وعلى كلٍ؛ فإن الإيمان بالأنبياء والرسل هو الركن الرابع من أركان الإيمان، التي لا يكون الإيمان صحيحا إلا بها، وقد تواترت الأدلة الشرعية على ذلك من الكتاب والسنة والآثار الواردة عن السلف، وهو معتمد السلف ومن بينهم ابن تيمية في إثباتها، إذ النقل هو الأساس لديهم في المسائل الاعتقادية. فقد أمر الله تعالى عباده بالإيمان بالرسل، وقرن الإيمان بهم بالإيمان به في مواضع كثيرة قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء:١٥٢]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ [الحديد:١٩]. وفي حديث جبريل قال صلى الله عليه وسلم: "... فأخبرني عن الإيمان قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره"٢.

١) مجموع الفتاوى، ١٠/٧.

٢) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان والإيمان بالقدر، حديث رقم:٨

المطلب الأول

الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بالأنبياء

من آيات رحمة الله بعباده أن أرسل إليهم الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين، وقد اتفق السلف على وجوب الإيمان بهم، على الوجه الذي أمر به الله تعالى، فالإيمان بهم يقتضي تصديق رسالتهم، والتصديق بالله تعالى وأسمائه وصفاته، ومقتضى ذلك من التكاليف الشرعية، والأخبار الإلهية عن عالم الغيب والشهادة، والإيمان بالأنبياء والرسل هو الركن الرابع من أركان الإيمان، التي لا يكون العبد مؤمنا إلا بها.

وقد اعتمد السلف ومنهم شيخ الإسلام بن تيمية – رحمه الله تعالى- في الإيمان برسل الله على ما ورد من نصوص الوحي، التي تحدثت عنهم بشكل مجمل، وبشكل مفصل، وخصت النبي صلى الله عليه وسلم بشيء من التفصيل.

والإيمان بالرسل هو التصديق الجازم بكل ما جاء منهم، وعنهم ، وبأن الله تعالى أرسل في كل أمة رسولا، يدعوهم إلى عبادته وحده، ولا يشركوا به شيئا، وقد تواترت الأدلة من الكتاب والسنة وآثار السلف على ذلك ومنها حديث جبريل المعروف عن الإيمان والإسلام، في تعريف الإيمان : (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره)١ . فهذه الأصول التي اتفقت عليها الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم وسلامه ، ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل".

ومن الآثار المهمة في تأكيد أهمية الإيمان بالرسل جميعا، تثبيت الإقرار بذلك في دعاء التهجد،

فعن طاوس أنه سمع ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا قام من الليل يتهجد قال اللهم لك الحمد، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن. ولك الحمد، لك ملك السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السموات والأرض، ولك الحمد أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك حق وقولك حق والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد صلى الله عليه وسلم ..."٢.

وكل الأنبياء جاءوا ليدلوا الناس إلى الحق، ويرشدونهم إلى الصراط المستقيم.

---

١) سبق تخريجه ص ٢٤٤.

٢) أخرجه البخاري، كتاب التهجد باب التهجد بالليل وقوله عز وجل ومن الليل فتهجد به نافلة لك، حديث رقم: ١٠٦٩.

عن عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة ، قال : دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة ، والناس مجتمعون عليه ، فأتيتهم فجلست إليه ، فقال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، فترلنا مترلا فمنا من يصلح خباءه ، ومنا من ينتضل ، ومنا من هو في جشره ، إذ نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصلاة جامعة ، فاجتمعنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينذرهم شر ما يعلمه لهم...."١ الحديث.

وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : (من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه)٢

التوحيد رسالة جميع الأنبياء:

وقد اتفق السلف على أن رسالة الأنبياء جميعا هي التوحيد، واعتمدوا في ذلك على ما جاء في الكتاب والسنة ومن ذلك ما جاء في حديث أبي هريرة- رضي الله عنه- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا أولى الناس بعيسى بن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد"٣.

وقال اللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة فقال:"قال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء: ٢٥]. فأخبر الله تعالى نبيه صَلَّى الله عَلَيه وَسَلَّمَ في هذه الآية أن : بالسمع ، والوحي ، عرف الأنبياء قبله التوحيد، وقال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ:٥٠].

وقد استدل إبراهيم عليه السلام بأفعاله المحكمة المتقنة على وحدانيته، بطلوع الشمس وغروبها، ظهور القمر وغيبته ، وظهور الكواكب وأُفُولِها، ثم قال : ﴿ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ [الأنعام: ٧٧]، فعلم أن الهداية وقعت بالسمع"٤.

---

١) أخرجه مسلم في كتاب الإمارة، باب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، حديث رقم: ٣٥٤٠.

٢) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة، برقم(٤٧٤٢) .

٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب فضائل عيسى عليه السلام، حديث رقم: ٢٣٦٥.

٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، ١/١٧٤.

ومن هنا فإن الإيمان بالأنبياء يدخل في عموم الأمور التي لا يجب القول فيها بالرأي أو القياس، وقد أقر الإمام اللالكائي- رحمه الله- أن هذه الأمور لا سبيل إلى معرفتها إلا بالوحي ، وضرب مثالا على ذلك بقصة نبي الله إبراهيم عليهم السلام.

العلم بهم توقيفي:

يعتقد السلف أيضا أن العلم بالرسل والأنبياء، مبني على التوقيف، فلا سبيل إلى معرفة أعدادهم إلا عن طريق النقل، وهو ما أقره اللالكائي- رحمه الله- فقال:"وكذلك وجوب معرفة الرسل بالسمع : قال الله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨]. وقال تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولا﴾ [الإسراء : ١٥]، وقال تبارك وتعالى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٣٤] على أن معرفة الله والرسل ، بالسمع كما أخبر الله عز وجل وهذا مذهب أهل السنة والجماعة"١.

التفاضل بين الرسل:

اعتمد السلف في مسألة التفاضل بين الرسل على النصوص الشرعية الواردة في الكتاب والسنة.

وقد استدل ابن بطة بقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾، وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ على زيادة الإيمان ونقصانه.

قال رحمه الله:" فهذا يدل على زيادة الإيمان ، لأنه كلما ازداد بالله علما وله طاعة ، ومنه خوفا كان ذلك زائدا في إيمانه ، وبالمعرفة والعقول والفضائل في الأعمال والأخلاق والاستباق إلى الله تعالى بالأعمال الزاكية تفاضل الناس عند خالقهم ، وعلا بعضهم فوق بعض درجات . قال الله عز وجل : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣] . وقال عز وجل:﴿ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥]"٢.

---

١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، ١/١٤٨.

٢) الإبانة الكبرى، ٣/ ١٤٣.

ثم قال: " وبمثل ذلك جاءت السّنّة عن النّبيّ صلّى اللّه عليه وسلّم، وعن الصّحابة والتّابعين وفقهاء المسلمين، ولو كان الإيمان كلّه واحدًا لا نقصان له ولا زيادةً، لم يكن لأحدٍ على أحدٍ فضلٌ، ولاستوت النّعمة فيه، ولا يستوي، وبطل العقل الّذي فضّل اللّه به"١.

ويقول ابن تيمية رحمه الله: "أفضل أولياء الله هم أنبياؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل المرسلين أولو العزم"٢.

معجزات الأنبياء:

يتفق السلف أيضا على تأييد الله لرسله بالمعجزات وآياته البينات، لاختلاف طبائع الناس، فمن الناس من يؤمن بالغيب بمجرد إخبار النبي به، وهناك من يعاند ويحتاج إلى دليل يؤكد ذلك، وقد جاءت النصوص الشرعية ببعض معجزات الأنبياء، وبعضهم لم تذكر شيئا عن معجزاته، واحتج السلف بهذه المنقولات على أن لكل نبي ما يؤيده من آيات، وأن عدم ورود نص على معجزات بعضهم لا يمنع وجوده لوجود قرينة دالة على ذلك من النصوص الواردة إجمالا لا على وجه التفصيل، مثلما جاءت النصوص بذكر مجمل للأنبياء، ولم تأت إلا ببعض أسمائهم وأخبارهم.

يقول الزجاج- رحمه الله-" قوله : ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الأعراف:٨٥] قال بعض النحويين؛ لم يكن لشعيب آية إلا النبوة ، وهذا غلط فاحش .

قال : ﴿ قد جاءَتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل ﴾ فجاءَ بالفاءَ جواباً للجزاء ، فكيف يقول : قد جاءَتكم بينة من ربكم ، ولم يكن له آية إلا النبوة ؟ فإن كان مع النبوة آية فقد جاءَهم بها.

وقد أخطأ القائل بقوله : لم تكن له آية ، ولو ادَّعَى مُدَّعٍ النبوة بغير آية لم تُقْبَلْ منه ، ولكن القول في شعيب أن آيته كما قال بينَة ، إلا أن الله جل ثناؤه ذكر بعض آيات الأنبياءِ في القرآن ، وبعضهم لم يذكر آيته ، فمن لم تذكر آيته لا يقال : لا آية له "٣.

وعن أبي هريرة قال قال النبي صلى الله عليه وسلم ما من الأنبياء نبي إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيت وحيا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة)٤ .

---

١) الإبانة الكبرى ، ٣/١٤٣.

٢) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ابن تيمية، ٧.

٣) تفسير ابن عطية ،٢/ ٤٢٦ .

٤) أخرجه البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي، حديث رقم: ٤٩٨١.

وبالتالي فكل الأنبياء، كانت لهم معجزات تؤيدهم، وكان لنبينا صلى الله عليه وسلم خصوصية ذكرها السلف استنادا إلى ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم.

فعن أنسٍ رضي الله عنه أنَّ أهل مكة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُريَهم آيةً، فأراهم انشقاق القمر شقَّين، حتى رأوا حرَاء بينهما، "وحراء جبل بمكة[١]".

الخلاصة:

ويتضح مما سبق اتفاق السلف على وجوب الإيمان بالأنبياء والرسل، لثبوت أن ذلك أصل من أصول الدين . وهو الركن الرابع من أركان الإيمان التي لا يتم إيمان العبد إلا بها، فالإيمان بالأنبياء هو إيمان بما أرسله الله تعالى من عقائد وشرائع وأخبار، وهو إيمان بالله تعالى، كما اتفق السلف أيضا على أن معرفة أعداد الأنبياء وأحوالهم على الإجمال لا يمكن التوصل إليها إلا عن طريق النقل، فهي من الأمور الغيبية التي اختص الله بها لنفسه، كما اتفقوا على أن جميع الأنبياء جاءوا برسالة التوحيد، وأن ما من أمة إلا قد خلا فيها نذير، وأن التكذيب بالرسل يعد تكذيبا بالرسالة وتكذيبا بوجود الله تعالى.

كما اتفقوا على كفر من ادعى لنفسه أو لغيره النبوة، أو زعم بأنها كسبية وليست وهبية عن طريق الوحي والاصطفاء من الله تعالى.

١) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب انشقاق القمر حديث رقم ٣٦٥٥.

المطلب الثاني

قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بالأنبياء

اتفق شيخ الإسلام ابن تيمية مع منهج السلف في وجوب الإيمان بالأنبياء، وعدم التفريق بينهم، وأنه الركن الرابع من أركان الإيمان التي لا يتم الإيمان إلا بها، فالأنبياء هم مبلغو رسالات ربهم إلى عباده من أجل هدايتهم في الدنيا والآخرة.

النبوة والرسالة:

يفرق شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله – بين مفهوم النبوة والرسالة، فيقول "وهكذا كما يقال في الرسالة والنبوة، فالنبوة داخلة في الرسالة، والرسالة أعم من جهة نفسها، وأخص من جهة أهلها؛ فكل رسول نبي، وليس كل نبي رسولا؛ فالأنبياء أعم، والنبوة نفسها جزء من الرسالة، فالرسالة تتناول النبوة وغيرها بخلاف النبوة، فإنها لا تتناول الرسالة"[١].

وبالتالي فإن شيخ الإسلام- رحمه الله- قد اتفق مع منهج وآثار السلف في التفريق بين النبوة والرسالة وأن الفرق بينهما هو التعميم والخصوص.

وجوب الإيمان بهم:

يستند شيخ الإسلام- رحمه الله إلى الكتاب والسنة، وما اوافق المنقول من آثار السلف في منهجه شيخ الإسلام- رحمه الله تعالى- حول الأنبياء وأن الإيمان بهم على الإجمال هو عقيدة المسلمين جميعهم، وأن الإيمان بهم من أوجب واجبات الدين.

قال- رحمه الله-: "والمسلمون آمنوا بالأنبياء كلهم، ولم يفرقوا بين أحد منهم، فإن الإيمان بجميع النبيين فرض واجب، ومن كفر بواحد منهم فقد كفر بهم كلهم، ومن سب نبياً من الأنبياء فهو كافر يجب قتله باتفاق العلماء"[٢].

ثم يوضح شيخ الإسلام أن رسالة الأنبياء كلهم منذ آدم هي الدعوة لتوحيد العبادة، وأن الأدلة على ذلك من القرآن موجودة في مواضع عديدة.

قال- رحمه الله-: "وهذا في القرآن في مواضع أخر، يبين فيها أن الرسل كلهم أمروا بالتوحيد بعبادة الله وحده لا شريك له، ونهوا عن عبادة شيء من المخلوقات سواه، أو اتخاذه إلهًا، ويخبر أن أهل

---

١) مجموع الفتاوى، ٧/١٠.

٢) الصفدية، لابن تيمية، ٢/٣١١.

السعادة هم أهل التوحيد، وأن المشركين هم أهل الشقاوة، وذكر هذا عن عامة الرسل، ويبين أن الذين لم يؤمنوا بالرسل مشركون. فعلم أن التوحيد والإيمان بالرسل متلازمان"١.

يوضح ابن تيمية- رحمه الله أن مهمة جميع الأنبياء هي الدعوة إلى التوحيد ، والمعروف أن التوحيد الذي جاءت به الرسل كما يشرح شيخ الإسلام هو توحيد العبادة أو الألوهية الذي يحقق للعباد سعادة الدارين.

عموم الرسالة:

يخبر شيخ الإسلام، أن رسالات الأنبياء لم تنقطع منذ عهد آدم عليه السلام، وأنها جاءت للجن والإنس على السواء.

يقول شيخ الإسلام – رحمه الله – : "فأخبر عن جميع الجن والإنس أن الرسل بلغتهم رسالة الله، وهي آياته وأنهم أنذروهم اليوم الآخر، وكذلك قال: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ إلى قوله: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ﴾ [الكهف: ١٠٣ـــ١٠٥]. فأخبر أنهم كفروا بآياته، وهي رسالته، وبلقائه وهو اليوم الآخر"٢. يوضح الشيخ أن الرسالة ليست للبشر وحدهم بل شملت الإنس والجن معًا، فمن آمن منهم كان من الفائزين.

ثم قال: "وقد أخبر أيضًا في غير موضع بأن الرسالة عمت بني آدم، وأن الرسل جاؤوا مبشرين ومنذرين، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٣ـــ١٦٥] وقال تعالى: ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ. وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨-٤٩]"٣.

يوضح شيخ الإسلام بالأدلة القرآنية أنه لا يوجد أمة من الأمم إلا وقد جاءها رسول من الله ليوضحوا لهم كيف يعبدونهم ويبشرونهم بما ينتظرهم من جزاء على اتباعهم الرسل وينذرونهم مما ينتظرهم من عذاب بما كذبوهم.

---

١) مجموع الفتاوى، ٢٩/٩

٢) المرجع السابق ، ٣٠/٩

٣) مجموع الفتاوى ، ٣١/٩.

الخلاصة:

اتفق شيخ الإسلام ابن تيمية مع منهج السلف في وجوب الإيمان بالأنبياء والرسل، وأن الإيمان بهم من أركان الدين لا يكون الإيمان بغيرهم، وقد اعتمد في ذلك على ما ثبت من الكتاب السنة، وما وافقهما من آثار السلف وأكد أن الإيمان بهم هو إيمان بأسماء الله وصفاته وكتبه وشرائعه، وأنه لا سبيل إلى ذلك إلا بالإيمان بالأنبياء الذين يبلغون رسالات الله لعباده، وأوضح أن الأمة متفقة على ذلك.

كما بين وجوب الإيمان بهم إجمالا مَن عرفت أسماؤهم، ومَن لم تعرف لعظم قدرهم وأهمية دورهم الذي لا يستطيع العباد الخروج من الظلمات إلا بالدخول في نورهم الذي بعثهم الله به، وأوضح – رحمه الله- أن جميع الأنبياء والرسل جاءوا برسالة واحدة، وهي دعوة التوحيد ودين الإسلام، وكيف أن الأنبياء يتفاضلون فيما بينهم، وأنه لا يجوز التفريق بينهم في وجوب الإيمان بهم.

المبحث الرابع

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان باليوم الآخر، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان باليوم الآخر.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان باليوم الآخر.

مدخل

الإيمان باليوم الآخر هو الركن الخامس من أركان الإيمان، وقد أجمع المسلمون على إثبات اليوم الآخر بكل ما يتطلبه من التصديق الجازم بالبعث والنشور، والجزاء والحساب، والجنة والنار، وفتنة القبر.

وقد تعددت أسماء اليوم الآخر في الكتاب والسنة ليشمل أكثر من ٢٢ اسما، وهو ما يدل على أهميته العظيمة من جهة، ولإقناع المشركين والمعاندين بهذا ليوم العظيم من جهة أخرى. ومن أسماء اليوم الآخر التي وردت في القرآن الكريم: **الدار الآخرة**، كما وردَ في قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣]. **الساعة**، كما وردَ في قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر:٨٥]. **يوم البعث**، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [الحج:٥]. **يوم الخروج**، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾ [ق:٤٢]. **القارعة**، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ الْقَارِعَةُ * مَا الْقَارِعَةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾ [القارعة:١-٣]. **يوم الفصل**، قال تعالى: ﴿ إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الدخان:٤٠]. **يوم الدين**، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ * يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الانفطار:١٤-١٥]. **الصاخة**، قال تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴾ [عبس:٣٣]. **الطامة**، كما ورد في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى * يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْأِنْسَانُ مَا سَعَى﴾ [النازعات:٣٤-٣٥]. **يوم الحسرة**، قال تعالى: ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ [مريم:٣٩]. **الغاشية**، لقوله تعالى: ﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية:١]. **يوم الخلود**، قال تعالى: ﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ [ق:٣٤]. **يوم الحساب**، قال تعالى: : ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦]. **الواقعة** في قوله تعالى: ﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة:١]. **يوم الوعيد**، قال تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ [ق:٢٠]. **يوم الآزفة**، قال تعالى: ﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ * لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم:٥٧-٥٨]. **يوم الجمع**، قال عز وجل: ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى:٧]. **الحاقة**، قال تعالى ﴿ الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [الحاقة:١-٣]. **يوم التلاقي**، قال تعالى: ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر:١٥]، **يوم التنادي**، قال تعالى: ﴿ وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [غافر:٣٢-٣٣].

تعريف اليوم الآخر:

تعددت تعريفات اليوم الآخر، نظرا لتعدد أسمائه في الكتاب والسنة، لأن كل تعريف ينظر إليه من زاوية طبيعة الاسم الذي يتناوله. قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله - :"ومن الإيمان باليوم الآخر : الإيمان بكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم، مما يكون بعد الموت : فيؤمنون بفتنة القبر وبعذاب القبر وبنعيمه"١.

١) مجموع الفتاوى، ٣/١٤٥.

المطلب الأول

الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان باليوم الآخر

لا يختلف السلف على وجوب الإيمان باليوم الآخر، وما يتعلق به من موت وبعث ونشور وحساب وشفاعة وجنة ونار ونحو ذلك، فالإيمان باليوم الآخر هو الركن الخامس من أركان الإيمان التي لا يكون العبد مؤمنا إلا بها، وهو من الأمور الغيبية التي لا يعرف كيفيتها إلا الله تبارك وتعالى، ولا يكون الإيمان به إلا بالتصديق بكل ما أخبر الله تعالى عنه، ومعلوم أن السبيل إلى معرفة اليوم الآخر وما يجري به لا يكون إلا عن طريق ما أخبر الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم، ولذلك فالسلف لا ينفكون يسيرون في نور الرسالة لبيان ما دلت عليه نصوص الشرع من أمور الغيب، ومنها يوم القيامة.

وعن وقت قيام الساعة، فقد جاءت الآثار تؤكد أن العلم به توقيفي، وهو من الأمور التي حجب الله معرفتها عن المؤمنين، ولم يعلم بها أنباءه، إلا أن الأخبار في ذلك تؤكد أن لها علامات، ومنها: عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث جبريل الطويل، وسؤاله للنبي صلى الله عليه وسلم: قال: "أخبرني عن الساعة، قال ما المسؤول عنها بأعلم من السائل، قال أخبرني عن أماراتها، قال: أن تلد الأمة ربتها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان"[١].

أحوال الناس وقت قيام الساعة

كما تواترت الآثار والأخبار عن أحوال الخلق قبل قيام الساعة، واعتمد السلف على ما صح منها من حديث رسول الله.

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت فرآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرا، ولتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما، فلا يتبايعانه ولا يطويانه. ولتقومَنّ الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لِقْحَته فلا يَطْعَمُه. ولتقومَنّ الساعة وهو يَلِيط حوضه فلا يسقي فيه. ولتقومَنّ الساعة والرجل قد رفع أكلته إلى فيه فلا يطعمه"[٢]

---

١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، حديث رقم:٨.

٢) أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب خروج من النار، حديث رقم:٦٧٩٣.

النفخ في الصور

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل:٨٧]، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر:٦٨].

يعتمد السلف على ما جاءت به النصوص الشرعية في الإيمان بالنفخ في الصور، وليس بينهم خلاف في ذلك، إلا أن بعضهم اختلفوا في عدد النفخات، فمنهم من قال اثنتين، ومنهم من قال ثلاثة، فقد جاء هذا وجاء ذاك عنهم، ولكل دليله.

ومن أدلة القائلين بالنفختين، ما ذكره ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ * تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾، قال: "تتبع الآخرة الأولى، والرَّاجفة: النفخة الأولى، والرادفة: النفخة الآخرة"١.

ومنهم من رجح القول بأنها ثلاث نفخات، وزاد فيها نفخة الفزع وأنها تكون قبل نفخة الصعق ثم تليها نفخة الصعق مستندين على ما ورد في قوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴾ [النمل:٨٧]وعن أحوال الناس وقت النفخة الأولى، فقد اعتمد السلف أيضا على ما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " .. ثم ينفخ في الصور فلا يسمعه أحد إلا أصغى ليتا ورفع ليتا قال :وأول من يسمعه رجل يلوط حوض إبله قال فيصعق ويصعق الناس ثم يرسل الله أو قال ينزل الله مطرا كأنه الطل أو الظل (شك الراوي) فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون "٢.

يوم الحشر

عن عائشة -رضي الله تعالى عنها- قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غُرْلاً، قلت: يا رسول الله، الرجال والنساء جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض؟، قال: يا عائشة الأمر أشد من أن يُهمهم ذلك"٣.

---

١) أخرجه الطبري في تفسيره "جامع البيان في تأويل القرآن"، (٢٤/ ١٩١

٢) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب النفخ في الصور، حديث رقم:٢٩٤٠.

٣) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب كيف الحشر؟ ، حديث رقم: (٦٥٢٧)، وصحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ، حديث رقم: (٢٨٥٩)،

الإيمان بالميزان:

ومن الأمور المتعلقة أيضا بالإيمان باليوم الآخر، الإيمان بالميزان، وهو رمز العدل الإلهي في الآخرة، وهو من الأمور التي أكد السلف وجوبها.

قال اللالكائي رحمه الله في سياق ما روي في أن الإيمان بأن الحسنات والسيئات توزن بالميزان واجب، قال الله عز وجل : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء٤٧]. وقال تعالى: ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ*وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢-١٠٣]،وقال تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٨]"١.

ويوضح اللالكائي- رحمه الله- وجوب الإيمان بالميزان ويستدل على ذلك بما ورد في كتاب الله تعالى في الأدلة السابقة، كما ينقل عددا من الأحاديث الآثار الدالة على أن الميزان حق، وأن أعمال العباد توضع عليها بالكيفية التي يعلمها الله تعالى، فقال- رحمه الله-:" عن أبي هريرة قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم :(كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم وبحمده)٢.

وعن أبي عبد الرحمن الحبلي[٣] قال : سمعت عبد الله بن عمرو يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يصاح برجل من أمتي على رءوس الخلائق يوم القيامة فينشر الله له تسعة وتسعين سجلا ، كل سجل مد البصر ، ثم يقال له : أتنكر من هذا شيئا ؟ فيقول : لا يا رب ، فيقول : لك عذر أو حسنة ؟ فيهاب الرجل ، فيقول: لا يارب ، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنات ، وإنه لا ظلم عليك ، فتخرج له بطاقة أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، فيقول : ما هذه البطاقة مع

١) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي، ١٨٨/٢.

٢) أخرجه مسلم، في كتاب الذكر والدعاء والتوبة، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، برقم (٢٦٩٤).

٣) هو أبو عبدالرحمن الحبلي المقرئ ، الإمام العالم الحافظ المقرئ المحدث الحجة ، شيخ الحرم أبوعبد الرحمن ، عبد الله بن يزيد بن عبد الرحمن الأهوازي الأصل ، البصري ، ثم المكي مولى آل عمر بن الخطاب . مولده في حدود سنة عشرين ومائة .انظر سير أعلام النبلاء، ١٦٧/١٠.

هذه السجلات ؟ فيقول: إنك لا تظلم قال : فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة فطاشت السجلات وثقلت البطاقة)١"٢ .

وهنا يؤكد اللالكائي- رحمه الله- أن السنة النبوية أكدت ما جاء في كتاب الله من أخبار حول وجود الميزان، يوم القيامة الذي تقاس بها حسنات العباد وسيئاتهم بالكيفية التي يعلمها الله تعالى.

العرض والحساب:

ومثل الإيمان بالميزان فيؤكد السلف أيضا أن العباد يعرضون يوم القيامة، وأن أول من يعرض للحساب هو المسلمون، وحسابهم ليس كحساب غيرهم.

قال اللالكائي: " ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في العرض والحساب يوم القيامة، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (نحن آخر الأمم وأول من يحاسب ، ويقال : أين الأمة الأمية ونبيها ؟ فنحن الأولون الآخرون)٣ .

وينقل ما روته السيدة عائشة رضي الله عنها حول حساب المسلمين يوم القيامة، وأن ما يحدث لهم ليس حسابا كغيرهم، وإنما هو عرض للأعمال أو حساب يسير.

قال اللالكائي- رحمه الله-: "عن عائشة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(ليس أحد يحاسب إلا هلك (فقلت : يا رسول الله، الله يقول: (حسابا يسيرا) قال : ذاك العرض، ولكن من نوقش الحساب هلك)٤ "٥ .

الصراط:

يرى السلف أيضا وجوب الإيمان بالصراط، وينقل اللالكائي- رحمه الله- أيضا أدلة ذلك فيقول:"سياق ما روي في أن الإيمان بالصراط واجب:عن أبي هريرة أخبره قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يضرب الصراط بين ظهري جهنم ، فأكون أنا وأمتي في أول من يجوز ، ولا يتكلم

---

١) سنن الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، حديث رقم: ٢٦٣٩. وقال:حديث حسن غريب ، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح لم يخرج في" الصحيحين" وهو صحيح على شرط مسلم ، ووافقه الذهبي، وقال الألباني: في " السلسلة الصحيحة" (١٣٥) وهو كما قالا.

٢) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، ٢/ ١٨٨.

٣) سنن ابن ماجه، كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد صلى الله عليه وسلم، حديث رقم: ٤٢٩٠. وقال البوصيري في " مصباح الزجاجة" ٣١٧/٣ " هذا اسناد صحيح رجاله ثقات".

٤) أخرجه مسلم، كتاب الْجَنَّةِ وَصِفَةِ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا، بَابُ إِثْبَاتِ الْحِسَابِ حديث رقم: ٥٢٥٤ .

٥) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، ١٨٣/٢.

يومئذ إلا الرسل ، فدعاء الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم ، وفي جهنم كلاليب كشوك السعدان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : نعم قال : فإنها مثل شوك السعدان، غير أنه ما يدري ما قدر عظمها إلا الله تعالى فتخطف الناس بأعمالهم)١"٢.

الجنة والنار وشبهة قول ابن تيمية بفنائهما

من الأمور التي أثيرت حولها الشبهات فناء الجنة والنار، أن هناك من اهم شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- بمخالفة الإجماع في مسألة بقاء الجنة والنار، وقد اعتمد شيخ الإسلام في هذه المسألة على الأدلة التي وردت في الكتاب والسنة، واستدل على ذلك أيضا بالآثار الواردة عن السلف التي اتبعت نصوص الشرع.

ومن الأدلة على خلود الجنة، قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُوْلَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [البينة: ٧-٨]. وقال تعالى: ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التغابن: ٩] وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً ﴾ [النساء: ١٢٢].

ومما ورد في خلود الجنة والنار، قوله تعالى: ومنها قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِيَ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٢٨].

وكذلك ما رواه مسلم في صحيحه من حديث ابي سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، قال فيؤمر به فيذبح. قال ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت، قال: ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩] وأشار بيده إلى الدنيا"٣.

---

١) أخرجه البخاري، في كتاب الرقاق، باب الصراط جسر جهنم، برقم(٦٢٠٤).

٢) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، ١٩٢/٢.

٣) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب النار يدخلها الجبارون والجنة ، حديث رقم:٥٠٩١.

قال ابن أبي زمنين: "وأهل السنة يؤمنون بأن الجنة والنار لا يفنيان، ولا يموت أهلوها... ولو لم يذكر الله – تبارك وتعالى – الخلود إلا في آية واحدة لكانت كافية لمن شرح الله صدره للإسلام، ولكن ردد ذلك ليكون له الحجة البالغة"[١].

وقال البربهاري: " رحمه الله: "وكل شيء مما أوجب الله عليه الفناء يفنى، إلا الجنة والنار، والعرش والكرسي، والصور، والقلم، واللوح ليس يفنى شيء من هذا أبداً"[٢].

ورغم أن منهج شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله – في مسائل العقيدة، يعتمد بشكل تام على الكتاب والسنة، وما ورد في ذلك من آثار السلف وعلماء أهل السنة الذين سبقوه، مما لم يخالف المنقول، فقد أثيرت حوله الشبهات في مسألة القول بفناء النار، إلا أن ابن تيمية رحمه الله قد ثبت عنه أنه أعد مصنفا خاصا بهذه المسألة تحت عنوان "الرد على من قال بفناء الجنة والنار وبيان الأقوال في ذلك"، أورد فيه أقوال السابقين عليه فيها، وقد شجع اكتفاء الشيخ- رحمه الله- بذكر خلاف السابقين دون تعقيب الكثير من الطاعنين عليه.

ولعل من المهم تتبع أقوال الشيخ رحمه الله في هذه المسألة التي توضح موقفه ومنهجه دون تحيز له أو عليه[٣].

ومن هذه الأدلة استنكار شيخ الإسلام- رحمه الله- على القائلين بفناء الجنة والنار من الجهمية والكرامية، قال ابن تيمية:

"والكرامية ونحوهم وافقوه- أي الجهم بن صفوان- على أصل ذلك وهو امتناع دوام ما لا يتناهى، وأنه يمتنع أن يكون الله لم يزل متكلما إذا شاء وفعالا لما شاء إذا شاء، لامتناع حوادث لا أول لها، وهو على هذا الأصل قال بقناء الجنة والنار، وقد وافقه أبو الهذيل إمام المعتزلة على هذا، لكن قال بتناهي الحركات"[٤].

وبهذا النص فقد اعتبر ابن تيمية- رحمه الله- أن القول بفناء الجنة والنار قول فاسد، ومن غير المعقول أن يحكم بهذا ثم يعتقده.

١) أصول السنة ، لإبن أبي زمنين ، ١٩

٢) شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة، البربهاري، ٣٣.

٣) انظر في ذلك: كتاب كشف الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء الجنة والنار، للدكتور علي الحربي

٤) مجموع فتاوى ابن تيمية، ٣٤٨/١٤.

كما صرح ابن تيمية في مواضع أخرى ببيقاء الجنة والنار، قال- رحمه الله-:"وأن بقاء الجنة والنار بقاء مطلق"[1].

وليس هناك أقرب من هذا النص الصريح لشيخ الإسلام في رده على سؤال الحديث الوارد عن أنس ابن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: سبعة لا تموت ولا تفنى ولا تذوق الفناء: النار وسكانها، واللوح، والقلم، والكرسي، والعرش"

فأجاب شيخ الإسلام- رحمه الله: " هذا الخبر بهذا اللفظ ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما هو كلام بعض العلماء، وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى بالكلية كالجنة والنار والعرش وغير ذلك ، ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبتدعين كالجهم بن صفوان ومن وافقه من المعتزلة ونحوهم وهذا قول باطل يخالف كتاب الله وسنة رسوله وإجماع سلف الأمة وأئمتها لما في ذلك من الدلالة على بقاء الجنة وأهلها وبقاء غير ذلك مما لا تتسع هذه الورقة لذكره "[2].

أما القول بأن شيخ الإسلام- رحمه- قد استدل على فناء النار بحديث أبي هريرة رضي الله عنه، حول رحمة الله، فقد ذكره شيخ الإسلام في موضع آخر يوضح عدم استدلاله به على فناء النار، قال- رحمه الله "وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: :إن الله كتب في كتاب فهو في موضع عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي"[3] وفي رواية: "سبقت رحمتي غضبي"، فوصف رحمته بأنها تغلب وتسبق غضبه، وهذا يدل على فضل رحمته على غضبه من جهة سبقها وغلبتها"[4].

ومن هنا فيمكن، القول بإنه من خلال تتبع منهج ابن تيمية في مسألة فناء الجنة والنار على وجه العموم، يميل إلى القول ببقائهما.

الحوض المورود:

وأحواض الأنبياء متفاضلة، وبهذا جاءت الآثار، فعن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن لكل نبي حوضا وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة وإني أرجو أن أكون أكثرهم واردة"[5].

---

١) بيان تلبيس الجهمية، ابن تيمية، (١)/١٥٧.

٢) بيان تلبيس الجهمية، ابن تيمية، ١ / ٥٨٢.

٣) أخرجه مسلم، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تعالى وأنها سبقت غضبه، حديث رقم: ٢٧٥١.

٤) مجموع الفتاوى، ٤/٤٦.

٥) سنن الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، حديث رقم: ٢٤٤٣.

كما دلت الآثار أيضا أن لحوض النبي صلى الله عليه وسلم خصوصية تختلف عن أحواض الأنبياء.

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت قال النبي صلى الله عليه وسلم إني على الحوض حتى أنظر من يرد علي منكم وسيؤخذ ناس دوني فأقول يا رب مني ومن أمتي فيقال هل شعرت ما عملوا بعدك والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم فكان ابن أبي مليكة يقول اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن عن ديننا أعقابكم تنكصون ترجعون على العقب "١.

قال الآجري : "كتاب الحوض الذي أعطي النبي صلى الله عليه وسلم: " عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : قال رسول الله : " إِنِّي لَبِعُقْرِ حوضي أذود الناس لأهل اليمن أضرب بعصاي حتى يرفض عليهم، فسئل عن عرضه فقال: من مقامي إلى عمّان، وسُئل عن شرابه فقال: أشدُّ بياضاً من اللبن وأحلى من العسل يغت فيه ميزابان يمدَّانه من الجنة أحدهما من ذهبٍ والآخر من ورق ٢" ٣.

الخلاصة

اتفق السلف على وجوب الإيمان باليوم الآخر وأنه يبدأ منذ وفاة العبد وأن هناك قيامتان ، الصغرى التي تبدأ بعد خروج الروح من العبد والثانية تبدأ بالنفخ في الصور وهي القيامة الكبرى، واتفق السلف أيضا على ثبوت حياة البرزخ وعذاب القبر ونعيمه، والبعث والنشور والحساب والصراط والميزان والجنة والنار وخلود أهل الكفر في جهنم وخلود أهل النعيم في الجنة.

---

١) أخرجه البخاري، كتاب الرقاق، باب الحوض، حديث رقم: ٦٦٢٠.

٢) أخرجه مسلم، في كتاب الفضائل ، باب إثبات حوض نبينا – صلى الله عليه وسلم – وصفاته ، برقم (٤٣٧٨).

٣) الشريعة للآجري، ت الدميجي، ٣/ ١٢٥٤.

المطلب الثاني

قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان باليوم الآخر

اتفق شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- مع منهج السلف في أن الإيمان باليوم الآخر طريقه الوحي، وأدلته ما أخبر الله تعالى به نبيه صلى الله عليه وسلم، وقد أعطى تعريفا جامعا لليوم الآخر، فقال:"ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم، مما يكون بعد الموت: فيؤمنون بفتنة القبر وبعذاب القبر وبنعيمه"١.

وهذا التعريف يعتبر من أشمل التعريفات لليوم الآخر ، من حيث أنه جمع كل ما يكون للعبد بعد موته مباشرة، ويتفق مع ما قرره شيخ الإسلام في القيامة الصغرى والقيامة الكبرى.

وينقل شيخ الإسلام- رحمه الله- إجماع أهل السنة والجماعة على أن هناك حياة برزخية بعد الموت مباشرة، وأن هذه الحياة يكون فيها العذاب والنعيم، وهو الثابت من الأدلة الشرعية.

قال- رحمه الله-:"مذهب سائر المسلمين، بل وسائر أهل الملل إثبات القيامة الكبرى، وقيام الناس في قبورهم، والثواب والعقاب: هناك، وإثبات الثواب والعقاب في البرزخ- ما بين الموت إلى يوم القيامة- هذا قول السلف قاطبة، وأهل السنة والجماعة؛ وإنما أنكر ذلك في البرزخ قليل من أهل البدع"٢.

ثم يؤكد شيخ الإسلام- رحمه الله- أن الروح تعود إلى الجسد مرة أخرى يوم القيامة الكبرى ويشهد فيه العباد أهوال القيامة فيقول: " فتعاد الأرواح إلى الأجساد، وتقوم القيامة التي أخبر الله بها في كتابه، وعلى لسان رسوله، وأجمع عليها المسلمون، فيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين حفاة عراة غُرْلاً، وتَدْنُو منهم الشمس، ويلجمهم العرق.

وتنصب الموازين، فتوزن فيها أعمال العباد، ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٢- ١٠٣]. وتنشر الدواوين وهي صحائف الأعمال فآخذ كتابه بيمينه، وآخذ كتابه بشماله، أو من وراء ظهره، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣- ١٤]. ويحاسب الله الخلائق، ويخلو بعبده المؤمن فيقرره بذنوبه، كما وصف ذلك في الكتاب والسنة. وأما الكفار، فلا يحاسبون محاسبة من

١) مجموع الفتاوى، ٣/١٤٥.

٢) المرجع السابق ، ٤/٢٦٢

توزن حسناته وسيئاته، فإنه لا حسنات لهم، ولكن تعد أعمالهم وتحصى، فيوقفون عليها ويقررون بها ويجزون بها"١.

وقد ذكر- رحمه الله- تفصيل القول في محاسبة الكافرين مؤكدا أن هذا مما وقع فيه الخلاف

" هذه المسألة تنازع فيها المتأخرون من أصحاب أحمد وغيرهم، فممن قال: إنهم لا يحاسبون: أبو بكر عبد العزيز، وأبو الحسن التميمي، والقاضي أبو يعلى، وغيرهم. وممن قال: إنهم يحاسبون: أبو حفص البرمكي من أصحاب أحمد، وأبو سليمان الدمشقي، وأبو طالب المكي.

وفصل الخطاب: أن الحساب يراد به عرض أعمالهم عليهم وتوبيخهم عليها، ويراد بالحساب موازنة الحسنات بالسيئات.

فإن أريد بالحساب المعنى الأول، فلا ريب أنهم يحاسبون بهذا الاعتبار.

وإن أريد المعنى الثاني، فإن قصد بذلك أن الكفار تبقى لهم حسنات يستحقون بها الجنة، فهذا خطأ ظاهر.

وإن أريد أنهم يتفاوتون في العقاب، فعقاب من كثرت سيئاته أعظم من عقاب من قَلَّتْ سيئاته، ومن كان له حسنات خفف عنه العذاب، كما أن أبا طالب أخف عذابًا من أبي لَهَب.

وقال تعالى: ﴿ الَّذينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ الله زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ ﴾، والنار دَرَكَات، فإذا كان بعض الكفار عذابه أشد عذابًا من بعض؛ لكثرة سيئاته، وقلة حسناته كان الحساب لبيان مراتب العذاب، لا لأجل دخولهم الجنة٢.

الإيمان بالحوض والصراط:

ثم ينتقل-رحمه الله- إلى الثابت من الشرع حول الحوض المورود للنبي صلى الله عليه وسلم، وما أعده الله للمؤمنين هناك، وكذلك الصراط وأحواله فيقول: " وفي عرصة القيامة : الحوض المورود لمحمد صلى الله عليه وسلم ماؤه أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل آنيته عدد نجوم السماء طوله شهر وعرضه شهر من يشرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبدا.

---

١) مجموع الفتاوى ، ٣/١٤٦.

٢) المرجع السابق، ٤/٣٠٥.

والصراط منصوب على متن جهنم - وهو الجسر الذي بين الجنة والنار - يمر الناس عليه على قدر أعمالهم فمنهم من يمر كلمح البصر ومنهم من يمر كالبرق الخاطف ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس الجواد ومنهم من يمر كركاب الإبل ومنهم من يعدو عدواً ومنهم من يمشي مشيا ومنهم من يزحف زحفا ومنهم من يخطف فيلقى في جهنم ؛ فإن الجسر عليه كلاليب تخطف الناس بأعمالهم فمن مر على الصراط دخل الجنة . فإذا عبروا عليه وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص لبعضهم من بعض فإذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة"١.

يوضح هنا شيخ الإسلام صفة الحوض المورود وأحوال الصراط وما يحدث عليه للمؤمنين والكافرين، وهما من الأمور الثابتة أيضا بالنصوص الشرعية قال تعالى عن حوض النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر:١]، وأما الصراط، فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: (قلنا يا رسول الله ما الجسر؟ قال: مدحضة مزلة، عليه خطاطيف، وكلاليب، وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء تكون بنجد يقال لها السعدان٢"٣.

ثم يتحدث شيخ الإسلام- رحمه الله عن الحساب والميزان فيقول:" الميزان " هو ما يوزن به الأعمال وهو غير العدل كما دل على ذلك الكتاب والسنة مثل قوله تعالى ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ﴾ [الأعراف:٨]، { وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ }[الأعراف:٩] وقوله ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ ﴾ [الأنبياء:٤٧] . وفي الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)٤ " (وقال عن ساقي عبد الله بن مسعود : لهما في الميزان أثقل من أحد)٥ ، وفي الترمذي حديث البطاقة وصححه الترمذي والحاكم وغيرهما : (في الرجل الذي يؤتى به فينشر له تسعة وتسعون سجلا كل سجل منها مد البصر فيوضع في كفة ويؤتى له ببطاقة فيها شهادة أن لا إله إلا الله . قال النبي صلى الله عليه وسلم فطاشت

---

١) مجموع الفتاوى، ٣/١٤٧- ١٤٨.

٢) كلاليب: جمع كلوب بفتح الكاف وهو حديدة معطوفة الرأس يعلق عليها اللحم. وقيل: الكلوب الذي يتناول به الحداد الحديد من النار. كذا في كتاب ابن بطال)... وقال أيضاً رحمه الله: خطاطيف: جمع خطاف بالضم وهو الحديدة المعوجة كالكلوب يختطف بها الشيء.وقوله: حسكة: بفتحات وهي شوكة صلبة معروفة وقال صاحب التهذيب. الحسك نبات له ثمر خشن يتعلق بأصواف الغنم، وربما اتخذ مثله من حديد وهو من آلات الحرب. مفلطحة: أي عريضة، انظر: (عمدة القاري، للعيني، ٢٠/٣١٦ و ٢٠/٣٢٠).

٣) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة} [القيامة: ٢٣]، برقم (٧٤٣٩)، وصحيح مسلم، في كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، برقم (١٨٣).

٤) سبق تخريجه ص ٢٨٧.

٥) مسند أحمد، عن ابن مسعود، حديث رقم: ٣٧٩٢. قال الألباني: "وهذا سند حسن"، انظر: إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل (١/ ١٠٤)، وحسنه شعيب الأرناؤوط، وله شواهد؛ ولذلك قال في السلسلة الصحيحة (٦/ ٥٧٠) رقم: (٢٧٥٠).

السجلات وثقلت البطاقة)١ . وهذا وأمثاله مما يبين أن الأعمال توزن بموازين تبين بها رجحان الحسنات على السيئات وبالعكس فهو ما به تبين العدل . والمقصود بالوزن العدل كموازين الدنيا . وأما كيفية تلك الموازين فهو بمترلة كيفية سائر ما أخبرنا به من الغيب"٢ .

وهنا يشرح شيخ الإسلام كيف توزن أعمال العباد يوم القيامة وأنه من الأمور الغيبية التي أخبر الله تعالى عنها والتي يجب الإيمان بها بالكيفية التي يعلمها الله تعالى، والتي جاءت بها نصوص الشرع مثل حديث البطاقة وغيرها.

أما عن أحوال أهل الجنة فيقال- رحمه الله-:

" أما أهل الجنة فيأكلون ويشربون وينكحون متنعمين بذلك بإجماع المسلمين كما نطق به الكتاب والسنة وإنما ينكر ذلك من ينكره من اليهود والنصارى . وهذه الأجساد هي التي تبعث كما نطق به الكتاب والسنة" ٣.

الخلاصة

تبين مما سبق أن منهج السلف ومن بينهم ابن تيمية هو الاعتماد على النص في الإيمان باليوم الآخر لأنه من الأمور الغيبية التي لا يمكن للعقل الوصول إليها بغير نور الرسالة.

---

١) سبق تخريجه ص ٢٨٨.

٢) مجموع الفتاوي، ٣٠٢/٤.

٣) المرجع السابق ، ٣١٦/٤.

المبحث الخامس

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بالقدر، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بالقدر

المطلب الثاني:قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بالقدر.

مدخل

القدر لغة:

قال ابن فارس : "القاف والدال والراء أصل صحيح يدل على مبلغ الشيء وكنهه ونهايته ، فالقدر : مبلغ كل شيء ، يقال : قدره كذا ، أي : مبلغه ، وكذلك : القدر ، وقال : والقدر : قضاء الله تعالى الأشياء على مبالغها ونهاياتها التي أرادها لها ، وهو : القدر أيضا"١.

وقال الراغب الأصفهاني: " القدر والتقدير تبين كمية الشيء، يقال : قَدَرته وقَدَّرته وقدَّره بالتشديد: أعطاه القدرة ، يقال : قدرني الله على كذا وقواني عليه... والقدر : وقت الشيء المقدر له والمكان المقدر له ، قال تعالى : إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ ، وقال تعالى : فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ، أي : بقدر المكان المقدر لأن يسعها"٢.

وقال الجوهري: " قدر الشيء : مبلغه ، وقدر الله وقدره بمعنى ، وهو في الأصل مصدر ، وقال الله تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] ، أي : ما عظموا الله حق تعظيمه ، وقدرت الشيء أقدره، وأقدره قدرا من التقدير ، وفي الحديث : إذا غم عليكم الهلال فاقدروا له أي: أتموا الثلاثين"٣.

ويتبين من ذلك أن أهل اللغة يعتبرون أن القدر هو تحديد مسبق لكمية الشيء وطبيعته وصفاته وأحواله على الوجه الذي خلقه الله عليه وهيأه له.

القدر اصطلاحا:

والإيمان بالقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان، وهو عند السلف أصل من أصول الدين التي لا يكون العبد مؤمنا إلا بها، لما ورد عليه من أدلة في الكتاب والسنة ومنها حديث جبريل عليه السلام: "... أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتؤمن بالقدر خيره وشره"٤.

١) مقاييس اللغة، للثعالبي، ٦٢/٥.
٢) المفردات للراغب الأصفهاني، ٣٩٦
٣) الصحاح، للجوهري، ٧٨٦/٢- ٨٧٧.
٤) سبق تخريجه ص٤٧.

الأدلة من القرآن:

قال تعالى : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩] ، وقال تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب:٣٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد:٨]، وقال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [التغابن:١١] .

الأدلة من السنة:

عن أبي هريرة – رضي الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير ، احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ؛ فإن " لو " تفتح عمل الشيطان"[1]. وعن علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – قال : " أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه"[2].

---

١) أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، برقم (٢٦٦٤) .

٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، ٤/٦٦٦. وقال عنه الألباني: حسن، انظر ظلال الجنة: ١/ ٩٣.

المطلب الأول

الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بالقدر

اتفق السلف على وجوب الإيمان بالقدر وأنه أصل من أصول الدين، وهو الركن السادس من أركان الإيمان التي لا يكون الإيمان بغيرها، والإيمان بالقدر هو إثبات لتوحيد الربوبية وإفراد الله تعالى بالخلق والتدبير، كما هو إثبات أيضا لتوحيد الألوهية، بتصديق خبر الله وتنفيذ تكاليفه الشرعية التي أرسل بها رسله، وفيه إثبات لأسماء الله تعالى وصفاته العلا، بالإقرار بقدرته تعالى وعلمه الأزلي، فهو سر الله الأعظم.

ومن الأدلة التي اعتمد عليها السلف ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- حديث جبريل الطويل الذي جعل الإيمان بالقدر خيره وشره ركنا من أركان الإيمان، وقد رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، في سؤال جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، قال: ".... وتؤمن بالقدر خيره وشره"[1]

كما جاءت الكثير من الآثار التي تؤكد منهج السلف في الإيمان بالقدر وثمراته التي تجعل يقين العبد بالله لا يتزعزع، ولا يبالي بما ناله في سبيل الحق.

فعن عبد الله بن عباس : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد ، أبو عبيدة بن الجراح ، وأصحابه ، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشأم ، قال ابن عباس : فقال عمر : ادع لي المهاجرين الأولين ، فدعاهم فاستشارهم ، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشأم ، فاختلفوا ، فقال بعضهم : قد خرجت لأمر ولا نرى أن ترجع عنه ، وقال بعضهم : معك بقية الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء ، فقال : ارتفعوا عني ، ثم قال : ادعوا لي الأنصار فدعوتهم فاستشارهم ، فسلكوا سبيل المهاجرين ، واختلفوا كاختلافهم ، فقال : ارتفعوا عني ، ثم قال : ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح ، فدعوتهم فلم يختلف منهم عليه رجلان ، فقالوا : نرى أن ترجع بالناس ولا تقدمهم على هذا الوباء ، فنادى عمر في الناس ، إني مصبح على ظهر فأصبحوا عليه ، قال أبو عبيدة بن الجراح: أفرارا من قدر الله ! فقال عمر : لو غيرك قالها يا أبا عبيدة : نعم ، نفر من قدر الله إلى قدر الله ، أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديا له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة ، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله ، قال : فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبا

---

١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام، والقدر، حديث رقم:٨.

في بعض حاجته ، فقال : إن عندي في هذا علما : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقول : إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه ، قال : فحمد الله عمر ، ثم انصرف"١.

ولعل في هذا الحديث ترجمة عملية لمنهج السلف في فهم القدر والإيمان به.

وعن طاوس أنه قال: "أدركت ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون كل شيء بقدر. قال: وسمعت عبد الله بن عمر يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز"٢.

ومن الأدلة التي اعتمد عليها السلف ونقلها الصحابة في ذلك دعاء الاستخارة، فعن جابر رضي الله عنه قال كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كالسورة من القرآن إذا هم بالأمر فليركع ركعتين ثم يقول: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال في عاجل أمري وآجله فاقدره لي وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري أو قال في عاجل أمري وآجله فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به ويسمي حاجته"٣.

كما نقل الإمام اللالكائي- رحمه الله- الإجماع أيضا على وجوب الإيمان بالقدر، فقال:" سياق ما روي وما فعل من الإجماع في آيات القدر: فإن كان في الدنيا إجماع بانتشار من غير إنكار فهو في هذه المسألة فمن خالف قوله فيها فهو معاند مشاقق يلحق به الوعيد وهو داخل تحت قوله: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥] "٤.

تفصيل النهي عن الخوض في القدر:

ورغم أهمية هذا الباب فقد وردت الآثار النبوية الكثيرة في النهي عن الخوض في القدر، وقد شرح السلف، حقيقة هذه الآثار لإزالة شبهة التعارض بينها وبين وجوب الإيمان بالقدر.

١) أخرجه البخاري في » كِتَاب الطِّبِّ » باب مَا يُذْكَرُ فِي الطَّاعُونِ، حديث رقم: ٥٣١٥.

٢) أخرجه مسلم في كتاب القدر، باب كل شيء بقدر، حديث رقم: ٢٦٥٥.

٣) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الاستخارة، حديث: ٦٠١٩

٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، ٤/٤٢٢.

ومن هذه الآثار ما رواه ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إذا ذُكر أصحابي فأمسكوا ، وإذا ذكرت النجوم فأمسكوا، وإذا ذكر القدر فأمسكوا "١.

وروى الإمام أحمد عن وكيع حدثنا جعفر يعني بن برقان عن ميمون بن مهران قال :" ثلاث ارفضوهن : سب أصحاب محمد ، والنظر في النجوم ، والنظر في القدر"٢.

وفي هذه المسألة قال ابن بطة- رحمه الله-: " فإن قال قائل قد رويت هذه الأحاديث في الإمساك عن الكلام في القدر والنظر فيه ومع هذا فقد روى عن رسول الله وأصحابه وعن جماعة من التابعين وفقهاء المسلمين أنهم تكلموا فيه، وفسروا آيات من القرآن يدل ظاهرها وتفسيرها على العلم بالقدر، وقد رأينا جماعة من العلماء ألفوا فيه كتبا وصنفوه أبوابا، ورووا أيضا بأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (تعلموا من القدر ما لا تضلون ٣) وهذا مخالف لقوله: (إذا ذكر القدر فأمسكوا)٤ فإني أرجع إليه بجواب ما سأل عنه من ذلك بأن أقول له اعلم رحمك الله أن كلا الوجهين صحيحان، وكلا الأمرين واجب القبول لهما ، والعمل بهما وذلك أن القدر على وجهين وأمر النجوم على وجهين وأمر الصحابة على وجهين.

فأما أمر النجوم: فأحدهما واجب علمه والعمل به، فأما ما يجب علمه والعمل به؛ فهو أن يتعلم من النجوم ما يهتدي به في ظلمات البر والبحر، ويعرف به القبلة والصلاة والطرقات فبهذا العلم من النجوم نطق الكتاب ومضت السنة. وأما ما لا يجوز النظر فيه والتصديق به ويجب علينا الإمساك عنه من علم النجوم فهو أن لا يحكم للنجوم بفعل ولا يقضي لها بحدوث أمره كما يدعي الجاهلون من علم الغيوب بعلم النجوم ولا قوة إلا بالله"٥.

وبهذا فقد أزال ابن بطة- رحمه الله- اللبس حول التعارض في الأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم في مسألة القدر، وأكد أن نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الخوض في القدر موجه إلى نوع مخصوص، متعلق بتصديق النجوم وعلاقتها بعلم الغيب والخوض فيما لا يمكن لعقل العباد استيعابه من الغيبيات.

---

١) سنن البهقي، القضاء والقدر، باب مَا وَرَدَ مِنَ النَّهْيِ عَنْ مُجَالَسَةِ الْقَدَرِيَّةِ ، حديث رقم: ٣٧٨.

٢) فضائل الصحابة، الإمام أحمد، حديث رقم: ١٧٣٩

٣) أي: مالا تضلون به. كتاب الإبانة لابن بطة ، كتاب القدر ٢٤٤/١.

٤) المعجم الكبير، الطبراني، باب الثاء، حديث رقم: ١٤٢٧.

٥) الابانة، لابن بطة، ٤٥١/٨.

وأوضح أن المنهي عنه أيضا الخوض في ذات الله وسره المخزون الذي لم يطلع عليه أحدا من خلقه، فقال- رحمه الله-: " وأما الوجه الآخر من علم القدر الذي لا يحل النظر فيه ولا الفكر به وحرام على الخلق القول فيه كيف، و لم وما السبب مما هو سر الله المخزون وعلمه المكتوم الذي لم يطلع عليه ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا وحجب العقول عن تخيل كنه علمه والناظر فيه كالناظر في عين الشمس كلما ازداد فيه نظرا ازداد فيه تحيرا ، ومن العلم بكيفيتها بعدا فهو التفكر في الرب عز و جل كيف فعل كذا وكذا، ثم يقيس فعل الله عز و جل بفعل عباده فما رآه من فعل العباد جورا ،يظن أن ما كان من فعل مثله جور فينفي ذلك الفعل عن الله فيصير بين أمرين: إما أن يعترف لله عز و جل بقضائه وقدره ويرى أنه جور من فعله، وأما أن يرى أنه ممن ينزه الله عن الجور فينفي عنه قضاؤه وقدره فيجعل مع الله آلهة كثيرة يحولون بين الله وبين مشيئته. فبالفكر في هذا وشبهه، والتفكر فيه والبحث والتنقير عنه هلكت القدرية حتى صاروا زنادقة وملحدة ومجوسا حيث قاسوا فعل الرب بأفعال العباد وشبهوا الله بخلقه"١.

ولا شك أن هذا الوجه مما وقع فيه الكثير من الفلاسفة والمناطقة والملاحدة وأهل الكلام، الذين خاضوا فيما لم ينزل الله به بيانا، واستخدموا القياس العقلي فيما يلا يعقل القياس فيه بين الخالق والمخلوق.

خلق أفعال العباد:

نقل الإمام البخاري- رحمه الله- في كتابه (خلق أفعال العباد) عدة روايات تدل على أن الله خالق أفعال العباد، ثم قال: (قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل شيء بقدر حتى وضعك يدك على خدك. قال أبو عبدالله محمد بن إسماعيل: سمعت عبدالله بن سعيد يقول: مازلت أسمع من أصحابنا يقولون إن أفعال العباد مخلوقة، قال أبو عبدالله: حركاتهم وأصواتهم، واكتسابهم، وكتابتهم، مخلوقة... فالله في ذاته هو الخالق، وحظك واكتسابك من فعلك خلق، لأن كل شيء دون الله يصنعه وهو خلق"٢.

وقال ابن قتيبة: "وعدل القول في القدر أن تعلم أن الله عدل لا يجور، كيف خلق، وكيف قدر، وكيف أعطى، وكيف منع، وأنه لا يخرج من قدرته شيء، ولا يكون في ملكوته من السموات والأرض إلا ما أراد، وأنه لا دين لأحد عليه، ولا حق لأحد قبله، فإن أعطى فبفضل، وإن منع فبعدل، وإن العباد يستطيعون ويعملون، ويجزون بما يكسبون، وإن لله لطيفة يبتدئ بها من أراد،

١) الإبانة، لابن بطة، ٨/٤٥٣.

٢) خلق أفعال العباد، البخاري، ١٠٦- ١٠٨.

ويتفضل بها على من أحب، يوقعها في القلوب فيعود بها إلى طاعته، ويمنعها من حقت عليه كلمته، فهذه جملة ما ينتهي إليه علم ابن آدم من قدر الله عز وجل، وما سوى ذلك مخزون عنه"١.

الخلاصة

اتفق السلف على وجوب الإيمان بالقدر لأنه أصل من أصول الدين وهو الركن السادس من أركان الإيمان، التي لا يكون إيمان العبد إلا بها، وأكدوا أن الله تعالى خالق كل شيء وهو الذي قدر المقادير وكل شيء عنده بمقدار، وأن لا شيء يحدث في ملك الله بغير مراده ومشيئته أحاط علمه القديم بكل شيء، كما فرقوا بين مشيئة الله الكونية ومشيئته الشرعية وأثبتوا أن للعبد مشيئة وإرادة، وأنها من خلق الله وأن الله تعالى خالق أفعال العباد، وهم الفاعلون لها والمحاسبون عليها.

---

١) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة، ٢٢.

المطلب الثاني

قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بالقدر

نقل شيخ الإسلام- رحمه الله تعالى- الإجماع حول الإيمان بالقدر، لأن الأدلة على ذلك من القرآن والسنة كثيرة، فالإيمان بالقدر هو الركن السادس من أركان الإيمان.

قال ابن تيمية – رحمه الله – : "اتفق المسلمون وسائر أهل الملل على أن الله على كل شيء قدير كما نطق بذلك القرآن في مواضع كثيرة جدا"[١].

يوضح شيخ الإسلام- رحمه الله- أن المسلمين وغيرهم متفقون على الإيمان بأن الله تعالى على كل شيء قدير، وهو مذهب أهل السنة والجماعة، وقال في موضع آخر: " وتؤمن الفرقة الناجية – أهل السنة والجماعة- بالقدر: خيره وشره، والإيمان بالقدر على درجتين، كل درجة تتضمن شيئين: فالدرجة الأولى : الإيمان بأن الله تعالى علم ما الخلق عاملون بعلمه القديم الذي هو موصوف به أزلا ، وعلم جميع أحوالهم من الطاعات والمعاصي والأرزاق والآجال ، ثم كتب الله في اللوح المحفوظ مقادير الخلائق فأول ما خلق الله القلم قال له اكتب قال ما أكتب قال اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه جفت الأقلام وطويت الصحف كما قال سبحانه وتعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحـــج:٧٠] "[٢].

مراتب القدر

ويعد تقسيم مراتب القدر من الأمور التي استنبطها السلف وابن تيمية من النصوص الشرعية التي وردت في ذلك ، ويشرح ابن تيمية- رحمه الله- مراتب القدر ويوضح أنها على درجتين الأولى قبل الخلق، والثانية بعده، كما يلي :

علم الله الأزلي: فالله تعالى بعلمه القديم يعلم ما عليه خلقه من أحوال فهو يعلم بما كان وما هو كائن وما يكون وما لم يكن كيف كان يكون.

والمرتبة الثانية: هي كتابة مقادير الخلائق في اللوح المحفوظ، وأن هذا التقدير تابع لعلمه الأزلي كما أخبر في كتابه.

---

١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ٨/٧.

٢) المرجع السابق ، ٣/١٤٨.

ثم ينتقل إلى الدرجة الثانية فيقول:

"**وأما الدرجة الثانية** فهي مشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة وهو الإيمان بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأنه ما في السموات والأرض من حركة ولا سكون إلا بمشيئة الله سبحانه ولا يكون في ملكه إلا ما يريد وأنه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير من الموجودات والمعدومات فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا الله خالقه سبحانه لا خالق غيره ولا رب سواه"١.

ويوضح شيخ الإسلام- رحمه الله- أن هذه الدرجة أيضا تشمل مرتبتين، وهما: مشيئة الله الشاملة لجميع مخلوقاته، والمرتبة الثانية هي مرتبة الخلق والتدبير.

ويؤكد أنه ليس هناك شيء في ملك الله إلا بمشيئته الكونية، وجميع الموجودات من خلقه سبحانه، ثم يوضح الفرق بين مشيئة الله ومشيئة العباد، فيقول: "ومع ذلك فقد أمر العباد بطاعته وطاعة رسله، ونهاهم عن معصيته، وهو سبحانه يحب المتقين والمحسنين والمقسطين ويرضى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولا يحب الكافرين ولا يرضى عن القوم الفاسقين ولا يأمر بالفحشاء، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب الفساد والعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم، والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلي والصائم وللعباد قدرة على أعمالهم ولهم إرادة والله خالقهم وخالق قدرتهم وإرادتهم كما قال سبحانه: ﴿لِمَن شَاء مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ وَمَا تَشَاؤُونَ إِلا أَن يَشَاء اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩] "٢.

وهذه الفقرة من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- من أدق مسائل الإيمان التي زلت فيها أقدام الكثيرين، ويكشف ابن تيمية خلالها أن هناك مشيئة وإرادة لله تعالى، وتنقسم مشيئته- تعالى- إلى كونية لا دخل للعباد فيها، ومشيئة شرعية وهي مناط رسالات الأنبياء والرسل من تكليفات شرعية، وهي التي تدور فيها أفعال العباد، ويوضح أن العباد فاعلون حقيقيون لها، فلهم قدرة وإرادة ومشيئة، خلقها الله لهم، وهم محاسبون على ما يفعلون، فإن وافقت أفعالهم ومشيئتهم مشيئة الله الشرعية كانوا من الناجين وإذا خالفتها كانوا من الهالكين.

كما قال- رحمه الله-: " اعلم أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه لا رب غيره، ولا خالق سواه؛ ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ؛ وهو على كل شيء قدير ؛ وبكل شيء عليم؛ والعبد مأمور بطاعة الله وطاعة رسوله ؛ وهو منهي عن معصية الله ومعصية رسوله فإن أطاع كان ذلك نعمة من

١) مجموع الفتاوى، ١٤٩/٣.

٢) المرجع السابق ، ١٤٨/٣.

الله أنعم بها عليه وكان له الأجر والثواب بفضل الله ورحمته، وإن عصى كان مستحقا للذم والعقاب وكان لله عليه الحجة البالغة ولا حجة لأحد على الله وكل ذلك كائن بقضاء الله وقدره ومشيئته وقدرته؛ لكنه يحب الطاعة ويأمر بها ويثيب أهلها عليها ويكرمهم ويبغض المعصية وينهى عنها ويعاقب أهلها عليها ويهينهم"١.

فمن خلال ما سبق يبين شيخ الإسلام- رحمه الله- أن الله تعالى له الخلق والتدبير، أحاطت قدرته كل شيء، وأن العبد مأمور بطاعة رسله، وأنه لا حجة لأحد على معصيته بالقضاء والقدر.

ويوضح- رحمه الله- أن العز والذل والغنى والفقر من الله تعالى، فيقول: " إن كل ما في الوجود فهو مخلوق له خلقه بمشيئته وقدرته وما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو الذي يعطي ويمنع ويخفض ويرفع ويعز ويذل ويغني ويفقر ويضل ويهدي ويسعد ويشقي ويولي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء ويشرح صدر من يشاء للإسلام ويجعل صدر من يشاء ضيقا كأنما يصعد في السماء وهو يقلب القلوب، ما من قلب من قلوب العباد إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أن يقيمه أقامه وإن شاء أن يزيغه أزاغه وهو الذي حبب إلى المؤمنين الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون "٢.

ويؤكد ابن تيمية، أن الله تعالى هو الخالق المدبر لكل الموجودات وأن حكمته اقتضت، أن يكون كل شيء في الكون خاضع لمشيئته الكونية، فهو الذي يعز ويذل ويغني ويفقر ويؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء، ويهدي من يشاء ويضل من يشاء.

وحول الخير والشر، ومدى مسئولية العباد عنهما، يقول شيخ الإسلام:" وما يصيب العبد من النعم فإن الله أنعم بها عليه ؛ وما يصيبه من الشر فبذنوبه ومعاصيه . كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، وقال تعالى: ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [الشورى ٧٩]، أي ما أصابك من خصب ونصر وهدى فالله أنعم بها عليك ، وما أصابك من جدب وذل وشر فبذنوبك وخطاياك . وكل الأشياء كائنة بمشيئته وقدرته وخلقه فلا بد أن يؤمن العبد بقضاء الله وقدره ؛ وأن يؤمن بشرع الله وأمره "٣.

---

١) مجموع الفتاوى، ٢٤٢/٨

٢) المرجع السابق ، ٧٨/٨.

٣) مجموع الفتاوى ، ٢٤٢/٨.

ويقرر شيخ الإسلام-رحمه الله- قاعدة السلف في أن ما أصاب العبد من نعم وخير، فهو من الله تعالى، وما أصابه من شر وشقاء فمن ذنوبه ومعاصيه، وأن كل ذلك مقدر بمشيئة الله وقدرته، وأن العباد مطالبون بالإيمان بذلك.

ويبين أحوال الناس في النظر لحقيقة القدر، فيقول: "فمن نظر إلى الحقيقة القدرية وأعرض عن الأمر والنهي والوعد والوعيد كان مشابها للمشركين . ومن نظر إلى الأمر والنهي وكذب بالقضاء والقدر كان مشابها للمجوسيين، ومن آمن بهذا وهذا ، وإذا أحسن حمد الله ، وإذا أساء استغفر الله ، وعلم أن ذلك كله بقضاء الله وقدره فهو من المؤمنين . فإن آدم – عليه السلام – لما أذنب تاب فاجتباه ربه وهداه ، وإبليس أصر واستكبر واحتج بالقدر فلعنه وأقصاه ، فمن تاب كان آدميا ، ومن أصر واحتج بالقدر كان إبليسيا ، فالسعداء يتبعون أباهم آدم ، والأشقياء يتبعون عدوهم إبليس"١.

الخلاصة

اتفق شيخ الإسلام- رحمه الله- مع منهج السلف في وجوب الإيمان بالقدر، وأنه أصل من أصول الدين، وهو الركن السادس من أركان الإيمان، وأكد أن الله تعالى قدر مقادير العباد في الأزل، وأن هناك أربعة مراتب للقدر وهي: علم الله الأزلي والكتابة الإلهية ثم المشيئة والخلق.

وبين أن هناك مشيئة كونية، ومشيئة شرعية وكذلك هناك إرادة كونية وإرادة شرعية وأوضح الفرق بينهما، وأكد أن العباد فاعلون لأفعالهم وأن الله تعالى هو خالق الأفعال من جملة خلقه، وأن العباد مسئولون ومحاسبون على أفعالهم واختيارهم لها.

١) المرجع السابق ، ٢٤٣/٨.

الفصل الثاني

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في باب الإيمان بالقبر والقيامة وما يتعلق به، وفيه ثلاثة مباحث.

المبحث الأول

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بأحوال القبر وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بأحوال القبر

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بأحوال القبر.

المبحث الثاني

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد علي الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بالشفاعة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بالشفاعة.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بالشفاعة.

المبحث الثالث

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بأهوال يوم القيامة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بأهوال يوم القيامة.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بأهوال يوم القيامة.

المبحث الأول

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بأحوال القبر وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار االتي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بأحوال القبر

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بأحوال القبر.

مدخل

ومن المعلوم أن أحوال الميت في القبر وأحوال القيامة من الأمور الغيبية، التي لا يجوز لأحد التحدث فيها، إلا كما أخبر الله تعالى به في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون مأمورون بالإيمان بها على الوجه الذي أخبر الله تعالى به رسله، وأنزل به كتبه. فالإيمان بالقبر والحياة البرزخية، من الأمور الداخلة ضمن حديث جبريل عليه السلام، في الإيمان باليوم الآخر، وهو من أركان الإيمان التي لا يتم إلا بها، والأدلة على ذلك كثيرة، بدءا من حديث جبريل الطويل عن الإسلام والإيمان والإحسان، قال صلى الله عليه وسلم: "أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره"١.

ومن الأدلة الثابتة في الكتاب والسنة على أحوال القبور قوله تعالى:﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٥-٤٦]. والآية صريحة في إثبات عذاب القبر قبل قيام الساعة.

وقوله تعالى: ﴿سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ [التوبة:١٠١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: ٤٧].

ومن السنة:

ما رواه مسلم في صحيحه: "إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فلولا أن لا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه"٢.

وقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا فرغ أحدكم من التشهد الأخير فليتعوذ بالله من أربع: من عذاب جهنم، ومن عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات، ومن شر فتنة المسيح الدجال"٣

١) سبق تخريجه ص٤٧.

٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه وإثبات عذاب القبر والتعوذ منه،برقم (٢٨٦٧) .

٣) أخرجه مسلم، في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة، برقم (٥٨٨).

المطلب الأول

الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بالقبر

يؤكد السلف على وجوب الإيمان بأحوال القبور، باعتبار أنها من الأمور الغيبية التي أخبر الله تعالى عنه في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وتبدأ الحياة البرزخية بمجرد موت الإنسان وخروج روحه، التي عبر العلماء عنها بالقيامة الصغرى.

روى ابن ماجه عن هانئ بن عثمان قال: "كان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فقيل له: تذكر الجنة والنار ولاتبكي، وتبكي من هذا؟ قال (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إن القبر أول منازل الآخرة. فإن نجا منه أحد فما بعده أيسر منه وإن لم ينج منه فما بعد أشد منه)١"٢.

ومن الأدلة التي اعتمد عليها السلف ما رواه الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المسألة:

وعن عائشة رضي الله عنها أن يهودية دخلت عليها فذكرت عذاب القبر فقالت لها أعاذك الله من عذاب القبر فسألت عائشة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن عذاب القبر فقال: "نعم عذاب القبر حق" قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر.."٣.

وعن أبي هريرة –رضي الله تعالى عنه– قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا تشهد أحدكم فليستعذ بالله من أربع يقول اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال"٤.

وعنه أيضا: "إذا قبر الميت أو قال أحدكم أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما المنكر، وللآخر النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: ما كان يقول هو عبد الله ورسوله

---

١) أخرجه الترمذي في سننه ، أبواب الزهد، حديث رقم (٢٣٠٨)، قال الترمذي: حسن غريب .

٢) التذكرة في أحوال الموتى والآخرة، القرطبي، ٨٢.

٣) أخرجه البخاري، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، حديث رقم ١٣١٧

٤) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب ما يستعاذ منه في الصلاة حديث رقم (٩٦٩).

أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول هذا، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ثم ينور له"١.

وذكر ابن أبي الدنيا أن هذا هو منهج أهل السنة والجماعة فقال- رحمه الله-: "ويؤمنون بأن الديار ثلاث: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وأن الله تعالى جعل لكل دار أحكاما تخصها، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس. وجعل أحكام الدنيا على الأبدان والأرواح تبعا لها، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبع لها، فإذا جاء يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجسام جميعا"٢.

يوضح ابن أبي الدنيا- رحمه الله- أن منهج أهل السنة هو الإيمان بالحياة البرزخية التي تبدأ بعد الموت مباشرة.

فتنة القبر:

قال حرب الكرماني: "وعذاب القبر حق، يُسأل العبد عن ربه، وعن نبيه، وعن دينه، ويرى مقعده من الجنة أو النار، ومنكر ونكير حق، وهما فتانا القبور نسأل الله الثبات"٣.

وقال المروزى: قال أبوعبد الله – يعني الإمام أحمد -: عذاب القبر حق لا ينكره إلا ضال مضل.

وقال حنبل: قلت لأبي عبد الله في عذاب القبر. فقال: هذه أحاديث صحاح نؤمن بها ونقر بها،كلما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم إسناد جيد أقررنا به،إذا لم نقر بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفضناه ورددناه،رددنا على الله أمره. قال الله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]"٤.

قال الإمام أحمد: ويجب الإيمان بعذاب القبر وأن هذه الأمة تفتن في قبورها وتسأل عن الإيمان والإسلام، ومن ربه وما نبيه ويأتيه منكر ونكير، كيف شاء الله وكيف أراد.٥

١) سنن الترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، حديث رقم ١٠٥٣
٢) القبور، ابن ابي الدنيا، ٩.
٣) مسائل الإمام أحمد برواية حرب الكرماني، ٣٥٨.
٤) تسلية أهل المصائب، شمس الدين المنبجي، ٢٢٣/١.
٥) تاريخ دمشق ٣١١/٢١، والاعتقاد للبيهقي ص ٢١٩، والشريعة للآجري ص٣٥٨.

العذاب للروح والبدن:

ثبت عن السلف القول بوجوب الإيمان بعذاب القبر ونعيمه، وهو ما نفاه الكثير من المبتدعة وأنكروا حدوث ذلك نظرا لأنهم استخدموا في ذلك الأقيسة العقلية التي لا تناسب هذا المقام، رغم أن هذه الأمور من الغيبيات التي لا يمكن للعقل إدراكها بعيدا عن نور الرسالة، واعتمد منهج السلف في إثباتها على ما ثبت من الكتاب والسنة.

وقد اُختلف حول العذاب في القبر هل يكون على الروح والبدن أم للروح فقط أو أنه لا يوجد من الأصل عذاب ولا نعيم في القبر، وكان مذهب السلف في ذلك هو إثبات العذاب للروح والبدن معا، وهو الثابت من الأدلة الشرعية.

الأدلة على إثبات عذاب القبر كثيرة متواترة. وأما الدليل على أن النعيم والعذاب يلحقان الروح والبدن معاً، فمن ذلك.

عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه حتى إنه يسمع قرع نعالهم أتاه ملكان، فيقعدانه فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ -لمحمد- فأما المؤمن فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله، فيقال: انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، فيراهما، ويفسح له في قبره سبعون ذراعاً، ويملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون.

وأما الكافر أو المنافق فيقال له: ما كنت تقول في هذا الرجل ؟ فيقول: لا أدري كنت أقول ما يقول الناس، فيقال له: لا دريت ولا تليت، ثم يضرب بمطارق من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثقلين، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه".[1]

فقوله صلى الله عليه وسلم: (يسمع قرع نعالهم – فيقعدانه – ضربة بين أذنيه – فيصيح صيحة – حتى تختلف أضلاعه) كل ذلك دليل واضح على شمول الأمر للروح والجسد.

وروى الترمذي من حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " إذا قبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما: المنكر، وللآخر: النكير، فيقولان: ما كنت تقول في هذا الرجل، فيقول: ما كان يقول: هو عبد الله ورسوله، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقولان: قد كنا

---

١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، حديث رقم: ١٢٩١

نعلم أنك تقول، ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين، ثم ينور له فيه، ثم يقال: نم. فيقول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم . فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك، وإن كان منافقاً قال: سمعت الناس يقولون قولاً فقلت مثله ، لا أدري، فيقولان: قد كنا نعلم أنك تقول ذلك، فيقال للأرض: التئمي عليه، فتلتئم عليه، فتختلف أضلاعه، فلا يزال فيها معذباً، حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك".[1]

وفي حديث البراء بن عازب الطويل: " إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء، بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مدّ بصره، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام، حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة -وفي رواية: المطمئنة- اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فيِّ السقاء، فيأخذها... وإن العبد الكافر -وفي رواية الفاجر- إذا كان في انقطاع من الدنيا ، وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة -غلاظ شداد- سود الوجوه، معهم المسوح -من النار- فيجلسون منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب. قال: فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود -الكثير الشعب- من الصوف المبلول، -فتقطع معها العروق والعصب ".[2]

وأما الدليل على أن النعيم قد يلحق الروح منفردة عن البدن فهو في ما سبق من كون الروح تصعد إلى السماء وتفتح لها أبواب السماء ، وأيضاً: روى أحمد والنسائي وابن ماجه من حديث كعب بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" إنما نسمة المؤمن طائر معلق في شجر الجنة، حتى يبعثه الله إلى جسده يوم يبعثه ".

فمجموع النصوص يدل على أن الروح تنعم مع البدن الذي في القبر، أو تعذب، وأنها تنعم في الجنة وحدها.

---

١) سنن الترمذي حديث رقم، ١٠٧١.

٢) مسند الإمام أحمدالحديث رقم ١٨١٦٨

العلم بها توقيفي:

أقر السلف أن الإيمان بأحوال القبر من الأمور الغيبية، وأن العلم بها توقيفي على النص، ولا سبيل للعقل إلى العلم بها، ومن هذه الأمور أحوال القبر وما يدور فيه

"وعن ابن مسعود – رضي الله عنه –، قال: إذا مات الكافر أجلس في قبره، فيقال له: من ربك؟ وما دينك؟ فيقول: لا أدري، فيضيق عليه قبره، ثم قرأ ابن مسعود : فإن له معيشة ضنكا قال: المعيشة الضنك: عذاب القبر . وروى شريك، عن ابن إسحاق ، عن البراء ، في قوله عز وجل: عذابا دون ذلك قال: عذاب القبر .

وكذا روي عن ابن عباس ، في قوله سبحانه وتعالى: ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر أنه عذاب القبر . وكذا قال قتادة ، والربيع بن أنس ، في قوله عز وجل: سنعذبهم مرتين إحداهما في الدنيا، والأخرى هي عذاب القبر .

وقد تواترت الأحاديث عن النبي – صلى الله عليه وسلم – في عذاب القبر والتعوذ منه . وفي "الصحيحين " عن مسروق عن عائشة – رضي الله عنها –، أنها سألت النبي – صلى الله عليه وسلم – عن عذاب القبر، قال: "نعم، عذاب القبر حق" قالت عائشة – رضي الله عنها –: فما رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد ذلك صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر[١] . وفيهما عن عمر ، عن عائشة – رضي الله عنها –، أن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: "إني رأيتكم تفتنون في القبور كفتنة الدجال "، قالت عائشة – رضي الله عنها –: فكنت أسمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد ذلك يتعوذ من عذاب القبر[٢] .

وفي "صحيح مسلم " عن ابن عباس ، عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن: "اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات[٣] "[٤].

١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز، باب ما جاء في عذاب القبر، حديث رقم:١٣٠٦.
٢) أخرجه مسلم في كتاب الكسوف، باب ذكر عذاب القبر في صلاة الخسوف، حديث رقم: ٩٠٣.
٣) أخرجه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يتعاذ منه في الصلاة، حديث رقم: ٩٢٩.
٤) تفسير ابن رجب، تفسير سورة الواقعة.

وعليه فإن تواتر الأخبار عن رسول الله تعالى حول ثبوت عذاب القبر، هو أبلغ رد على المنكرين والمعاندين، فالأمور الغيبية لا سبيل للعقل إلى العلم بها فهي كما أخبر الله تعالى عنها بالكيفية التي لا يعلمها غيرها، ولا مجال للوصول إليها إلا بالنقل.

الخلاصة:

يقر السلف بوجوب الإيمان بأحوال القبور، وأنها من الأمور الغيبية التي لا سبيل للعقل إلى معرفتها، وأن أحوال الميت في قبره تختلف عن أحواله في الدنيا، وهذا ما ذهب إليه أيضا شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-.

ويعتمد منهج السلف ومعهم شيخ الإسلام في المسائل المتعلقة بأحوال القبور، كغيرها من الأمور الاعتقادية على النص، فلا سبيل للعقل أو للاجتهاد في أمور الغيب.

المطلب الثاني

قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بأحوال القبر

قرر شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى- منهج السلف، فيما أورده عن القيامة الصغرى والحياة البرزخية التي هي من أمور الغيب المرتبطة بالإيمان باليوم الآخر، ولا سبيل للإيمان بها إلى بما أخبر الله تعالى به في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

وأوضح شيخ الإسلام أن القبر هو أول منازل الآخرة بعد القيامة الصغرى، التي تبدأ بالموت.

قال- رحمه الله- عن سورة الواقعة:"ثم إنه في آخرها- أي سورة الواقعة- ذكر القيامة الصغري بالموت، وأنهم ثلاثة أصناف بعد الموت، فقال: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ* فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ* فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ* فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[الواقعة:٨٣- ٩٤]، فهذا فيه أن النفس تبلغ الحلقوم، وأنهم لا يمكنهم رجعها، وبين حال المقربين وأصحاب اليمين والمكذبين حينئذ"[١].

يؤكد ابن تيمية بذلك أن القيامة الصغرى والحياة البرزخية تبدأ بمجرد مفارقة الروح للجسد، وأن الناس يكونون منها على ثلاث درجات، وهم المقربون وأصحاب اليمين والمكذبين ولكل منهم حال يختلف عن الآخر في الحياة البرزخية.

الامتحان في القبر:

وأوضح- رحمه الله تعالى- أن الناس يُمتحنون في قبورهم، فقال: "وأما الفتنة في القبور فهي الامتحان والاختبار للميت حين يسأله الملكان فيقولان له: ما كنت تقول في الرجل الذي بُعث فيكم محمد؟، فيثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، فيقول المؤمن: الله ربي، والإسلام ديني ومحمد نبيي،

١) مجموع الفتاوى، ٤/٢٦٤.

ويقول: هو محمد رسول الله، جاءنا بالبينات والهدى، فآمنا به واتبعناه، فينتهرانه انتهارد شديدة- وهي آخر فتنة يُفتن بها المؤمن- فيقولان له: كما قالا أولا.

وقد تواترت الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الفتنة من حديث البراء بن عازب١ ، وأنس بن مالك ٢، وأبي هريرة٣ ، وغيرهم رضي الله عنهم، وهي عامة للمكلفين؛ إلا النبيين فقد اختلف فيهم، وكذلك اختلف في غير المكلفين، كالصبيان والمجانين، فقيل لا يفتنون، لأن المحنة إنما تكون للمكلفين وهذا قول القاضي عياض وابن عقيل"٤.

ومن هنا يؤكد شيخ الإسلام- رحمه الله- منهج السلف فيما ورد عن فتنة القبر واختبار الناس فيها، وأقر أن السبيل إلى معرفة ذلك عن طريق نصوص الوحي، لأنها من الأمور الغيبية.

العذاب على الروح والبدن:

ويستكمل رحمه الله ما بدأه بتصديق خبر الله تعالى عن أحوال القبر التي أنكرها أهل البدع بسبب تغليب عقولهم على شرع الله، فساقهم إلى إنكار عذاب القبر بالكلية أو زعموا أنه على الروح دون البدن ونحو ذلك.

ويشير إلى أن منهج السلف هو الإقرار بوجود العذاب للروح والبدن في القبر فيقول: " فاعلم أن مذهب سلف الأمة وأئمتها: أن الميت إذا مات يكون في نعيم أو عذاب، وأن ذلك يحصل لروحه

---

١) عن البراء بن عازب عن أبي أيوب الأنصاري رضى الله تعالى عنهم قال: " خرج النبي ﷺ وقد وجبت الشمس فسمع صوتا، فقال يهود تعذب في قبورها،" . أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب التعوذ من عذاب القبر ، برقم (١٣٠٩)، ومسلم في كتاب الجنائز ، باب تعذيب يهود في قبرها ، برقم (٤٩٧).

٢) عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ:" إذا وضع العبد في قبره وتولي وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم أتاه ملكان فأقعداه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل محمد صلى الله عليه وسلم فيقول أشهد أنه عبد الله ورسوله فيقال انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعدا من الجنة قال النبي صلى الله عليه وسلم فيراهما جميعا وأما الكافر أو المنافق فيقول لا أدري كنت أقول ما يقول الناس فيقال لا دريت ولا تليت ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربة بين أذنيه فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر، برقم (١٣٠٨).

٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : "ماتت امرأة كانت تَقُمُّ المسجد في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، ففقدها الرسول صلى الله عليه وسلم، فأخبروه أنها ماتت من الليل، ودفنوها، وكرهوا إيقاظه، فطلب من أصحابه أن يدلوه على قبرها، فجاء إلى قبرها فصلى عليها، ثم قال: إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها، وإن الله عز وجل ينورها لهم بصلاتي عليهم. " أخرجه مسلم في كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر برقم (٥٩٤).

٤) مجموع الفتاوي، ابن تيمية، ٢٥٧/٤.

ولبدنه، وأن الروح تبقى بعد مفارقة البدن منعمة أو معذبة، وأنها تتصل بالبدن أحيانًا، فيحصل له معها النعيم والعذاب" ١.

الخلاصة:

يتفق ابن تيمية في الإيمان بأحوال القبور مع منهج السلف في اعتبار أن ذلك من أمور الآخرة الغيبية، وأن ما يعرض للميت من أحوال في قبره ليست كأحوال الدنيا فلها مقاييس لا يعلمها إلا الله، ويقر بأن عذاب القبر يقع على الروح كما يقع على البدن بالكيفية التي يعلمها الله تعالى. كما أن الإيمان بعذاب القبر وأحواله من الأمور المرتبطة بالإيمان باليوم الآخر التي لا يصح إيمان العبد إلا بها.

---

١) مجموع الفتاوى، ٤/٢٨٥.

المبحث الثاني

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد علي الآثار الواردة عن السلف في الإيمان بالشفاعة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بالشفاعة.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بالشفاعة.

مدخل

الشفاعة من الأمور الجلية المرتبطة بإفراد الله تعالى وحده بالعبودية، فلا يكون اللجوء لغيره وطلب العون منه إلا بما أمر الله تعالى به، وقد زلت أقدام الكثيرين في مسألة الشفاعة بين منكر لها، وبين من توسع فيها فأدخل من لم يأذن الله تعالى في طلب الشفاعة له، أو طلب الشفاعة للمشركين، قال تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ [المدثر: ٤٨].

ولا تكون الشفاعة إلا بإذن من الله تعالى، قال جل شأنه: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّـهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ [النجم: ٢٦]، وقال أيضا: ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

الشفاعة لغة:

الشفاعة في لغة العرب مشتقة من الشفع الذي هو غير الوتر، أي أن الشفع هو الزوج الذي هو عكس الوتر عند الإطلاق، تقول: أعطيتك كتاباً ثم شفعته بآخر، أي صار ما معك زوجاً بعد أن كان وتراً، قال ابن منظور: (شفع الوتر من العدد شفعاً: صيره زوجاً)١.

وقال ابن الأثير: " تكرر ذكر الشفاعة في الحديث فيما يتعلق بأمور الدنيا والآخرة، وهي السؤال في التجاوز عن الذنوب والجرائم بينهم، يقال: شفع يشفع شفاعة فهو شافع وشفيع، والمشفع الذي يقبل الشفاعة والمشفع الذي تقبل شفاعته"٢.

واستخدامات العرب في لفظ الشفاعة كثيرة ولكن ما يهمنا هنا هو الشفاعة في الآخرة.

الشفاعة اصطلاحا:

هي: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة٣، وقال الراغب الأصفهاني:" الشّفاعة الانضمام إلى آخر ناصرا له وسائلا عنه، وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمة ومرتبة إلى من هو

---

١) لسان العرب، لابن منظور، ١٨٣/٨

٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، ٤٨٥/٢.

٣) القول المفيد شرح كتاب التوحيد ٤٣٣/١.

أدنى، ومنه الشّفاعة يوم القيامة"[1]، وقال الجرجاني: " هي السّؤال في التّجاوز عن الذّنوب من الّذي وقعت الجناية في حقّه"[2].

وعلى ذلك فقد اتفق التعريف اللغوي مع التعريف الاصطلاحي للشفاعة، التي تكون في الدنيا عبارة عن طلب العون من طرف أدنى إلى طرف أعلى، وكذلك في الآخرة سؤال العفو والتجاوز عن الذنوب.

١) مفردات غريب القرآن، ٢٦٣.

٢) التعريفات، للجرجاني، ١٣١.

المطلب الأول

الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الإيمان بالشفاعة

لم يختلف السلف على وجوب الإيمان بالشفاعة، وأنها من أمور الآخرة، الغيبية التي نص الكتاب والسنة عليها، وأن الله تعالى سيتجاوز عن ذنوب بعض العصاة ويصفح عن آخرين استحقوا دخول النار من أهل الكبائر، على خلاف ما ذهب إليه بعض الخوارج والمعتزلة وغيرهم، وقد اتفق شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى- مع منهج السلف في إثبات الإيمان بالشفاعة، ونقل أدلة الكثيرين منهم حول ذلك، كما نقل الإجماع على شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم فقال:

"أما شفاعته لأهل الذنوب من أمته فمتفق عليها من الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين الأربعة وغيرهم"[١].

روى أبوهريرة عن النبي أنه قال: "لكل نبي دعوة يدعو بها فأريد إن شاء الله أن أختبئ دعوتي شفاعةً لأمتي يوم القيامة"[٢].

وجوب الإيمان بالشفاعة:

وقد اتفق السلف على الإيمان بخروج قوم من أهل الكبائر والمعاصي من النار بعد الشفاعة.

"قال حرب الكرماني فيما ينقله عن مذهب أئمة العلم وأصحاب الأثر وأهل السنة المعروفين بها: والشفاعة يوم القيامة حق يشفع قوم في قوم فلا يصيرون إلى النار، ويخرج قوم من النار بعد ما يلبثهم فيها ما شاء الله، وقوم يخلدون في النار أبدا وهم أهل الشرك والتكذيب والجحود والكفر بالله"[٣].

---

١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ١/١٤٨.

٢) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات باب لكل نبي دعوة رقم ٦٣٠٤، ومالك في الموطأ باب ما جاء في الدعاء ١/٢١٢

٣) مسائل الإمام أحمد برواية حرب الكرماني ، ٣٥٨، وانظر: الآثار الواردة عن السلف في العقيدة من خلال كتب المسائل المروية عن الإمام أحمد، ٢/٦٧٢.

قال الإمام أحمد رحمه الله: "والإيمان بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم، وبقوم يخرجون من النار بعدما احترقوا وصاروا فحما، فيؤمر بهم إلى نهر على باب الجنة، كما جاء الأثر، كيف شاء، وكما شاء، إنما هو الإيمان به والتصديق به"١.

وهنا يطبق الإمام أحمد- رحمه الله- قاعدة أهل السنة في الإيمان بالأمور الغيبية، فخروج من حقت لهم الشفاعة بعد أن صاروا فحمًا معلوم بما ورد من نصوص شرعية، أما الكيف مجهول ومرده إلى الله تعالى كما شاء.

ويتفق أيضا مع هذه الصورة الإمام البربهاري- رحمه الله- فيقول: والإيمان بشفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم للمذنبين الخاطئين؛ في يوم القيامة، وعلى الصراط، ويخرجهم من جوف جهنم، وما من نبي إلا له شفاعة، وكذلك الصديقون والشهداء والصالحون، ولله بعد ذلك تفضل كثير فيمن يشاء، والخروج من النار بعدما احترقوا وصاروا فحما"٢.

الشفاعة للموحدين وحدهم:

قال الله تعالى حكاية عن حال الكافرين: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [الأعراف:٥٣]، وقال عز وجل : ﴿فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ* وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ* قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ* تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ* إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ* وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ* فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ* وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ* فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ* إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ* وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٩٤-١٠٤]. "٣.

وروى أبوهريرة أنه قال للنبي: "يارسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة، قال-النبي- لقد ظننت أن لا يسألني هذا الحديث أحدٌ أول منك لما رأيت من حرصك على الحديث، إن أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه".٤

---

١) أصول السنة، ص٦٤

٢) عون الباري ببيان ما تضمّنه شرح السنة للإمام البربهاري، ١/١٣٧.

٣) الشريعة، للآجري، ١/٣٢١.

٤) سبق تخريجة ص ٨٨

الإيمان بالشفاعة مبني على التوقيف:

يؤمن السلف بأن الغيب لا يعلمه إلا الله تعالى، والشفاعة من الأمور الغيبية التي لا سبيل للعقل إلى معرفتها، ومن هنا كان الإيمان بها مبنيا على التوقيف، وأن السبيل إلى ذلك هو خبر الله الصحيح في الكتاب والسنة.

وقد أكد ذلك الإمام ابن عبد البر- رحمه الله- بعد أن ذكر الآثار الواردة عن الشفاعة في شرح الحديث الذي رواه الإمام مالك- رحمه الله- عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: "لكل نبي دعوة يدعو بها ، فأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة"١.

وقال ابن عبدالبر: "والآثار في هذا كثيرة متواترة ، وأهل السنة والجماعة على التصديق بها ولا ينكرها إلا أهل البدع"٢.

ثم يوضح مسلك أهل السنة في تصديق خبر الله عن الشفاعة، فيقول: " كل هذا يكذب به جميع طوائف أهل البدع : الخوارج ، والمعتزلة ، والجهمية ، وسائر الفرق المبتدعة ؛ وأما أهل السنة أئمة الفقه والأثر في جميع الأمصار فيؤمنون بذلك كله ويصدقونه، وهم أهل الحق ، والله المستعان"٣.

إنكار الشفاعة:

رغم ثبوت الشفاعة في الكتاب والسنة، فقد خالف الكثير من الفرق هذه المسألة .

وليس هناك أشد عقوبة على من أنكر الشفاعة مما رواه الإمام الآجري- رحمه الله- عن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: "من كذب بالشفاعة فليس له فيها نصيب"٤.

---

١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات ، باب لكل نبي دعوة مستجابة ، برقم (٥٩٤٥) ، و مسلم في كتاب الإيمان، باب اختباء النبي صلى الله عليه وسلم دعوة الشفاعة لأمته برقم ، (١٩٩،١٩٨).

٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ١٩/ ٦٩

٣) التمهيد، لابن عبدالبر، ١٩/٧١.

٤) الشريعة للآجري، ٣٢١/١، وأخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ١١١٠/٦.

إقعاد النبي صلى الله عليه وسلم على العرش:

من الأمور المرتبطة بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم والتي وقع فيها الجدل بين السلف والمتكلمين مسألة إقعاد النبي صلى الله عليه وسلم على عرش الرحمن والذي ورد فيه أثر عن مجاهد – رحمه الله وقد تلقى السلف حديثه بالقبول، وذكروه في مصنفاتهم في الحديث حول مقام النبي صلى الله عليه وسلم ومنهم:

قال الخلال، في كتابه السنة: حدثنا به هارون بن معروف، قال: حدثنا محمد بن فضيل، عن ليث، عن مجاهد ، في قوله: "﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، قال : يقعده على العرش"[١].

وقال عبدالله بن الإمام أحمد بن حنبل: "سمعت هذا الحديث من جماعةٍ، وما رأيت أحدًا من المُحدّثين يُنكره، وكان عندنا في وقتِ ما سمعناه من المشائخ أن هذا الحديث إنّما تُنكره الجهمية"[٢].

وقال أبو بكر الآجري –رحمه الله– الشريعة: "باب ذكر ما خصّ الله –عزّ وجلّ– به النبي من المقام المحمود) : "وأما حديث مُجاهد .. فقد تلقّاه الشُّيوخ من أهل العلم والنّقل لحديث رسول الله تلَقّوها بأحسن تلقٍّ، وقبلوها بأحسن قبول، و لم يُنكروها، وأنكروا على من ردّ حديث مُجاهدٍ إنكارًا شديدًا، وقالوا: من ردّ حديث مجاهد فهو رجلُ سُوء"[٣].

كما أخرجه القرطبي أيضا عن عباد بن يعقوب الأسدي، قال: ثنا ابن فضيل، عن ليث، عن مجاهد، في قوله ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا ﴾قال: يُجْلسه معه على عرشه[٤].

و لم ينكر شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله تعالى– حديث مجاهد، وقال إنه روي مرفوعا من وجوه:

قال رحمه الله: " حدث العلماء المرضيون وأولياؤه المقبولون: أن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم يجلسه ربه على العرش معه ، روى ذلك محمد بن فضيل عن ليث عن مجاهد؛ في تفسير: عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا وذكر ذلك من وجوه أخرى مرفوعة وغير مرفوعة. قال ابن جرير: وهذا

١) السنة، للخلال، ذكر المقام المحمود، حديث رقم:٢٧٥

٢) السنة، للخلال، ٢/٢٤٤.

٣) الشريعة، ٤/١٦٠٤

٤) تفسير الطبري، سورة الإسراء.

ليس مناقضا لما استفاضت به الأحاديث من أن المقام المحمود هو الشفاعة باتفاق الأئمة من جميع من ينتحل الإسلام ويدعيه لا يقول إن إجلاسه على العرش منكر - وإنما أنكره بعض الجهمية- ولا ذكرُه في تفسير الآية منكر"١.

ورغم أن شيخ الإسلام – رحمه الله- قد أقر بعدم نكارة الحديث، فإنه يرى أن مثل هذه الأمور لابد أن تكون توقيفية وأن يفرق فيها بين ما كان من ألفاظ النبي صلى الله عليه وسلم، وبين ما كان لغيره، قال- رحمه الله:

" وإنما الثابت أنه عن مجاهد وغيره من السلف، وكان السلف والأئمة يروونه ولا ينكرونه، ويتلقونه بالقبول.

وقد يقال: إن مثل هذا لا يقال إلا توفيقاً، لكن لا بد من الفرق بين ما ثبت من ألفاظ الرسول، وما ثبت من كلام غيره، سواء كان من المقبول أو المردود"٢.

الخلاصة:

اتفق السلف على وجوب الإيمان بالشفاعة، وأنها من الأمور الغيبية التي أخبر الله تعالى عنها في كتابه وسنة نبيه، التي لا يكتمل إيمان العبد إلا بالإيمان بها، وأن الشفاعة في الآخرة تكون لأهل التوحيد وحدهم دون الكافرين ولا شفاعة إلا بأمر من الله تعالى.

---

١) مجموع الفتاوى، ٤/ ٣٧٤

٢) درء تعارض العقل والنقل، ابن تيمية، ٥/٢٣٧.

المطلب الثاني

قول شيخ الإسلام ابن تيمية في الإيمان بالشفاعة

اعتنى شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى- عناية كبيرة بمسألة الشفاعة في ردوده على المخالفين، الذين أنكروا شفاعة رسول صلى الله عليه وسلم، وبين أنها ثابتة بدعائه صلى الله عليه وسلم في الدنيا والآخرة، وأن الشفاعة من الأمور التي ميز الله بها نبيه واختص بها بعض عباده بإذنه في الآخرة.

شفاعة النبي في الدنيا والآخرة:

قال- رحمه الله: "ومحمد أعظم جاها من جميع الأنبياء والمرسلين، لكن شفاعته ودعاؤه إنما ينتفع بهما من شفع له الرسول ودعا له، فمن دعا له الرسول وشفع له توسل إلى الله بشفاعته ودعائه، كما كان أصحابه يتوسلون إلى الله بدعائه وشفاعته، وكما يتوسل الناس يوم القيامة إلى الله تبارك وتعالى بدعائه وشفاعته صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما"[١].

وأثبت رحمه الله تعالى هنا الشفاعة للنبي صلى الله عليه وسلم، في حياته وبعد موته، فالشفاعة له في الدنيا هي التي فهمها الصحابة رضوان الله عليه بطلب الدعاء منه، وكذلك الحال فإن الشفاعة للنبي صلى الله عليه وسلم تكون بدعائه أيضا، ولا تكون شفاعته إلا بإذن من الله.

الإجماع على الإيمان بالشفاعة:

ونقل شيخ الإسلام الإجماع على شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في الآخرة فقال: " أجمع المسلمون على أن النبي صلى الله عليه وسلم يشفع للخلق يوم القيامة بعد أن يسأله الناس ذلك وبعد أن يأذن الله له في الشفاعة . ثم إن أهل السنة والجماعة متفقون على ما اتفق عليه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين واستفاضت به السنن من أنه صلى الله عليه وسلم يشفع لأهل الكبائر من أمته ويشفع أيضا لعموم الخلق"[٢].

١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، ابن تيمية، ٢٤.

٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ١/٣١٤

كما يوضح- رحمه الله- أن الإجماع في أمر الشفاعة مبني على ما جاء به القرآن والسنة من أدلة تفرد النبي صلى الله عليه وسلم بالشفاعة، في الآخرة، ويوضح أيضا أنواع هذه الشفاعة فيقول: " والرسول صلى الله عليه وسلم يستشفع به إلى الله أي يطلب منه أن يسأل ربه الشفاعة في الخلق أن يقضي الله بينهم، وفي أن يدخلهم الجنة، ويشفع في أهل الكبائر من أمته، ويشفع في بعض من لا يستحق النار أن لا يدخلها، ويشفع في من دخلها أن يخرج منها، ولا نزاع بين جماهير الأمة أنه يجوز أن يشفع لأهل الطاعة المستحقين للثواب"١.

ويؤكد- رحمه الله أن ذلك هو مذهب أهل السنة والجماعة، فيقول: " ومذهب أهل السنة والجماعة أن يشفع في أهل الكبائر، ولا يخلد أحد في النار من أهل الإيمان، بل يخرج من النار من في قلبه حبة إيمان أو مثقال ذرة "٢.

ويوضح- رحمه الله تعالى- أن إمساك الأنبياء عن الشفاعة ليس لنقص منهم وإنما من كمال فضلهم وتواضعهم وخوفهم، فيقول: "هذا من كمال فضلهم وخوفهم وعبوديتهم وتواضعهم، فإن من فوائد ما يتاب منه أن يكمل عبودية العبد ويزيده خوفا وخضوعا فيرفع الله بذلك درجته، وهذا الامتناع مما يرفع الله به درجاتهم وحكمة الله تعالى في ذلك أن تصير الشفاعة لمن غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر"٣.

وقال أيضا:"فعلم أن تأخرهم عن الشفاعة لم يكن لنقص درجاتهم عما كانوا عليه، بل لما علموه من عظمة المقام المحمود الذي يستدعى من كمال مغفرة الله للعبد، وكمال عبودية العبد لله ما اختص به من مغفرة الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولهذا قال المسيح: اذهبوا إلى محمد عبدا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فإنه إذا غفر له ما تأخر لم يخف أن يلام إذا ذهب إلى ربه ليشفع، وإن كان لم يشفع إلا بعد الإذن"٤.

---

١) مجموعة الرسائل والمسائل، ابن تيمية، ١/١٠-١١.
٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ١/١١٦.
٣) منهاج السنة النبوية، ابن تيمية، ٢/٤٢٤.
٤) المرجع السابق، ٢/٤٢٣.

ويوضح هنا شيخ الإسلام- رحمه الله- أن تأخير الأنبياء عليه في الشفاعة ليس نقصا منهم، ولكنه من كمال عبوديتهم لله تعالى وخوفهم منه.

الإيمان بالشفاعة مبني على التوقيف:

لما كان الإيمان الشفاعة في الآخرة من الأمور الغيبية، لا يكون إثباها إلا بما أخبر الله تعالى عنه في كتابه وسنة نبية، ولذلك أوضح شيخ الإسلام- رحمه الله- السبيل إلى ذلك ما ورد من النصوص الشرعية، فيقول: "وقد ثبت بنص القرآن في غير آية : أن أحدا لا يشفع عنده إلا بإذنه . كما قال تعالى : ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ﴾ وقال : ﴿ ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ وقال : ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ وأمثال ذلك . والذي يبين أن هذه هي الشفاعة المنفية : أنه قال : ﴿ وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى رهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون ﴾ وقال تعالى : ﴿ الله الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع ﴾ فأخبر أنه ليس لهم من دون الله ولي ولا شفيع"[١].

وقال أيضا: "قد ثبت بالنصوص المستفيضة عن النبي صلى الله عليه وسلم إخراج قوم من النار بعد ما امتحشوا[٢]، وثبت أيضا شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر من العصاة، والآثار بذلك متواترة عند أهل العلم بالحديث أعظم من تواتر الآثار بنصاب السرقة ورجم الزاني المحصن ونصب الزكاة ووجوب الشفعة وميراث الجدة وأمثال ذلك"[٣].

نفي الشفاعة:

من قواعد السلف أن إثبات الأمور الغيبية ومنها الشفاعة لا يكون إلا توقيفيا على النصوص الواردة في الكتاب والسنة، وكذلك لا يكون نفيها إلا عن هذا الطريق أيضا، ولذلك يقول شيخ الإسلام: "وأما نفي الشفاعة بدون إذنه : فإن الشفاعة إذا كانت بإذنه لم تكن من دونه كما أن الولاية التي بإذنه ليست من دونه ؛ كما قال تعالى : ﴿ إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون ﴾ .

---

١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ١/١١٩.

٢) المحش : إحراق النار الجلد . ومحشت جلده أي أحرقته، انظر: لسان العرب، حرف الميم، مادة: محش.

٣) منهاج السنة، ابن تيمية، ٦/٢٠٤.

وأيضا فقد قال : ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئا ولا يعقلون ﴾ . ﴿ قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض ﴾ فذم الذين اتخذوا من دون الله شفعاء وأخبر أن لله الشفاعة جميعا ؛ فعلم أن الشفاعة منتفية عن غيره إذ لا يشفع أحد إلا بإذنه وتلك فهي له"١، وبالتالي فإن الشفاعة لا تكون إلا بإذن من الله تعالى وحده.

أنواع الشفاعة:

قال- رحمه الله - :" وله في القيامة ثلاث شفاعات: أما الشفاعة الأولى: فيشفع في أهل الموقف حتى يقضي بينهم بعد أن تتراجع الأنبياء آدم ونوح وإبراهيم وعيسى بن مريم الشفاعة حتى تنتهي إليه"٢.

الخلاصة:

يؤكد ابن تيمية أن الشفاعة من الأمور التي أخبر الله تعالى عنها في كتابه وسنة نبيه، وأن الإيمان بها توقيفي مرهون على ما ورد فيها من نصوص النفي والإثبات، وهي قاعدة السلف في توحيد الله تعالى وتصديق خبره خاصة في الأمور الغيبية المرتبطة بالإيمان به وباليوم الآخر.

---

١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ١/ ١٢٠

٢) "الواسطية" مجموع الفتاوى، ٣/ ١٤٧

الفصل الثالث

منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الصحابة والخلافة والإمامة والرد على المخالفين والتمسك بالكتاب والسنة، وفيه مبحثان:

المبحث الأول

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الصحابة والخلافة والإمامة والرد على المخالفين، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار الواردة عن السلف في الصحابة والخلافة والإمامة والرد على المخالفين.

المطلب الثاني: أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية في الصحابة والخلافة والإمامة والرد على المخالفين.

المبحث الثاني

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في التمسك بالكتاب والسنة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار الواردة عن السلف في التمسك بالكتاب والسنة.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في التمسك بالكتاب والسنة.

المبحث الأول

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في الصحابة والخلافة والإمامة والرد على المخالفين، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار الواردة عن السلف في الصحابة والخلافة والإمامة والرد على المخالفين.

المطلب الثاني: أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية في الصحابة والخلافة والإمامة والرد على المخالفين.

مدخل

وقعت الكثير من المسائل العظيمة، والخلافات الجليلة، بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، خاصة فيما يتعلق بمن يتولى أمور المسلمين، وقضية الإمامة والخلافة، ومن الأحق بهما من صحابته الكرام، وقد غلا في هذه المسائل أقوام، وفرط فيها غيرهم، وظل منهج أهل السنة وسطا، بين الطرفين لا يحيد فيها عن كتاب الله وسنة نبيه، تجلى هذا الموقف بوضوح في منهج شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- الذي اختار ما كان عليه السلف دون تفريط أو إفراط، لوضوح الأدلة الشرعية على فضل الصحابة، وأمور الخلافة وإدارة شئون المسلمين وسياستهم؛ لما ورد في فضل الصحابة من الأدلة الشرعية في الوحيين منها:

القرآن الكريم:

قال تعالى:﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾[الفتح:١٨]، وقال تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة:١٠٠].

ومن السنة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مُد أحدهم ولا نصيفه" [١].

قال الخطيب البغدادي: "والأخبار في هذا المعنى تتسع، وكلها مطابقة لما ورد في نص القرآن، وجميع ذلك يقتضي طهارة الصحابة والقطع على تعديلهم ونزاهتهم، فلا يحتاج أحد منهم مع تعديل الله تعالى لهم المطلع على بواطنهم إلى تعديل أحد من الخلق"[٢].

---

١) أخرجه البخاري في كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لو كنت متخذا خليلا برقم (٧٦٧٣) ، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة، برقم (٤٧٣٨).

٢) الكفاية في علم الرواية، الخطيب البغدادي، ٩٣.

أما الإمامة، فقد حكى ابن حزم الإجماع على وجوبها، وأورد على ذلك الأدلة من الكتاب والسنة وقال: "يرى أهل السنة أن الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار الأمة من أهل الحل والعقد، وينتصب الإمام بنصبهم، كما أنها تصح بعهد من الإمام الميت إذا قصد فيه حسن الاختيار للأمة عند موته، و لم يقصد بذلك هوى، وأنه تجوز إمامة المفضول مع وجود الفاضل، والأدلة على ذلك كثيرة من كتاب وسنة، وعمل صالح الأمة"[1].

ورغم ذلك فقد خالف هذه الأصول الكثير من الطوائف خاصة الرافضة الذين بالغوا في بعض الصحابة ورفعوا منزلتهم فوق منزلة النبي صلى الله عليه وسلم، بل جعلوهم آلهة تعبد من دون الله تعالى، وحطوا من شأن آخرين وكفروهم كما سنرى، كما وقف بعض فرق الخوارج موقفا متطرفا من الإمامة، وقالوا بعدم الحاجة إليها، ولكن أهل السنة ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- كفوا المسلمين مؤنة الرد على المخالفين إفراطا وتفريطا في الصحابة والإمامة والخلافة.

الإمامة والخلافة لغة:

في لسان العرب : "الإمام كل من ائتم به قوم كانوا على الصراط المستقيم أو كانوا ضالين.. والجمع: أئمة، وإمام كل شيء قيِّمه والمصلح له، والقرآن إمام المسلمين، وسيدنا محمد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إمام الأئمة، والخليفة إمام الرعية، وأممت القوم في الصلاة إمامة، وائتُم به: اقتدي به. والإمام: المثال، وإمام الغلام في المكتب ما يتعلمه كل يوم، وإمام المثال ما امتثل عليه، والإمام: الخيط الذي يُمَدُّ على البناء فيبنى عليه ويسوى عليه ساف البناء..."[2]

الإمامة والخلافة اصطلاحا:

وعلى كل فقد ارتبط مصطلحا الإمامة، والخلافة بالصحابة في مسألة الخلاف الذي ظهر على من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم في تولي أمور المسلمين، وتشعبت من ذلك فروع كثيرة من الخلافات التي نحا منها أهل السنة بوسطيتهم وغلا فيها وتطرف غيرهم، ووقف السلف يردون على مخالفات الغلاة وعلى رأسهم الرافضة والخوارج، وكان لشيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله دور بارز في ذلك باتباعه منهج السلف في هذا الإطار، كما سنرى.

---

١) الفصل في الملل والنحل، ابن حزم، ٣/٤.

٢) لسان العرب، ابن منظور، مادة أمم، ٢٤/١٢.

المطلب الأول

الآثار التي حاكاها ابن تيمية عن السلف في الصحابة والخلافة والإمامة والرد على المخالفين

اعتنى السلف بمناقب الصحابة وحقوقهم، وأمور الولاية العامة من الخلافة والإمامة، وما يرتبط بها عناية بالغة، وصنفوا في ذلك مصنفات كثيرة، بل وجعل الكثير من أئمة السلف مدخلا لمؤلفاتهم خاصة المتخصصة في أمور العقيدة، ومن هذه المؤلفات التي بدأت بالحث على وجوب لزوم الجماعة ونبذ الفرقة، والدعوة إلى الاستقامة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ومن أشهر من سلك هذا الطريق الإمام الآجري في كتابه "الشريعة"، والإمام اللالكائي في "شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة"، وابن بطة العكبري في "الإبانة" والبربهاري في "شرح السنة" وغيرهم الكثير، ذلك لما يحمله ذلك من آثار يترتب عليها مصائر المسلمين في دينهم ومعيشتهم.

كما اعتنوا أيضا بمنزلة الصحابة في مؤلفاتهم الخاصة بالسير والطبقات، ومناقب الصحابة، وقد اتفق شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله مع منهج السلف في هذه المسائل في ردودهم على المخالفين لما ثبت في الكتاب والسنة حول الصحابة، والخلافة والإمامة.

ومنهج السلف ومن بينهم شيخ الإسلام في الصحابة مبني على فضلهم في تبليغ الرسالة نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم، ولما لهم من السبق في الخيرات، كما ورد في حقهم الكثير من النصوص الشرعية من الكتاب والسنة التي تبين مكانتهم ومنزلتهم العظيمة، وجهودهم في نشر رسالة الإسلام وتبليغ ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.

أقوال السلف في الصحابة: عن أبي بردة عن أبيه رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: النجوم أَمَنَةٌ السماءِ، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأُمَّتي فإذا ذهب أصحابي أتى أُمَّتي ما يوعدون"[١].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النَّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: يأتي على الناس زمانٌ يغزو فئام من الناس فيقال لهم: فيكم مَنْ رأى رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم، ثم

١) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب بيان أن بقاء النبي صلى الله عليه وسلم أمان لأصحابه وبقاء أصحابه أمان للأمة، حديث رقم: ٢٥٣١.

يغزو فئامٌ مِنَ الناس فيقال لهم: فيكم مَنْ رأى مَنْ صحِب رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم، ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم: هل فيكم مَنْ رأى مَنْ صَحِبَ مَنْ صَحِبَ رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فيقولون نعم فيفتح لهم"١.

ويذكر ابن أبي حاتم لماذا يعتني السلف بالصحابة الكرام رضوان الله عليهم، فيقول:"أما أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فهم الذين شهدوا الوحي والتتريل، وعرفوا التفسير والتأويل، وهم الذين اختارهم الله – عز وجل – لصحبة نبيه صلّى الله عليه وسلّم، ونصرته، وإقامة دينه، وإظهار حقه، فرضيهم له صحابة، وجعلهم لنا أعلاماً وقدوة: فحفظوا عنه صلّى الله عليه وسلّم ما بلغهم عن الله – عز وجل – وما سن وشرع، وحكم وقضى، وندب وأمر، ونهى وحظر وأدب، ووعوه وأتقنوه، ففقهوا في الدين، وعلموا أمر الله ونهية، ومراده بمعاينة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومشاهدتهم منه تفسير الكتاب وتأويله، وتلقفهم منه، واستنباطهم عنه، فشرفهم الله – عز وجل – بما من عليهم، وأكرمهم به من وضعه إياهم موضع القدوة، فنفى عنهم الشك والكذب، والغلط والريبة والغمز"٢.

وقال الإمام أحمد: "خير الأمة بعد النبي أبوبكر الصديق، وبعده عمر بن الخطاب، وبعده عثمن بن عفان، وبعده علي بن أبي طالب وهم خلفاء راشدون مهديون ثم أصحاب رسول الله بعد ذلك لا يجوز لأحد أن يذكر شيئًا من مساوئهم ولا يطعن على أحد منهم بعيب ولا بنقص، ومن فعل ذلك وجب على السلطان تأديبه"٣.

ورغم كل هذا المناقب التي يؤيدها الكتاب والسنة حول الصحابة رضوان الله عليه إلا أن هناك من بالغ فيهم ورفع بعضهم إلى مراتب الآلهة، ومنهم من دأب على سب بعضهم والانتقاص من قدرهم، وبين هؤلاء وهؤلاء وقف أهل السنة موقفا وسطا كما سنرى.

---

١) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابه ، باب فضل الصحابة رضي الله عنهم حديث رقم ٤٦٠٣.

٢) الجرح والتعديل، ابن أبي حاتم، ٧/١.

٣)السنة للإمام أحمد بن حنبل ص ٧٨

قال البربهاري: "فمن زعم أنه قد بقي شيء من أمر الإسلام لم يكفوناه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد كذبهم، وكفى بهذا فرقة وطعناً عليهم، فهو مبتدع ضال مضل محدث في الإسلام ما ليس فيه"[1].

التفاضل بينهم:

نالت مسألة التفاضل بين الصحابة اهتماما كبيرا عند السلف ووضعوها في أبواب العقيدة، واتفقوا على التفاضل بينهم بالجملة، لورود الأدلة النقلية على ذلك، واختلفوا على المفاضلة بين آحادهم، ووما استند إليه السلف في المفاضلة ما جاء في كتاب الله من أدلة على تفاضل جماعات الصحابة، فالله عز وجل فضل الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا على الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، والمقصود بالفتح صلح الحديبية. قال تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠]. وفضل الله السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار على من دونهم، فقال تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

وقد وردت الكثير من الآثار والنصوص الدالة على التفاضل بين الصحابة، ومن ذلك:

عن علي رضي الله عنه في قصة كتاب حاطب مع الظعينة – وفيه – فقال عمر: إنَّه قد خانَ اللهَ ورسوله فدعني فلأَضْرِبْ عنقه، فقال: أَلَيْس مِنْ أهل بدر؟، فقال صلى الله عليه وسلم : لعلَّ الله اطَّلع إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنة، أو فقد غفرت لكم؛ فدمعتْ عينا عمر رضي الله عنه وقال: الله ورسولُهُ أعلم"[2].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل النار أحدٌ ممن بايع تحت الشجرة"[3].

---

١) شرح السنة، البربهاري، ٣٩/١.

٢) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بدر، ٤٦٧٧.

٣) سنن الترمذي، حديث رقم ٣٨٦٠.

ومن الحديث عن عموم الصحابة أو من لهم مواقف خاصة منهم إلى فضل أعيانهم وردت الأدلة أيضا التي تتحدث عن أسماء بعينها من الصحابة رضي الله عنهم ومنها:

عن حذيفة: أن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، قال: اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر" .

سب الصحابة:

ولما ورد من فضل الصحابة، رضوان الله عليهم فقد أكد السلف على عدم الانتقاص من أحدهم في الفتنة التي شجرت بين بعضهم وأن سبهم زندقة وخروج من الدين لأن السابّ إنما يريد سب الرسول صلى الله عليه وسلم ورسالته.

قال الإمام مالك رحمه الله عن هؤلاء – الذين يسبون الصحابة: "إنما هؤلاء أقوام أرادوا القدح في النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يمكنهم ذلك، فقدحوا في أصحابه؛ حتى يقال رجل سوء، ولو كان رجلاً صالحاً لكان أصحابه صالحين"١.

قال أبوزرعة الرازي: "إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب النبي، فاعلم أنه زنديق، وذلك أن الرسول عندنا حق، والقرآن عندنا حق، وإنما أدى إلينا القرآن والسنة الصحابة، وإنما يريد الزنادقة أن يجرحوا شهودنا ليبطلوا الكتاب والسنة"٢.

وعن عبد الملك بن عبد الحميد الميموني قال، قال الإمام أحمد: "يا أبا الحسن إذا رأيت الرجل يذكرًا أحدًا من أصحاب النبي بسوء فاتهمه على الإسلام"٣.

الإمساك عما شجر بينهم:

ونقل الذهبي عن نعيم ابن حماد قوله: "سمعت عبد الله بن المبارك يقول السيف الذي وقع بين صحابة الرسول فتنة ولا أقول أن أحد منهم مفتون "٤.

---

١) الصارم المسلول، ابن تيمية، ٥٨٠.

٢) الكفاية، للخطيب البغدادي،٩٧.

٣) البداية والنهاية، ابن كثير، ٢٤٨/٨.

٤) سير أعلام النبلاء، ٤٠٥/٨.

وعن منصور بن عبد الرحمن أنه قال سمعت الشعبي يقول: "أدركت خمس مائة أو أكثر من أصحاب النبي يقولون علي وعثمان وطلحة والزبير في الجنة" ١.

وقال ابن بطة : "ومن بعد ذلك نكف عما شجر بين أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقد شهدوا المشاهد معه، وسبقوا الناس بالفضل فقد غفر الله لهم ، وأمرك بالاستغفار لهم والتقرب إليه بمحبتهم ، وفرض ذلك على لسان نبيه وهو يعلم ما سيكون منهم وأنهم سيقتتلون . وإنما فضلوا على سائر الخلق لأن الخطأ والعمد قد وضع عنهم وكل ما شجر بينهم مغفور لهم، ولا تنظر في كتاب صفين والجمل ووقعة الدار وسائر المنازعات التي جرت بينهم ولا تكتبه لنفسك ولا لغيرك ، ولا ترره عن أحد ولا تقرأه على غيرك ولا تسمعه ممن يرويه. فعلى ذلك اتفق سادات علماء هذه الأمة من النهي عما وصفناه منهم: حماد بن زيد ويونس بن عبيد وسفيان الثوري وسفيان بن عيينة وعبدالله بن إدريس ومالك بن أنس وابن أبي ذئب وابن المنكدر وابن المبارك وشعيب بن حرب وأبو إسحاق الفزاري ويوسف بن أسباط وأحمد بن حنبل وبشر بن الحارث وعبدالوهاب الوراق.كل هؤلاء قد رأوا: النهي عنها والنظر فيها والاستماع إليها وحذروا من طلبها والاهتمام بجمعها"٢.

كما نقل نحو ذلك أيضا الإمام اللاكائي عن أبي حاتم قال: "سألت أبي وأبا زرعة عن مذاهب أهل السنة في أصول الدين، وما أدركا عليه العلماء في جميع الأمصار وما يعتقدان من ذلك. فقالا: « أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازاً وعراقاً وشاماً ويمناً ، فكان من مذهبهم الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ، والقرآن كلام الله غير مخلوق بجميع جهاته ، والقدر خيره وشره من الله - عز وجل - وخير هذه الأمة بعد نبيها - عليه الصلاة والسلام - أبو بكر الصديق ثم عمر بن الخطاب ثم عثمان بن عفان ثم علي بن أبي طالب - عليهم السلام - وهم الخلفاء الراشدون المهديون. وأن العشرة الذين سماهم رسول الله وشهد لهم بالجنة على ما شهد به رسول الله . وقوله الحق والترحم على جميع أصحاب محمد والكف عما شجر بينهم"٣.

---

١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، كتاب السلم في الشفعة، باب عرض الشفعة على صاحبها قبل البيع، حديث رقم:٢٢٨٧.

٢) الإبانة ، لابن بطة العكبري، رقم: ٢٩٤.

٣) شرح اصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللاكائي، رقم:٣٢١، ١/١٩٨

كما نقل الخلاّل عن الإمام أحمد – رحمه الله – أنّه قال : "من شتم أصحاب النّبيّ -صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وأزواجه وسلّم – لا نأمن أن يكون قد مرق عن الدّين"١.

ويفرق السلف بين من سب الصحابة جميعهم أو اتهامهم بالفسق، وبين من طعن في دينهم، وبين من سبهم سبا لا يطعن في دينهم، وهو ما اتبعه شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- .

ومن ذلك ما رواه الإمام أحمد- رحمه الله- ونقله شيخ الإسلام ابن تيمية، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، انه ضرب بالدرة من فضله على أبي بكر، ثم قال عمر: "أبو بكر كان خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم في كذا وكذا"، ثم قال عمر: "من قال غير هذا أقمنا عليه ما نقيم على المفتري"٢.

أما من اتهمهم بالكفر، فقد نقل عن السلف أن حكمه التنكيل الشديد. قال القاضي عياض: "وسب أحدهم من المعاصي الكبائر، ومذهبنا ومذهب الجمهور أنه يعزر ولا يقتل"٣.

الخلافة والإمامة:

من الأمور العظيمة التي اهتم بها السلف خاصة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم إمامة الخلافة والإمامة، وقد ورد في ذلك الكثير من الآثار والنصوص الشرعية التي توجبها، وتجعلها ركيزة أساسية في لزوم الجماعة وعدم الفرقة بين المسلمين، ومن أبرز الأدلة على اهتمام السلف في ذلك أن أغلب كتب السنة التي كتبت بداية من القرن الثاني الهجري بدأت أبوابها بالحث على لزوم الجماعة، لما فيها من حفظ الدين والدنيا.

عن عبدالله مسعود رضي الله عنه، قال في خطبة له: "يا أيها الناس، عليكم بالطاعة والجماعة، فإنها حبل الله — عز وجل- الذي أمر به، وما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة".٤

---

١) السنّة : ٤٩٣ – رقم : ٧٨٠

٢) فضائل الصحابة للإمام أحمد ١ / ٣٠٠.

٣) شرح النووي على صحيح مسلم، ١٦/٩٣.

٤) أخرجه مسلم، كتاب الأقضية ، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجه ، حديث رقم (٣٣٣٨).

كما حذر السلف من التفرق، إذا لم يكن لهم إمام يجتمعون عليه يحفظ لهم دينهم ودنياهم، واعتمدوا في ذلك على تحذير النبي صلى الله عليه وسلم من ذلك.

عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل: تفرق بنو إسرائيل اثنتين وسبعين ملة، وستفرق أمتي على ثلاث وسبعين، تزيد عليهم، كلها في النار إلا ملة واحدة، فقالوا من هذه الملة الواحدة؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي" ١.

وعن أبي هريرة ؛ أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " إن الله يرضى لكم ثلاثا ، ويسخط لكم ثلاثا ، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويسخط لكم قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال " ٢.

ولذلك فقد حث السلف على وجوب الإمامة، ولما فيه من مصلحة الدنيا والدين، وتحقيق ما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم من الجماعة ونبذ الفرقة، في قوله: "من فارق الجماعة فمات فميتته جاهلية"٣ ، وقد شرح الخطابي٤-رحمه الله- أسباب ذلك فقال:

"وذلك أنَّ أهل الجاهليةِ لم يكن لهم إمامٌ يجمعهم على دِينٍ ويتألَّفُهم على رأيٍ واحدٍ، بل كانوا طوائفَ شتَّى وفِرَقًا مُخْتَلِفين، آراؤُهم مُتناقِضةٌ وأديانُهم مُتبايِنةٌ؛ وذلك الذي دَعَا كثيرًا منهم إلى عبادةِ الأصنامِ وطاعةِ الأزلام"٥.

---

١) أخرجه مسلم، كتاب الأقضية ، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجه ، حديث رقم (٣٣٣٨).

٢) المرجع السابق.

٣) أخرجه البخاري، في كتاب المناقب ، باب علامات النبوة ، برقم (٦٦٤٥)، وأخرجه مسلم في كتاب الزكاة ، باب ذكر الخوارج وصفاقم ، برقم (١٠٦٤).

٤) هو أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي، الخطابي الشافعي، والخطابي نسبة إلى جده الخطاب. وقيل إنه من ولد زيد بن الخطاب بن نفيل العدوي، أخي الخليفة عمر بن الخطاب، ولد سنة ٣١٩ هـ بمدينة بست من بلاد كابل، قال ياقوت: أخذ العلم من كثير من أهله، ورحل في طلب الحديث وطوف وألف في فنون من العلم وصنف. وأخذ الفقه عن أبي بكر القفال الشاشي وأبي علي بن ابي هريرة ونظرائهما من فقهاء أصحاب الشافعي. انظر: معجم الأدباء، ٢٥٢/٤، ووفيات الأعيان، ٢١٤/٢.

٥) العزلة، للخطاب، ٥٦- ٥٧.

وبذلك فكان وجوب الإمامة من وجهين: الأول تحقيق التآلف وتجميع القلوب تحت راية واحدة، والوجه الثاني مخالفة أهل الجاهلية وعاداهم من الفرقة والتنابذ والاختلاف والافتراق.

وقد اختلف السلف في النص على ولاية أبي بكر رضي الله عنه فمنهم من رأى أن ولايته كانت تستند إلى الإجماع، ومنهم من قال بوجود النص على ذلك، ومنها ما رواه مسلم في صحيحه بإسناده إلى ابن أبي مليكة قال: (سمعت عائشة وسئلت: من كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخلفاً لو استخلفه؟ قالت: أبو بكر. فقيل لها: ثم من بعد أبي بكر؟ قالت: عمر، ثم قيل لها: من بعد عمر؟ قالت: أبو عبيدة بن الجراح ثم انتهت إلى هذا)[١].

الخلاصة

اعتنى السلف بمناقب الصحابة ومآثرهم والذود عنهم، والإمساك عما شجر بينهم، لفضلهم في توصيل رسالة النبي – صلى الله عليه وسلم – إلى العالمين، ولسبقهم في المترلة عند الله بالأدلة الثابتة في الكتاب والسنة، ولذلك وقفوا بالمرصاد لكل مخالف، أراد النيل من عدالتهم.

وأجمع السلف على وجوب الإمامة لسياسية أمور المسلمين، وردوا على المخالفين الذين اعتبروها ركنا من أركان الدين، أو الذين قالوا بإسقاطها.

١) أخرجه مسلم، في كتاب فضائل الصحابه ، باب من فضائل أبي بكر رضي الله عنه ، برقم (٢٣٨٥) .

المطلب الثاني

أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية في الصحابة والخلافة والإمامة والرد على المخالفين

اعتمد شيخ الإسلام- رحمه الله- مع منهج السلف في موقفه من الصحابة والخلافة والإمامة، وأفرد لذلك مصنفات فريدة، منها "الصارم المسلول على شاتم الرسول"، وكتابه "السياسة الشرعية"، كما أخذت هذه المسائل حيزا كبيرا في مصنفاته الأخرى خلال ردوده على المخالفين وأهل الزيغ، كما في كتابه "منهاج السنة"، إضافة إلى الفصول والأبواب التي تحدث عنها في مجموع الفتاوى وغيره من مؤلفاته.

ورغم أن معتقد شيخ الإسلام في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتزامه منهج السلف، إلا أن المناوئين له اتهموه بمعاداة الصحابة وآل البيت، ويرون أنه "يبغض الصحابة جميعا بما فيهم الخلفاء الراشدون الأربعة وإن كان يستتر- أحيانا- بحبهم ويتظاهر بذلك، فيقولون إن قلمه لم يسلم منه حتى الصحابة، ويقولون إنه (اشتهر عنه تخطئة الناس جميعا، حتى إمامه أحمد بن حنبل، بل الصحابة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي)". ١

أقوال شيخ الإسلام في الصحابة:

يقرر- رحمه الله وسطية السلف في الصحابة فيقول: "هم وسط في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الغالي في بعضهم الذي يقول بإلهية أو نبوة أو عصمة، والجافي فيهم: الذي يكفر بعضهم، أو يفسقه، وهم خيار الأمة"٢. وقد نقل شيخ الإسلام رحمه الله تعالى الكثير من الأدلة الشرعية على فضل الصحابة رضوان الله عليهم ومن ذلك ما ذكره في مجموع الفتاوى:

"والقرآن قد أثنى على الصحابة في غير موضع كقوله تعالى: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة:١٠٠]، وقوله تعالى: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ

---

١) انظر: دعاوى المناوئين لابن تيمية، عبدالمحسن الغصن، ٥٠٦، و نشأة الفكر الفلسفي، للنشار، ١٦٢/٢، ١١٦/٢.
٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، ٧٥/١.

﴿الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠]...

وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة" ١، وفي الصحيحين عن أبي سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه"٢ ، وقد ثبت عنه في الصحيح من غير وجه أنه قال: "خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" ٣. وهذه الأحاديث مستفيضة؛ بل متواترة في فضائل الصحابة، والثناء عليهم، وتفضيل قرنهم على من بعدهم من القرون"٤.

التفاضل بين الصحابة:

ويتبع شيخ الإسلام-رحمه الله- منهج السلف في الإقرار بالتفاضل بين الصحابة رضوان الله عليهم فيقول: "وأفضل السابقين الأولين: الخلفاء الأربعة، وأفضلهم ابو بكر، ثم عمر، وهذا هو المعروف عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأئمة الأمة، وجماهيرها"٥.

موقفه من أهل البيت:

وقرر أيضا وسطية أهل السنة في أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، فيقول: "محبتهم عندنا فرض واجب ، يؤجر عليه ، فإنه قد ثبت عندنا في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بغدير بين مكة والمدينة فقال "أيها الناس إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله " فذكر كتاب الله وحض عليه، ثم قال: " وعترتي أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي "٦ قلت لمقدم: ونحن نقول في صلاتنا كل يوم : " اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك

---

١) أخرجه الترمذي، كتاب المناقب، باب في فضل من بايع تحت الشجرة، حديث رقم (٣٨٦٠) . وقال : هذا حديث صحيح . وقال الألباني : صحيح. وأخرجه بلفظ آخر مسلم، في كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أصحاب الشجرة ، برقم (٢٤٩٦).

٢) سبق تخريجه ص ٣٣٥.

٣) سبق تخريجه ص ٦.

٤) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ٤/٤٣٠.

٥) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، ابن تيمية، ١٨٦.

٦) أخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، برقم (٢٤٠٨).

حميد مجيد". قال مقدم : فمن يبغض أهل البيت؟ قلت: من أبغضهم فعليه لعنه الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً"١.

موقفه من علي ابن ابي طالب رضي الله عنه:

يقر ابن تيمية أيضا منهج السلف في علي ابن أبي طالب رضي الله عنه، فيقول:"فضل علي وولايته لله وعلو مترلته عند الله معلوم ولله الحمد ، ومن طرق ثابتة أفادتنا العلم اليقيني، لا يحتاج معها إلى كذب ولا إلى ما لا يعلم صدقه"٢.

سب الصحابة:

تفرد شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- بردود بالغة على دعاوى المخالفين والمفترين على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مؤلفاته، وبين موقف السلف في من تطاول عليهم جميعا أو على أحد منهم، خاصة في كتابه الصارم المسلول على شاتم الرسول.

وقد أفرد لذلك فصلا كاملا تحت عنوان: حكم من سب أحدا من الصحابة، وبعد أن نقل أقوال السلف في موقفهم ممن سب الصحابة، فقال:

"ونحن نرتب الكلام على فصلين، أحدهما: في سبهم مطلقا، والثاني في تفصيل أحكام الساب"٣.

وبعد أن ينقل الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال سلف الأمة على حكم من سب الصحابة مطلقا، يختم شيخ الإسلام- رحمه الله الفصل الأول بقوله:

"فإذا كان الخليفتان الراشدان عمر وعلي رضي الله عنهما يجلدان حد المفتري، من يفضل عليًا على أبي بكر وعمر، أو من يفضل عمر على أبي بكر مع أن مجرد التفضيل ليس فيه سبٌ ولا عيبٌ- علم أن عقوبة السب عندهما فوق هذا بكثير"٤.

---

١) مجموع الفتاوى، ٤/٤٤٨-٤٤٩.

٢) منهاج السنة، ابن تيمية، ٤/٢٨٨.

٣) انظر: الصارم المسلول، ابن تيمية، من صفحة ٤٣٤: ٤٨٥.

٤) الصارم المسلول، ابن تيمية، ٤٥٥.

وينتقل شيخ الإسلام- رحمه الله- إلى الفصل الثاني فيقول:

"أما من اقترن بسبه دعوى أن عليا إله، أو أنه كان هو النبي، وإنما غلط جبرئيل في الرسالة، فهذا لا شك في كفره، بل لا شك في كفر من توقف في تكفيره.

وكذلك من زعم منهم أن القرآن نقص منه آيات وكتمت، أو زعم أن له تأويلات باطنة، تسقط الأعمال المشروعة، ونحو ذلك وهؤلاء يسمون القرامطة[1]، والباطنية[2]، ومنهم التاسخية[3]، وهؤلاء لا خلاف في كفرهم"[4].

وهذا فقد أقر شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- منهج السلف في الصحابة، وتعظيم قدرهم وتوقيرهم ورد على المخالفين المناوئين له فيما نسبوه إليه من التقليل من شأنهم.

موقفه مما شجر بين الصحابة:

التزم شيخ الإسلام – رحمه الله تعالى- بموقف السلف من الإمساك عن الانتقاص من قدر الصحابة في النزاع الذي شجر بينهم، ووقف موقفا صارما من المخالفين المنتقصين من قدرهم في هذه الفتنة، ومن ذلك قوله: "ثبت بالنصوص الصحيحة أن عثمان وعليا، وطلحة والزبير وعائشة، من أهل الجنة، فقد ثبت في الصحيح "أنه لا يدخل النار من بايع تحت الشجرة"[5].

---

١) القرامطة حركة باطنية هدامة، اعتمدت التنظيم السري العسكري، ظاهرها التشيع لآل البيت والانتساب إلى محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق وحقيقتها الإلحاد والشيوعية والإباحية وهدم الأخلاق والقضاء على الدولة الإسلامية. سميت بهذا الاسم نسبة إلى حمدان قرمط بن الأشعث الذي نشرها في سواد الكوفة سنة ٢٧٨هـ. انظر: معجم مصطلحات التاريخ، يحيى نبهان، ٢٢٢.

٢) الباطنية مصطلح عام، نسبة إلى "الباطن"، المقابل "للظاهر"، يطلق على بعض الفرق ـــ الإسلامية وغير الإسلامية ـــ التي لم تقف في قضية "التأويل" عند حدود وإنما ذهبت فيها مذاهب الغلو والتعميم والإطلاق، انظر: الوسيط في المذاهب والمصطلحات الإسلامية، ٨٩.

٣) التناسخية، القائلون بالتَّناسُخ وإنكار البعث.

٤) الصارم المسلول، ابن تيمية، ٤٥٦.

٥) سبق تخريجه ص ٣٤٦.

وأبو موسى الأشعري، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن ابي سفيان هم من الصحابة ولهم فضائل ومحاسن، وما يحكى عنهم كثير منه كذب، والصدق منه إن كانوا فيه مجتهدين، فالمجتهد إذا أصاب فله أجران، وإذا أخطأ فله أجر، وخطأه يغفر له"١.

ثم قال: "مما ينبغي أن يعلم أنه وإن كان المختار الإمساك عما شجر بين الصحابة والاستغفار للطائفتين جميعا وموالاتهم، فليس من الواجب اعتقاد أن كل واحد من العسكر لم يكن إلا مجتهدا متأولا كالعلماء، بل فيهم المذنب والمسيء، وفيهم المقصر في الاجتهاد لنوع من الهوى، لكن إذا كانت السيئة في حسنات كثيرة كانت مرجوحة مغفورة.

وأهل السنة تحسن القول فيهم وتترحم عليهم، وتستغفر لهم، لكن لا يعتقدون العصمة من الإقرار على الذنوب، وعلى الخطأ في الاجتهاد، إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ومن سواه، فيجوز عليه الإقرار على الذنب والخطأ"٢.

الخلافة والإمامة:

يرى ابن تيمية- رحمه الله- أن الإمامة من أعظم واجبات الدين، وأن الأدلة من العقل والنقل تدل على أهميتها في إقامة حياة الناس ورعاية شئوهم، وحفظ دينهم.

قال- رحمه الله-: " يجب أن يعرف أن ولاية الناس من أعظم واجبات الدين بل لا قيام للدين إلا بها ، فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض ، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس"٣.

واستند شيخ الإسلام في ذلك على ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصحيح ومنها:

"(إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم)٤ ، رواه أبو داود ، من حديث أبي سعيد وأبي هريرة .

---

١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، ٤/٤٣١.

٢) المرجع السابق، ابن تيمية، ٤/٤٣٤.

٣) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، ابن تيمية، ٢١٨.

٤) سنن أبو داود، كتاب الجهاد، باب في القوم يسافرون يؤمرون أحدهم، حديث رقم (٢٦٠٨). وقال الألباني: : صحيح.

وروى الإمام أحمد في المسند عن عبد الله بن عمرو ، أن النبي قال : (لا يحل لثلاثة يكونون بفلاة من الأرض إلا أمروا عليهم أحدهم) فأوجب صلى الله عليه وسلم تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر ، تنبيها على سائر أنواع الاجتماع ، ولأن الله - تعالى - أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة .

وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد ونصر المظلوم ، وإقامة الحدود لا تتم إلا بالقوة والإمارة ولهذا روي: (أن السلطان ظل الله في الأرض)١ ويقال: " ستون سنة من إمام جائر أصلح من ليلة بلا سلطان٢ .

والتجربة تبين ذلك ؛ ولهذا كان السلف كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون: " لو كان لنا دعوة مجابة لدعونا بها للسلطان " وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله يرضى لكم ثلاثا ، ويسخط لكم ثلاثا ، يرضى لكم : أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم ، ويسخط لكم : قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال .)٣"٤ .

وقد جعل الرافضة الإمامة أهم مطالب أحكام الدين، وتصدى شيخ الإسلام- رحمه الله- لمقولتهم ومن ذلك رده على ابن المطهر الحلي الرافضي٥ صاحب كتاب "منهاج الكرامة في إثبات الإمامة" في كتابه "منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية".

وقد رد شيخ الإسلام على قول المطهر الحلي: "أن مذهب الإمامية واجب الإتباع، ثم ذكر الفصل الثالث في الأدلة على إمامة علي رضي الله عنه بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر الفصل الرابع في الاثني عشر ثم ذكر الفصل الخامس في إبطال خلافة أبي بكر وعمر وعثمان"٦.

---

١) شعب الإيمان، للبيهقي، حديث رقم:٧١٢٤.

٢) انظر: ترتيب المدارك للقاضي عياض ، ٢ / ٤٩٣

٣) صحيح ابن حبان ، باب المسألة والأخذ وما يتعلق به ١٨٢/٨، برقم (٣٣٨٨) ، وقال الأرناؤوط : على شرطهما.

٤) السياسة الشرعية، ابن تيمية، ٢١٨.

٥) جمال الدين ابو منصور الحسن بن يوسف بن علي المطهر الحلي المشهور عند الشيعة بالعلامة، ولد سنة ٦٤٨ هـ وتوفي سنة ٧٢٦ هـ قبل وفاة ابن تيمية بعامين.. ومن شيوخه: نصير الدين الطوسي الذي تأثر بفكره ومنهجه الاسماعيلي، انظر: روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات، لميرزا محمد باقر الموسوي الخوانساري، انظر: الأعلام، للزّركلي، ، ٢٢٧/٢ .

٦) منهاج السنة، ابن تيمية، ١٠٠/١.

قال رحمه الله: "فيقال الكلام على هذا من وجوه:

أحدها: أن يقال أولا إن قول القائل إن مسألة الإمامة أهم المطالب في أحكام الدين وأشرف مسائل المسلمين كذب بإجماع المسلمين سنيهم وشيعيهم بل هذا كفر.

فإن الإيمان بالله ورسوله أهم من مسألة الإمامة وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، فالكافر لا يصير مؤمنا حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وهذا هو الذي قاتل عليه الرسول صلى الله عليه وسلم الكفار أولا ، كما استفاض عنه في الصحاح وغيرها أنه قال: أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وفي رواية ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها"١.

وبهذا فقد أبطل شيخ الإسلام- رحمه الله- شبهة القول بأن الإمامة أهم مطالب الدين، وبين أن الثابت في الكتاب والسنة ومنهج السلف غير ذلك.

وينقل مذهب أهل السنة والجماعة فيمن تنعقد له الإمامة، فيقول: "بل الإمامة عندهم تثبت بموافقة أهل الشوكة عليها ، ولا يصير الرجل إماما حتى يوافقه أهل الشوكة عليها الذين يحصل بطاعتهم له مقصود الإمامة ، فإن المقصود من الإمامة إنما يحصل بالقدرة والسلطان ، فإذا بويع بيعة حصلت بها القدرة والسلطان صار إماما .

ولهذا قال أئمة السلف: من صار له قدرة وسلطان يفعل بهما مقصود الولاية ، فهو من أولي الأمر الذين أمر الله بطاعتهم ما لم يأمروا بمعصية الله ، فالإمامة ملك وسلطان ، والملك لا يصير ملكا بموافقة واحد ولا اثنين ولا أربعة ، إلا أن تكون موافقة هؤلاء تقتضي موافقة غيرهم بحيث يصير ملكا بذلك . وهكذا كل أمر يفتقر إلى المعاونة عليه لا يحصل إلا بحصول من يمكنهم التعاون عليه ؛ ولهذا لما بويع علي - رضي الله عنه - وصار معه شوكة صار إماما"٢

---

١) منهاج السنة، ابن تيمية، ٧٦/١.

٢) المرجع السابق، ٣١٣/١.

الخلاصة

اتفق شيخ الإسلام- رحمه الله- مع منهج السلف في الصحابة، وعلو قدرهم ومكانتهم، وبين حكم من طعن فيهم لما في ذلك من طعن في الدين نفسه، وأقر الإمساك عن الخوض فيما شجر بينهم، كما أوضح أن الإمامة والخلافة من الأمور العظيمة في سياسة الأمة وبين الأدلة على ذلك ورد على المخالفين بين الإفراط والتفريط في الخلافة والإمامة.

المبحث الثاني

منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على الآثار الواردة عن السلف في التمسك بالكتاب والسنة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: الآثار الواردة عن السلف في التمسك بالكتاب والسنة.

المطلب الثاني: قول شيخ الإسلام ابن تيمية في التمسك بالكتاب والسنة.

مدخل

أمر الله تعالى الأمة بالاعتصام والتمسك بالكتاب والسنة، ونبذ الفرقة وتجنب البدع، وبين خطورة ذلك لما فيه من عقاب عاجل في الدنيا وسوء المآل في الآخرة، فهما حصن المؤمن وظله الظليل يوم لا ظل إلا ظله. قال تعالى: ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[آل عمران:١٠٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: تمسكوا بدين الله، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: الجماعة"١.

وقد حذر المولى عز وجل من الوقوع فيما وقع فيه أهل الكتابين، اليهود والنصارى من البعد عن وحي السماء، وهداية الله تعالى، فغضب الله عليهم وتوعدهم بسوء العاقبة في الآخرة، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[آل عمران: ١٠٥]، وهو ما أكد عليه السلف، وتمسكوا به في دعوقم التي تسير في نور الرسالة.

والأدلة من الكتاب والسنة على وجوب التمسك والعمل بهما، أكثر من أن تحصى على ذلك، فكل آية، وكل دليل، وكل خبر، وكل أمر ونهي، ورد في القرآن والسنة، تحمل، في ذاتها أمرا من الله تعالى، ودعوة صريحة إلى التمسك والاعتصام بالوحي المطهر.

١) تفسير ابن كثير، ٣ /١٣٦-١٣٧.

المطلب الأول

الآثار التي حاكاها ابن تيمية في التمسك بالكتاب والسنة

التمسك بالكتاب والسنة من أهم الأمور التي دعا إليها السلف، ولا يكاد أحد منهم يخالف هذا الأصل، لإقرارهم بأنهم أهل اتباع، فما توافق مع الكتاب والسنة أخذوا به، وما خالف ذلك طرحوه، مهما كان قائله، لما ورد في ذلك من أدلة شرعية كثيرة، وافقها الواقع.

قَالَ تَعَالَى:﴿ اتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاء قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُون ﴾ [الأعراف: ٣].وقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيم ﴾ [الزخرف: ٤٣]. وقَالَ تَعَالَى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُون ﴾ [الجاثية: ١٨]. وقال صلى الله عليه وسلم: (تركت فيكم شيئين، لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي)١.

وقال أبوبكر الصديق: "إنما أنا متبع ولست بمبتدع"٢

وقال عبد الله بن مسعود: "إننا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع ولن نضل ما تمسكنا بالأثر"ــ٣

ولذلك حرص السلف على التمسك بالكتاب والسنة لتحقيق مصالح العباد وفلاحهم في الدنيا والآخرة، كما شدد الأئمة الأربعة على ضرورة العمل بالكتاب والسنة وترك ما يخالف ذلك.

قال الإمام مالك:" إنما أنا بشر أخطئ وأصيب ؛ فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه"٤.

وقال الإمام أبي حنيفة:" إذا قلت قولا يخالف كتاب الله تعالى وخبر الرسول صلى الله عليه وسلم فاتركوا قولي"٥.

١) المستدرك على الصحيحين، الحاكم ، ١ /٢٨٤.

٢) الطبقات لابن سعد ١٨٢/٣

٣) السنة، اللالكائي ٨٦/١ رقم ١٠٥، ١٠٦

٤) الجامع، لابن عبدالبر، ٣٢/٢.

٥) إيقاظ همم الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار، الفلاني، ٥٠

قال الشافعي- رحمه الله: "أجمع المسلمون على أنَّ من استبان له سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحلّ له أن يدعها لقول أحد"١.

أما الإمام أحمد- رحمه الله فأقواله كثيرة في وجوب التمسك بالكتاب والسنة وترك أقوال الرجال، قال- رحمه الله: " لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري وخذ من حيث أخذوا"٢.

ورُوي عن عمر بن عبد العزيز أنه قال: "سن رسول الله وولاة الأمر بعده سنن، الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمالٌ لطاعته وقوة على الدين الله، ليس لأحد تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في رأي من خالفها، فما اقتدى بما سنوا اهتدى، ومن استبصر به بصر، ومن خالفها واتبع غير سبيل المؤمنين ولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً"٣

وقال الأوزاعي: "اصبر على السنة وقف حيث وقف القوم، وقل فيما قالوا وكف عما كفوا، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك ما وسعهم".٤

"وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : "لست تاركًا شيئًا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به، إلا عملت به، وإني لأخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ"٥.
علّق ابن بطة على هذا بقوله: هذا يا أخواني الصدّيق الأكبر يتخوّف على نفسه من الزيغ إن هو خالف شيئًا من أمر نبيه صلى الله عليه وسلم ، فماذا عسى أن يكون من زمان أضحى أهله يستهزئون بنبيهم وبأوامره، ويتباهون بمخالفته ويسخرون بسنته؟!.. نسأل الله عصمة من الزلل، ونجاة من سوء العمل"٦.

وهكذا كان السلف يعظمون قدر التمسك بالكتاب والسنة ويتخوفون من الوقوع في مخالفتهما.

---

١) إيقاظ همم الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار، الفلاني ٦٨ .
٢) المسائل المروية عن الإمام أحمد، ٢٧٦ – ٢٧٧ .
٣) سير أعلام النبلاء، الذهبي ٨/٨٨، المعرفة ليعقوب البسوي ٣/٣٨٦، والسنة للالكائي ١/٩٤
٤) السنة، للالكائي ١/١٥٤ رقم ٣١٥، الحلية أبونعيم ٦/١٤٣
٥) أخرجه البخاري في كتاب االخمس ، باب فرض الخمس ، برقم (٢٩٢٦) ومسلم في كتاب الجهاد والسير ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : " نورث..." ، برقم (١٧٥٩).
٦) الإبانة، ابن بطة العكبري، ١/٢٤٦.

وجوب التمسك بالكتاب والسنة:

يؤكد السلف على وجوب التمسك بالكتاب والسنة وأنه لا سبيل لفلاح هذه الأمامة إلا بهما، ويقدمون قول الله ورسوله على كل قول مهما كانت منزلة القائل.

روى الإمام أحمد- رحمه الله- عن مالك بن أنس قال: "كان عمر بن عبد العزيز يقول: سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر من بعده سنناً الأخذ بها تصديق لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، من اهتدى بها مهتدي، ومن استنصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً"[١].

ويرى الإمام اللالكائي- رحمه الله، أن التمسك بالكتاب والسنة من أوجب الواجبات التي على المرء معرفتها، قال رحمه الله: "فإن أوجب ما على المرء معرفة اعتقاد الدين، وما كلف الله عباده من فهم توحيده وصفاته، وتصديق رسله بالدلائل واليقين، والتوصل إلى طرقها، والاستدلال عليها بالحجج والبراهين، وكان من أعظم مقول وأوضح حجة ومعقول، كتاب الله الحق المبين. ثم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته الأخيار والمتقين، ثم ما أجمع عليه السلف الصالحون، ثم التمسك بمجموعها والمقام عليها إلى يوم الدين، ثم الاجتناب عن البدع والاستماع إليها مما أحدثها المضلون. فهذه الوصايا الموروثة المتبوعة، والآثار المحفوظة المنقولة، وطرائق الحق المسلوكة والدلائل اللائحة المشهورة، والحجج الباهرة المنصورة التي عملت عليها الصحابة والتابعون، ومن بعدهم من خاصة الناس وعامتهم من المسلمين. واعتقدوها حجة فيما بينهم وبين الله رب العالمين. ثم من اقتدى بهم من الأئمة المهتدين، واقتفى آثارهم من المتبعين، واجتهد في سلوك سبيل المتقين، وكان من الذين اتقوا والذين هم محسنون"[٢].

وبهذا فإن مذهب الصحابة والتابعين وتابعيهم والسلف أجمعين متفقون على وجوب التمسك بالكتاب والسنة لما فيهما من فلاح في الدنيا وحسن المآل في الآخرة.

---

١) السنة، للإمام أحمد، ٣٥٧/١، والشريعة، للآجري، ٤٦، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، ٤٩/١.

٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، ٢٢/١.

عدم التفرقة بين الوحيين:

قال عباد بن عوام، قدم علينا شريك بن عبد الله فقلنا: إن قومًا ينكرون هذه الأحاديث —إن الله يترل للسماء الدنيا والرؤية، وأشباهها- فقال إن من جاء بهذه الأحاديث هو من جاء بالسننفي الصلاة والزكاة والحج، وإنما عرفنا الله بهذه الأحاديث".[1]

يتفق السلف أيضا على علو مترلة السنة، ووجوب التمسك بها، تماما بتمام مثل التمسك بكتاب الله تعالى، ويعللون ذلك بأن الوحي قسمان: هما الكتاب، والسنة الواردة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال ابن حزم: " لما بينا أن القرآن هو الأصل المرجوع إليه في الشرائع، نظرنا فيه، فوجدنا فيه إيجاب طاعة ما أمرنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووجدناه عز وجل يقول واصفاً لرسوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٣-٤]. فصح لنا بذلك أن الوحي ينقسم من الله عز وجل إلى رسوله صلى الله عليه وسلم على قسمين:

أحدهما: وحي متلو مؤلف تأليفاً معجز النظام وهو القرآن.

الثاني: وحي مروي منقول غير مؤلف، ولا معجز النظام ولا متلو لكنه مقروء.

وهو الخبر الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو المبين عن الله عز وجل مراده منا".[2]

التحذير من البدع:

يؤكد السلف على أن في التمسك بالكتاب والسنة العصمة من الوقوع في البدع العقائدية والتعبدية التي تورد بأصحابها المهالك، قال ابن بطة رحمه الله : "وليعلم المؤمنون من أهل العقل والعلم أن قوماً يريدون إبطال الشريعة، ودروس آثار العلم والسنة، فهم يموهون على من قل علمه، وضعف قلبه، بأنهم يدعون إلى كتاب الله، ويعملون به، وهم من كتاب الله يهربون، وعنه يدبرون، وله يخالفون، وذلك أنهم إذا سمعوا سنة رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، رواها الأكابر عن الأكابر، ونقلها أهل العدالة والأمانة، ومن كان موضع القدوة والأمانة، وأجمع أئمة المسلمين على صحتها، أو حكم

---

١) الشريعة، الآجري ٣٠٦، والصفات، الدراقطني ٤٣، وسير أعلام النبلاء، الذهبي ١٨٥/٨.

٢) الإحكام في أصول الأحكام، ٨٦.

فقهاؤهم بها، عارضوا تلك السنة بالخلاف عليها، وتلقوها بالردّ لها. وقالوا لمن رواها عندهم: تجد هذا في كتاب الله؟ وهل نزل هذا في القرآن؟ وائتوني بآية من كتاب الله حتى أصدق بهذا"[1].

روى جابر بن عبد الله أن النبي قال في حجة الوداع: "إن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار".[2]

الخلاصة:

يتفق السلف على وجوب التمسك بالكتاب والسنة، لما فيها من صلاح العباد في دنياهم وحسن المآل في الآخرة، ويحذرون من الوقوع في البدع العقائدية والتعبدية، ويرون أن حاجة البشر إلى الوحي أكثر من حاجتهم إلى ما تقام به الأجساد.

---

١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، ١٢٢/١.

٢) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الاعتصام بالكتاب والسنة ص ٨٧٦، و النسائي في سننه ١٨٨/٣.

المطلب الثاني

قول شيخ الإسلام ابن تيمية في التمسك بالكتاب والسنة

يبدأ شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في تلخيصه لمعتقدات السلف بإقرار القاعدة الأساسية لأهل السنة والجماعة، وهي التمسك بكتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، فيقول: "وأهل السنة والجماعة يتبعون الكتاب والسنة ويطيعون الله ورسوله فيتبعون الحق ويرحمون الخلق"١.

وهذه هي القاعدة العامة التي يسير عليه السلف في التعامل مع كل الأمور الشرعية الخبرية منها والتكليفية، فهم لا يأتون بشيء من عند أنفسهم، بل يسيرون على نور الرسالة الربانية.

ويؤكد شيخ الإسلام- رحمه الله- أن التمسك بالكتاب والسنة أصل جامع لكل ما فيه النجاة في الدارين، قال: "في الاعتصام بكتاب الله، ووجوب اتباعه وبيان الاهتداء به في كل ما يحتاج إليه الناس من دينهم، وأن النجاة والسعادة في اتباعه، والشقاء في مخالفته، وما دل عليه من اتباع السنة والجماعة"٢.

ثم ينتقل- رحمه الله- ألى نقل الأدلة الثابتة من الكتاب والسنة حول التمسك بهما ومنها:

"قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ* قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾ [طه:١٢٣-١٢٦]، قال ابن عباس: تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية"٣.

ويوضح شيخ الإسلام أن كتاب الله عز وجل له السيادة والسلطان على شيء، لا يعارضه غيره مهما علا، فيقول: "وفي قوله: ﴿يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾[غافر: ٥٦]، بيان أنه لا يجوز أن يعارض كتاب الله بغير كتاب الله، لا بفعل أحد ولا أمره، لا دولة ولا سياسة، فإنه حال الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم؛ ولكن لا يجوز أن يكون في آيات الله ناسخ ومنسوخ فيعارض

١) مجموع الفتاوى، ٢٨٠/٣.

٢) المرجع السابق ، ٧٦/١٩.

٣) مجموع الفتاوى، ٧٦/١٩- ٧٧.

منسوخه بناسخه، كما في قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة:١٠٦]، وكما قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[البقرة: ١٤٢]، ونظائره متعددة"[١].

وعن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ *وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[آل عمران:١٠٠- ١٠١].

قال- رحمه الله: "فأمر بالاعتصام بحبل الله وهو كتابه [٢]، قلت : والأحاديث في هذا المعنى كثيرة منها : الحديث الذي في صحيح مسلم وهو قوله - صلى الله عليه وسلم - : (إن الله يرضى لكم ويكره لكم ثلاثاً ، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، ويكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال) "[٣].

وجوب اتباع السُّنَّة:

يوضح شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى- وجوب اتباع ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، من السنة مثلا بمثل ما جاء في القرآن الكريم، لأن ما أتى به النبي في سنته وحي من السماء، وأنه لا يمكن أن يكون هناك تعارض بين قول النبي صلى الله عليه وسلم وما جاء في القرآن الكريم.

يقول- رحمه الله: "فهذه النصوص توجب اتباع الرسول وإن لم نجد ما قاله منصوصا بعينه في الكتاب، كما أن تلك الآيات توجب اتباع الكتاب وإن لم نجد ما في الكتاب منصوصا بعينه في حديث عن الرسول غير الكتاب، فعلينا أن نتبع الكتاب، وعلينا أن نتبع الرسول، والكتاب أمر بطاعة الرسول، ولا يختلف الكتاب والرسول البتة، كما لا يخالف الكتاب بعضه بعضا، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء:٨٢]، والأحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في وجوب اتباع الكتاب، وفي وجوب اتباع سنته - صلى الله عليه وسلم - ..." إلى أن قال : " وفي

١) مجموع الفتاوى، ١٩/٧٨-٧٩.

٢) المرجع السابق ، ١٩/٨٠.

٣) أخرجه مسلم في كتاب الأقضية ، باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجه...، برقم (١٧١٥).

صحيح مسلم من حديث جابر أنه قال في خطبة الوداع : " وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعده ، كتاب الله ...[1]"[2].

وجوب الاعتصام بالرسالة:

من أفضل نعم الله على عباده أن من عليهم بالرسالة يهتدون بها في الدنيا والآخرة، ولذلك يؤكد ابن تيمية على أنها روح العالم ونوره فيقول:

"قاعدة نافعة في وجوب الاعتصام بالرسالة" وبيان أن السعادة والهدى في متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وأن الضلال والشقاء في مخالفته، وأن كل خير في الوجود إما عام، وإما خاص فمنشؤه من جهة الرسول، وأن كل شر في العالم مختص بالعبد فبسببه مخالفة الرسول أو الجهل بما جاء به، وأن سعادة العباد في معاشهم ومعادهم باتباع الرسالة.

والرسالة ضرورية للعباد، لابد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة وبناله من حياتها وروحها فهو في ظلمة وهو من الأموات، قال الله تعالى: ﴿ أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾[الأنعام:١٢٢][3].

أهمية التمسك بالكتاب والسنة:

يوضح شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- أن حاجة العبد لنور الرسالة والتمسك بالكتاب والسنة ليست للوصول إلى السعادة في الآخرة وحدها، وإنما في التمسك بها سعادة الدارين والفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، يقول- رحمه الله-:

" والرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده ، فكما أنه لا صلاح له في آخرته إلا باتباع الرسالة فكذلك لا صلاح له في معاشه ودنياه إلا باتباع الرسالة ؛ فإن الإنسان مضطر إلى الشرع ؛ فإنه

---

١) أخرجه مسلم، في كتاب الحج ، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم ، برقم (١٢١٨).

٢) مجموع الفتاوى، ١٩/٨٤- ٨٥.

٣) المرجع السابق، ١٩/٩٣.

بين حركتين : حركة يجلب بها ما ينفعه ، وحركة يدفع بها ما يضره . والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره. والشرع نور الله في أرضه وعدله بين عباده وحصنه الذي من دخله كان آمنا"١.

ثم يبين- رحمه الله- أن التمسك بالكتاب والسنة لا يحقق المصلحة الحسية للعبد في الدنيا فقط، فالحيوان يعرف ما يضره وما ينفعه، ولكنه يرفع من قيمة الإنسان إلى مراتب الكمال التي لا تتحقق في الدنيا إلا باتباع الوحي من أمور إنسانية، لا يمكن لأي نواميس بشرية أن تصل إليها، فيقول: " وليس المراد بالشرع التمييز بين الضار والنافع بالحس ؛ فإن ذلك يحصل للحيوانات العجم. فإن الحمار والجمل يميز به بين الشعير والتراب بل التمييز بين الأفعال التي تضر فاعلها في معاشه ومعاده كنفع الإيمان والتوحيد؛ والعدل والبر والتصدق والإحسان ؛ والأمانة والعفة ، والشجاعة والحلم ، والصبر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وصلة الأرحام وبر الوالدين والإحسان إلى المماليك والجار وأداء الحقوق وإخلاص العمل لله والتوكل عليه والاستعانة به والرضا بمواقع القدر به. والتسليم لحكمه والانقياد لأمره ، وموالاة أوليائه ومعاداة أعدائه. وخشيته في الغيب والشهادة ؛ والتقوى إليه بأداء فرائضه واجتناب محارمه واحتساب الثواب عنده وتصديقه وتصديق رسله في كل ما أخبروا به ، وطاعته في كل ما أمروا به مما هو نفع وصلاح للعبد في دنياه وآخرته وفي ضد ذلك شقاوته ومضرته في دنياه وآخرته"٢.

التحذير من البدع:

من السمات السائدة في مؤلفات ابن تيمية- رحمه الله- إلحاحه الدائم على التحذير من البدع خاصة في ردوده على المخالفين لمنهج السلف لبعدهم عن التمسك بالكتاب والسنة، وتفضيل آراء الرجال عليها، ويقسم رحمه الله البدع إلى نوعين وهما: " والبدع نوعان : نوع في الأقوال والاعتقادات ونوع في الأفعال والعبادات . وهذا الثاني يتضمن الأول كما أن الأول يدعو إلى الثاني"٣ .

ثم يشرح ما يترتب على النوعين من مخالفات، فيقول:

---

١) مجموع الفتاوى ، ١٩/٩٩.

٢) المرجع السابق، ١٩/١٠٠.

٣) الاعتصام بالكتاب والسنة،لابن تيمية، ٩٦-٩٧. ومجموع الفتاوى، لابن تيمية، ٢٢/٣٠٧.

" فالمنتسبون إلى العلم والنظر وما يتبع ذلك، يخاف عليهم إذا لم يعتصموا بالكتاب والسنة من القسم الأول . والمنتسبون إلى العبادة والنظر والإرادة وما يتبع ذلك، يخاف عليهم إذا لم يعتصموا بالكتاب والسنة من القسم الثاني . وقد أمرنا الله أن نقول في كل صلاة : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾[الفاتحة:٦-٧] آمين . وصح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون) ١ قال سفيان بن عيينة : كانوا يقولون من فسد من العلماء ففيه شبه من اليهود ومن فسد من العباد ففيه شبه من النصارى وكان السلف يقولون : احذروا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل : فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون .فطالب العلم إن لم يقترن بطلبه فعل ما يجب عليه وترك ما يحرم عليه من الاعتصام بالكتاب والسنة وإلا وقع في الضلال" ٢.

ويبين أن السبيل إلى عدم الوقوع في الضلال أو غضب الله اقتران العلم بالعمل، فيقول:

" وأهل الإرادة إن لم يقترن بإرادتهم طلب العلم الواجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة، وإلا وقعوا في الضلال والبغي. ولو اعتصم رجل بالعلم الشرعي من غير عمل بالواجب كان غاويا. وإذا اعتصم بالعبادة الشرعية من غير علم بالواجب كان ضالا ؛ والضلال سمة النصارى والبغي سمة اليهود . مع أن كلا من الأمتين فيها الضلال والبغي ، ولهذا تجد من انحرف عن الشريعة في الأمر والنهي من أهل الإرادة والعبادة والسلوك والطريق ؛ ينتهون إلى الفناء الذي لا يميزون فيه بين المأمور والمحظور فيكونون فيه متبعين أهواءهم "٣.

وينقل — رحمه الله — اجماع السلف على أن أهل البدع شر من أهل المعاصي، ويبين أسباب ذلك فيقول: " إن أهل البدع شر من أهل المعاصي الشهوانية بالسنة والإجماع، فإن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بقتال الخوارج ، فعن علي بن أبي طالب قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: (سيخرج قوم في آخر الزمان حداث الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية لا

١) سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة فاتحة الكتاب، حديث رقم (٢٩٥٤). قال الألباني : صحيح .
٢) مجموع الفتاوى ، ٣٠٨/٢٢.
٣) المرجع السابق ، ٣٠٩/٢٢.

يجاوز إيمانهم حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم يوم القيامة).[1]

ونهى عن قتال أئمة الظلم ، فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي – صلى الله عليه وسلم – قال: (من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات... مات ميتة جاهلية) [2]، وقال في الذي يشرب الخمر : (لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله)[3] .

وقد قررت هذه القاعدة بالدلائل الكثيرة مما تقدم من القواعد، ثم إن أهل المعاصي ذنوبهم فعل بعض ما نهوا عنه : من سرقة أو زنا أو شرب خمر أو أكل مال بالباطل "[4].

الخلاصة

ومما سبق يبين شيخ الإسلام- رحمه الله- أن أصول أهل السنة والجماعة هو التمسك بكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن حاجة العباد لنور الرسالة في الدنيا أكثر من حاجتهم لنور الشمس، لأن فيها هدايتهم ليس إلى ما ينفعهم ويضرهم من أمور حسية، فالحيوانات تعرف ما يضرها وما ينفعها، ولكن لتحقيق كمال إنسانية الإنسان من محبة وتراحم بين العباد، وأن التمسك بالكتاب والسنة سبيل الفلاح في الدنيا والآخرة.

وحذر شيخ الإسلام- رحمه الله- من البدع بنوعيها، كما نقل الإجماع على أنها أشر من المعاصي الشهوانية لأنها تكذيب للرسالة.

---

١) أخرجه البخاري في كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم ، باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم ، برقم (٦٩٣٠)، وصحيح مسلم في كتاب الزكاة ، باب التحريض على قتل الخوارج ، برقم (١٠٦٦).

٢) سبق تخريجه ص ٣٤٣.

٣) انظر: صحيح البخاري، : كتاب الحدود ، باب مايكره من لعن شارب الخمر ، برقم (٦٣٩٨) .

٤) مجموع الفتاوى، ٢٠/١٠٤-١٠٥.

الخاتمة

الحمد لله الذي أتم علي نعمه، ووالى علي مننه، وأعانني فأكملت هذا البحث ، فالحمد له وحده. فإن وفقت فمن الله عز وجل، وإن أخفقت فمن نفسي والشيطان، واخيراً نرجوا أن يكون هذا البحث يفيد الكثير من طلبة العلم .

ويمكن تلخيص أهم نتائج البحث التي توصلت إليها من خلال البحث في النقاط التالية:

١-أن شيخ الإسلام- رحمه الله- لم يبتدع شيئا من عنده في باب العقيدة.

٢- اختار شيخ الإسلام- رحمه الله- المنهج الذي يعتمد على الثابت من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، إضافة إلى تقديمه نصوص الشرع على ما سواها حتى في المسائل التي خالف فيها من سبق.

٣- أغلب إن لم يكن كل القضايا التي أثارها ابن تيمية- رحمه الله- في مسائل العقيدة مبنية على نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية وآثار الصحابه وهذا هو منهج السلف الصالح . وكذلك ردوده على المخالفين من أصحاب المذاهب والعقائد المنحرفة الذين قدموا العقل على شرع الله، ومن ذلك رده على الجهمية وأقواله في الاستغاثة والتوسل وغيرها .وبيان منهج السلف الصالح في أبواب العقيدة والرد على المخالفين مثل كتابه "العقيدة الواسطية" ، "تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، والرد على البكري، ومنهاج السنة النبوية في الرد على الشيعة والقدرية، وغيرها.كذلك الرد على أهل الكتاب، ومنها كتاب: الصارم المسلول على شاتم الرسول، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

٤- إثبات المسألة من الكتاب والسنة، وما ورد من آثار الصحابة والتابعين، وترجيح القول السديد فيها، بناء على اتفاقه مع المعقول المفهوم الصحيح عند السلف .

٥- بما أن العقيدة هي أصل الدين ولها أثرها في الفروع فقد كان منهج ابن تيمبة في تقريرها مبنياً على كتاب الله وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – وما يرد عن السلف الصالح من فهم صحيح وقول سديد مبنياً على نصوص الشرع.

٦-مما يميز منهج شيخ الإسلام في الاعتماد على نصوص الشرع والمفهوم الصحيح عند السلف الصالح أنه في عصره موقف عن التجديد بما يناسب عصره وما بعد عصره.

٧- اعتماد ابن تيمية – رحمه الله- على الكتاب والسنة والآثار المروية عن السلف الصالح بين لنا ثبات مناقبه وعدم اضطرابه في جميع مؤلفاته، فكانت أقواله أقرب إلى الصواب وأبعد عن الخطأ.

٨-اعتماد شيخ الإسلام- رحمه الله- على الكتاب والسنة والآثار المروية عن السلف الصالح في مسائل الإعتقاد بين لنا اتفاق السلف الصالح على منهج صحيح في تقرير مسائل الإعتقاد ، وأن الخلاف بينهم صوري أو لفظي ، وأن ذلك اتفاق في أصول المسائل وحقيقة المفهوم الصحيح للنصوص ، وقد صنف لذلك مؤلفا خاصا مثل "رفع الملام عن الأئمة الأعلام"، وأكد وحدة المنهج الذي اعتمد عليه السلف الصالح وبين أنه ليس هناك ما يقتضي تعارض بين أقوالهم ، ومن ذلك احتجاجه لبعض المسائل التي بينها في حقيقة الإيمان عند أبي حنيفة- رحمه الله- والتي كان يحتج لمن يمكن أن يفهم من أقواله منهم أن هناك ما يخالف غيره من السلف الصالح بأن الخلاف لفظي أو أن النص لم يصل إليه.

٩- اعتماد شيخ الإسلام- رحمه الله- على ما ورد عن السلف الصالح يدل على وضوح منهجه وسلاسة أسلوبه وشموليته، التي جعلته يسبق أهل عصره وأدت إلى أن الرجوع إلى منهجه ضرورة في حل مشكلاتنا المعاصرة التي تتشابه إلى حد كبير مع ظروف العصر الذي عاش فيه الشيخ- رحمه الله-

١٠- اعتماد شيخ الإسلام -رحمه الله - على ما ورد عن السلف الصالح يؤكد على أن الاستدلال في مسائل الاعتقاد لا بد أن يكون توقيفيا، خاصة في الغيبيات والأسماء والصفات.

١١- المنهج الذي سار عليه ابن تيمية في الإعتماد على ما أعتمد عليه السلف الصالح وورد عنهم من المفهوم الصحيح يدلنا على ضرورة الاعتصام بالكتاب والسنة باعتبار أن نور الرسالة هو أصل العلم والإيمان.

١٢-اعتماد ابن تيمية على ما ورد في السنة وعن السلف الصالح وإن كان من الآحاد الصحيحة في باب الاعتقاد، بين أن هذا هو منهج السلف الصالح – رسول الله وصحابته الكرام والتابعين وتابعيهم إلى يوم الدين- .

١٣- الإعتماد على ما ورد عن السلف الصالح يوضح أنه لا يمكن أن يكون هناك تعارض بين النصوص الشرعية و العقل الصحيح، باعتبار أنه ليس هناك تفسير ظاهري وباطني لنصوص الكتاب والسنة وأن النص الصحيح لا يمكن أن يعارض العقل السليم بل يشهد له ويؤيده.

١٤- لم يخالف ابن تيمية شيئا من الإجماع في مسألة من مسائل العقيدة ويرى دائما أن الحق يدور مع الكتاب والسنة كما هو منهج الصحابة والتابعين وتابعي التابعين ومن تبعهم بإحسان.

١٥- اعتمادة على ما ورد في الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة الصحيح يدل على سلاسة أسلوبة وسهولة عرضه. خاصة للمسائل الدقيقة التي يفصلها ويشرحها ويبين جميع الأوجه التي وردت فيها، بحيث يُفهم القاريء ولا يتركه إلا والمسألة واضحة في ذهنه، بترتيب منطقي يقطع الطريق أمام الشكوك والشبهات.

١٦- اعتماده على كتاب الله وسنة الرسول – صلى الله عليه وسلم – وما ورد عن السلف الصالح أعطاه موسوعية علمية أصيلة ، ويدل على ذلك كثرة المصطلحات خاصة المتعلقة بأبواب العقيدة والفرق الإسلامية التي يمكن يُستخلص منها ما يمكن أن يشبه الموسوعة العقدية في المصطلحات والفرق وعقائدها وكيف خالفت أهل السنة والردود عليها.

وختاما.. أحمد الله حمدا كثيرا على ما يسره لي من معايشة لتراث شيخ الإسلام وما تذوقته طوال فترة البحث من لذة القرب من نور النبوة في منهج السلف، وعلى توفيقه وسداده لما انتهيت إليه، وأسأل الله تعالى أن ينفع به كل من طالعه، ويجعله سببا في هداية حائر، أو إرشاد من بعدت به السبل عن صراط الله المستقيم، وأصلي وأسلم على نبينا صلى الله عليه وسلم، وأصحابه وأهل بيته الطاهرين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس الآيات القرآنية

النساء

المائدة

الأنعام

الأعراف

فهرس الأحاديث والآثار

فهرس الأحاديث والآثار

فهرس الأشعار

فهرس الأشعار

الأبيات	رقم الصفحة
ألا لمثلك أو من أنت سابقه.... سبق الجواد إذا استولى على الأمد	١٨٧
والفَقْرُ لِي وَصْفُ ذَاتٍ لاَزِمٌ أبَداً كَمَا أَنَّ الغِنى أَبداً وَصْفٌ لَهُ ذَاتِي.	١٧٨

فهرس المصطلحات

فهرس المصطلحات

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام

فهرس المصادر المراجع

- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة ، اسم المؤلف: ابن بطة العكبري، دار النشر: دار الراية- الرياض- ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م، تحقيق: رضا بن نعسان معطي
- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، اسم المؤلف: الحافظ محمد مرتضى الزبيدي، دار النشر: مؤسسة التاريخ العربي- بيروت- ١٤١٤هـ- ١٩٩٤م.
- الآثار الوارد عن السلف في العقيدة من خلال المسائل المروية عن الإمام أحمد، جمعا وتخريجا ودراسة، اسم المؤلف: أسعد فتحي الزعتري، دار النشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع- الرياض- ٢٠١٠م
- الآثار الواردة عن أئمة السلف في أبواب الاعتقاد من كتاب سير أعلام النبلاء، اسم المؤلف: جمال ابن أحمد ابن بشير بادي، دار النشر: دار الوطن الرياض - ١٤١٦هـ.
- الإحكام في أصول الأحكام، اسم المؤلف: علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي أبو محمد، دار النشر: دار الآفاق الجديدة – بيروت- ١٤٠٣ – ١٩٨٣م.
- الإخلاص والنية، اسم المؤلف، عبد الله محمد عبيد البغدادي أبو بكر ابن أبي الدنيا، دار النشر: دار البشائر- بيروت- ١٩٩٦م
- الآداب الشرعية، اسم المؤلف: عبد الله محمد بن مفلح المقدسي، دار النشر: مؤسسة الرسالة- بيروت- هـ١٤١٩ – ١٩٩٩م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط- عمر القيام
- الأدب العربي، جماليات وإبداع وتميز على مر العصور، اسم المؤلف: عيسى ابراهيم السعدي، دار النشر: دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع- عمان- ٢٠١٣م.
- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، المؤلف: محمد بن علي الشوكاني، دار النشر: دار الفضيلة للنشر والتوزيع- القاهرة- ١٤٢١هـ – ٢٠٠٠م
- الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار وعلماء الأقطار فيما تضمنه الموطأ من معاني الرأي والآثار وشرح ذلك كله بالإيجاز والإختصار، اسم المؤلف: ابن عبد البر، دار النشر: دار قتيبة - دار الوعي- دمشق- ١٤١٤هـ ١٩٩٣م، تحقيق: المعطي أمين قلعجي.
- الاستغاثة والرد علي البكري، اسم المؤلف: شيخ الإسلام ابن تيمية، دار النشر: دار المنهاج للنشر والتوزيع – الرياض- ١٤٢٦ هـ، تحقيق: عبد الله بن دجين السهيلي.

- اسم الله الأعظم، اسم المؤلف: عبدالله بن عمر الدميجي، دار النشر: دار الوطن العربي للنشر والتوزيع- الرياض- ١٤١٩ هـ.
- الأسماء والصفات، اسم المؤلف: أبو بكر البيهقي، دار النشر: مكتبة السوادي- جدة- ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م، تحقيق: عبد الله بن محمد الحاشدي.
- الأسماء والصفات، اسم المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، دار النشر: دار الكتب العلمية- بيروت- هـ١٤١٨ — ١٩٩٨م، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.
- الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الواسطية، اسم المؤلف: محمد عبدالعزيز السلمان، دار النشر: لا يوجد، ١٣٩٩هـ- ١٩٧٩م.
- الإصابة في تمييز الصحابة، اسم المؤلف: ابن حجر العسقلاني، درا النشر: دار الكتب العلمية — بيروت- ١٤١٥ هـ، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض.
- أصول الحديث وأحكامه في علم الدراية، اسم المؤلف: جعفر السبحاني، دار النشر: دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- ٢٠٠٤م
- أصول الدين، اسم المؤلف: بي منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي، دار النشر: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠١هـ ، ١٩٨١م.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، اسم المؤلف: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دار النشر: دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع بيروت — لبنان- ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ مـ.
- إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، اسم المؤلف: صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، دار النشر: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م.
- الاعتصام بالكتاب والسنة، اسم المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية ، دار النشر: دار الفتوح الإسلامية-القاهرة- ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م: جمع: عبدالسلام بن محمد بن عبدالكريم
- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، اسم المؤلف: أبو بكر البيهقي، دار النشر: دار الآفاق الجديدة — بيروت- ١٤٠١هـ، تحقيق: أحمد عصام الكاتب.

- الأعلام العلية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، اسم المؤلف: عمر بن علي البزار أبو حفص، دار النشر: دار الكتاب الجديد- القاهرة - هـ١٣٩٦ - ١٩٧٦م.
- أعلام الموقعين عن رب العالمين، اسم المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت- ١٤١١هـ - ١٩٩١م، تحقيق: محمد عبدالسلام.
- إكمال المعلم بفوائد مسلم، اسم المؤلف: القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، دار النشر: دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة- ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، تحقيق: يحيى إسماعيل.
- إلجام العوام عن علم الكلام رسالة في مذهب أهل السلف: اسم المؤلف: أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، دار النشر: دار الكتب العلمية- بيروت- ٢٠١٥م، تحقيق: مشهد العلاف.
- الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة، اسم المؤلف: عبدالله بن عمر بن سليمان الدميجي، دار النشر: دار طيبة للنشر والتوزيع- الرياض- ١٤٠٨هـ.
- الانتصار لاهل الحديث، اسم المؤلف: أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني، دار النشر: مكتبة أضواء المنار - الرياض- ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، تحقيق: محمد بن حسين بن حسن الجيزاني.
- إيقاظ همم الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار، اسم المؤلف: بن محمد بن نوح بن عبد الله العَمْري المعروف بالفُلّاني المالكي، دار النشر: دار دار الفتح- الشارقة- ١٤١٨هـ، تحقيق: أبو عماد السخاوي.
- الإيمان باليوم الآخر، اسم المؤلف: محمد إبراهيم الحمد، دار النشر: دار ابن خزيمة- الرياض- ١٤٢٢هـ.
- الإيمان حقيقته، خوارمه ونواقضه عند أهل السنة، اسم المؤلف: عبدالله بن عبدالحميد الأثري، دار النشر: مدار الوطن للنشر- الرياض- ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.
- الإيمان، الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام، للراجحي.

- الإيمان، ومعالمه، وسننه، واستكماله، ودرجاته، اسم المؤلف القاسم ابو عبيد الله القاسم ابن سلام، دار النشر: دار المعارف للنشر والتوزيع-الرياض- ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.
- الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، اسم المؤلف: الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، دار النشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع- الرياض- ٢٠١٥م، تحقيق: أحمد شاكر.
- البداية والنهاية، اسم المؤلف: اسم المؤلف: الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، دار النشر: مكتبة المعارف- بيروت- هـ١٤١٠ – ١٩٩٠م.
- بدائع الفوائد، اسم المؤلف: ابن القيم الجوزية، دار النشر: مجمع الفقه الإسلامي – جدة- ١٤٢٥ هـ، تحقيق: علي بن محمد العمران.
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، اسم المؤلف: محمد بن يعقوب الفيروزآبادي مجد الدين، دار النشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- مصر- ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦ م، تحقيق محمد علي النجار - عبد العليم الطحاوي.
- بغية المرتاد في الرد على المتفلسفة والقرامطة والباطنية، اسم المؤلف: تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ، دار النشر: مكتبة العلوم والحكم للنشر والتوزيع- المدينة المنورة- ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١م، تحقيق: موسى بن سليمان الدويش.
- بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، اسم المؤلف: تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ، دار النشر: وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد السعودية - مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- ١٤٢٦هـ.
- بيان فضل علم السلف على علم الخلف، اسم المؤلف: ابن رجب الحنبلي، دار النشر: دار الصميعي- الرياض- ١٤٠٦، تحقيق: محمد بن ناصر العجمي
- تاج العروس من جواهر القاموس،اسم المؤلف: محمد بن محمد بن عبد الرزاق المرتضى الزبيدي، دار النشر: دار الفكر – بيروت- ١٤١٤ هـ.
- تاج اللغة وصحاح العربية، للجوهري

- تأويل مختلف الحديث، اسم المؤلف: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، دار النشر: المكتب الاسلامي - مؤسسة الإشراق- بيروت- ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.
- التبصير في معالم الدين، اسم المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري، دار النشر: دار العاصمة للنشر والتوزيع- الرياض- ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م، تحقيق: علي بن عبد العزيز بن علي الشبل.
- التبيان في علوم القرآن، اسم المؤلف: محمد علي الصابوني، دار النشر: عالم الكتب للطباعة والنشر- الرياض-١٩٨٥م.
- تجريد التوحيد المفيد، اسم المؤلف: أحمد بن علي المقريزي المصري الشافعي، دار النشر: دار الصميعي للنشر والتوزيع- دار النشر: الجامعة الإسلامية- المدينة المنورة- ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م، تحقيق: طه محمد الزيني.
- التحرير والتنوير، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، اسم المؤلف: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، دار النشر: الدار التونسية للنشر – تونس- ١٩٨٤ هـ
- التحف في مذاهب السلف ، اسم المؤلف: محمد بن علي الشوكاني، دار النشر: مطبعة المدني بجدة، (بدون رقم الطبعة وتاريخها).
- التحفة العراقية في الأعمال القلبية، اسم المؤلف: تقي الدين أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية، دار النشر: مكتبة الرشد- الرياض- ١٤٢١ هـ – ٢٠٠٠م.
- التحفة المهدية شرح العقيدة التدمرية، اسم المؤلف: فالح بن مهدي بن سعد بن مبارك آل مهدي الدوسري، دار النشر: مطابع الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة- ١٤١٣هـ.
- تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، اسم المؤلف: جلال الدين السيوطي، دار النشر: مكتبة الكوثر- الرياض- ١٤١٥هـ، تحقيق: نظر محمد الفاريابي.
- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، اسم المؤلف: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، دار النشر: دار المنهاج للنشر والتوزيع- الرياض- ١٤٢٥ هـ، تحقيق: الصادق بن محمد بن إبراهيم.

- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، اسم المؤلف: القاضي عياض، دار النشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب- هـ١٤٠٣ – ١٩٨٣م.
- تسلية أهل المصائب،اسم المؤلف: شمس الدين المنبجي، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت - ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م.
- التعريفات، اسم المؤلف: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني، دار النشر: دار الكتب العلمية- بيروت - ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.
- تعظيم قدر الصلاة، اسم المؤلف: محمد بن نصر المروزي، دار النشر:مكتبة الدار- المدينة المنورة- ١٤٠٦ – ١٩٨٦، تحقيق: عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي.
- تفسير الألوسي= روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، اسم المؤلف: شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي ، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت- ١٤١٥ هـ، تحقيق: علي عبد الباري عطية.
- تفسير القرآن العظيم (تفسير ابن كثير)، اسم المؤلف: إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الدمشقي، دار النشر: دار طيبة- الرياض- ١٤٢٠ هـ- ١٩٩٩م، تحقيق: سامي بن محمد السلامة.
- التقييد والإيضاح لما أطلق وأغلق من مقدمة ابن الصلاح، اسم المؤلف: عبد الرحيم بن الحسين العراقي زين الدين ، دار النشر: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠هـ- ١٩٩٩م.
- تلبيس إبليس، اسم المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار النشر: بيروت- ١٤٢١هـ- ٢٠٠١م
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، اسم المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي ، دار النشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب- ١٣٨٧هـ ، تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ، محمد عبد الكبير البكري.
- التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل، اسم المؤلف: أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري ، دار النشر: مكتبة الرشد – الرياض- ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، تحقيق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان.

- التوقيف على مهمات التعاريف، اسم المؤلف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي دار النشر: عالم الكتب- القاهرة- ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان = تفسير السعدي، اسم المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر السعدي، دار النشر: مكتبة دار السلام للنشر والتوزيع – الرياض- ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢م، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق.
- جامع الأصول، ابن الأثير جامع الأصول في أحاديث الرسول ، اسم المؤلف: ابن الأثير الجزري، دار النشر: مكتبة الحلواني - مطبعة الملاح - مكتبة دار البيان- بيروت- ١٣٨٩هـ – ١٩٦٩م، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط.
- جامع الرسائل، اسم المؤلف: ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، دار النشر: دار المدني- جدة- ١٤٠٥م – ١٩٨٤هـ، تحقيق: محمد رشاد سالم.
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، اسم المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي ، دار النشر: مؤسسة الرسالة – بيروت- ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - إبراهيم باجس.
- جامع بيان العلم وفضله، اسم المؤلف: أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، دار النشر: دار ابن الجوزي- الرياض- ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري.
- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، اسم المؤلف: أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، دار الكتب المصرية – القاهرة- ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤ م، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش.
- الجامع لأحكام القرآن= تفسير القرطبي) اسم المؤلف: محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي أبو عبد الله، دار النشر: مؤسسة الرسالة- ١٤٢٧ م- ٢٠٠٦هـ، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي.

- الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي ، اسم المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن السَلامي البغدادي، ثم الدمشقي الحنبلي، دار النشر: دار العاصمة- الرياض- هـ١٤٢٢ - ٢٠٠١ م، جمع وترتيب: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد.
- الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، اسم المؤلف: محمد عزيز بن شمس وعلي بن محمد العمران، دار النشر: دار عالم الفوائد- مكة المكرمة- ١٤٢٢ هـ.
- الجرح والتعديل، اسم المؤلف: عبد الرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي ، دار النشر: دائرة المعارف العثمانية- ١٣٧١م — ١٩٥٢هـ، تحقيق: عبد الرحمن بن يحي المعلمي اليماني.
- حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، اسم المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية أبو عبد الله، دار النشر: مجمع الفقه الإسلامي - جدة- ١٤٢٨ هـ، تحقيق: زائد بن أحمد النشيري.
- حاشية الطحطاوي على مراقي الفلاح شرح نور الإيضاح، اسم المؤلف: أحمد بن محمد بن إسماعيل الطحطاوي الحنفي ، دار النشر: دار الكتب العلمية بيروت — لبنان- ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، تحقيق: محمد عبد العزيز الخالدي.
- حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني، حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، اسم المؤلف: أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن موسى بن مهران الأصبهاني، دار النشر: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٩هـ.
- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، اسم المؤلف: عبد القادر بن عمر البغدادي ، دار النشر: مكتبة الخانجي- القاهرة- ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون.
- درء تعارض العقل والنقل، اسم المؤلف: ابن تيمية أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني أبو العباس، دار النشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- ١٤١١ هـ — ١٩٩١م، تحقيق: محمد رشاد سالم.

- الدرة العثيمينية بشرح فتح رب البرية بتلخيص الحموية ، اسم المؤلف: محمد بن صالح العثيمين، دار النشر: مكتبة الإمام الذهبي- الكويت- ١٤٢٧هـ.
- دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية عرض ونقد، اسم المؤلف: عبد الله بن صالح بن عبد العزيز الغصن، دار النشر: دار ابن الجوزي- الرياض-١٤٢٤ هـ.
- دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، اسم المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، دار النشر: مؤسسة علوم القرآن، دمشق- ١٤٠٤ هـ — ١٩٨٤م، تحقيق: محمد السيد الجليند.
- ديوان حسان بن ثابت، اسم المؤلف: حسان بن ثابت، دار النشر: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤١٤ هـ- ١٩٩٤م.
- ديوان زهير بن أبي سلمى، اسم المؤلف: زهير بن أبي سلمى، دار النشر: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٨ — ١٩٨٨، تحقيق: علي حسن فاعور.
- ديوان طفيل الغنوي شرح الأصمعي، اسم المؤلف: طفيل الغنوي، دار النشر: دار صادر- بيروت- ١٩٩٧م، تحقيق: حسان فلاح أوغلي.
- الرد على الزنادقة والجهمية، اسم المؤلف: الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، دار النشر: غراس- الكويت- ١٤٢٦هـ.
- الرد على من قال بفناء الجنة والنار وبيان الأقوال في ذلك، ابن تيمية، اسم المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني، دار النشر: دار بلنسية للنشر والتوزيع- الرياض- ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥ م، تحقيق محمد بن عبد الله السمهري.
- رسالة إلى أهل الثغر اسم المؤلف: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري ، دار النشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية- المدينة المنورة- ١٤١٣هـ، تحقيق: عبد الله شاكر محمد الجنيدي.
- الرعاية لحقوق الله، اسم المؤلف: الحارث بن أسد المحاسبي أبو عبد الله، دار النشر: دار الكتب العلمية- بيروت- بدون سنة نشر، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا.

- رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله وتحقيق معنى التوحيد والشرك بالله، اسم المؤلف: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، دار النشر: المكتبة العصرية صيدا - بيروت ١٤٢٣ هـ، تحقيق: الداني بن منير آل زهوي.
- روضة الطالبين وعمدة المفتين، اسم المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي ، دارالنشر: المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق- عمان- ١٤١٢هـ - ١٩٩١م، تحقيق: زهير الشاويش.
- الزواجر عن اقتراف الكبائر، اسم المؤلف: ابن حجر الهيتمي، دار النشر: دار الحديث- القاهرة- ٢٠٠٤م، مجموعة محققين.
- السنة ، اسم المؤلف: أبو بكر بن أحمد بن هارون بن يزيد الخلال، دار النشر: دار الراية للنشر والتوزيع- الرياض- ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م، دراسة وتحقيق، عطية الزهراني.
- السنة ، اسم المؤلف: أحمد بن حنبل - عبد الله بن أحمد بن حنبل، دار النشر: المكتبة السلفية- مكة المكرمة- ١٣٤٩ هـ، تحقيق: عبد الله بن حسن بن حسين آل الشيخ.
- السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، اسم المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي ، دار النشر: وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية- ١٤١٨هـ.
- شأن الدعاء، اسم المؤلف: حمد محمد الخطابي أبو سليمان، دار النشر: دار الثقافة العربية- القاهرة- ١٤١٢ هـ- ١٩٩٢م، تحقيق: أحمد يوسف الدقاق.
- شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، اسم المؤلف: ابن عقيل، عبد الله بن عبد الرحمن العقيلي الهمداني المصري، دار التراث - القاهرة، دار مصر للطباعة، سعيد جودة السحار وشركاه- القاهرة، ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.
- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، اسم المؤلف: القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي، دار النشر: دار طيبة — السعودية- ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي.

- شرح الأصول الخمسة، اسم المؤلف: القاضي عبدالجبار ، دار النشر: مكتبة وهبة- بالقاهرة- ١٩٩٦م، تحقيق عبد الكريم عثمان.
- شرح الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية= العقيدة السفارينية، اسم المؤلف: شمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي ، دار النشر: مكتبة أضواء السلف – الرياض- ١٩٩٨م، تحقيق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود.
- شرح السنة للبغوي، اسم المؤلف: أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي ، دار النشر: المكتب الإسلامي - دمشق، بيروت- ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م تحقيق: شعيب الأرنؤوط- محمد زهير الشاويش.
- شرح السنة، للبربهاري، اسم المؤلف: الحسن بن علي بن خلف البربهاري، دار النشر: مكتبة الغرباء الأثرية- المدينة المنورة- ١٤١٤ – ١٩٩٣، تحقيق: خالد بن قاسم الردادي أبو ياسر.
- شرح السندي للنسائي، اسم المؤلف: محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي ، دار النشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب- ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦م.
- شرح العقيدة الأصفهانية، اسم المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي ، دار النشر: المكتبة العصرية - بيروت - ١٤٢٥هـ، تحقيق: محمد بن رياض الأحمد.
- شرح العقيدة الطحاوية، اسم المؤلف: ابن أبي العز الحنفي، دار النشر: مؤسسة الرسالة- بيروت: ١٤١١ هـ - ١٩٩٠م، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي - شعيب الأرناؤوط
- شرح الكوكب المنير، اسم المؤلف: تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوحي المعروف بابن النجار الحنبلي، دار النشر: مكتبة العبيكان- الرياض- ١٤١٨هـ - ١٩٩٧ مـ، تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد.
- شرح حديث جبريل، المعروف باسم الإيمان الأوسط، اسم المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، دار النشر: دار ابن الجوزي-الرياض- ١٤٢٠هـ، تحقيق: علي بخيت الزهراني.

- شرح رسالة العبادة، اسم المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، دار النشر: دار الفضيلة- الرياض- ١٤١٩ هـ- ١٩٩٨م ، شرح: عبدالعزيز بن عبدالله الراجحي.
- شرح رياض الصالحين، اسم المؤلف: المؤلف: محمد بن صالح العثيمين، دار النشر: مدار الوطن للنشر- الرياض- ١٤٢٦هـ.
- الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة، المسمى بالإبانة الصغرى، اسم المؤلف: أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي، دار النشر: مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة- ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٢م، تحقيق: رضا بن نعسان معطي
- الشرك في القديم والحديث، اسم المؤلف: المؤلف: أبو بكر محمد زكريا، دار النشر: دار الرشد- الرياض- ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠١م.
- الشريعة، اسم المؤلف: أبو بكر محمد بن الحسين الآجري، دار النشر: دار الوطن- الرياض- ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م ، تحقيق: عبدالله بن عمر بن سليمان الدميجي.
- شعب الإيمان، اسم المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، دار النشر: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع- الرياض - ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م- عبد العلي عبد الحميد حامد.
- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، اسم المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية ، دار النشر: دار المعرفة- بيروت- ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
- الصارم المسلول على شاتم الرسول، اسم المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني أبو العباس تقي الدين، دار النشر: الحرس الوطني السعودي- ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣م، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، دار النشر: دار العلم للملايين – بيروت- ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار.
- الصفدية، اسم المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني أبو العباس تقي الدين، دار النشر: (بدون ناشر)- ١٤٠٦هـ، تحقيق: محمد رشاد سالم.

- العباب الزاخر، اسم المؤلف: الحسن بن محمد الصغاني، دار النشر: المجمع العلمي العراقي - بغداد - ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨م، تحقيق: محمد حسن آل ياسين.
- عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، اسم المؤلف: محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية أبو عبد الله، دار النشر: مجمع الفقه الإسلامي- جدة- : ١٤٢٩هـ، تحقيق: إسماعيل بن غازي مرحبا
- العزلة، اسم المؤلف: حمد بن محمد الخطابي البستي أبو سليمان، دار النشر: دار ابن كثير- دمشق- بيروت- ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م، تحقيق: ياسين محمد السواس.
- العقيدة الإسلامية بين السلفية والمعتزلة، اسم المؤلف محمود أحمد خفاجي ، دار النشر: جامعة الملك عبد العزيز- مكة المكرمة- ١٩٧٩م.
- عقيدة السلف وأصحاب الحديث= الرسالة في إعتقاد أهل السنة وأصحاب الحديث والأئمة ، المؤلف: إسماعيل بن عبد الرحمن الصابوني أبو عثمان، دار النشر: دار العاصمة- الرياض- ١٤١٩ هـ- ١٩٩٨م، تحقيق: ناصر بن عبد الرحمن بن محمد الجديع.
- عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية، اسم المؤلف: الشيخ الدكتور صالح بن عبدالله بن عبدالرحمن العبود، رسالة دكتوراه، المجلس العلمي في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - ١٤٠٨ هـ.
- العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها، اسم المؤلف: شمس الدين الذهبي، دار النشر: أضواء السلف- ١٤١٦ هـ- ١٩٩٥م، تحقيق: أشرف بن عبد المقصود.
- غياث الأمم، اسم المؤلف: عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، الملقب بإمام الحرمين، دار النشر: مكتبة إمام الحرمين- ١٤٠١هـ، تحقيق: عبد العظيم الديب
- فتح القدير، اسم المؤلف: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني ، دار النشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق- بيروت- ١٤١٤ هـ.
- فتح المغيث شرح ألفية الحديث، اسم المؤلف: محمد بن عبد الرحمن السخاوي شمس الدين، دار النشر: دار المناهج- الرياض- ١٤٢٦هـ، تحقيق: عبد الكريم بن عبد الله بن عبد الرحمن الخضير – محمد بن عبد الله بن فهيد آل فهيد.

- فتح رب البرية بتخليص الحموية، اسم المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني أبو العباس تقي الدين، دار النشر: دار ابن الجوزي- مؤسسة ابن عثيمين الخيرية- مكة المكرمة، تلخيص: محمد بن صالح بن محمد العثيمين.
- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، اسم المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، دار النشر: مكتبة دار البيان، دمشق- ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م، حققه وخرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط.
- الفروع، ابن مفلح الفروع ومعه تصحيح الفروع لعلاء الدين علي بن سليمان المرداوي، اسم المؤلف: محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الراميني ثم الصالحي الحنبلي ، دار النشر: مؤسسة الرسالة- ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي.
- الفصل في الملل والأهواء والنحل، اسم المؤلف: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، دار النشر: مكتبة الخانجي - القاهرة – ١٣٤٨هـ.
- فضائل الصحابة للإمام أحمد، اسم المؤلف: أحمد بن حنبل، الناشر: جامعة أم القرى-مكة المكرمة- ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، تحقيق: وصي الله بن محمد عباس.
- الفقه علي المذاهب الأربعة، اسم المؤلف: عبد الرحمن بن محمد عوض الجزيري ، دار النشر: دار الكتب العلمية، بيروت - ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م.
- فنون الأفنان في عيون علوم القرآن، اسم المؤلف: عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي أبو الفرج، دار النشر: دار البشائر الإسلامية- بيروت- ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧م، تحقيق: حسن ضياء الدين عتر.
- فيض الباري على صحيح البخاري، اسم المؤلف: محمد أنور شاه بن معظم شاه الكشميري الهندي ثم الديوبندي ، دار النشر: دار الكتب العلمية بيروت - ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م، تحقيق: محمد بدر عالم الميرتهي.

- قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، اسم المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ، الناشر: رئاسة إدارة البحوث العلمية والإفتاء- الرياض- ١٤٢٠ – ١٩٩٩، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط.
- قاعدة في المحبة، اسم المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني، در النشر: مكتبة التراث الإسلامي- القاهرة- ١٩٨٧م- تحقيق: محمد رشاد سالم.
- القبور، اسم المؤلف: عبد الله محمد عبيد البغدادي أبو بكر ابن أبي الدنيا، دار النشر: مكتبة الغرباء الأثرية-المدينة المنورة- ١٤٢٠ هـ- ٢٠٠٠م، تحقيق: طارق محمد سكلوع العمودي.
- القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، اسم المؤلف: محمد بن صالح العثيمين، دار النشر: مكتبة السنة- القاهرة- ١٤١٤ - ١٩٩٤ تحقيق: أشرف بن عبد المقصود.
- القيامة الكبرى، اسم المؤلف: عمر سليمان الأشقر، دار النشر: دار النفائس- الرياض- ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م.
- الكافية الشافية، اسم المؤلف: أحمد بن إبراهيم بن حمد بن محمد بن حمد بن عبد الله بن عيسى، دار النشر: المكتب الإسلامي – بيروت- ١٤٠٦هـ، تحقيق: زهير الشاويش
- كتاب الإيمان، اسم المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، دار النشر: المكتب الإسلامي- عمان- ١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.
- كتاب: الحياة الآخرة.. ما بين البعث إلى دخول الجنة أو النار، اسم المؤلف: غالب عواجي، دار النشر: المكتبة العصرية الذهبية- جدة- هـ١٤٢١ – ٢٠٠٠م.
- كرامات الأولياء من شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة، اسم المؤلف: أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي اللالكائي ، دار النشر: دار طيبة – الرياض- ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي.
- الكفاية في علم الرواية، اسم المؤلف: أحمد علي ثابت الخطيب البغدادي أبو بكر، دار النشر: المكتبة العلمية – المدينة المنورة، تحقيق: أبو عبدالله السورقي ، إبراهيم حمدي المدني.

- لسان العرب لابن منظور، اسم المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى ، دار النشر: دار صادر – بيروت- ١٤١٤ هـ.
- لمعة الاعتقاد ، اسم المؤلف: أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي ، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية- ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، اسم المؤلف: محمد بن أحمد السفاريني الأثري الحنبلي دار النشر: مؤسسة الخافقين – دمشق- ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
- لوامع البينات شرح أسماء الله تعالى والصفات، اسم المؤلف: فخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي، دار النشر: مطبعة الحلبي- القاهرة- ١٣٢٣هـ.
- مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الحركات الإسلامية المعاصرة منها، اسم المؤلف: ناصر عبدالكريم العقل، دار النشر: دار الوطن للنشر- الرياض- ١٤١٢هـ.
- مجموع الفتاوى، اسم المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد السعودية - مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- ١٤٢٥ هـ- ٢٠٠٤م.
- مجموع رسائل ابن رجب، اسم المؤلف: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي ، دار النشر: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر- القاهرة-١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م، تحقيق: أبو مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني.
- مجموع فتاوى الشيخ ابن باز، اسم المؤلف: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار النشر: دار القاسم للنشر- الرياض- ١٤٢٠ هـ تحقيق: محمد بن سعد الشويعر.
- مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد صالح العثيمين، المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار النشر: دار الوطن - دار الثريا- الرياض - ١٤١٣ هـ، جمع وترتيب: فهد بن ناصر بن إبراهيم السليمان.
- المجموع، شرح المهذب، اسم المؤلف: أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي ، دار النشر: بيت الأفكار الدولية- الرياض- ٢٠٠٥م.

- مجموعة الرسائل والمسائل، اسم المؤلف: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني ، الناشر: لجنة التراث العربي، علق عليه: السيد محمد رشيد رضا.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، اسم المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي ، دار النشر: دار الكتب العلمية- بيروت- هـ١٤٢٢ - ٢٠٠١م، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد.
- مختصر منهاج القاصدين، اسم المؤلف: أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي، دار النشر: دار البيان - مؤسسة علوم القرآن- دمشق - ١٩٧٨م، تحقيق: شعيب الأرناؤوط - عبد القادر الأرناؤوط
- مدارج السالكين، اسم المؤلف: ابن قيم الجوزية، دار النشر: دار الكتاب العربي- دمشق- القاهرة- ١٤٢٣ - ٢٠٠٣م، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي.
- المدونة الكبرى، اسم المؤلف: الإمام مالك بن أنس، دار النشر: دار صادر- بيروت- ١٤٢٥ هـ، جمع وتصنيف: عبد الرحمن بن القاسم العتقي.
- مسائل الاعتقاد عند الإمام القرطبي، اسم المؤلف: كمال الدين نور الدين مرجوني ، دار النشر: مؤسسة العلياء- القاهرة- ٢٠٠٦م.
- مسائل الإمام أحمد بن حنبل الفقهية رواية حرب بن إسماعيل الكرماني جمعا ودراسة، اسم المؤلف: المؤلف: حرب بن إسماعيل بن خلف الكرماني، الناشر: الجامعة الإسلامية — المدينة المنورة-١٤٣٠ هـ- ٢٠٠٩م، تحقيق: عبد الباري بن عواض الثبيتي.
- مسائل الإمام أحمد رواية أبي داود السجستاني، اسم المؤلف: أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، دار النشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة- ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م تحقيق: أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد.
- المسائل العقدية التي حكى فيها ابن تيمية الإجماع، المؤلفون: خالد بن مسعود الجعيد - ناصر بن حمدان الجهني - علي بن جابر العلياني، إشراف: عبدالله بن عمر بن محمد الدميجي، دار النشر: دار الهدي النبوي- القاهرة- دار الفضيلة- الرياض- ١٤٢٨هـ- ٢٠٠٧م.

- المستدرك على الصحيحين، اسم المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع، دار النشر: دار الكتب العلمية – بيروت- ١٤١١ - ١٩٩٠ ، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا.
- مشارق الأنوار على صحاح الآثار ، اسم المؤلف: القاضي عياض موسى عياض اليحصبي السبتي المالكي أبو الفضل، دار النشر: دار التراث- القاهرة- ١٣٣٣هـ.
- المصنف، اسم المؤلف: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، الناشر: المكتب الإسلامي - بيروت – ١٤٠٣هـ، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي.
- معارج القبول، اسم المؤلف: المؤلف: حافظ بن أحمد الحكمي، دار النشر: دار ابن القيم- القاهرة-١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر.
- معالم التنزيل= تفسير البغوي ، المؤلف: الحسين بن مسعود البغوي أبو محمد، دار النشر: دار طيبة- الرياض- ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م، تحقيق: محمد عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية – سليمان مسلم الحرش.
- المعتزلة وأصولهم الخمسة، وموقف أهل السنة منها، اسم المؤلف: عواد بن عبد الله المعتق، دار النشر: دار الرشد- الرياض- ١٤١٦ هـ- ١٩٩٥م.
- معجم العين، اسم المؤلف: الخليل بن أحمد الفراهيدي ، دار النشر: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م، تحقيق: عبد الحميد هنداوي.
- المعجم الوسيط ، تأليف: إبراهيم أنيس وآخرون،دار النشر: دار المعارف- القاهرة- ١٩٧٣م
- معجم مقاييس اللغة، اسم المؤلف: المؤلف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، دار النشر: دار الفكر- بيروت- ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م، تحقيق: عبد السلام محمد هارون
- المغني، اسم المؤلف: موفق الدين ابن قدامة، دار النشر: دار عالم الكتب- بيروت- ١٤١٧ هـ- ١٩٩٧م، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي - عبد الفتاح الحلو.
- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير (تفسير الرازي)، اسم المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري، دار النشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٤٢٠ هـ.

- المفردات في غريب القرآن، المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، دار النشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت - ١٤١٢ هـ، تحقيق: صفوان عدنان الداودي
- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، اسم المؤلف: أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي ، الناشرون: (دار ابن كثير، دمشق - بيروت)، (دار الكلم الطيب، دمشق - بيروت)- ١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م، تحقيق وتعليق وتقديم: محيي الدين ديب ميستو - أحمد محمد السيد - يوسف علي بديوي - محمود إبراهيم بزال
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، اسم المؤلف: أبو الحسن الأشعري، دار النشر: المكتبة العصرية- بيروت- ١٤١١ - ١٩٩٠، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد.
- مقدمة ابن خلدون، اسم المؤلف: عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ولي الدين، دار النشر: دار يعرب- دمشق- ١٤٢٥ هـ- ٢٠٠٤م، تحقيق: عبد الله محمد الدرويش.
- مناقب الشافعي ، اسم المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى البيهقي أبو بكر، دار النشر: دار التراث - القاهرة - ١٩٧٠م، تحقيق: السيد أحمد صقر.
- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، اسم المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني أبو العباس تقي الدين، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦م، تحقيق: محمد رشاد سالم.
- المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج = صحيح مسلم بشرح النووي، اسم المؤلف: يحيى بن شرف النووي محي الدين أبو زكريا، دار النشر: مؤسسة قرطبة- القاهرة، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
- المنهاج في شعب الإيمان ، اسم المؤلف: الحسين بن الحسن الحليمي أبو عبد الله، دار النشر: دار الفكر- بيروت- ١هـ٣٩٩ - ١٩٧٩م، تحقيق: حلمي محمد فودة.
- منهج ذوي النظر في شرح منظومة الأثر، اسم المؤلف: الحافظ جلال الدين السيوطي، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت- ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م.

- موافقة شيخ الإسلام ابن تيمية لسلف الأمة وأئمتها في تقرير القواعد المتعلقة بباب الأسماء والأحكام، اسم المؤلف أحمد محمد الصادق النجار، رسالة علمية مقدمة لنيل درجة الماجيستير، الجامعة الإسلامية – المدينة المنورة- ١٤٣٠هـ.
- المواقف في علم الكلام، اسم المؤلف : عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، دار النشر: دار الجيل – بيروت- ١٩٩٧م، تحقيق : د.عبد الرحمن عميرة.
- موعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين ، اسم المؤلف: محمد جمال الدين القاسمي، دار النشر: دار النفائس- الرياض- ١٤٠١ هـ- ١٩٨١م، تحقيق: عاصم بهجة البيطار.
- المؤلف: أبو الحسن، اسم المؤلف: علي بن أحمد بن مكرم الصعيدي العدوي ، دار النشر: دار الفكر – بيروت- ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، تحقيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي.
- النبوات، لابن تيمية، اسم المؤلف: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني ، الناشر: أضواء السلف- الرياض- ١٤٢٠ هـ- ٢٠٠٠م، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان.
- نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر في مصطلح أهل الأثر، اسم المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني ، دار النشر: مطبعة الصباح، دمشق-١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م، تحقيق: نور الدين عتر.
- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، اسم المؤلف: سامي النشار، دار النشر: دار المعارف- القاهرة- ٢٠٠٠م.
- نهاية الإقدام في علم الكلام، اسم المؤلف: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني ، دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت- ١٤٢٥ هـ، تحقيق: أحمد فريد المزيدي.
- النهاية في غريب الحديث والأثر، اسم المؤلف: المبارك بن محمد الجزري بن الاثير مجد الدين أبو السعادات، دار النشر: الحلبي- القاهرة- ١٣٨٣ هـ- ١٩٦٣م، تحقيق : طاهر احمد الزاوي - محمود محمد الطناحي.

- الوجيز في عقيدة السلف الصالح (أهل السنة والجماعة)، اسم المؤلف: عبد الله بن عبد الحميد الأثري، الناشر: وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - المملكة العربية السعودية- ١٤٢٢هـ، مراجعة وتقديم: صالح بن عبد العزيز آل الشيخ.